

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه



محمود صالح الضمور



www.dardjlah.com

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه

شعره: جمع وتحقيق

محمود صالح الضمور

الطبعة الأولى

2016



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2015 /4 /1410)

928.1

الضمور، محمود صالح

أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه / محمود صالح الضمور. - عمان: دار
دجلة للنشر والتوزيع، 2015.

(ص)

ر.أ: (2015/4/1410)

الواصفات: /الشعراء العرب// التراجم/

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.

2016

دار دجلة

ناشرون وموزعون



المملكة الأردنية الهاشمية

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص.ب: 712773 عمان 11171 - الأردن

E-mail: dardjlah@yahoo.com

www.dardjlah.com

ISBN: 9957-71-501-4

الآراء الموجودة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الناشرة

جميع الحقوق محفوظة للناسخ. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق

استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

All rights Reserved No Part of this book may be reproduced. Stored in aretrieval
system. Or transmitted in any form or by any means without prior written
permission of the publisher.

الفهرست

المقدمة 9

الفصل الأول: حياته

اسمه ولقبه.....	15
أصله ومولده ونشأته.....	15
أسفاره وصلاته في العراق.....	20
في بلاد الشام.....	23
في بخارى- علاقته بأبي علي البلعمي.....	26
علاقته بأبي نصر الميكالي وطاهر بن شار.....	29
في بلاط الصاحب بن عباد.....	34
علاقته بالبويهيين.....	41
علاقته بمحمد بن إبراهيم صاحب جيوش السامانيين.....	48
علاقته بالعتبي وحسام الدين أبي العباس تاش.....	50
أسباب الخلاف بينه وبين الصاحب بن عباد.....	56
مناظرة الخوارزمي والبديع.....	61
وفاته.....	78

الفصل الثاني: شخصيته

أخلاقه.....	85
الترفع والاعتداد بالنفس.....	85
وفاؤه.....	90
قلقه واضطرابه.....	93

94	مذهبه الديني ومعتقداته السياسية
109	نظرتة الاجتماعية
114	نظرتة إلى المرأة
118	ثقافته
123	مصادر ثقافته
128	تلاميذه
132	مؤلفاته

الفصل الثالث: شعره

159	مقدمة
160	شاعريته والعوامل المؤثرة فيها
174	أغراضه
175	المديح
183	الهجاء
187	الرثاء
193	الشكوى
198	الوصف
205	الغزل
210	الحكمة
213	الخصائص الفنية
213	المحاكاة والتقليد
220	المحسنات اللفظية والبديعة

الفصل الرابع: نثره

228	مقدمة - مكانته الأدبية
-----	-------	------------------------

230	أغراضه
232	العتاب
237	التهتة
239	التعزية والمواساة
249	الشكوى
251	النصح والتوجيه
252	الشفاعة
253	الرسائل الدينية
254	الخصائص الفنية
255	مقدمات الرسائل وخواتيمها
259	الالتزام بالسجع
262	المحسنات البديعية
264	التضمين والاستشهاد بالشعر
269	تضمين الرسائل بالأمثال والحكم
272	الاقتباس من القرآن الكريم
275	المبالغة
278	السخرية
284	لغة الرسائل
287	الخاتمة
291	ملحق: شعر الخوارزمي / جمع وتحقيق
397	المصادر والمراجع

المقدمة

عني كثير من الدراسات التاريخية الأدبية بتقسيم الأدب إلى عصور وأقاليم وتيارات. ولكل من هذه التقسيمات ميزات وخصائص لها قيمتها.

غير أن دراسة الأدب على هذا النحو - رغم أهميتها - لا تغنى عن دراسة الشخصيات الأدبية ذلك أن التعميم في الدراسات يجعل أمر التدقيق في الخصائص الفنية والأسلوبية، والتناجات الفكرية والأدبية للشخصيات الأدبية مسألة ثانوية، إذ أن الاهتمام يكون منصباً على التماس الظواهر والخصائص العامة التي تميز طائفة أو اتجاهات.

وتأتي أهمية دراسة الشخصيات الأدبية من المنطلقات الآتية:

1- أن الأدب نتاج اجتماعي يتأثر بالواقع الحضاري سلباً أو إيجاباً لكنه إلى ذلك شديد الارتباط بحياة الأديب، وظروفه النفسية والتربوية والاجتماعية. وهذا يعني أن دراسة الأدب، ومعرفة الاتجاهات والعوامل المؤثرة فيه لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار حياة الأديب وظروفه والعوامل المؤثرة في شخصيته واتجاهاته.

2- أن كتابة التاريخ الأدبي لأمتنا العربية، وبعث تراثها يقتضيان البحث في حياة أدبائنا وتقصي نتاجاتهم، ولم أشتاتها وتصحيح المعلومات التي لا تستند إلى أسس علمية صحيحة، ولا تخضع لأساليب البحث الأدبي، ولا شك أن هذا اللون من البحوث يشكل سندا للدراسات الأخرى التي اشرنا إليها.

وقد وجدت في أبي بكر الخوارزمي شخصية جديرة بالدراسة لم تلق من الاهتمام ما يوازي مكانتها الأدبية في النثر والشعر والتأليف. ومما شجعتني على دراسته أن أحداً لم يخصصه بدراسة منفصلة من قبل، وأن أغلب ما كتب عنه لا يعدو وأن يكون نتفا قصيرة مكرورة تتناول جوانب من حياته، وعلاقته بالصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمداني وشيئاً من أدبه، ولم يخرج عن ذلك إلا قليلاً ما كتبه الدكتور زكي

مبارك عن خصائص فنه النثرى في كتابه ألنثر الفني في القرن الرابع الهجري" وما كتبه
الآنسة هند حسين في رسالتها الجامعية الموسومة الأدب في إقليم خوارزم.

وقد أثرت أن لا أقدم لهذا البحث بدراسة الظروف السياسية والاجتماعية
والثقافية كما درجت على ذلك كثير من البحوث، فقد أغتني عنه الدراسات المطولة
المستوفية التي كتبت عن القرن الرابع ومنها كتاب آدم متز الحضارت الإسلامية في
القرن الرابع الهجري.

ثم أن الخوارزمي شخصية جواله لم تعرف الاستقرار، فقد طوف في بلاد فارس
والعراق والشام. وليس لنا أن ننسبه إلى بيئة معينة، وظروف سياسية واجتماعية محددة.
وهذا يعني أن شخصية الخوارزمي كانت وليدة الثقافة العربية الإسلامية بغير ما
حدود أو قيود.

لقد توصلت إلى قناعة بدراسة هذه الشخصية الأدبية، وزاد إصراري حين
عرفت أن بروكلمان يذكر له ديوان شعر مخطوطاً وأن له ديواناً قد طبع في القاهرة سنة
1903 في الوقت الذي كانت جميع المراجع الأخرى تنص على فقدان ديوانه.

وظفقت أبحث عن نسخة من الديوان المطبوع، ففتشت المكتبات العامة، وكثيراً
من المكتبات الخاصة في بغداد، وبقية مدن العراق. ثم بحثت في فهارس المطبوعات
وفهارس المكتبات العربية، فلم أجد له أثراً، وتوجهت إلى القاهرة علي أجد نسخة منه
في مكتباتها العامة أو التجارية أو الخاصة، ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح. ولم
أحصل إلا على نسخة مصورة من كتاب الأمثال المولدة وهو الذي اثبت - فيما بعد -
نسبته إلى أبي بكر الخوارزمي، غير أن تلك المصورة كانت من السوء بحيث لا تتحقق
منها الفائدة، وهو ما اضطرني إلى السفر إلى تركيا للإطلاع على المخطوطات،
واستكمال النقص في المصورة حيث أن تصوير المخطوطات في تركيا - مسألة -
للأسف - لا تتحقق.

وقد فتشت عن ديوان الخوارزمي مطبوعاً أو مخطوطاً في مكتبات استانبول ودمشق وبيروت وتيقنت أن بروكلمان قد وهم، وأنه ربما قصد بالديوان المطبوع ديوان بديع الزمان الهمداني الذي طبع في القاهرة سنة 1903.

ونشطت في الحصول على نسخة مصورة للديوان المخطوط فكتبت إلى معهد المخطوطات البريطاني عن طريق المعهد البريطاني في بغداد، وجاء اعتذارهم عن التصوير من غير ما مسوغ وأعدت الكرة مرات ومرات، واستعنت بالمكتبة المركزية لجامعة بغداد، وكاتبت أصدقائي في بريطانيا فما كان تحت ذلك من طائل.

وسافرت إلى بريطانيا وتبين لي أن الديوان المخطوط ليس لأبي بكر الخوارزمي وأن صاحب الديوان شاعر من القرن العاشر الهجري، وأن هناك تشابهاً كبيراً في الأسماء، وقد أوقع هذا التشابه م فهرس المكتبة في الخطأ، فنسب الديوان إلى أبي بكر الخوارزمي.

ويبدو أن سوء الطالع الذي رافق مسألة الحصول على آثار الخوارزمي لم يبسط رداءه على مخطوطة شرح ديوان أبي الطيب المتني للخوارزمي، فقد حصلت على نسخة مصورة عنها من مكتبة (Chester Peaty) في دبلن في وقت قصير نسبياً.

يتألف هذه البحث من مقدمة وأربعة فصول:

تناولت في الفصل الأول منه سيرة الخوارزمي منذ ولادته إلى وفاته، مفصلاً الحديث في علاقاته الاجتماعية والأدبية التي تركت أثرها في حياتنا الأدبية.

ودرست في الفصل الثاني شخصيته من حيث أخلاقه، ومعتقداته السياسية، ونظراته الاجتماعية، وتحدثت عن مصادر ثقافته وأثره في تلاميذه، ثم فصلت القول في مؤلفاته، فأثبت في هذا المجال أن طائفة مما نسب إليه من المؤلفات لم تكن من تأليفه، وأثبت نسبة عدد آخر من المؤلفات إليه.

وتناولت في الفصل الثالث شعره بالدراسة ففصلت القول في اتجاهه الشعري

والعوامل المؤثرة في شاعريته، وبينت موقعه بين شعراء عصره، ثم درست أغراض شعره، وخصائصه الفنية والأسلوبية.

وخصصت الفصل الرابع لدراسة نثره، فبينت مكانته في النثر، وحددت اتجاهه ثم درست أغراضه في رسائله وخصائصها الفنية والأسلوبية.

وختمت البحث بخلاصة تحدثت فيها عن أبرز النتائج التي توصلت إليها.

كما تضمنت الرسالة ملحقاً حققته فيه شعر الخوارزمي الذي استطعت جمعه من المصادر المختلفة، وفورت بذلك مرجعاً لإشعاره، بعد أن فقد أثر ديوانه.

وبعد: فقد منحت هذا البحث كثيراً من الجهد والوقت وحسي أن في ذلك خدمة للمكتبة العربية وإسهاماً متواضعاً في بعث تراثنا القومي الماجد.

والله الموفق بعد ذلك

المؤلف

محمود صالح الضمور

الفصل الأول

حياته

أبو بكر الخوارزمي

اسمه ولقبه:

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الطبري، ولا نعرف شيئاً من والده، ولا عن أسرته التي ينتمي إليها سوى ما ذكره في إحدى رسائله من أن والده قد خلف عليه ما لو خلفه على أهل بلد لكفاهم، ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم⁽¹⁾. لقب القدماء أبا بكر بالخوارزمي والطبري و(الطبرخزي)⁽²⁾، و(الطبرخزمي)⁽³⁾ و(الطبرخي)⁽⁴⁾ وهي الألقاب مأخوذة من لفظي طبرستان وخوارزم اللتين ينتمي إليهما، حتى اشتهر بها،

ولد أبو بكر الخوارزمي سنة 323⁽⁵⁾ هـ، أما مكان ولادته فقد اختلف فيه فهو يقول⁽⁶⁾:

بأمل مولسدي وبنو جرير فأخوالي ويحكي المرء خاله

وآمل هذه أكبر مدينة بطبرستان في السهل⁽⁷⁾. ويقول في إحدى رسائله⁽⁸⁾:

فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً، وتختالني سرا، حتى خرجت منها أعرى من حية، وأكسى من بصلة... وجرى علي في مسقط رأسي، وجمع أسرتي

(1) رسائل الخوارزمي / 186.

(2) اليتيمة / 4: 204.

(3) الأنساب المتفقة / 97.

(4) شذرات الذهب 3 / 105.

(5) اليتيمة 4: 209.

(6) معجم البلدان / 1: 57.

(7) معجم البلدان 1 / 68.

(8) الرسائل / 186.

ومقطع سرتي من الغرم الثقيل ما كان من الثقل أثقل... على أني حيث كنت تاج
على خوارزم معقود.

ويقول الثعالي⁽¹⁾: بأن مولده ونشأته في خوارزم.

والمرجح عندي أنه ولد بمدينة أمل بطبرستان، وانتقل بعدها مع والده إلى
خوارزم التي نشأ وترعرع فيها، فهي عشه الذي فيه درج، وبيته الذي منه خرج⁽²⁾.

أما أصله فأعجمي، ذلك أنه، يقول⁽³⁾: وتذمت من أن أعارض بلسان
خوارزمي وعقل طبري، وخاطر أعجمي من لسانه عربي، وعقله قرشي، ونشؤه
مكي، يقصد عمر بن أبي ربيعة المخزومي، ويذكر في رسالة أخرى بأنه ليس عربياً
فيقول⁽⁴⁾: "وأنا المعيدي، وأن لم يكن لي في العرب نسب، ولا بيني وبين معد قرابة ولا
نسب" ومع أن كلمة العجم تطلق على غير العرب من الشعوب، فإن المرجح أنه من
أصل فارسي وإن لم أجد نصاً يدعم ذلك.

ولقد اختلفت المصادر في: تحديد أصله تبعاً للإقليم:

فصاحب اليتيمة يقول⁽⁵⁾: (أصله من طبرستان، ومولده ومنشؤه بخوارزم،
وكان يتسمى بالطبري ويعرف بالخوارزمي، ويلقب بالطبرخزي).

ويقول ابن القيسراني⁽⁶⁾ وأبو بكر الخوارزمي طبري الأب من أمل طبرستان
خوارزمي الأم، فنسب إلى البلدين جميعاً... وليس من طبرية الشام، غير أنه أقام بالشام
مدة مجلب ونواحيها، ويذكر أنه لم ير أحداً ينسب إلى بلدة طبرية الشام إلا ما أخبره به

(1) اليتيمة / 4 / 204.

(2) الرسائل / 186.

(3) الرسائل: 49.

(4) الرسائل: 125.

(5) اليتيمة / 4 / 402.

(6) الانساب المتفقة / 96.

محمد بن جعفر بن أحمد بن الحسين السراج ببغداد: قال: أنشدنا أبو عبد الله الحسين بن علي بن مأكولا لأبي بكر الخوارزمي الطبري من طبرية الشام⁽¹⁾.

بينما يرى السمعاني⁽²⁾ أنه من أصل خوارزمي، وأنه إنما قيل له (الطبري) لأنه ابن أخت محمد بن جرير بن يزيد الطبري، وأنه إنما ينسب إليه عرضاً..

ويقول ياقوت الحموي⁽³⁾ بأنه أصله من أمل أي أنه من طبرستان.

وينقل ابن خلكان عن السمعاني رأياً آخر يخالف ما ذكرته فيقول⁽⁴⁾ أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور، ويقال له الطبرخي أيضاً لأن أباه من خوارزم، وأمه من طبرستان فركب له من الأسمين نسبة، كذا ذكره السمعاني، وهو ابن أخت أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ.

ويقول ابن العماد الحنبلي⁽⁵⁾ في حوادث سنة 383 وفيها (توفي) أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور، يقال له (الطبرخي) لأن أباه كان من خوارزم، وأمه من طبرستان، فركب له من الأسمين نسبة.

وهكذا تتوضح لنا صورة الخلاف في أصل والده، وأصل أمه والمرجح عندي أنه من أصل طبري، أي أن والده من طبرستان وأنه ولد في بلدة أمل التي هي أكبر مدنها، ثم ارتحل مع والده إلى خوارزم، حيث نشأ وترعرع، وأن والدته من طبرستان أيضاً وأنها أخت محمد بن جرير الطبري، ولكنه ليس صاحب التاريخ والتفسير، ولعل الدلائل التي سأسوقها تؤيد هذا الرأي:

(1) الأنساب المتفقة 96.

(2) الأنساب المتفقة 5/ 213.

(3) معجم البلدان 1/ 57.

(4) وفيات الأعيان 4/ 400-401.

(5) شذرات الذهب 3/ 105.

(1) أن أبا بكر الخوارزمي يسمي نفسه بالطبري في غير موضع من رسائله: يقول في إحداها⁽¹⁾ ثم تصدقت بعد ذلك بعدد نخيل البصرة وأجر الكوفة... وعن محمد بن العباس الطبري..... ويسمى نفسه تارة أخرى بأبي بكر الخوارزمي الطبري⁽²⁾ ويسمى نفسه بأبي بكر الخوارزمي في موضع آخر⁽³⁾ والمعروف أن العرب والعجم، ومعظم شعوب العالم ترجع في أنسابها إلى آبائها، ولا تسمى بأنساب الأمهات.

(2) إن لقب (الخوارزمي) إنما عرف به لأنه نشأ ودرج في إقليم خوارزم، وهذه مسألة لا تحتاج إلى دليل، فكثير من العلماء والأدباء قد تسموا بأسماء المدن التي عاشوا فيها فغلبت شهرتها عليهم.

(3) أن لقب الطبرخي أو الطبرخزمي الذي أطلق عليه قد أوقع الكثيرين في الخطأ حين حاولوا رده إلى أصوله، فادعى بعضهم أنه لقب بذلك لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان وقال غيرهم لأن أمه من خوارزم، وأباه من طبرستان، ولعل غلبة شهرة الخوارزمي عليه هي التي أوقعتهم في الخطأ، فتصوروا أنه من أصل خوارزمي.

ولقد درجت معظم المصادر⁽⁴⁾ على القول بأنه ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ. وليس هذا بصحيح، ذلك أن وهما قد وقع بسبب الشهرة. ولم يتنبه هؤلاء إلى أن هنالك أكثر من ثلاثة أشخاص⁽⁵⁾ اشتركوا في الاسم والكنية واللقب. وكلهم يدعى بأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، واشتهر منهما اثنان: هما:

(1) الرسائل/ 34.

(2) الرسائل/ 41.

(3) المصدر السابق/ 87.

(4) انظر معجم البلدان 1/ 57، الإنساب للسمعاني 5/ 213، وفيات الأعيان 4/ 192 وتابعهم المتأخرون.

(5) أورد الخونساري أسماء عدد منهم، في كتابه روضات الجفات 7/ 292 معجم المؤلفين 9/ 147.

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، صاحب التاريخ المشهور والتفسير الكبير، وهو رجل عامي المذهب ولد سنة 224 وتوفي سنة 310 هـ⁽¹⁾.

أما الثاني فهو: أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الأملّي، صاحب كتابي دلائل الإمامة، والمسترشد في الإمامة، وهو شيعي المذهب ولا يعرف تاريخ ولادته أو وفاته.

ولعل ما أورده الخوانساري في كتابه روضات الجنات نقلاً عن كتاب مقامع الفضل لابن المروج البهبهاني، أقرب إلى الصحة مما ذهب إليه غيره: يقول⁽²⁾ في جواب من سألته عن المراد بمحمد بن جرير الطبري، المتكرر في كتب أصحابنا ما يكون صورته: محمد بن جرير الطبري رجلان، أحدهما: ابن جرير بن غالب الطبري، الذي هو شافعي المذهب، ومدحه النووي الشافعي في كتاب تهذيب الأسماء، وهو صاحب التاريخ والتفسير المشهورين، والآخر: محمد بن جرير بن رستم الطبري صاحب كتاب المسترشد، وكتاب الإيضاح، ولا شبهة في كونه من الشيعة، وهو الذي قال ابن أخته أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي:

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ويحكي المرء خالته
فها أنا رافضي عن ثراث وغيري رافضي عن كلالته

وقد اشتبه الأمر على صاحب معجم البلدان، حيث كذب الخوارزمي فيما نسبته إلى خاله، ويعلق الخوانساري قائلاً: والظاهر أن الاشتباه من صاحب المعجم، إنما هو من جهة زعمه الخوارزمي المذكور ابن أخت طبريهم المؤرخ المشهور، وأنت إذا تأملت

(1) ورد في بعضها (محمد بن جرير بن كثير، وفي بعضها غالب ترجمته في وفيات الأعيان 4/ 192، الأنساب المتفقة 95-96 الباب في تهذيب الأنساب ابن الأثير، الفهرست للطوسي/ 185 نزهة المجلس/ 365.

(2) روضات الجنات/ 7/ 292 - 294.

في كتب رجال الشيعة، وفي تقدم طبقة هذا الطبري على الخوارزمي قريباً من مائة سنة، علمت أن أبا بكر المذكور لم يكن ابن أخته، وأن ما ذكره ابن خلكان أيضاً لمنافاة هذا الكلام منه مع ذكره في تاريخ وفاة الخوارزمي، وعليه فلا اشتباه في تكذيب من خال الرجل خاله، ثم كذب من نسب إليه الرفض وأحاله، وحق ما ذكره صاحب المقامع من كونه ابن أخت طبرينا المحدث الإمامي، لأنه متأخر عن سميّه الأول بما يوافق خاليتّه للثاني.

أسفاره وصلاته:

أ- في العراق:

فارق الخوارزمي وطنه، وهو قوي المعرفة، قوي الأدب، نافذ القرية حسن الشعر⁽¹⁾، ويبدو أنه قد تلمذ على شيوخ الأدب والفقه الذين عاشوا في خوارزم، غير أن المصادر لم تذكر أحداً من أولئك الذين درس عليهم، وأخذ عنهم.

أما الأسباب التي دعت به إلى مفارقة وطنه فتعود إلى ما أصاب أسرته من نوائب ومصائب، أوصلتهم على درجة الفاقة والعوز، فلم يكن أمامه غير الارتحال، طلباً للحياة الكريمة، فهو يقول في إحدى رسائله⁽²⁾ "فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً، وتقاتلني سراً، حتى خرجت منها أعرى من حيّة، بعد ما كنت أكسى من بصلة، وأفقر من الحجر بعد ما كنت أغنى من الكعبة، وأعطل من المحرم بعدما كنت أحلى من الشمسة، قد كسرت كسر الجوز، وقشرت قشر اللوز، وجرى علي في مسقط رأسي، ومجمع أسرتي من الغرم الثقيل ما كان من الثقل أثقل، ومن الذل الطويل أطول، ومر على رأسي ما لو مرّ على رأس الشاب لشاب، ولو نزل بالحديد للذاب".

(1) البيّمة 4 / 204.

(2) الرسائل / 186.

ولعل أسباب هذه النكبات والمصائب يعود إلى عوامل سياسية ومذهبية وإلى ما أصاب البلاد من قحط وجذب.

أما العامل الثاني فطلب العلم، وبحث عن مصادره وموارده بعد أن ارتوى من نبع خوارزم فلم يزل يتقلب في البلاد، ويدخل كور العراق والشام، ويأخذ من العلماء ويقتبس من الشعراء ويستفيد من الفضلاء حتى تخرج وخرج فرد الدهر في الأدب والشعر⁽¹⁾.

ولا نعرف بالضبط السنة التي غادر فيها موطنه، غير أننا نستطيع القول بأنه وصل إلى بغداد قبل عام 341، ولم يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره، يدلنا على ذلك أنه روى الحديث عن إسماعيل بن محمد الصفار الذي كان إماماً في اللغة والأنساب، والذي توفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة للهجرة⁽²⁾.

اتصل الخوارزمي بأدباء بغداد وشعرائها وعلمائها. فأخذ الحديث واللغة والأنساب عن الصفار، ودرس علوم القرآن والنحو والشعر، وأيام الناس على أحمد ابن كامل بن خلف⁽³⁾.

ولم تذكر لنا المصادر أنه اتصل بالخليفة أو أي من وزرائه ولكننا لا نستبعد أن يكون قد دخل مجالسهم أو حاول الاتصال بهم وأخذ عطاياهم. ولعل صغر سنه ورقة عوده في الشعر والأدب - آنذاك - قد حالت دون ذلك.

وفي رسائله ومؤلفاته ما يشير إلى وجوده في العراق ففي رسالة بعث بها إلى أبي

(1) البيهقي 204/4.

(2) اللباب في تهذيب الأنساب 2/273، الأنساب/السمعاني 5/214، بغية الوعاة/51 ترجمته في تاريخ بغداد 6/303 وهو إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن صالح بن عبد الرحمن، أبو علي الصفار النحوي صاحب البرد، وكان متعصباً للسنة توفي سنة 341.

(3) اللباب 2/273، الأنساب 5/214 وهو أحمد بن كامل بن خلف بن منصور بن كعب بن يزيد ترجمته في تاريخ بغداد (4/357).

الفرج خليفة الوزير بنيسابور يقول فيها⁽¹⁾ فكيف لا أشكر قوماً أفادوني عقلاً، وإن لم يفيدوني نيلاً، وزادوني أدباً، وإن لم يزيدوني نشباً. وعهدى وأنا بالعراق مفيد، فأصبحت وأنا بخراسان مستفيد.

على أن المقام لم يطل به في بلاد العراق التي جاب أطرافها، ووصف نهر الأبله⁽²⁾ فعبر عن حبه لها بحسده لأهلها. يقول⁽³⁾ معارضاً قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

يا أهل بابل ما نفسنتُ عليكم من عيشكم إلا ثلاث خصال
ماء الفرات وطيب ظل بارد وسماع محستين لابن هلال
فيقول: هلاً حسد أهل العراق على المتصرفين أو الرافدين. أو على الرطب السابري، والتين الوزيري، والعنب الرازقي، أو على فرضتهم من ماء الساج والعاج وطرازهم بنوع الخز والدياج، بل هلاً حسدهم على أن فيهم مشهد أمير المؤمنين سيد الأوصياء، ومشهد الحسين سيد الشهداء وهلاً حسدهم على أن أرضهم واسطة العمارة في خط الاعتدال بين الجنوب والشمال، وهلاً حسدهم على أن الرأي كوفي والاعتزال بصري، والخط أنباري، والحساب سوادي، والتشيع عراقي وهلاً حسدهم على قراء الكوفة، وعباد البصرة، وإبدال الأبله، وعلى من هاجر إليهم من الصحابة، ونبغ فيهم من التابعين وأبدال الأمة.

ولعل في هذا ما يدل على سعة إطلاعه، وتعلقه بهذه الأرض فصادفت منه قلباً رحيماً، وامتزجت بما يحس به من ولاء وحب لآل البيت.

(1) الرسائل / 126.

(2) ثمار القلوب / 526.

(3) الرسائل / 48-49.

في بلاد الشام:

غادر الخوارزمي أرض العراق محتقبا آماله إلى حيث بلاط سيف الدولة الحمداني الذي كان يعج بالفضلاء والأدباء والعلماء، فيحتفى بهم، وترتفع منزلتهم، وتنتثر عليهم الأموال والهدايا، فيتسابقون إلى المعالي ويتنافسون في الوصول إلى الجاه والسلطان، وقد يسمو بهم الخيال، فيهرعون إلى ارتقاء المجد بطلب الإمارة والولاية، حتى إذا عز منالها طاروا إلى غيرها مسرعين، لا تقف في وجوهم الصعاب. ذلك هو شأن الخوارزمي، وأن لم يطلب ولاية ولا طمع بها، ولكنه طمع في الوصول إلى مقربة الأمير العلوي، الذي يقرب آل البيت ومن والاهم، يحفظ لهم الود، ويصون لهم العهد.

وكان أبو بكر الخوارزمي في ريعان عمره، وعنقوان أمره، قد دوخ بلاد الشام فحصل من حضرة سيف الدولة بجلب في مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء الفضلاء فأقام ما أقام بها مع أبي عبد الله بن خالويه، وأبي الحسن الشمشاطي⁽¹⁾ وغيرهما من أئمة الأدباء، وأبي الطيب المتني، وأبي الحسن النامي، وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه، وأدب يقتبسه، ومحاسن ألفاظ يستفيد منها وشوارد أشعار يصيدها، وانقلب عنها، وهو أحد أفراد الدهر، وأمراء النظم والنثر، وكان يقول: ما فتق قلبي وشحد فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلية التي علقت بجفطي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب⁽²⁾.

تأثر الخوارزمي تأثراً بالغاً بالحياة الأدبية في بلاد الشام فدرس اللغة وفقهها على

(1) هو علي بن محمد الشمشاطي العدوي (أبو الحسن) أديب شاعر، من آثاره أخبار أبي تمام والمختار من شعره شرح الحماسة (ترجم له صاحب معجم المؤلفين 7/ 203) وذكر مصادر دراسته.

(2) اليتمية 1/ 26.

ابن خالويه⁽¹⁾ واتصل بأبي الطيب المتني وحضر مجلسه، وأخذ عنه وتأثر به، ولعل أبلغ مظهر لهذا التأثير هو ذلك الاهتمام الذي أبداه الخوارزمي بشعر أبي الطيب، فما فتى يأخذ من معانيه، ويستشهد بأبياته حيناً، وينسج على منوالها، ويعارضها حين يجد إلى ذلك سبيلاً حتى إذا استوى عوده، واشتد ساعده قام بشرح ديوانه، ليكشف لنا عما فيه من جوانب الحسن والإبداع ومواطن الضعف والهزال. وسنعود في فصل قادم للحديث عن علاقته بأبي الطيب المتني وموقفه منه، وستحدث بالتفصيل عن شرحه لديوان المتني عند التعرض لمؤلفاته.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه البيئة قد تركت أثراً واضحاً في مسيرة حياته الأدبية، عكست نفسها على تلامذته، الذين يعد أبو منصور الثعالبي واحداً من أبرزهم، ففضل شعراء الشام على غيرهم، حين صنف كتابه 'يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ' ووضعهم في المقدمة ولعله هو الذي أوحى إليه بأهمية دراسة الشعر حسب الأقاليم. ولقد اعتمد الثعالبي في تدوين أشعار كثير من الشعراء على ما سمعه من الخوارزمي، أو أقرأه إياه، أو وجدته في إحدى تعليقاته أو سجله في دفتر من دفاتره، فهو مصدر من مصادر اليتيمة، بل مصدر الثعالبي التي استقى من نبعها واعتمد عليها.

وقد حضر الخوارزمي مجلس سيف الدولة، وسمع ما يدور فيه، وأفاد من مجلسه يقول الثعالبي⁽²⁾ 'سمعت الطبري⁽³⁾ يقول كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بجلب، فدخل عليه ابن عم له، فاستبطأه الأمير، وقال له: أين كنت اليوم وبم اشتغلت؟ فقال: أيد الله مولانا: حلقت رأسي، وأصلحت شعري، وقلمت أظفاري، فقال له لو قلت: أخذت من أطرافي كان أوجز وأبلغ وأحسن.'

ولقد وجد الخوارزمي لديهم فناء رحيماً ورفداً خصيباً فما أخرج عن رتبة، ولا

(1) فقه اللغة/ الثعالبي ينقل فيه عن الخوارزمي عن ابن خالويه.

(2) الكناية والتعريض/ 54.

(3) يعني أبا بكر الخوارزمي.

خلف عن الغاية في موطني رغبة أو رهبة. ومعه إذ ذاك سكر الشباب وذل الاغتراب، والقوم قد باينوه النسبة وفارقوه التربة⁽¹⁾.

حضر الخوارزمي مجلس أبي الطيب المتني في حلب، وينقل الثعالي عنه قوله⁽²⁾ حضرت عنده يوماً بحلب، وقد احضر مالا من صلات سيف الدولة، صب بين يديه على حصير قد افترشه، ووزن وأعيد في كيس، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال، قد تخللت خلل الحصير، فأكب عليها بمجامعه ينقرها، ويعالج استنقاذها منه ويشغل بذلك عن جلسائه حتى إذا توصل إلى إظهار بعضها تمثل بيت قيس بن الخطيم:

تبدت لنا كالشمس تحت غمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضئتٌ بحاجبٍ

ثم استخرجها، وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس، وقال: إنها تحضر المائدة.. ولكننا- على أي حال- لا نعرف مقدار المدة التي قضاها في بلاط سيف الدولة ويبدو أنه قد فارق حضرته اضطراراً، وربما يعود ذلك إلى الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين سيف الدولة، وبين الروم، والتي تمكن الروم في بعضها من احتلال قلعة حلب والسيطرة عليها، هذا عدا عما كان يحسه من حنين إلى أهله ووطنه. ورغم أنه لم يترك لنا أشعاراً ونصوصاً أدبية في مدح سيف الدولة أو غيره من الأمراء الحمدانيين، ولم تصل إلينا رسائله التي كتبها في هذه الحقبة. والتي اعتقد أنها ضاعت⁽³⁾.

لقد ظل يذكر تلك الأيام بلسان المتشوق المتلهف يقول في رسالة إلى أبي محمد العلوي⁽⁴⁾.

(1) الرسائل/ 31.

(2) اليتيمة 1/ 135-136.

(3) ثمار القلوب/ 82.

(4) الرسائل/ 177.

... وقد رأيت بهذه الحضرة أقواماً كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصبا عذب، وعود الشباب رطب، وذكرت بهم مآرب هنالك وأياماً سلبتها سلباً، ونزعت من يدي غصبا، ودهراً كأنني أقطعه وثباً، فلما رأيتهم قد هاجروا إلى هذه الحضرة، وجعلوها من بين الدنيا هجرة، علمت أن الكرم يتوارث بين الكرام وأنه المحذر من إصفهان إلى الشام، وأن العلم والأدب يتيمان ليس عليهما غيره وصي، وأن المروءة والسيادة أيمان ليس عليهما غيره وصي، وأن المغرب لسيف الدولة - رحمه الله - والمشرق لحضرة الوزير أيده الله... فأما آل أبي طالب فإنهم ينزلون منه على سيف التشيع وسنانه، وعلى يد الحق ولسانه، وما ضرهم مع عطائه أن لا ترد عليهم فذك وخير غيره منه على الشرف أن لا يصابن عن الابتذال رحله، وأن لا يحفظ فيه وله أهله، ذهاباً بنفسه عن إتباع الأنام، وتقليد الأيام في إهانة الكرام.

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللثيمة للشام نصور

فسيف الدولة عنده - منبع الكرم، ومنهل العلم، فمن بحوره تتدفق الأنهار فتستقي منها ضياع غيره، وهو ناصر للشيعة شفيق عليهم رفيق بهم حتى لقد صار هذا الأمر لازمة من لوازمه.

في بخارى - علاقته بأبي علي البلعمي:

عاد الخوارزمي من رحلته إلى الشام بعد أن تزود منها خير الزاد، متجهاً إلى بلاده التي ارتوى من نبعها صغيراً، فدخل العراق، ليتوقف فيها قليلاً ويجمع حوله عدداً من التلاميذ، يأخذون عنه الأدب، ويدرسون عليه النحو واللغة، ولعل هذا ما قصده حين قال⁽¹⁾: "وعهدي وأنا بالعراق مفيد" ولا يعقل أن يكون مفيداً حين دخلها أول مرة، لأن سنة لا تؤمله لمثل هذه الإفادة.

(1) الرسائل/ 126.

توجه الخوارزمي إلى بخارى⁽¹⁾، وهي مدينة من أعظم مدن ما وراء النهر وكانت قاعدة ملك السامانية، فصحب فيها أبا علي البلعمي⁽²⁾ وهو واحد من وزراء السامانيين، ولعله ابن أبي الفضل البلعمي الذي كان وزيراً لإسماعيل بن أحمد أمير خراسان⁽³⁾. وقد كان أبو علي وزيراً للأمير منصور الأول بن نوح، يدلنا على هذا أنه أمر بترجمة كتاب تاريخ الطبري إلى الفارسية سنة 963م⁽⁴⁾.

ولعل من الضروري أن نشير إلى أن هذه العلاقة تصور طبيعة العلاقة بين الوزراء وأرباب السياسة وبين الشعراء والكتاب، الذين ذاقوا مرارة الحرمان، وضروب التشرد والهوان، وتعرضوا إلى الحبس والمصادرة، لا ينفعهم في ذلك ما قدموه من مدح، ولا يصونهم عذر يدرأون به عن أنفسهم سخط السلطان ونقمته، حتى لو بلغ العذر درجة التوسل والاستعطاف، فلا يجد الشاعر حيثثاً بديلاً من الدفاع عن كرامته المهدورة وحقوقه المهضومة، وليس له من سلاح غير آتته التي بها اشتهر، فينبى للسلطان منابزاً ومنافراً ويستبدل جلايب العز والرفعة التي كساها السلطان برث الثياب وقبيح الجواب.

ولعل بداية الصلة بينهما لم تكن على غير عادة الشعراء والأدباء في الوفود على بلاط السلاطين والوزراء لأخذ صلاتهم وعطاياهم على قصائد المدح التي يدبجونها بعواطف لا تخلو من زيف، ومعان لا تخلو من ابتذال، لا يخفف من غلوائها غير تلك الصياغة الجميلة التي توظف معانيهم، فتداعب في نفوس الممدوحين أوتاراً، وتثير فيها لواعج الشوق التي طفت عليها صورة العظمة والكبرياء المصطنعة فتزول الفوارق ما بين الشاعر والسلطان.

(1) معجم البلدان 1/ 253.

(2) اليتيمة 4/ 202.

(3) الأنساب/ السمعاني 2/ 314.

(4) دائرة المعارف الإسلامية 11/ 82/ 15/ 96.

ذلك أمر الخوارزمي الذي أنساه سلطان الأدب هيبة السلطان وأقامته طول العشرة بهم مقام النظراء والأخوان⁽¹⁾. لكن البلعمي الذي طبع على السلطان لا يريد الآخرين إلا دمي مستعبدة، فأنكر على الشيخ عزوف نفسه عن مواقف البذلة، وصعوبة جانبه على من جره إلى مظنة الهوان والذلة⁽²⁾ سرعان ما قلب له ظهر المجن حين قرع الوشاة صفاة حلمه. يقول الخوارزمي في رسالة كتب بها إليه⁽³⁾:

ذكر الشيخ أنني تنقلت بعرضه المصون، وتمندلت⁽⁴⁾ بقدره المكنون المخزون، وقد كنت أحسب الشيخ أمنع على السعاة من أن يقرعوا صفاة حلمه، ويخترقوا بأباطيلهم طريق عزمه وحزمه، ولقد هدم علي الوشاة حصناً كنت أعددت، وحلّوا عقداً وثيقاً كنت عقدته، وسلّبوني علّقاً نفيساً اشتريته بنفسي لا بمالي، وحاربوني بعدة كنت أحسبها أنها لي، وكنت أرى البعيد بها قريباً مني، وأسري في الظلماء بضوء رضاه عني.

فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيْهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

ولم يجد الخوارزمي بداً من الفرار من وجهه بعد أن أنفذت الأيام فيه سهمها ونال من خشونة يده ما نال، ولكنه ظل وفياً له، حافظاً لعهدده يكاتبه مستعطفاً حيناً، متشائخاً حيناً آخر، فهو يقول⁽⁵⁾:

أنتهت بي المحنة بعد فراق الشيخ على غاية ليس بينها وبين الموت حجاز، ولا وراءها للبلاد مجاز، حتى لقد ركبت غير دابتي، وأكلت غير نفقتي، ونزلت بيتاً بكرأ، وأكلت خبزاً بسرا، وحرمت العيني وشربت الزبيبي، ولبست الصوف في الصيف،

(1) الرسائل / 30.

(2) الرسائل / 95.

(3) الرسائل / 30.

(4) تمندلت: تمسحت به.

(5) الرسائل / 31.

والبردي في الخريف وكوتبت مواجهة، وخوطبت بالكاف مشافهة، وأجلست في صف النعال، أعني أخريات الرجال، وناظرني من كان يدرس عليّ، وخالفني من كان يختلف إليّ....⁽¹⁾

إلى أن يقول: "وقد علم الشيخ أنني مذ كنت لم يسم خدي عذار الهوان، ولم يوضع على رقبي نير التبذل والامتهان، ولم تطرق الأيام حريم عرضي فتنهكه، ولا نالت ستر صيانتني فتنهكه، ولا ماء وجهي فتسفكه" ورغم الوعود البراقة التي قطعها البلعمي للخوارزمي، فإنه لم يستحب لداعي القول دون أن يسبقه داعي الفعل ذلك أنا قد تفارقنا على حالة، فإن كنا عليها، والتقينا فيها، فأخر التلاق أول الفراق ولا يربح من هذا اللقاء غير تخريج فراق جديد، وتولد حزن جديد.⁽¹⁾

ولكن هذا الاستعطاف والتوسل لم يجديا نفعا، فظل خائفاً يتوجس إلى أن بلغ السيل الزبي، فهجاه قائلاً.⁽²⁾

إن ذا البلعمي والعين غينٌ وهو عارٌ على الزمان وشينٌ
إن يكن جاهلاً بخفي حنين فهو الخُفُّ والزمان حنينٌ

علاقته بأبي نصر الميكالي:

اتصل الخوارزمي بعد ذلك بالأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي، الذي كان في نيسابور، وهو من أسرة عرفت بالأدب والفضل، يقول عنهم الثعالي:⁽³⁾

"وما ظنك بقوم مدحهم البحتري، وخدمهم الدريدي، وألف لهم كتاب الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يليها الجديدان والمخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي

(1) الرسائل 31.

(2) اليتيمة 4/ 404.

(3) نفس المصدر 4/ 454.

وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر" وقال عنه العتي⁽¹⁾ من رعايا السلطان بنيسابور أحمد بن علي الميكالي وهو صنيعة السلطان، وشيخ مملكته، وجمال جملة فضل موفوراً وأدباً مشهوراً، وعزا معقوداً ومالاً ممدوداً ورأياً كالأرى مشاراً.. الخ.

انعقدت الصلة بين الخوارزمي والأمير، فحل كل منهم عقدة الجهامة عن وجهه لصاحبه، فما هي إلا أيام وتدر أخلاف الأمير نوالاً كما درت أخلاف الخوارزمي شعراً، وشتان بين ما هو باق، وما هو فان، فلقد أبقي الخوارزمي ذكرهم، وانمحت آثار النعمى بفناء أجسادهم. يقول الخوارزمي في مدحهم⁽²⁾.

نَجَرَ ذِيُولُ الْفَخْرِ حَتَّى كَأَنَّا	لَعَزَّتْنَا فِي آلِ مِيكَالٍ نَنَّمِي
هُمُ شَحْمَةُ الدُّنْيَا فَإِنْ نَتَعَدَّهُمْ	إِلَى غَيْرِهِمْ نَحْصِلُ عَلَى الْفَرثِ وَالْدَّمِ
سَقَى اللَّهُ ذَاكَ الرُّوضِ جُوداً كَجُودِهِمْ	وَصَيَّرَ آجَالَ الْعُدَاةِ إِلَيْهِمْ
وَأَبْقَى أَبَا نَصْرٍ لِرَبِّي عَلَيْهِمْ	سَنِينَ كَمَا أَرَبَى بَنِينَ عَلَيْهِمْ
وَعَاشَ إِلَى أَنْ يَتَرَكَ النَّاسُ مَدْحَهُ	(وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو إِيَابَ الْمُثَلَّمِ)

وما كان كرم الأمير مقصوراً عليه، وهو الذي طار صيته في الأفاق فتقاطر الناس عليه من كل حذب وصوب طلباً لنواله، فإذا بحجابه وقد امتلأت نفوسهم بهجة وسروراً لما يحسونه من فرح الأمير وغبطته بقدم الناس يقول الخوارزمي⁽³⁾:

تِلْكَ الدِّيَارُ فَرِيْسَةُ الْأَحْقَابِ	صَنَعْتُ بَعِيْنِي صَنَعَ سَاكِنَهَا بِي
وَالِى الْأَمِيرِ ابْنِ الْأَمِيرِ تَوَاهَقْتُ ⁽⁴⁾	رَزَحِي ⁽⁵⁾ الرُّكَّابِ بَرَاذِحِي الرُّكَّابِ

(1) تاريخ العتي 2:37.

(2) البيئمة 4/ 220.

(3) العتي: 2/ 20 - 40 - 42.

(4) تواهقت: المواهقة في السير: المواظبة ومد الأعناق.

(5) رزحي: جمع رازح: والرازح والمرزاح من الإبل الشديد الهزال. وقصد أنها هزلت لطول السفر.

لبسوا الدُّجى لبس الغراب لريشه
والفجرُ يطرفُ والظلامُ كائهُ
طلبوا امرءاً أفعاله محسوبةً
غدت المدائحُ وهي أسماءُ له
والمكرّماتُ كثيرةُ الخطّابِ
متبسّمُ الحُجّابِ مكتئبُ العدى
شيمُ أرقُ من الهوى والدُّ من
وعزائمُ لو كنَّ يوماً أسهماً
وغدوا لحاجتهم غُدُو غرابِ
فضلاتُ عتبٍ في خلالِ عتابِ
ونوالهُ فوضى بغيرِ حسابِ
ولغيرهِ أصبحن كاللقابِ
إلا أنّها تأبى على الخطّابِ
مشري النديم مُجازف⁽¹⁾ الحُسابِ
خطأ العدو رددته بصوابِ
لنفذن في الأيام غيرِ نوابي

ويقول في مدح آل ميكال⁽²⁾ من رسالة بعث بها إلى أبي نصر يشكره على اصطناع فقيه من تلامذته .. وما أعرف أهل بيت أحسن لموضع الصنائع ارتياداً وأجود لأهلها انتقاداً، وأصوب لها إصداراً وإيراداً من أهل بيت الشيخ أبقي الله تعالى مشايخهم وشبابهم، وجمل بهم مكانهم وزمانهم، والشيخ بحمد الله تعالى على سبيلهم نهج، وعلى منوالهم نسج.. والله تعالى بقايا من عباده في بلاده، خلقهم ليعيش بهم العاسر، ويشد بأزرهم الفاجر ويحيي بحياتهم المعالي والمآثر، فهم ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خربت، ومعرض الأيام والليالي إذا حشدت....

ويروى لنا الثعالي أن أبا بكر توجه بعد ذلك إلى سجستان وتمكن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد، ومدحه وأخذ صلته ثم هجاه وأوحشه حتى أطل سجنه⁽³⁾.

(1) الجزف: أخذ الشيء مجازفةً وجزافاً، فارسي معرب: الجزافة: بيعك الشيء واشتركاؤكه بلا وزن ولا كيل.

(2) الرسائل / 119 – 120.

(3) البيّمة 4 / 205.

ويبدو أن خطأ قد وقع في اسم هذا الوالي، وربما كان المقصود هو طاهر بن الحسين الذي ولي سجستان لخلف بن أحمد، واستخلفه على أعماله حين توجه للحج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فطمع في الملك وعصى على خلف لما عاد من الحج، فاستنصر خلف الأمير منصور بن نوح وسأله معوثته، ورده إلى ملكه، وأنجده وجهاز له العسكر⁽¹⁾. واستمر الخلاف بينهما حيث غلبه طاهر عليها مرة أخرى، ثم رده على أعقابها مرة أخرى، وظل خلف بن أحمد يحكمها حتى عام 393هـ، حين استولى عليها يمين الدولة. ولم أجد والياً بهذا الاسم حكم سجستان في تلك الحقبة. وقد تابع الثعالبي المتأخرون حين أخذوا عنه، ومع أننا لا نعلم طبيعة الصلة التي نشأت بينهما، والأسباب التي دفعت بالخوارزمي إلى هجائه، فإننا لا نستبعد أن يكون الحبس نتيجة موقف سياسي التزم. به الخوارزمي مع خلف بن أحمد حين شب الصراع بينهما، ذلك أن رسائل الخوارزمي قد حوت رسالة منه إلى خلف بن أحمد رداً على رسالة تعزية كان قد بعث بها خلف إليه⁽²⁾. مما يشير إلى طبيعة العلاقة بين الخوارزمي والأمير، ولا نعرف طول المدة التي قضاها في السجن، حيث ترددت فيه صيحات الاستغاثة، وكان ما زال قريب العهد بآل ميكال، فكتب إلى أبي نصر قصيدة يستصرخه فيها، ويصور ما آل إليه من ذل، وما حل به من مصائب على يد طاهر، ذاكراً أيامه السابقة برفقتهم، عاضاً على أصابع الندم على فراقهم، يقول⁽³⁾:

كتابي أبا نصر إليك وحالتي	كحال فريس في مغالب ضيغم
أرق من الشكوى وأدجى من النوى	وأضعف من قلب الحب المتيم
غدوتُ أخا جوع ولستُ بصائم	ورحتُ أخا غري ولستُ بمحرم

(1) الكامل في التاريخ 8/ 563 - 564.

(2) الرسائل / 92.

(3) اليتيمة 4/ 205.

وقعتُ بفخِّ الخوفِ في يد طاهرٍ وقوع سليك في حبائل خثعم
وما كنتُ في تركيك إلا كتاركٍ يقيناً وراضٍ بعده بالتوهم
وقاطن أرض الشرك يطلب توبةً ويخرجُ من أرض الخطيم وزمزم
وذي علة يأتي عليلاً ليشتهي بها وهو جازٌ للمسيح ابن مريم
وراوي كلام مقتفٍ إثر باقلٍ ويترك قساً خائباً وابن أهتم

ويستمر في لوم نفسه وتقريعها على ما ارتكبه من جرم بحق نفسه حين فارق هؤلاء القوم وهم الذين ألبسوه لباس العز، ويسخر مما رمي به من تدبير للمكائد، فيقول⁽¹⁾:

لبست ثياب العز حتى تمزقت جوائبها بين الجوى والتندم
أظللُ إذا عاتبت نفسي مُنشداً (فهلأ تلاً حاميم قبل التقدم)
وأنشدُ في ذكرى لدارك باكياً (ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم)
ولم أر قبلي من يُحاربُ بختةً ويشكو إلى البؤس أفتقاد التنعم
وقد كان رأساً للتدابير بلعم وقد صرتُ في الدنيا خليفة بلعم
وقد عاش بعد الخلد في الأرض آدم فإن شئت فاعذرني فلإني ابن آدم

يقول الثعالي⁽²⁾: أن الله قد جعل له من الحبس مخرجاً، فنهض إلى طبرستان، وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شار، وبنو شار هؤلاء كانوا ملوك غرستان⁽³⁾، والظاهر أنهم رغبوه في الوفود عليهم، ولم يكرموا مثواه، فصب عليهم

(1) المصدر السابق 4/ 205 - 206.

(2) يتيمة الدهر: 4: 207.

(3) غرستان: ولاية هراة غربيها والغور شرقيها ومرو الروذ عن شماليها، وغزنة عن جنوبيها، قال البشاري هي غرج الشار وتفسيره جبل الملوك وملوكها إلى اليوم يخاطبون بالشار.

حم غضبه، يقرعهم تارة، ويسخر بهم أخرى، فيقول⁽¹⁾:

ألا أبلغ بني شار كلامي ومن لم يلقههم فهو السعيد
علام ابتعثتم فرساً عتيقاً وليس لديكم علفاً عتيقاً
وفيم حبستم في البيت بازاً يحبس الطير عنه أو يجيد
فلا قربتموه فعلتُموه ولا خليتم عنه يصيد

ويقول من أخرى بأسلوب مشبع بالسخرية⁽²⁾:

لله في كل ما قضاه لطائف تحتها بدائع
سبحان من يطعم ابن شار ويشرك الكلب جائع

في بلاط صاحب بن عباد:

استمر الخوارزمي يتنقل بين الأقاليم بمدح الولاة، ويأخذ عطاياهم، فخرج على طبرستان، وارتد عنها، وقد خابت آماله بولاتها ثم اتجه بعد ذلك إلى نيسابور وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله بقصد صاحب بن عباد الذي كان وزيراً لمؤيد الدولة، ثم لفخر الدولة.

ويورد ابن خلكان روايتين مختلفتين عن اللقاء الأول بين الخوارزمي والصاحب واحدة في ترجمة الخوارزمي يقول فيها⁽³⁾:

.. ويحكى أنه قصد حضرة صاحب بن عباد، وهو بارئجان، فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب: بالباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمه فقال للصاحب: قل له قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي من الأدباء

(1) البيهقي: 207/4.

(2) البيهقي: 206/4.

(3) وفيات الأعيان 4/401، وانظر الكنى واللقاب 1/22، وشذرات الذهب 3/105.

إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه، وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب، فأعاد عليه ما قال، فقال الصاحب: هذا يريد أن يكون أبا بكر الخوارزمي فأذن له في الدخول، فدخل عليه، وانبسط له.

أما الرواية الثانية التي أوردها في ترجمة الصاحب بن عباد، فيقول فيها⁽¹⁾:

ودخل أبو بكر الخوارزمي على الصاحب في أول لقائه إياه، فارتفع على الحاضرين في مجلسه من العلماء والأدباء، والجماعة لا تعرفه، فتساءلوا عنه وغازطهم ما رأوا منه، وقال أحدهم: من ذا الكلب؟ قولاً سمعه أبو بكر فالتفت إليه وقال: الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم، ويحفظ في مدحه مائة مقطوعة، وفي ذمة مثلها. فقال الصاحب: فانت أبو بكر الخوارزمي قال نعم: عبدك، فقال له حق لك، وقدمه وقربه.

وليس من شك في أن الرواية الأولى مبالغ فيها، وليس لنا أن نصدق بوجود هذا القدر من شعر النساء، ولكنها- على أية حال تشعر بما اشتهر به الخوارزمي من حفظ للشعر العربي، ورواية له، كونه جانباً مهماً من مخزونه الفكري والأدبي، زد على ذلك ما عرف به من شهرة في الأدب ورفعة في المكانة، تكونتا بفعل شخصيته الفذة، التي تترفع عن العامة وتقرب من الخاصة، فكانت سبباً في معرفة الصاحب له، وهو الوزير الشاعر الأديب، الذي أحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، ما يربو عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم⁽²⁾.

أما الرواية الثانية- وهي محرقة عن رواية السمعاني- فلا تكاد تثبت للأسباب الآتية:

1- أن هذه الحادثة وردت في ترجمة أبي العلاء المعري حين دخل على أبي القاسم

(1) وفيات الأعيان 1/ 413.

(2) اليتيمة 3/ 193.

المرتضى، فعثر برجل، وقد أوردها السيوطي في كتابه 'بغية الوعاة' صحيفة 126، وهي أقرب إلى الصحة، وذلك أن أبا العلاء رجل ضير، وقد يعثر أثناء المسير، ولا غرابة أن يكون الرد على تلك الشاكلة.

2- ما حوته من تناقض: ذلك أنه لا يعقل أن يدخل الخوارزمي مجلس الصباح، ويرتفع على الحاضرين من العلماء والأدباء، دون أن يأذن الصباح له بالدخول، ولو كان أذن له لما قال: فانت أبو بكر الخوارزمي.

3- ما تحويه الرواية من مبالغة شديدة، كان الهدف منها بيان قوة حافظته ومثل هذه المبالغات تتردد كثيراً في كتبنا الأدبية والتاريخية، تلحق بأولئك الذين طار صيتهم، وارتفع شأنهم، وامتازوا بقوة الذاكرة، وإتقاد الذكاء، ولعل ما نسب إلى بديع الزمان من أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها من أولها إلى آخرها، لا ينحرم حرفاً، ولا ينخل بمعنى، وأنه كان ينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه، ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يهدها عن ظهر قلب هذا⁽¹⁾... إلى غير ذلك - ليس إلا نوعاً من هذه المبالغات.

ويبدو أن هذا اللقاء قد حصل حين كان الصباح كاتباً لمؤيد الدولة باصبهان، وأن هذه العلاقة قد نمت مع الأيام فسعد جده بخدمته ومدخلته والحصول في جملة ندمائه المختصين به، فلم ينخل من ظل إحسانه ووابله، وغامر انعامه وقابله،⁽²⁾ وبقي الخوارزمي مخلصاً لابن عباد الذي ولي الوزارة لفخر الدولة بعد ذلك.

ومما يلفت النظر أن هذه الصلة المتينة لم تذب شخصية الخوارزمي فحافظ على علاقاته بأشد خصوم آل بويه، ولم تمنعه من إظهار وجهة نظره، فصرح بها غير خائف ولا هيباب في عصر مليء بالتقلبات السياسية التي لا تستند إلى جذور فكرية

(1) البيتة 4/256.

(2) البيتة 4/207.

واجتماعية واضحة بقدر ما كان صراع مصالح آنية بهدف إلى السيطرة على الأمصار
 لجمع الثروات، والتمتع بالخيرات. ومن المعروف أن الأمير قابوس بن وشمكير كان
 من ألد أعداء آل بويه، وكان يتنازع وإياهم السيطرة على جرجان واصفهان وبلاد
 الجبل وتحالف مع فخر الدولة البويهية عندما خرج على أخويه عضد الدولة ومؤيد
 الدولة، بعد وفاة والدهم ركن الدولة، ومع هذا فقد ترك الخوارزمي أشعاراً يعبر فيها
 عن حبه وتقديره لهذا الأمير، ويمدحه ويزري بخصومه، ويعاتب الدهر لأن هناك بلاداً
 يُخطب فيها على المنابر لغيره، فيقول⁽¹⁾:

شموسٌ هنَّ الخدرُ والبدرُ مغربٌ	فطألعها بالبين والهجر غاربٌ
ولكنَّما شمسُ المعالي خلافتُها	مشارقةٌ ليستَ هنَّ مغاربٌ
فما لقُبه الشمسُ إلا وقد رووا	(بأنك شمسٌ والملوكُ كواكبُ)
أقول لزوار الأمير ترخَّلوا	فمن زاره من راجل فهو راكبٌ
وإن زاره الفرسانُ كنتُ كفيْلهمُ	(بأن يرجعوا والخيلُ فيهم جنائبُ)
إذا رجعوا عن بابهِ فنشيدهم:	(وإن سكتوا أثنت عليه الحقائقُ)
ألا أبلغوا عني الأمير رسالة	تدل على أني على الدهر عاتبٌ
إلى كم يحلُّ المرءُ مثلك بلدة	بها منبرٌ فيها لغيرك خاطبٌ
لقد هان من أمسى ببلدة غيره	(وقد ذلُّ من بالت عليه الثعالبُ)

ولكنه لا يستسلم للعتاب، فيرفع عقيرته بصيحة الدعاء إلى الحرب، وقضاء حق
السيف من الأعداء، مذكراً إياه بأجداد أسلافه الذين ركزوا دعائم السلطان،
ويضيف⁽²⁾:

(1) اليتيمة 4/ 221، تاريخ العتي 1: 407.

(2) المصدران السابقان.

وأنت ابنُ عمِّ السَّيفِ بل أنتَ عمُّه وكيف تخافُ الأقربينَ الأقاربُ
اليس أبوكُم وشمكيرٌ وجده زيارٌ ومرداويجٌ عمُّ مناسبٌ
تحركُ بنا إمالةً ومثبرٌ وإما حسامٌ كالعقيقة قاضبٌ

لكن هذه الوقفة الشجاعة تتبدل بعد حين، فيقف الخوارزمي إلى جانب
الصاحب ابن عباد حين توجه إلى جرجان لقتال الأمير قابوس بن وشمكير، ويعلن
استعداده للمشاركة في الحرب إذا أذن له الوزير بذلك، وسيرى منه فارساً يصول
الشجعان كما سمع منه عالماً يفوق الأقران، فيخاطبه قائلاً⁽¹⁾:

قد شمرت أيد الله الوزير ذيل المحارب، ورفعت رجل الراكب، وفارقت
خراسان عزمًا، وإن كنت بها جسمًا، وإذا ورد علي له أذن طفرت إلى عسكره طفرة
تطوي المراحل وتاكل المناهل، بعد أن حصلت من العتاد والعدة، ومن الشوكة
والشكة، ما ينظم شرائط أوس بن حجر الكندي ومزود بن ضرار التغلبي؟ قال أوس:
وإني أمرؤ أعددت للموت بعدما رأيت له نابا من الشر أعصلا
وقال مزرد:

وعندي للحرب العوان مهئذ

... فإن أذن لي الوزير في ورود عسكره المحفوف بجناح النصر، المكنوف
بجوانب الدولة والكثرة، رأى مني بحمد الله تعالى فارساً ملء العين، كما سمع مني عالماً
ملء الأذن.

ولا يكتفي بالنصرة والمفاخرة، فيتعدى ذلك إلى وصفهم بالأعداء ويشمت بهم،
ويسخر بهم وبآبائهم فيقول:⁽²⁾

على أن العدو إذا ظللته تلك الراية المنصورة، يخطو خطوة أولها جرجان

(1) الرسائل / 58.

(2) الرسائل / 59.

وآخرها خراسان، تقبلاً لأوليه، وجرياً على وتيرة أبيه، فإنه أعقل من أن يقلد أمه ويخالف أباه، ومن خالف أباه فقد نفاه، سيهزم من رجل طالما هزم، وينهزم ابن رجل طالما انهزم ومن أشبه أباه فما ظلم.

ولعلي لا أخطئ في تفسير هذا التلون في السلوك إذا قلت أنه يعود إلى ما كان بينهما من صلة توثقت حين فتح قابوس صدره للخوارزمي، وبسط يده، حتى إذا قبضها وانصرف عنه بشواغل الحرب، ومساجلة الخصوم، وهى جبل المودة بينهما وانقطع. ويعزز رأينا ما كتب به إلى وزير قابوس بن وشمكير معاتباً على الجفاء الذي لحقه، منكرأ عليه معاملته إياه كسائر الأخوان، وهو الرجل الذي يترفع عن العامة، ويقترّب من الخاصة فيقول⁽¹⁾:

(وكل ولاية لا بد يوماً مغيرة الصديق على الصديق

لقد كنت انتظر مصداق هذا البيت من سيدي حتى حقق الله تعالى ظني، ولو أكذبه كان أحب إلي، وأوقع لدي... فإن كان سيدي عمّ بهذا الجفاء لإخوانه، فخلطني بهم وجعلني واحداً منهم، لقد أخلف ثقتي بانفرادي عن صحبه، وأخلف ظني بناحيتي من قلبه، وكنت أحسب أنه يخصني بينهم بفضل المقة، كما خصصته من بينهم بفضل الثقة. وإن كان وصلهم وقطعني دونهم، لقد عكس حكم الرجاء وغرس الجفاء في منبت الوفاء، وأساء الترتيب بين الأصدقاء وما أدري له في واحد الفعلين عذراً.

ومع ذلك فإننا لا نستبعد تأثير البويهين ووزيرهم ابن عباد في هذا التغير.

ولكننا لا نخفي دهشتنا من موقف آخر للخوارزمي يدل على شجاعته وشدة عارضته في إظهار مشاعره وأحاسيسه التي لا تتفق ومشاعر الساسة والحكام، ذلك هو موقفه من أبي الفتح بن العميد الذي سملت عيناه، وقطع أنفه، ثم قتل بعد أيام بأمر

(1) الكامل في التاريخ 8 / 675.

من مؤيد الدولة ليحل مكانه الصاحب بن عباد⁽¹⁾ فيرثي أبا الفتح بقصيدة يعدد فيها مناقبه ويبين حزنه ولوعته، ويلوم الدهر على فعلته، وليس الدهر عنده إلا أولئك الساسة الذين جبلوا على الغدر، وتربوا في أحضان الخديعة لا يردعهم خلق، ولا يؤنبهم ضمير، فالزمان بالسلطان، والزمان بالإمكان⁽²⁾ والسلطان متصرف على حكم حاشيته وبطانته يقول في رثائه:

يا دهرُ إنَّك بالرجال بصير	فلطالما تجتاحهم وتبِيرُ
يا دهر غيري من خدعت بباطلٍ	وابن العميد مغيبٌ مقبورُ
الآن نادتنا التجارب طلقوا	دنياكم إنَّ السرور غرورُ
يا دهر ظلّ لمخليك فريسةً	رجلٌ لعمرى لو علمت كبيرُ
رجلٌ لو أن الكفر يحسن بعده	هَجِيَّ القضاء وأنبُ المقذورُ
أشكو إليك النفس وهي كئيبةٌ	وأذمُّ فيك الدمع وهو غزيرُ
وأقول للعين الغزير بكأوها	خطبٌ لعمرى لو عميت يسيرُ
قد متٌ بعدك ميتةٌ مستورة	قد ساقها لي موتك المشهورُ
ودفنتُ في قبرٍ الهموم وضميني	كفنان ضيقُ الصدر والتفكيرُ
ضحكت إليك الحورُ ضحكك كلما	وأفأك ضيفٌ أو أتاك فقيرُ

لكن قصيدة الرثاء هذه بما اشتملت عليه من عواطف لاهية، لم تمنعه من تفحص الأمر ليرد أسباب الحنة إلى جذورها معطياً كل ذي حق حقه، مقدراً للصاحب مكارم أخلاقه، فيقول في رسالة بعث بها إلى بندار نيسابور، لما رجعت الوزارة إلى ابن عباد، وعفا عن ندماء ابن العميد:

(1) الأمثال المولدة/ للخوارزمي/ 3- ب.

(2) اليتيمة 4/ 226- 227.

ووجدت فلاناً وفلاناً ندماء ابن العميد رحمه الله، وقد ألبسهم الخذلان ثيابه، ونفض عليهم الأدبار ترابه، ونبذهم الإقبال وراء ظهره، ونظر إليهم الزمان بمؤخر عينه، فهم أرخص من التمر بكرمان، وأضيق من الورد في حزيران، وأكسد من أبي بكر الخوارزمي بخمرسان، وكذلك تكون مصارع البغي والعدوان، ولقد جلسوا على قارعة الأمصار، واعترضوا يد التحكم والاعتدار، واستهدفوا لسهام الأيام والأقذار، لولا أن أمورهم أفضت إلى رجل عليه من التوحيد والعدل مانع، ولديه من الحلم والحياء وسيلة وشافع، هذا وقد ولغوا في دمه ورتعوا في لحمه. وخبوا وأعنقوا في ذمه بل في شتمه، فلم يبقوا في القوس منزعاً، ولم يتركوا للصلح موضعاً. فلما دفع الإقبال ربقتهم إليه، وصارت حياتهم وموتهم في يديه أسبل عليهم ستر العفو والمغفرة....

إلى أن يقول "... وما أذكر المتوفى رحمه الله إلا بخير، ولا أقابل نعمه إلا بشكر ولكني أحب لرئيس مثله أن يختار ندماءه، وأن يشترط على المحاسن جلساءه... فأما أن يكون الندماء يتقربون إلى الملوك بهتك الأسرار من الأستار، ويأكلون خبزهم بلحوم الأحرار، فذلك مما يضيق عنه مسلك الحرية.

إن موقفاً كهذا، يستحق التقدير والإعجاب، في عصر اضطربت فيه السياسة واختلط الحابل بالنابل، ولم يعد الأديب قادراً على تبني وجهة نظر يدافع عنها لأنه سيتحمل تبعه ذلك انتقاماً وحسباً وتشريداً. فما كل نصر دائم، ولا كل هزيمة ماحقة.

علاقته بالبويهيين:

لا نستطيع تحديد الفترة الزمنية التي اتصل فيها الخوارزمي بالبويهيين ولكنها كانت فترة مبكرة من حياته، فقد اتصل بركن الدولة الذي توفي عام 366 وفي رسالته إلى حاجب ركن الدولة بالري ما يدل على تقديرهم له، وإكرامهم إياه⁽¹⁾ كما أن في قصيدته التي نظمها في رثاء ركن الدولة ما يؤكد هذه الحقيقة، ذلك أن موت ركن

(1) الرسائل/ 76.

الدولة من وجهة نظره قد هدم ركن الخلافة، وزلزل جوانبها، وقد هزم فيه الموت رجلاً عظيماً إذ يقول⁽¹⁾:

أست ترى السيفَ كيفَ انثلمَ	وركنَ الخلافةَ كيفَ انهدمَ
طوى الحسن بن بويه الردى	أيدري الردى أي جيش هزم
طويل القناة قصير العداة	ذميم العداة حميد الشيم
فصيحُ اللسان بديعُ البنان	رفيعُ السنان، سريعُ القلم
يكيل الرجال بأقدارها	ويرعى البيوتات رعي الحرم
جواد عليهم بخيل بهم	إذا ساء خص وإن سرَّ عم

وما أن توثقت علاقة أبي بكر بابن عباد حتى أوفده إلى حضرة عضد الدولة بشيراز الذي ولي الملك بعد والده ركن الدولة، مما كان سبباً لارتياشه ويساره فإنه وجد قبولاً حسناً، واستفاد منها مالا كثيراً، ولما انقلب عنها إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، ودرت عليه أخلاف الدنيا من الجهات، وحين عاود شيراز، ورد منها عللاً بعد نهل، فأجرى له مع انصرافه رسماً يصل إليه في كل سنة بنيسابور، مع المال الذي كان يحمل من فارس إلى خراسان⁽²⁾.

حافظ الخوارزمي على عهده لآل بويه، الذين بوأوه مكاناً مرموقاً، وفاضت نعمهم عليه، فافاض في مدحهم، وأكثر من الثناء عليهم، والاعتراف بالجميل لهم يقول فيهم⁽³⁾:

ألا حركالي أبرويز بن هرمز	وقولا له قم تلق أعجوبة قم
تطلع إلى الدنيا لتعلم أن ما	ملكته من الدنيا بمقدار درهم

(1) البيهقي/4/208.

(2) البيهقي/4/207.

(3) البيهقي/4/223، محاضرات الأدباء 1/159.

لعمرك لولا آل بوية لم يكن نهاري إلا مثل ليل المتيم⁽¹⁾
هم جعلوني بين عبد وقينة ودار ودنيار وثوب ودرهم
وهم تركوا الأيام تعجب أن رأت سلوي، وما أرقى السماء بسلم

وهو لا يرى فيهم ملوكاً عظاماً فحسب، ولكنه يتلمس بهم ماضي الفرس المجيد
وحضارتهم الغابرة، وعزهم المفقود، وملوكهم العظماء، الذين لو تطلعوا إلى الدنيا
لوجدوا أن ما ملكوه صغير بالإضافة إلى ما ملكه عضد الدولة، وأنهم لم يخسروا بعد
عضد الدولة إلا ذلك الدين المستسمج، يقول⁽²⁾:

ختمت بك العجم الملوك وراجعت بك تاج ملكهم القديم المنهج
لم يفقدوا بك أردشير وإنما فقدوا نقيصة دينه المستسمج

ولم يستطع إخفاء مشاعره وأحاسيسه القومية المنبعثة من أعماق نفسه فشيراز
أضحت قبلة يتوجه بنفسه إليها وتشغله في صحوه ومنامه، لأن عضد الدولة أعاد لها
سطو بهرام وعمر بها ملكه: يقول من قصيدة مدح بها عضد الدولة⁽³⁾:

متى أشق رواق الملك تلحظني عين امرئ بغيوب المجد علام
متى أرى قمر الديوان مطلقاً في سطو بهرام بل في ملك بهرام
متى أقبل فرشاً لا يقبله عاف فيفرق بين الترب والسام
مالي أبيت بشيراز وأصبح في داري فدت يقظتي نومي وأحلامي
ما يطلب الحلم من قلبي يقبله عندي من السقم ما يكفيه أسقامي

(1) البيتمة/4/ 208.

(2) البيتمة 4/ 407، خاص الخاص 291، الإعجاز والإيجاز/ 199 مع شيء من الاختلاف فيه وما بعده من أبيات.

(3) البيتمة/4/ 208.

أصبحت أشكر ليلاً أشتكي غده الليل عوني والأيام غرامي
والأرض تعلم أنني سوف أمسحها حتى أرى من يرى بالليل أوهامي

وكانت صلته بمؤيد الدولة، ونصر الدولة وطيدة ثابتة الأركان، وإن لم تصلنا
إلا قصائد قليلة في مدحهما، لكن هذا القليل قد أغنى عن الكثير، فخلد ذكرهما في
شعره أحياء وأمواتاً، فأغاظ أقواماً، حتى حنقوا عليه، ودبروا له المكائد، يقول من
قصيدة في مدح مؤيد الدولة ذكر فيها افتتاحه قلعة من أبنكار القلاع، واستنزال
صاحبها المسمى كوشيار⁽¹⁾.

وكنت سماءً والعجاج سحائباً وخيلك أبراجاً وجيشك أنجماً
وأنزلت منها كوشيار وإنما تقنصت من فوق المجرة ضيغماً
عرفتك صياد الأسود ولم أكن عرفتك صياد الأسود من السما
خدمتكم يا آل بويصة مدّة غدا بينها فرخ الوسائل قشعماً

ولما رجعت الإمارة إلى فخر الدولة، بعد وفاة مؤيد الدولة، أنفذه الخوارزمي
قصيدة، رثى فيها مؤيد الدولة. وهنأه بالإمارة يقول فيها⁽²⁾:

رئيت أخاً لو خير المجد في أخ من الناس طهراً ما عداه ولا استثنى
وقد جاءت الدنيا إليك كما ترى طفيلية قد جاوبت قبل أن تدعى
صبت بك عشقاً وهي معشوقة الوري فقد أصبحت قيساً وعهدي بها ليلي
ولما رأت خطائبها تركتهم ولم ترض إلا زوجها الأول الأولى
ولم تتساهل في الكفّي ولم تقل رضيت إذا ما لم تكن إيل معزى
على أنها كانت جفتك تدللاً فخليتها حتى أتت تطلب الرجعى

(1) البيتمة/ 4/ 225 وفي نهاية الأرب ثمانية أبيات أخرى منها 1:405.

(2) البيتمة 4/ 227-228، تاريخ العني 1/ 131-132.

لقد أعطى كل منهم لصاحبه عطاء جزلاً، متن عرى المودة ووثقها، ويعود الفضل في هذا إلى الصاحب بن عباد، الذي أوفده إلى عضد الدولة، وقربه إلى مؤيد الدولة وفخر الدولة، وفي شعره ورسائله ما يدلنا على منانة الصلة التي كانت تجمعهما، فقد مدح الصاحب بقصائد كثيرة عدد فيها مناقبه، وبين مآثره فهو الذي نصر العدل والتوحيد، وأقام للأدب سوقاً وأكرم العلماء والأدباء، وخلصهم من غائلة الفاقة والعوز.

يقول في مدحه⁽¹⁾:

ومن نصر التوحيد والعدل فعله وأيقظ نِوَامَ المعالي شمائله
ومن ترك الأخيار يُشَدُّ أهلُه (أجل أيها الربعُ الذي خفَّ أهلُه)

ويقول من أخرى⁽²⁾:

أخو كلماتٍ ما جلاها لسائِه على أحدٍ إلا غدا وهو خاطبُ
متى يروها أهلُ الصُّنْاعةِ يُشَدُّوا (عجائبُ حتى ليس فيها عجائبُ)

ويقول من غيرها⁽³⁾:

طلقتُ بعدك مدح الناس كلُّهم فإن أراجعُ فإنني محصنٌ زائني
وكيف أمدحهم والمدحُ يفضحهم إن السُّببُ للجاني هو الجاني
قومٌ تراهم غضاباً حين تُنشدهم (لكنه يشتهي مدحاً بمجَّانٍ)
ورابني غيظهم في مدح غيرهم (ولئما الشعرُ معصوبٌ بعثمانٍ)
ما كل غانية هنْدٌ كما زعموا ورئما سبُّ كشحانٍ بكشحانٍ

(1) البيّمة 214/4.

(2) المصدر السابق 214/4.

(3) المصدر السابق 215/4.

فسوف يأتيك مني كل شاردة
يقول من قرعت يوماً مسامعه
الوشي من أصبهان كان مُجتلباً
قد قلتُ إذ قيل إسماعيلُ مُمدحٌ
(الناس أكيسُ من أن يمدحوا رجلاً
حتى يروا عنده آثار إحصان)

ويبدو أن حدود العلاقة بينهما قد تعدت حدود العلاقة التقليدية بين السلطان والشاعر ولا أدل على ذلك مما كتب به الصاحب إلى الخوارزمي حين قال⁽¹⁾:

أسعدك الله ييـوم الفصح
يا رأس مالي في الوري وربحي
وعشت ما شئت ييـوم سمح
وظفـري ونصـرتي ونجـحي
شرباً ولا تصغ لأهل النصـح
فالحزم أن تسكر قبل تصـحي

شرب النصارى في غداة الفصح

وفي رسائله إلى الصاحب بن عباد ما يدل على عمق الثقة وتجاوز الحدود المشار إليها فأيادي ابن عباد جميلة لديه، وثياب عزه فضفاضة عليه، فلم يترك فرصة تفوته إلا وعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه تجاهه⁽²⁾.

ولا يفوتنا أن نذكر أثر العامل المذهبي في هذا الالتقاء، ذلك أن الخوارزمي كان يذهب مذهب الشيعة الغلاة - وهو ما ستحدث عنه في فصل قادم - وكان آل بويه ينصرون مذهب التشيع، فلا غرابة والحالة هذه - أن ينتصر الخوارزمي لهم، ويؤازرهم، ويغض من سلطان خصومهم السامانيين الذين كانوا يعتنقون مذهب السنة:

(1) المصدر السابق 3/ 267.

(2) انظر رسائله 82/ 85، 157، 153.

يقول الثعالبي⁽¹⁾... وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً، ويغض من سلطان خراسان. ولعل ما لقيه الخوارزمي على يد محمد بن إبراهيم بن سيمجور، قائد جيوش خراسان من سجن وتعذيب وتشريد، يعود في كثير منه إلى هذا العامل، ففي رسالته التي بعث بها إلى شيعة نيسابور لما قصدهم محمد بن إبراهيم والياً، ما يزيل كل لبس وما يوضح كل إبهام، فقد عرض فيها أحوال الشيعة، مذشقوا طريقهم، وما لاقوه من عنت، وما تحملوه من مصائب واصفاً ابن سيمجور بأنه⁽²⁾ 'سلطان لا يتحمل إلا على العدل، ولا يميل إلا على جانب الفضل، ولا يبالي أن يمزق دينه إذا رقى دنياه، ولا يفكر في أن يقدم رضا الله إذا وجد رضا'.

ونحن لا نميل إلى ما أورده التوحيدي في كتابه أخلاق الوزيرين عن طبيعة الصلة التي ربطت بين أبي بكر، وابن عباد وآل بويه: يقول التوحيدي⁽³⁾:

'وكان الخوارزمي من أفصح الناس، ما رأينا مثله في العجم، وإنما نوله الصاحب ما نوله وخوله ما خوله، لأنه كان أذكاه عيناً على محمد بن إبراهيم صاحب الجيش بنيسابور واستملى فيه أخبار المشرق، وبهذا المعنى استدر له من ملك بغداد بواسطة ابن يوسف. وكان الظاهر أنه إنما يعطيه لأدبه، ويجيزه لشعره، ويصطفيه لفضله' ويعود إلى تأكيد الخبر مرة أخرى فيقول⁽⁴⁾:

'.... وحدثني بذلك أبو بكر عينا بخراسان أبو الطيب النصراني، وكان علي السر عند مؤيد الدولة، وكان يعرف من مخازي ابن عباد عجائب'.

ولعل فيما عرف عن التوحيدي من تزيد على الوزيرين من خلال الروايات والصور والأحاديث التي جمعها ونسقتها في كتابه، ما يرجح جانب الشك في هاتين

(1) اليتيمة 4/ 208.

(2) الرسائل / 130.

(3) أخلاق الوزيرين / 108-109.

(4) المصدر السابق.

الروايتين وفي الروايات الأخرى التي أراد الاستشهاد بها على سوء معاملة الصاحب للخوارزمي وسوء أخلاق ابن عباد⁽¹⁾.

ومما يزيد في ضعف هذا الرأي ما تحدثنا به عن طبيعة العلاقة التي ربطت بينهما. وهي علاقة بنيت على المنفعة المتبادلة، ذلك أنه قد أفاض عليهم بالمدح، وأصاب أعداءهم بالقدح، وسل عليهم سيوف الكلم التي ما نبت، وأوقع فيهم هزائم لا تصدها البواتر. فهو وغيره من الشعراء والأدباء من أمضى أسلحة الدعاية والحرب النفسية.

ولا غرابة بعد هذا أن يكيلوا له الصاع صاعين، فيخرجوه من ذل الفاقة إلى عز الثروة، فإذا هو بين عبد وقينة، ودار ودينار وإذا به يدخل مجالسهم، ويخاطبهم ويراسلهم، ويجعلون له رسماً يصل إليه في نيسابور كل عام.

علاقته بمحمد بن إبراهيم - صاحب جيوش السامانيين:

استقر الخوارزمي في نيسابور، وامتلك بها ضياعاً وعقاراً، وكان اختياره لها لأنه أراد أن يأمن بها على ماله وولده بعد مماته، ولكي لا يخاف على روحه وعرضه⁽²⁾ في حياته ولكنه أتى من مأمته، ذلك أن محمد بن إبراهيم قائد جيوش السامانيين الذي استقر في نيسابور - لم يطق رؤية الخوارزمي فيها، وهو الرجل الذي أبان عن ميل واضح إلى آل بويه لما حبه من نعم رفدت شخصيته الأدبية، فنال بها منزلة اجتماعية، كما أن ما بينهما من خلاف في المذهب قد وضحت صورته من خلال رسالة الخوارزمي إلى شيعة نيسابور. فكانت مهمة الوشاة - عقب كل ذلك، سهلة ميسورة، فيقبض عليه، ويسجن، ويتمكن من الهرب⁽³⁾ فيفر على وجهه طلباً للنجاة تاركاً أهله

(1) أخلاق الوزيرين / 107-109-375.

(2) الرسائل 126.

(3) الرسائل / 130.

وضياعه وأمواله. ويلاحقه الخوف، ويكمن له في كل ناحية، فإذا هو مدهول مرعوب
وها هو يحدثنا عن نفسه قائلاً⁽¹⁾.

ولقد نشبت بين أظفار الخوف، وعقلت بجباله الختف، فلا أنا لما ورائي آمن،
ولا إلى ما أمامي أمل، وما كنت أحسب أنني أنظر إلى قبري قبل انقضاء عمري، ولا
أنى أرى شخص ملك الموت في حياتي قبل أن يجيء وقت وفاتي.
وتضيق به السبل وهو يتلمس الأمل بالنجاة فيقول⁽²⁾:

.... إلى أين المهرب من الفلك الدوار، ومن القدر الجبار، ومن خطر الليل
الذي هو مدركي، وأن خلت أن المنتأى عنه واسع، ومن المجير من رجل الأنام داخل
تحت ملكه، والأيام منخرطة في سلكه.

وفي هراة- حيث قذفت به المحنة- لقي مأمنه، وعمرت بعد الخراب حالته⁽³⁾،
وما أن نزلت السكينة على قلبه، وزال عنه الخوف حتى أظهر مشاعر السرور والفرح
مختلطة بما عرف عنه من شموخ نفس وعزة جانب يقول في رسالة إلى تلميذ له⁽⁴⁾.

كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء، وبرز البدر من
الظلماء وقد فارقتني المحنة، وهي مفارق لا يشتاق إليه، وودعتني وهي مودع لا يئس
عليه والحمد لله تعالى على محنة يجليها، ونعمة ينيلها ويوليها...

وقد بين الخوارزمي أسباب محنة ومأسية حين خاطب عضد الدولة يقول⁽⁵⁾:
وغاظ مدحك أقواماً وفي يدهم لو طاعوا الجود تقديمي وإحجامي

(1) الرسائل / 99.

(2) الرسائل / 65.

(3) الرسائل / 107.

(4) الرسائل / 98.

(5) البيضة 4 / 24.

وما ظننت على نهرٍ فأغضبهُ لكن ذكرت عباب الزاخر الطامي
أكلُ فاضلِ أقوامٍ شهدتُ له يغتاز من ذكره مفضول أقوام

علاقته بالعتبي، وحسام الدين أبي العباس تاش:

ويبدو أن أبا بكر قد عاد إلى نيسابور عام 371 بعد عزل أبي الحسن محمد بن إبراهيم عن قيادة جيوش خراسان، واستعمال حسام الدولة أبي العباس تاش عوضاً عنه، بأمر من أبي الحسن العتبي، الذي كان وزيراً للأمير نوح بن منصور الساماني⁽¹⁾، ولم يكن حظ الخوارزمي معه بأفضل منه مع محمد بن إبراهيم، ذلك أن أبا الحسن العتبي كتب إلى تاش في أخذه ومصادرته وقطع لسانه، وإلى أبي المظفر الرعيني في معناه، وكان يلي البندرة بنيسابور إذ ذاك، فتولى حبسه وتقييده وأخذ خطه بمائتي ألف درهم، واستخرج بعض المال وأذن له في الرجوع إلى منزله مع الموكلين به ليحمل الباقي، فاحتال عليهم يوماً وشغلهم بالطعام والشراب وهرب متنكراً إلى حضرة صاحب بن عباد بجرجان⁽²⁾.

ويرى الثعالبي أن سبب ذلك يعود إلى أنه كان يتعصب لآل بويه ويغض من سلطان خراسان، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه، إلى أن كانت أيام تاش الحاجب، ورجع من خراسان إلى نيسابور منهزماً، فشمت به، وجعل يقول: قبحاً له وللوزير أبي الحسين العتبي، فأبلغ العتبي أبياتاً منسوبة إلى الخوارزمي، في هجائه، ولم يكن قالها منها: قل للوزير أزال الله دولته جزيت صرفاً على قول ابن منصور⁽³⁾

ويبدو أن كثير بن أحمد⁽⁴⁾ هو الذي دبر له حيلة الهروب، ذلك أنه قد سمح له

(1) الكامل في التاريخ 9/ 10.

(2) البيهقي 4/ 208.

(3) البيهقي 208.

(4) لم أجد له ترجمة، كاتبه الخوارزمي انظر الرسائل 8 و60 و210.

بالخروج مع الموكلين لجلب المال، فيشغلهم بالطعام والشراب ويهرب، وكان بإمكان الموكلين استخراج ما يريدونه من الأموال وغيرها، من غير أن يؤثر وجوده في شيء فكيف، وقد شغلهم بالطعام والشراب.

يقول من رسالة بعث بها إليه: علمت أن الشيخ قصر عني المحنة وهي طويلة، وصرف عني ولاية النحوس، وهي بسيطة... فلعمري لئن كنت أشكر لمن وهب لي مالاً، أني لمن وهب لي رuchi لأشكر، ولئن توفر علي أفضال من أغناني، فإن أفضال من استبقاني، ولو شاء أفناني أوفر، فقد جاد علي الملوك بالصلوات وجاد علي ذلك الأمير بالحياة، فهناه الله بهذا الشكر الغريب، وهذا الثناء العجيب، وذلك أني أشكر الملوك على أنهم أغنوني. وأشكره على أنه لم يفقرني، وأمدحهم لأنهم أحيوني وأمدحه لأنه لم يقتلني...

اتجه الخوارزمي عند هربه إلى الري⁽¹⁾، ثم إلى حضرة الصاحب بن عباد يجران ومن الري بعث برسالتين إلى محمد العلوي، وإلى كثير بن أحمد، يبين لهما حالته بعد الهرب، وأسباب المحنة، ويدافع عن نفسه. يقول في رسالة إلى محمد العلوي⁽²⁾:

أطال الله بقاء سيدنا، من بعض مطارح الغربية، ومساقط النكبة، فإننا فل من فلول هذا الزمان، لا بل فل من فلول هذا السلطان. والحمد لله على سلامة الروح والمهجة وإن كانت سلامة ضعيفة المنّة، رقيقة الكسوة ثقيلة الحركة، قليلة البركة، ليس بينها وبين الهلاك إلا أقرب من خطوة وأسرع من لحظة.

وهو يرى أن نكبته كانت بسبب من سعاية سمعها الأمير، فاستقرت في صدره فيقول:

... 'قد رأى السيد ما كان من العلانية، حين فوقت نحوي سهامها، ونشرت

(1) الرسائل / 9.

(2) المصدر السابق / 9.

لحربي أعلامها، وتسلحت على بالسعاية وهي سلاحها الذي به تقاتل، ويدها التي بها تطاول، والسعاية سلاح من لا سلاح له، والنميمة كيد من لا كيد له، وشر من الساعي من أنصت له، وشر من متاع السوء من قبله، فلما رأيت بيني وبين الموت حجاباً رقيقاً، وحجزاً دقيقاً، ورأيت نفسي، وقد اكتنفها أربعة أشياء ما منها إلا وهو يقرب عليها مسافة الممات، ويقطع علائق الحياة: خصم فاجر وسلطان جائر، وبخت عاثر، وزمان غادر، آثرت الغربة على وطن معه أذى، واخترت الظماً على شراب فيه قذى.... ويبين أسباب المصادرة والحبس وما حل به من نكبات فيقول:

"... وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان، وأسلف الشكر قبل الإحسان وقد كنت رأيت حاكماً يحجر على يتيم أو معتوه في وفره، ولم أر أميراً يحجر على كاتب في كتابه، أو على شاعر في شعره، وإنما الشكر أيد الله السيد- فرس جامع إذا منع من سننه قطع أرسانه، وأسلب عنانه، فشقي به سائسه، وهلك معه فارسه، والشعر ينقلب مع الجود حيث كان، ويرتاد المعروف والإحسان، وإنما هو ماء سارب بل سيل زاغب إذا سد عليه طريقه، خرق في الأرض خرقاً، وما أشبه من أكره الألسن على مدحه إلا بمن أكره القلوب على محبته:

يحبُّ المديحَ أبو خالدٍ ويضجرُ من صلة المادح
كبكرٍ تحبُّ لذيذ النكاح وتفرقُ من صولة الناكح

ويندو أن كثير بن أحمد قد توسط له لدى العتي، فكاتب الخوارزمي مبشراً بالعفو والصفح، فيلقاه الخوارزمي بكتاب مليء بالسخرية عن المواعيد التي لا يمكن أن يخدع ببريقها، وهو الذي عرف حقيقة الأمير، فيهاجم الأمير، ويعنفه بقسوة، ويدافع عن موقفه، ويرفض الإقرار بذنب لم يرتكبه ويهزأ من الطلب، فيقول:

لو علمت أني أسام خدمة من ليس له أثر علي، وأصادر على نعمة لم تصل إلي، لفارقت دار الهوان، ولكان جناحي وافر الطيران... ذكر بأنه تلمظ بالأمير حتى سلّ منه السخيمة، وحمله على أن اغتفر الجريمة وما عرفت لي جرماً يحتمل معذرة أو

ذنباً يستوجب مغفرة، فإن كان الأمير غفر لي ما سألني من السيئات، فهلا شكرني على ما آتته من الحسنات، وكيف استخار السلف فيما يتعلق بالعقوبة، ولم يستخره فيما يتعلق بالثوبة فإن كان مراده أن أقر على نفسي بذنوب ما آتته، والتزم بشكر جميل ما آتته، فهذه صدقة قد سامنيها، والصدقة لا تحل من الفقراء إلى الأغنياء ولا يحسن قولها من الشعراء وإن كان يريد أن يتوسل بهذا إلى اجتناء ثمرات اللسان، ويجب أن يسير ذكره في أثناء هذه المعاني الحسان:

فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروا عنده آثار إحسان

وإنما لساني خادم من خدم فؤادي، ومتصرف من متصرفي مرادي، فكيف يقتات علي بشكر غيره، وكيف يجود علي بما هو متصرف فيه لغيره. وإنما لسان الشاعر روضة لا تسلف الزهر حتى تستسلف المطر، ولا تضحك في وجه السماء حتى تستوفي حقها من الانداء، وإن كان الشيخ يرضى بعد هذا كله بظاهر اعتذاري، فلقد خرجت إليه من عهدة إضماري وأنا أقر بذنوب العالمين، حتى بذنوب إبليس في الأولين، وحتى بذنوب هاروت وماروت في المتقدمين، والتزام كل المعاييب، حتى معاييب بني أمية، ومعاييب بغلة أبي دلالة وأقول: قد ادبني الليل والنهار - وثقفتني الأحوال والأطوار فأبصرت قصدي، وتبينت رشدي، فليلبسني الأمير برضاه عني ثوب العزة كما ألبسني بغضبه علي ثوب الذلة وليجعلني عبداً أعوج فقوّم، وجعل فعلم فلما عرف نفسه، وتلافى يومه بأمسه رد عليه مكانه، ورجع إليه زمانه فأدعى أن النابغة ما اعتذر عني، ولم يفت لسانه إلا بضعة مني، وانتحل قول علي بن الجهم⁽¹⁾:

ليس عندي وإن تغضيت إلا طاعة حرة وقلب سليم
وانتظار الرضا فإن رضا السّا دات عفو، وعتبهم تقويم

وهذه الأقوال تؤكد ما ذهبنا إليه من أن ميله للبويهين، وميله عن السامانيين،

(1) لم أجدهما في ديوانه - تحقيق خليل مردم بك.

كان بسبب التكريم الذي لقيه عند البويهيين وما لقي من عذاب وسجن وتشريد وهوان عند السامانيين، وذلك ان البويهيين قد عرفوا بتكريمهم للأدباء والشعراء، فأقاموا للأدب سوقاً كما رفعوا مكانة العلم والعلماء، وهو أمر لم يبلغ السامانيون فيه مبلغهم كما أن نفس الخوارزمي الأبية، لم تكن لتشرى بالثمن البخس، وهو رجل الجلال والنضال، فكيف بهم وقد صادروا أمواله؟ لقد دفعت ظروف هذه الحقبة السياسية على انتهاج سبل متطرفة في تحصيل الأموال وجمعها، فركنوا إلى مصادرة الأموال لا يصدهم عن ذلك صلة نسب أو موالاة، ذلك أنه ليس بين الموالاة والمباعدة عندهم إلا لفظة فدية أو لقية بشعة⁽¹⁾، وما أسهل مصادرة الأموال بعد هذا، وهو أمر لم يسلم منه الوزراء والمقربون، فكيف بهؤلاء وقد وجدوه مؤيداً لأعدائهم. وقد أفاضوا عليه فأغنوه، لا ريب أن عقولهم ستفتق عن حيل للإيقاع به، وما أسهل الإيقاع بالشعراء والأدباء.

ويصور الخوارزمي ما آلت إليه حالته بعد هروبه إلى حضرة الصاحب بن عباد بقصيدة لحس فيها مقدار الحرقة والألم، وتلمس ضيق نفسه بالظلم الذي حل به على يد السامانيين. فيكل أمرهم إلى الله ليثأر منهم فيقول مخاطباً الصاحب بن عباد⁽²⁾.

فإن ردني دهري عليك طريدة فلا غرو أن يسترجع القوس حاجب
هو الوكر طرنا منه والریش وافر وعدنا إليه الآن والریش ذاهب
ويقول:

جزى الله عني أهل سامان ما أتوا وفي الله للثأر المضيع طالب
هم زوجوني الهمة بعد طلاقه وذلك عرس للمآتم جالب
هم أعطشوا زرعني فشمت سحائب غرائب لما أخلفتني القرائب

(1) الرسائل / 97.

(2) اليتيمة 4 / 235.

فأنحوا لزربي بالحصاد وأنضبوا مياها لها أيدي سواهم مذائبُ
 أنحصد أيديكم ويزرعُ غيركم فأنتم جرادٌ والملوكُ سحائبُ
 إذا طمع السلطان فيما كسبته بشعري فالسلطان بالشعر كاسبُ
 فأنتم مدحتم آل يوية لا أنا وأمدحُ من لفظ اللسان حقائبُ

وينتقم لنفسه من خصومه، فيشمت بأبي العباس تاش، وفائق الخاصة، وهما من قادة جيوش السامانيين حين لحقت بهم هزيمة فيقول⁽¹⁾.

لو أنك قد أبصرت تاشا وفائقا على ظهر يخت أدبر الظُّهر رازم
 وقد كتب الإدبار في جبهتيهما بإنشاء مقمور وتحرير نادم
 (فلا تأمنن الدهر حُرّاً ظلمته فإن نمت، فأعلم انه نائم)

توجه الخوارزمي إلى بلاط الصاحب بن عباد متكرراً، فانجلت غمة الخطب عنه وانتعش في ذلك الفناء الرحب، وعاود العادة المألوفة في المبار والاحبية⁽²⁾،

وتوضح لنا هذه العبارة ما كان عليه الرجل من رفعة في المكانة، وعلو في الهمة، فيجمع حوله الأولياء والمقربين، ويبذل لهم العطاء، ويحيطهم بوافر البر وجيله، وهي عادة مألوفة لديه من قبل كما تدل عبارة الثعالي:

«واتفق قتل أبي الحسن العتبي، وقيام أبو الحسين المزني⁽³⁾، مقامه، وكان من اشد

(1) اليتيمة 4/ 216.

(2) اليتيمة 4/ 208.

(3) ترجم له الثعالي في اليتيمة ترجمة قصيرة: وقال عنه «هو أشهر بالشرف والمجد وذكره أسير في الأدب والفضل من أن ينه على محك في الوجاهة والسيادة والرئاسة والوزارة وله شعر كثير لم يعلق بحفظي منه إلا بيت واحد...» 4/ 246. وفي الكامل في التاريخ 9/ 27-28، تاريخ ابن خلدون 758/4 أن الأمير نوح قد استوز عبد الله بن عزيز (كما في ابن الأثير: و(ابن عزيز) كما في (ابن خلدون) ويبدو أنهما قد وهما فقد جاء في ترجمة أبو طالب المأموني في اليتيمة 4/ 165 (ولما قام

الناس حباً للخوارزمي، فاستدعاه، وأكرم مورده ومصدره وكتب إلى نيسابور في رد ما أخذ منه عليه، ففعل، وزادت حاله وثبت قدمه، ونظر إليه ولالة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام، فارتفع مقداره، وطاب عيشه⁽¹⁾، وما أن أفرخ روعه، والمحلت عقدة البلاء عنه حتى فاضت نفسه بشرا، وامتألت سعادة بعودة الاستقرار، ومزاولة الحياة، التي طالما قلبت له ظهر المجن، فإن هو حامد على أنه ابتلى ثم أبلى، ذلك أن محنته قد أدبرت، ونعمته قد أقبلت، قد ملك وليه، وهلك عدوه⁽²⁾.

أسباب الخلاف بين الخوارزمي والصاحب:

تذكر المصادر⁽³⁾ أن العلاقة قد ساءت بين الخوارزمي والصاحب في أواخر أيامه، وأن الخوارزمي هجاه بقوله:

لا تحمدن ابن عبّاد وإن هطلت كفاه بالجد حتى أخجل الدّينا
فإنها خطرات من وساوسه يُعطي ويمنع لا بطلا ولا كرما

وأن الصاحب بن عباد حين علم بموت أبي بكر أنكر عليه كفران النعم، وأنشد قائلاً⁽⁴⁾:

أقول لركب من خراسان مقبل أمات خوارزميكم: قيل لي نعم
فقلت أكتبوا بالحص من فوق قبره الا لعن الرّحمن من كفر النعم

أبو الحسن المزني مقام العتي زاد المأموني إكراماً وإجلالاً ولما كانت أيام ابن عزيز وأيام الدامغاني.. جعل كل منهم يربى على الآخر.

(1) اليثيمة 4/ 208.

(2) الرسائل/ 109.

(3) انظر معجم الأدباء 2/ 13-31، الباب في تهذيب الأنساب ابن الأثير 2/ 237، غرر الخصائص 2/ 36، الروافي بالوفيات 3/ 192 وفیات الأعيان 4/ 402-403.

(4) ديوان الصاحب/ 285 وفيه (جائيا).

ويذكر ابن خلكان⁽¹⁾ أنه قد وجد البيتين الأولين، منسوبين إلى أبي بكر الخوارزمي في الصباح بن عباد في مجاميع جماعة من الأدباء ومذكراتهم، ويقول: ثم نظرت في كتاب معجم الشعراء، تأليف المرزباني فوجدت في ترجمة أبي القاسم الأعسر واسمه معاوية بن سفيان، وهو شاعر وراوي بغدادي، أحد غلمان الكسائي اتصل بالحسن بن سهل يؤدب أولاده، فعتب عليه في شيء فقال يهجو:

لا تَحْمَدَنَّ حَسَنًا بِالْجُودِ إِنْ مَطَرَتْ كَفَّاهُ غَزْرًا وَلَا تُدْعِمَهُ أَنْ رَزَمَا
لَكُنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمًا⁽²⁾

ولمَّحْن لا نستبعد حصول أمر كهذا بين الخوارزمي والصاحب ذلك أن أخلاق العصر ما كانت لتتفر عن هذا الطبع، وهو العصر الذي شاعت فيه التقلبات السياسية، وعمَّ فيه الاضطراب الاجتماعي، إذ طالما انقلب الصديق عدوًا، والعدو صديقًا، وتسمع بفلان والياً يتحكم في رقاب الناس يسومهم الخسف، ويمنعهم النصف، فإذا هو بعد حين هارب يبحث عن مأمنه ويطلب العدل والنصفة ممن لا ذمار لهم، وهيهات أن يكون له مثل ذلك، هذا شأن ولاية الأمر الذين تفتحت عقولهم على نور الحضارة واستنشقت عيرها، فكيف بالقوم الذي ضرب الفقر والجهل على عقولهم وأبصارهم، فإذا هم أدوات مسخرة بيد السلطان لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً وكيف بالشعراء والأدباء الذين ألجأتهم ظروف المجتمع إلى اقتفاء خطى الساسة والولاة.

ولعل ما عرف عن الصباح من نزعة التعالي والتظاهر والتجبر ما كان سبباً في حدوث هذا الخلاف، ويعزز ذلك ما أورده أبو حيان التوحيدي على لسان الخوارزمي وغيره من الأدباء والمقربين للصاحب، وإن كان لا يخلو من تزيد وافتعال، وذلك أنه ما

(1) وفيات الأعيان 4/ 403.

(2) معجم الشعراء/ 395، وقبله، (فليس يمنع إبقاء على نشب ولا يدوم لفضل الحمد مغتناً).

هنا قط بنعمه، ولا أمتع بإحسانه، ولا ترك له يدا بيضاء عند أحد ألا وكرٌ عليها بالتسويد⁽¹⁾، يقول التوحيدي⁽²⁾: قلت لأبي بكر الخوارزمي الشاعر، وكان قد خبره كيف وجدت الصاحب، وقد أعطاك وأولاك، وقدمك وأثرك وسفر لك إلى عضد الدولة، وهو اليوم شاه الملوك، حتى ملأت عيابك تبراً، وحقائبك ثياباً، ورواحلك زاداً؟ فقال: دعني مما هنالك، والله إنه لخوار في المكارم، صبار على الملائم، زحاف إلى المآثم سماع للنمائم، مقدم على العظائم يدعو إلى العدل والتوحيد، ويدعي الوعد والتخليد، ويمسي وهو بور، ويصبح وما على وجهه من نور.

ويسوق أبو حيان حادثتين وقعتا بين الصاحب، وأبي بكر حاول أن يصور فيهما أخلاق الصاحب، وسوء معاملته للعلماء والأدباء وهو الرجل المشامخ المترفع عن جل علماء عصره وأدبائه وشعرائه. يقول أبو حيان⁽³⁾:

.. ولقد قلت للزعفراني: أرى الخوارزمي سيء الرأي في ابن عباد، مع ما يصل إليه منه، فما السبب؟ فقال: ابن عباد سيء السياسة لصنائه، وذلك أنه يعطي الإنسان عطية ما، ثم يبلوه بجفاء يتمنى معه لقط النوى من السكك، والمصطنع الكريم هو الذي يكون اصطناعه بلسانه فوق اصطناعه بيده، وإنني أحدثك ببعض ما عامل به الخوارزمي ليصبح لك القياس عليه، والتعجب منه.

تُحضر الخوارزمي يوماً، وجرى حديث القافة⁽⁴⁾: فقال دخل محرز⁽⁵⁾ المدلجي

(1) أخلاق الوزيرين/ 192.

(2) المصدر السابق/ 107-108.

(3) أخلاق الوزيرين/ 110.

(4) القافة: معرفة الأثر.

(5) محرز، بالحاء والراء، ثم الزاي، وهما التصحيف، ومجزز بالجيـم وزائين معجميتين على وزن محدث، هو ابن الأصور بن جعدة الكنتاني المدلجي القائف كان إذا أسر أسيراً جزاً ناصتيه وأطلقه، فسمي مجزراً ترجمته في الإصابة (هامش أخلاق الوزيرين).

على رسول الله ﷺ، ونظر إلى أقدام أسامة وزيد، فقال: هذه أقدام بعضها من بعض وصحفت البائس كما يصحف العلماء فما دونهم، وكان ابن عباد على بركة فما زال يدور حول البركة، وهو يصفع الخوارزمي ويقول: محرز؟ بحياتي؟ إلى أن رعف الخوارزمي، فتنحى وخرج. فهذا وما دانه هو الذي كان يفسد ما يفعله من الخير والبر.

أما الحادثة الثانية، فهي أشد طرافة، وأكثر دلالة على سوء معاملة ابن عباد للأدباء والعلماء حين يشعر أنهم يتناولون عليه، يقول أبو حيان⁽¹⁾ ... قال: ابن عباد لندمائه، ما أول قول الشاعر:

وإن غداً لناظره قريب.

فقال الخوارزمي أوله: ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب.

وقال ابن الأعرابي تمامها لنصيح بن منظور الفقيهي وهو:

إذا ما خلوت، الدهر، يوماً، فلا تقل	خلوت ولكن قل عليّ رقيب
فأحسن وأجل ما استطعت فإنما	بقرضك تجزى والقروض ضروب
فلا تك مغروراً تعلل بالمثي	وقل إنما ادعى غداً فأجيب
الم تر أن اليوم أسرع ذاهب	وأن غداً لناظرين قريب
وأن المنايا تحت كل ثنية	لهن سهام ما تزال تُصيب
ذهبن بإخوان الصفاء فأصبحت	لهن علينا نوبة ستتب

فأقبل عليه بوجه كالح، وقال: أعرفك ندلاً جاهلاً مأبوناً باطلاً، إنما ترينا من نفسك أنك تحفظ وتحسن، التراب في فيك يا كلب، ومتى نبت، ومن أبوك، وعمن أخذت، وإلى من اختلفت، بل اختلفت عليك أمور....

(1) أخلاق الوزيرين.

ويستمر مقذعا اللفظ أشد الأقذاع إلى أن يقول: "مثلك يجترئ في مجلسنا ويقابل بوجهه وجهنا، والله لولا رعايتنا التي جرت بها عادتنا لعرفتنا، وعرفت نفسك".

ولا شك أن أسلوباً- كهذا- إن صح- لا يجلب غير العداوة، ولا يحقق إلا سوء الظن، ومع ذلك فإننا لم نجد في ما تبقى من شعر الخوارزمي غير هذين البيتين في هجاء الصاحب، ولو وجد غيرها لتناقلته كتب الأدب، كما أننا لم نعثر في رسائله التي بين أيدينا على نصوص نستدل بها ونتعرف من خلالها على وجود خلاف أو مهاجمة أما نسبة البيتين، فأغلب الظن عندي أنهما لأبي القاسم الأعمى وأن الخوارزمي تمثل بهما لهجاء الصاحب، وأنه عدل في البيت الأول بما يناسب غرضه، وترك البيت الثاني على حاله، وهذه نزعة بارزة في أسلوب الخوارزمي، فهو كثير ما يضمن شعره ونثره أشعار الأقدمين.

لقد عاش أبو بكر حياته متنقلاً بين الأمصار وأتصل بالملوك والوزراء وقادة الجيوش والأمراء، والقضاة، وأصحاب الدواوين ونال عطاياهم وهباتهم، ولم تسعفنا المصادر في تتبع رحلاته واتصالاته، لكن رسائله التي كان يبعث بها إليهم، توضح طبيعة العلاقة التي ربطته بهم، فهو بين شاكر لهم على ما آتوه من نعم وما أفاضوا عليه عطاء وبين عاتب عليهم، لائم لهم على إعانة الزمن عليه، وإلحاق الحزن به، يقرعهم حين يأخذون منه خراجاً أو يمنعون عنه صلة، ولا يفوته أن يدبج رسائل التهئة والتعزية في الأفراح والأفراح، والولاية والعزل، حتى إذا حلت به نازلة، أو أصابه وطب ترك لقلمه العنان في مخاطبة أصحاب الزمان باثاً لهم شجونه، منحياً باللائمة على الدهر الخؤون، الذي أقام لخصمه سوقاً نافقة، وسد على الكرام منافذ ما كانت لتسد.

ويبدو أن حياة الاستقرار التي أمضاها الخوارزمي بعد مقتل العتي وعودته إلى نيسابور لم تكن لتمر دون أن يعكر صفوها. ذلك أنه اصطدم في أخريات حياته ببديع الزمان الهمداني، وجرت بينهما مناظرات طويلة سجلها الهمداني في رسائله ولم يمهل الزمن أبا بكر ليسجلها، واكتفى الآخرون بإبراز نتائجها مع ما فيها من تناقض، وحفظ لنا بعضهم شيئاً منها كما سجل الهمداني.

مناظرة الخوارزمي والبديع:

بدأت أحداث هذه المناظرة حين قدم البديع إلى نيسابور عام 382 وحل ضيفاً على أبي بكر الخوارزمي بعد أن قدّم لمجيئه برسالة تودد واستعطاف⁽¹⁾. شكا فيها حاله، وقد تعرض للسلب والنهب على يد جماعة من قطاع الطرق. أما أسباب اختيار الخوارزمي مضيفاً له، فلأنّ الغربة والأدب قد وحدث بينهما⁽²⁾، ولم يجد البديع من الإكرام ما كان يحتسب⁽³⁾، فوجه إلى الخوارزمي رسالة عتابه⁽⁴⁾ فيها وفخر بنفسه وبقومه، ورد عليه الخوارزمي برسالة مماثلة⁽⁵⁾، فأنكر عليه عتابه، وأدعى قيامه بالواجب، وأشاد بقومه، وما هم عليه من فضل ولم تخل رسالته من سخرية لاذعة⁽⁶⁾. وهدأت الحال قليلاً ولم يرق الأمر للوشاة الذين نقلوا إلى البديع أقوالاً على لسان الخوارزمي، فكتب البديع رقعة أخرى⁽⁷⁾، عاتبه فيها عتاباً شديداً، ولوح بمقدرته الأدبية، ومال إلى التهديد والوعيد، فأخذ الخوارزمي يعرض بالبديع صراحة، واشتكى من أن البديع قد خاطبه مخاطبة مجحفة، وأنه يؤثر العريضة.

فبعث إليه البديع بقصيدة كرر فيها عتابه وتهديده⁽⁸⁾، واتبعها بقصيدة أخرى⁽⁹⁾ فيها سخرية واقتداع، فاستشاط الخوارزمي غضباً وتمنى لو أن رجلاً يجمع بينهما ثم أن

(1) رسائل البديع/ 128-129.

(2) المصدر السابق/ 30.

(3) المصدر السابق/ 31.

(4) المصدر السابق/ 31/ 32.

(5) المصدر السابق 33-34.

(6) المصدر السابق 35.

(7) رسائل البديع/ 35.

(8) مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي (مخطوط)/ ورقة 5، ومن الملاحظ أن هذه القصيدة، والقصيدة الأخرى لم تردا في المناظرة كما جاء في رسائله وتقع هذه القصيدة في عشرين بيتاً.

(9) المصدر السابق/ ورقة 6، وعدة أبياتها تسعة عشر بيتاً.

الخوارزمي جمع تلاميذه، وقصد البديع معاتباً، حيث كان يقيم في دار أبي الطيب الصعلوكي⁽¹⁾، فتلقاه البديع بأسلوب الناصح الذي يعرض الصلح ويبطن العداوة، ويلوح بالسيف، وهو ييسط يده للسلام، ولم تكن طريقته خافية على الخوارزمي، كما قال البديع⁽²⁾:

وحتى ظن أن الغش نصحي وخالفني كائي قلت هجرا

وعمل أحد الأشراف على الجمع بينهما في منزله⁽³⁾، فحضر البديع، وحضر الخوارزمي بعد تردد، وحضر جمع من وجوه نيسابور وقد بالغ البديع في الإساءة إلى الخوارزمي وأصحابه، وواجهه بأسلوب ساخر وأخذ الهجوم والتهكم وسيلة للدفاع، وعرض على الخوارزمي مناظرته في الأدب، وتناظرا في قول الشعر على البديهة⁽⁴⁾.

فكان يقترح عليهما أن ينظما على غرار وزن وقافية بيت من الشعر⁽⁵⁾، وما أن ينتهي أحدهما من القول حتى يبدأ الآخر بنقد أبياته وتجريحها وبيان فسادها، والاستفسار عن معانيها، وما فيها من تناقض. وقد حوت مقطعاتهما كثيراً من معاني التحدي والسخرية والهجاء، ومال البديع إلى السباب والشتائم في معرض نقده لأبيات الخوارزمي. وادعى البديع أن الخوارزمي قد مال إلى السخف⁽⁶⁾، ولم يورد شيئاً منه، وكان رد البديع مقذعاً، فاحشاً⁽⁷⁾.

(1) سهل بن محمد سليمان الصعلوكي النيسابوري مفتي نيسابور. له ترجمة في وفيات الأعيان 284/2.

(2) رسائل البديع / 39.

(3) المصدر السابق / 39 ويدعى (بابي علي).

(4) تعني أنه ينظم كل منهما مباشرة، وكانا يكتبان مرة، وينظمان أخرى دون أن يكتبتا.

(5) رسائل البديع / 42-50.

(6) المصدر السابق / 48.

(7) المصدر السابق / 49-50.

ثم مال البديع إلى القوال⁽¹⁾، فغنى أبياتاً ادعى الخوارزمي أنه يحفظها وأن البديع لا يحفظها، وقد حرف البديع الأبيات ليلمز بها الخوارزمي⁽²⁾، فيغضب الخوارزمي، ويتوعد البديع بالضرب، فيعاود البديع سبابه وشتائم، وتنتهي الجولة الثانية، ويحسب البديع أنه قد حقق نصراً على الخوارزمي، ويسعى القوم بينهما بالصلح⁽³⁾، فيتصالحان ويعرض الخوارزمي على البديع الإقامة عنده، ويعتذر البديع عن القبول بالصوم، ثم يقبل ويقضي عنده يوماً في بيته.

وتبدأ الجولة الثالثة حين أرسل الخوارزمي رسولين إلى البديع يحملان رسالة منه يتهمه فيها بإشاعة خبر انتصاره على الخوارزمي، ويطلب أن يجتمعا في مجلس بعض الرؤساء ليتناظرا بمشهد الخاصة والعامة، وإلا فإن عليه أن يقر بعجزه⁽⁴⁾. ويرد البديع برسالة تحد وسخرية⁽⁵⁾، وزاد حنق الخوارزمي عليه.

واتفقت الآراء على أن يعقد المجلس في دار الشيخ أبي القاسم الوزير⁽⁶⁾، فكان البديع أول من حضر، وحضر السادة والقضاة والأدباء وأحضر كل منهم جماعته. وأخذ البديع يتقرب إلى السادة العلويين ويظهر تشييعه⁽⁷⁾، ويبرز مهاراته في الشعر والنظم قبل أن يحضر الخوارزمي، وما أن دخل الخوارزمي حتى تلقاه البديع وطلب إليه التنحي عن الصدر، وأن يجلسا وجهاً لوجه فوافقه الحاضرون، وطلب البديع من

(1) القوال: المغني.

(2) المصدر السابق/ 50-51.

(3) المصدر السابق/ 53.

(4) رسائل البديع/ 54.

(5) المصدر السابق 54-56.

(6) المصدر السابق/ 56.

(7) المصدر السابق/ 63.

الخوارزمي أن يختار موضوعاً للمناظرة، واختار الخوارزمي النحو⁽¹⁾، وتهرب البديع، بحجة ضيق الوقت، واشترط أن يسلم الخوارزمي له، سرعة البديهة وجودة الروية، والقدرة على الحفظ، ونفاذ الترسل⁽²⁾، كي يجاريه في النحو، واضطر الخوارزمي إلى التنازل، وادعى البديع أن الخوارزمي قد سلم له الحفظ ثم تراجع⁽³⁾، ثم تناظرا في البديهة والترسل واللغة والعروض⁽⁴⁾، وادعى البديع الانتصار على الخوارزمي، وخر الخوارزمي مغشياً عليه، فقام البديع إليه، وقدم اعتذاراً مشوباً بالسخرية⁽⁵⁾. وما أن انتقلا لتناول الطعام حتى عاود البديع هجومه على الخوارزمي، وأخذاً يتنازبان بالفاظ مسجوعة وكلمات نابية متقاربة في حروفها⁽⁶⁾، وتنتهي المناظرة ويخرج البديع مباهياً بانتصاره.

ولعل من التجوز تسمية ما دار بين البديع والخوارزمي مناظرة أدبية، والحكم عليها من خلال هذا المنظور، ذلك أن المناظرة الأدبية لا بد أن تسمو إلى مستوى الأدب الرفيع، وأن تخرج عن إطار الابتذال السخيف، وعن السباب والشتائم والكلام المقذع الذي لا يمت إلى الأدب بصلة، ولقد أراد البديع أن يسجل لنفسه فخراً ونصراً، فأساء الاختيار، وحاول أن يهرج، فلم يستطع بأسلوبه المشرق، وسرده الجميل للأحداث، وتصويره للمواقف أن يعد مشاعر التقزز بسبب هذا النمط من السلوك المخاتل المراوغ. وليس هذا الرأي جديداً، فقد ذهب البديع إلى ما هو قريب منه حين

(1) انظر قصيدته في رثاء الحسين 61/58.

(2) رسائل البديع/ 65.

(3) المصدر السابق/ 67-80.

(4) المصدر السابق/ 80.

(5) المصدر السابق/ 80.

(6) رسائل البديع/ 28-29.

قال⁽¹⁾: سأل السيد أمتع الله ببقائه إخوانه أن أملني جوامع ما جرى بيننا وبين أبي بكر الخوارزمي أعزه الله مناظرة مرة، ومناظرة أخرى، وموادعة أولاً ومناظرة ثانياً.

لقد أراد البديع تصوير انتصاره على الخوارزمي في مجالات الأدب المختلفة ولكنه لم يستطع الاستشهاد إلا بمقطوعتين من الشعر الهزيل نسبهما إلى الخوارزمي⁽²⁾. وثلاث مقطوعات شعرية نسبهما لنفسه⁽³⁾، وثلاث مقطوعات أخرى له، اثنتان في عتاب الخوارزمي وهجائه⁽⁴⁾، والثالثة في رثاء الحسين⁽⁵⁾، مصانعة ومداهنة لمن حضر المجلس من العلويين، والمقطعات الثلاثة الأخيرة لا تقع في إطار المناظرة، فقد أعدها من قبل، وليس في كل ما أورده من شعره أو نسبه إلى الخوارزمي مما يمكن عده من جيد الشعر سواء في معانيه أو في صياغته ولا هو مما يمكن أن يفخر به شاعر. كما أن المقطوعتين الثريتين اللتين أوردهما في المناظرة⁽⁶⁾، لا تقتربان من الأسلوب الثري البارع الذي تحلت به كتاباتهما الثرية. ولم يكن موفقاً، رغم مباهاته في إيصال معنى مستقيم لقطعته الثرية في حال قراءتها من أولها ومن آخرها. ولا يكاد القارئ يخفي مشاعر النفور، لما فيها من ثقل يطمس المعاني، ويأتي على الجمال الفني.

لقد تضمنت الرسائل المتبادلة بينهما التي سبقت المناظرة⁽⁷⁾، معاني جميلة وظريفة، ودخلت في إطار الشخصية الأسلوبية لكن منهما، ولكن هذه الرسائل كانت في حقيقتها خارج نطاق المناظرة. ومع ذلك فليس للقارئ إلا أن يكبر طريقة

(1) المصدر السابق/ 28-29.

(2) المصدر السابق/ 45-68.

(3) المصدر السابق 43-46-70.

(4) مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي ورقة 5، 6.

(5) رسائل البديع/ 58-61.

(6) رسائل البديع/ 71، 77.

(7) المصدر السابق/ 31، 33، 35.

الخوارزمي اللبقة الملهذة التي حاول فيها أن يجد من اندفاع البديع إلى مصاولته⁽¹⁾، ولكن جهود الشيخ الوقور ذهبت أدراج الرياح أمام الخصم المدفوع بعوامل متعددة. وليس فيما أدعاه البديع من انتصاراته على الخوارزمي في الترسل واللغة والعروض والبديهة ما يمكن أن يقنع القارئ بصحتها، فقد اكتفى بحديث سريع منمق من غير أن يدخل في التفاصيل، ففي الترسل اعتقد أنه حقق انتصاراً حين طلب من الخوارزمي أن يقترح عليه أقصى ما لديه، ليقترح هو أربعمئة صنف في الترسل⁽²⁾، وقد وصم الخوارزمي تلك الأبواب البديعية بأنها شعبة، أما اللغة فقد ادعى الانتصار فيها لأنه قرأ الفصل الذي طلب منه الخوارزمي قراءته من كتاب "غريب المصنف" ولأن الخوارزمي لم يستطع أن يقرأ باب المصادر من أخبار فصيح الكلام⁽³⁾، والمسألة لا تتعدى الحفظ، وكذلك الأمر بالنسبة للعروض الذي ذكر البديع أنه سرد منه خمسة أبحر بالقباب وأبياتها وعللها وزحافها، ولأن الخوارزمي لم يفعل مثل ذلك⁽⁴⁾، وليس يخفى أن البديع قد تهرب من منازلة الخوارزمي في النحو بحجة ضيق الوقت، ونجح في إبعاد الخوارزمي عن هذا الميدان، ولم يحاول العودة إليه مرة أخرى كما ليس يخفى أن الجولة الأخيرة من المناظرة لم تكن أحسن حظاً مما قبلها، فقد غلب عليها الإسفاف في القول، والابتعاد عن الخلق الكريم في مجلس غاص بالعلماء والفضلاء، ومن يقرأ رسائل الخوارزمي لا يجد فيها ما يجده في رسائل البديع من ميل إلى السخف والإسفاف، والخروج عن الأدب في مهاجمة الخصوم، ولعل خير دليل على إسفافه تلك الرسالة التي بعث بها إلى الإمام أبي الطيب الصعلوكي، يرد فيها على كتاب للخوارزمي ادعى فيه الانتصار⁽⁵⁾.

(1) اعني رسالته الأولى في الرد على عتاب البديع.

(2) رسائل البديع / 74.

(3) رسائل البديع / 79.

(4) المصدر السابق / 80.

(5) المصدر السابق / 194 - 206.

أسباب المناظرة:

لقد عزا البديع أسباب ما جرى بينه وبين الخوارزمي إلى سوء استقبال الخوارزمي له حين ضافه في بيته، وهذا واضح في الرسالة التي بعث بها البديع إلى الخوارزمي حيث يقول⁽¹⁾:

الأستاذ أبو بكر، والله يطيل بقاءه، أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة⁽²⁾، في أطمار الغربية⁽³⁾، فاعمل في رتبته أنواع المصارفة⁽⁴⁾، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن التمام ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام..

وقد ذهب إلى مثل ذلك في القصيدتين اللتين أرسل بهما إلى الخوارزمي حيث يقول⁽⁵⁾:

فلم أدر فيم جفا ضيفه ولم سكن البر من فوره

ويقول في الثانية:

ولا تقدم إلى الاضيا فإلا سبل الخير

ولا تحفر لهم بيرا تقع في هوة البير

ولا تفتك إلى الفتنة أسباب المقادير

وقد رد الخوارزمي على هذا الادعاء وفند أقوال البديع حيث يقول⁽⁶⁾: أما ما

(1) رسائل البديع / 31-32.

(2) الآباط: جمع الأبط والقلة: الفقر والحاجة.

(3) أطمار: جمع طمر وهو الثوب الخلق.

(4) المصارفة: أي صرفه بأي سبب لاحتقاره.

(5) مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي / ورقة 5.

(6) رسائل البديع / 33.

شكاه سيدي ورئسي من مضايقتي إياه في القيام، فقد وفية حقه - أيده الله - سلاماً وقياماً على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه إلا أبا البركات العلوي - أدام الله عزه.

وليس لنا أن نعتذر عن الخوارزمي، فرمما لم يحسن استقبال ضيفه، الذي لم يكن له به سابق معرفة، وهذا ما دلت عليه رقعة البديع الأولى، التي أدعى فيها وجود صداقة بينهما⁽¹⁾، ولو كان بينهما صداقة لما اضطر إلى الاستعطاف، ووصف حالته ولما عزا ما لقيه من استقبال على زي استغثه، ولباس استرثه⁽²⁾.

كما أن الخوارزمي لم يكن بخيلاً أو شحيحاً، فلقد وصفه خصومه بأنه صاحب فضل وأدب⁽³⁾ حين أخذوا عليه قلب أحواله.

ويبدو أن هنالك أسباباً أخرى للمناظرة التي جرت بينهما نستطيع أن نلخصها بالأمور الآتية:

1- العامل المذهبي: فالخوارزمي من غلاة الشيعة⁽⁴⁾، وكان يجهر بمذهبه ويعتز به اعتزازاً شديداً، وكان يرى أن أصحاب المذاهب الأخرى، ولا سيما أهل السنة قد تسببوا في إيذاء الشيعة واغتصبوا حقوق العلويين⁽⁵⁾. فهم من أجل ذلك أهل بدعة وضلال. أما بديع الزمان فبالرغم من تظاهره بالتشيع وتقربه للسادة العلويين، فإنه كان سنياً غالباً، فقد وقف موقفاً عدائياً من الشيعة وحث على سحقهم ورد كيد الشيطان على عقبه. ووصف قم والكوفة بأنهما تربتان خبيثتان، وأن خبثتهما إنما هو بسبب

(1) المصدر السابق/ 129 أعني قوله (فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبي العراق وخراسان لا بل ما بين عتبي نيسابور وجرجان).

(2) المصدر السابق.

(3) يذكر الثعالبي أن الخوارزمي: عاود العادة المألوفة في المبار والأحبية.

(4) ستحدث عن مذهبه بالتفصيل في الفصل القادم.

(5) انظر رسالته إلى شيعة نيسابور/ 130.

نخبت فحلتها، وحث على قطع دابر التشيع في هراة قبل أن يستفحل، وقد رمى
الروافض' بالإلحاد وتشفى بما أصابهم من خطوب ومصائب⁽¹⁾.

وقد تجلّى الصراع المذهبي بينهما من خلال القصيدة التي كتبها البديع في هجاء
الخوارزمي، فقد عرّض مذهب، وهاجم الخوارزمي بعنف ورماه بالإلحاد واستنكر
موقفه من الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان، ومن عائشة زوجة الرسول صلى
الله عليه وسلم ومال كعاداته إلى السباب والشتائم، يقول في قصيدته⁽²⁾:

إن أمير المؤمنين المرتضى	وجعفر الصادق أو موسى الرضى
لو سمعوك بالحننا مُعَرَّضَا	ما ادخروا عنك الحسامَ المنتضى
ويلك لِمَ تنبُحُ يا كلبُ القَمَرِ	مالك يا مأبُونُ تغتاب عمر
سيدَ من صام وحجَّ واعتمر	صَرَّحَ بِالْحَادِكَ لَا تُمَشِّحُ الحَمَرِ
يا مَنْ هجا الصديقَ والفاروقا	كيما يُقيمَ عند قوم سوقا

إلى أن يقول:

كفى من الغيبة أدنى شَمَّة	من استجاز القدحَ في الأئمة
ولم يعظَّمْ أَمْناءُ الأَمة	فلا تلوموه ولو مؤأمة
مالك يا نذل وللزكَّية	عائشةَ الراضيةَ المرضيَّه
يا ساقطَ الغيرة والحميَّة	ألم تَكُنْ للمُصطفى حظيَّه

ويبدو أن الخوارزمي قد استغل الخلاف المذهبي في صراعه مع البديع، يقول
الحصري القيرواني⁽³⁾، وكان الخوارزمي يرميه ببغض علي رضوان الله عليه. ويشنع

(1) رسائل البديع / 422-427.

(2) معجم الأدباء 1/ 114-116 (والارجوزة طويلة تقع في أربعة وأربعين بيتاً).

(3) جمع الجواهر/ 255، وانظر ديوان البديع/ 8.

عليه بذلك، ويغري به الطالبين، وقد أحس البديع بخطورة هذا الموقف ورد على الخوارزمي بقصيدة أظهر فيها محبته لآل أبي طالب وآل بيت النبي، وجاءت مصطلحاته خليطاً من مصطلحات المذهبين الشيعي والسني، فقد سمى علياً بالوصي، وهو مصطلح شيعي في حين أعلن ولاءه لجميع الصحابة، وخص من بينهم صاحب وهو أبو بكر الصديق. يقول في قصيدته:

يقولون لي لا تحب الوصي	فقلت الثرى بفم الكاذب
أحب السني وآل السني	وأختص آل أبي طالب
وأعطي الصحابة حق الولاء	وأجري على السنن الواجب
فإن كان نصباً ولاء الجميع	فلإني كما زعموا ناصي
وإن كان رفضاً ولاء الوصي	فلا برج الرفض من جاني
فلله أنتم وبهتانكم	ولله من عجب عاجب

إلى أن يقول:

أعز السني وأصحابه	فما المرء إلا مع الصاحب
أرجو الشفاعة من سبهم	بل المثل السوء للضارب

وفي ديوان البديع مقطوعة قصيرة قيل أن الخوارزمي قد انتحلها إغراء بالبديع يفخر فيها بيزيد بن معاوية وبيني أمية، ويسخر من آل أبي طالب، يقول فيها⁽¹⁾:

إمامي لا يُعادلُه إمام	تواضع تحت رايته الأنعام
يزيد الخير والسامي أبوه	أقاموا الخلق طراً فاستقاموا
فمن يك لائمي في حُب رهطي	فلإني في ولائي لا أأم
ومن يفخر بآل أبي تراب	فألي من أمية والسلام

(1) ديوان بديع الزمان الهمداني / 77.

ومما يسند هذه الأقوال ما جاء في وصيته⁽¹⁾، فقد أوصى بأن يتولى الصلاة عليه أصحاب الحديث وأهل السنة ولعل فيما أوردناه ما يقطع بكذب ادعائه بالتشيع، ولم تكن قصيدته في رثاء الحسين، ومدح السادة الأشراف إلا نوعاً من الملق ليكسب ودهم، وليقطع الطريق على الخوارزمي في استغلال هذا الأمر دونه، ولقد استطاع فعلاً أن يصرف بعضهم عن مؤازرة الخوارزمي. فهو يقول⁽²⁾:... ثم حضر السيد أبو الحسين، وهو ابن الرسالة والإمامة وعامر أرض الوحي والمحتي بفناء النبوة، والضارب في الأدب بعرقه، وفي النطق بمحذقه.... وجعل يضرب عن هذا الفاضل (يعني الخوارزمي) بسيفين لأمر كان قد مؤه عليه، وحديث كان شُبه لديه، وفطنت لذلك فقلت: أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين طرت له بجناحين، وإذا متّ سواي في موالة أهل البيت بلمحة دالة، توصلت بغرة لائحة، فإن كنت أبلغت غير الواجب، فلا يملكك على ترك الواجب، ثم أن لي في آل الرسول ﷺ قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت في البلاد، ولم تسر بزاد، وطار في الآفاق، ولم تسر على ساق، ولكني أشوق بها لديكم ولا أتفق بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضر، وللدين ادخرتها لا للدنيا. وأنشد قصيدته، وكان له ما أراد، فهو يقول⁽³⁾... فلما أنشدت ما أنشدت وسردت ما سردت، وكشف له الحال فيما اعتقدت، انحلت له العقدة، وصار سلماً يوسعنا حلماً.

2- العامل الاجتماعي: كان الخوارزمي يتمتع بمنزلة اجتماعية لا يستهان بها وقد عرفناه أنه قد استقر في نيسابور في أواخر أيامه (وقد زادت حاله. وثبت قدمه، ونظر إليه ولادة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام فارتفع

(1) رسائل البديع / 537.

(2) رسائل البديع / 57.

(3) رسائل البديع / 61.

مقداره وطاب عيشه⁽¹⁾، وقد أشار البديع إلى ما آل إليه حال الخوارزمي آنذاك، فقال⁽²⁾: "ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك إلا هارباً بدمائك مضرجاً بدمائك مرتهاً بقولك، بين وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهدومة، وحدود ملطومة، ومتى صفت مشارعك وأخصبت مرابعك الا في هذه الأيام القذرة..

وبما لا شك فيه أن الخوارزمي كان مدعاة للحسد في علمه وأدبه ومنزلته الاجتماعية، ولم يكن لين العريكة، ولا سهل القياد، وقد أشار الثعالبي إلى أن قوماً من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين منه جداً، وأنهم قد أعانوا الهمداني الحافظ عليه⁽³⁾، وأنا أعتقد أنهم لم يعينوه فقط، وإنما دفعوه إلى مواجهته وأغروه، ودبروا له المكائد حتى استطاعوا أن يوقعوا بالخوارزمي في الفخ، وقد وجدوا في بديع الزمان شاباً طموحاً ذكياً، تستهويه شهرة الأدب، وشهرة المجد، فلم ير حرجاً من التحكك بالخوارزمي، وتسليط لسانه عليه، بالسب والشتم والاقذاع، وهذه أمور تنفر منها طباع الخوارزمي وقد علت به السن، وشارف الهرم، لا شك أنهم نجحوا في الاختيار، ونجحوا في الأسلوب، وقد اعترف البديع في ثنايا المناظرة أن الوشاة قد فعلوا فعلهم في إذكاء نار الفتنة بعد تبادل رسائل العتاب الأولى، فهو يقول⁽⁴⁾:

"ومضى على ذلك الأسبوع، ودبت الأيام، ودرجت الليالي وتناولت المدة، وتصرم الشهر، وصرنا لا نغير السماع ذكره ولا نودع الصدور حديثه، وجعل هذا الفاضل يستزيد ويستعيد بالفاظ تقطعها الأسماع من لسانه وتوردها إلي، وكلمات تحفظها الألسنة وتعيدها علي."

(1) اليتمية 4 / 208.

(2) رسائل البديع / 50.

(3) يتمية الدهر / 4 / 209.

(4) رسائل البديع / 34 - 35.

ويقول في مكان آخر⁽¹⁾: وبقينا نلتقي خيلاً، ونقنع بالذكر وصلاً حتى جعلت عواصفه تهب، وعقاربه تدب، وهو لا يرضى بالتعريض حتى يصرح، ولا يقنع بالنفاق حتى يعلن...

ولم يكتف خصوم الخوارزمي بتحريض البديع، لكنهم ساندوه في جلسات المناظرة، فهم لم يحاولوا أن يضعوا حداً للسباب والشتائم التي كان يطلقها البديع، وهي من الأمور المخرجة لرجل كبير في حالتي السكوت والرد، وهم الذين أجبروا الخوارزمي على التنحي عن مكانه نزولاً عند رغبة البديع⁽²⁾، ليجلس قبالة. وهم الذين أرغموه على عدم منازلة البديع في النحو، وقد وصف البديع هذا الموقف فقال⁽³⁾: «ارتفعت المضاجعة واستمرت الملاحاة، حتى أبلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر إليه وقال: أيها الأستاذ أنت أديب خراسان، وشيخ هذه الديار، وبهذه الأبواب التي قد عدها هذا الشاب كنا نعتقد لك سبق والحذق، وثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم. واضطره إلى منازلة أو نزول عنها، ومقارة فيها أو إقرار بها. فهذا الموقف يحمل في طياته موافقة للبديع على رأيه، وغمزاً على الخوارزمي من خلال إطراء أدبه، ودفعاً له إلى حيث يريد البديع.

ثم أنه حين أنكر أن يكون قد قال ألبارق الفضفاض «قافية» وافقه أهل المجلس، وقالوا قد قلت⁽⁴⁾.

وحين سألهم البديع⁽⁵⁾ لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط، هل تطلقون امرأته عليه، فقالت الجماعة (لا يقع بهذا طلاق

(1) المصدر السابق/ 36.

(2) رسائل البديع/ 65.

(3) رسائل البديع/ 66.

(4) المصدر السابق/ 68.

(5) المصدر السابق/ 72.

ثم هذه الأحكام التي كانت تطلق في نهاية كل مناظرة نحو قولهم⁽¹⁾ 'قد علمنا أي الرجلين أشعر، وأي الخصمين أقدر وأي البديهيتين أسرع' وأي الرويتين أصنع.
'وقال الناس: قد عرفنا الترسل أيضاً، فملنا إلى اللغة'⁽²⁾، وقال الناس، اللغة مسلمة لك أيضاً فهاتوا غيره'⁽³⁾، وقال السيد أبو القاسم: أيها الأستاذ أنت مع الجدل والهزل تغلبه'⁽⁴⁾.

لا ريب أن في إطلاق هذه الأحكام لدليلاً على أن جو المناظرة كان في غير صالح الخوارزمي، وأن هناك تعمداً لإبعاد المناظرة عن الأجواء الكفيلة بتحقيق العدالة في الحكم.

أما العامل الثالث: فهو العامل الأدبي، إنه صراع بين مدرستين مدرسة الصناعة الثرية، وبين مدرسة التصنع والتكلف والزخرف البديعية صراع بين ذوقين بين الأدب الجاد وبين الأدب العاثر.

كان الخوارزمي من أصحاب مدرسة الصناعة الثرية، مدرسة ابن العميد التي اهتمت بالسجع والمحسنات البديعية، والاعتناء بالموسيقى الثرية، ولكنها لم تضع كل ذلك في المكان الأول، ولا أغرقت فيه إغراق المتأخرين، وقد مثل البديع تيار التحول إلى مرحلة التصنع⁽⁵⁾، فقد ازداد اهتمامه بالمحسنات البديعية، ومن يقرأ رسائله يحس مقدار القصد في التفنن والاعتناء بالألفاظ وحشد المعاني والصور والأخيلة المتتابعة، والإفراط في المبالغة، وكان الصراع بين المدرستين واضحاً في المناظرة، فالبديع، يطالب الخوارزمي أن يقترح عليه غاية ما في وسعه، لكي يقترح عليه أربعمئة صنف في

(1) المصدر السابق / 73.

(2) المصدر السابق / 69.

(3) المصدر السابق / 80.

(4) المصدر السابق / 81.

(5) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي / 227 وما بعدها.

الترسل التي هي من وجهة نظره - غاية ما يطمح إليه أديب مترسل، ولنترك للبديع فرصة الحديث عن تلك الأنماط الأدبية: يقول⁽¹⁾: ثم ملنا إلى الترسل، فقلت: اقترح علي غاية ما في طوئك ونهاية ما في وسعك، واختر ما تبلغه بذرعك حتى اقترح عليك أربعمئة صنف في الترسل، فإن سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف، فلك يد السبق وقصبه، ومثال ذلك أن أقول لك: أكتب كتاباً يقرأ منه جوابه، هل يمكنك أن تكتب، أول أقول لك أكتب كتاباً على المعنى الذي اقترح لك، وأنظم شعراً في المعنى الذي اقترح، وافرغ منها فراغاً واحداً، هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك اكتب كتاباً في المعنى الذي أقول، وأنص عليه، وانشد من القصائد ما أريده من غير ثقائل ولا تغافل، حتى إذا كتب ذلك قرئ من أوله إلى آخره، وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً أو تجيل قدحاً، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك: أكتب كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً هل كنت في هذا العمل واري الزند، قاصد القصد، أو قلت لك أكتب كتاباً في المعنى الذي يقترح، ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة، أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة، ولا يحجم فيها قلمك، هل كنت تفعل، أو قلت لك: اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام، تصب معانيه على قالب ألفاظه، ولا تخرجه عن جهة أغراضه. هل كنت تقف في ذلك موقفاً ممدوحاً، ويبعثك ربك مقاماً محموداً، أو قلت لك اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل، هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل، أو قلت لك اكتب كتاباً أوائل سطره كلها ميم وآخرها جيم على المعنى الذي يقترح... الخ.

لقد أفصح البديع عن اهتمام واضح بالألاعيب التي تهتم بالشكل الأدبي، ووضعها في المكان الأول، وجعل منها مقياساً للحكم على مقدرة الأديب، وقد وصم

(1) رسائل البديع / 47.

الخوارزمي هذه الألاعيب التي يفاخر بها البديع بأنها شعبذة⁽¹⁾، وقد رد عليه البديع بقوله "وهذا الكلام طرمذة"⁽²⁾، فما الذي تحسن أنت من الكتابة وفنونها حتى أباحثك على مكنونها، واكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك وأسبر فيها لسانك وفمك. قال: الكتابة التي يتعاطها أهل الزمان، المتعارفة بين الناس: فقال: أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة⁽³⁾.

وليس يخفى على القارئ اختلاف السمات العامة للمقطوعة التي نسبها البديع إلى الخوارزمي، وبين سمات المقطوعة النثرية التي كتبها في النقود وفسادها. فقد اهتم الخوارزمي بالمعنى فربط بين الدنيا والآخرة واستشهد بالآيات القرآنية، وقد حوت مقطوعته أسجاعاً لا يحس القارئ فيها ثقل التكلف، ولا يرى كثير اهتمام بالموازنة بين الجمل والتراكيب. وليس فيها من المحسنات البديعية مما يمكن أن يشكل ظاهرة. وعلى العكس من ذلك نجد في مقطوعة البديع اهتماماً بينا بالتصنع والتكلف المنفر، فالمعاني ليست مستقيمة إذا قرئت من بدايتها، وهي مليئة بالمجازات والاستعارات والكنيات، وبها غير قليل من المبالغة، وفيها تعمد للسجع والموازنة بين الجمل. كما أن اهتمام البديع بإخراج مقطوعته بحيث تقرأ من أولها ومن آخرها للدليل على اختلاف ما بين الرجلين في الذوق، عبث البديع وجد الخوارزمي.

يقول الخوارزمي⁽⁴⁾: الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة بهما يتوصل إلى جنات النعيم، ويخلد في نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم". وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه اشد الإكبار،

(1) الشعبذة: خفة في اليد وعمل السحر يرى الشيء بغير ما هو عليه.

(2) طرمذة: المطرمد الذي لا يفعل ولا يحقق في الأمور، ورجل طرماذ: صلف مفاخر.

(3) رسائل البديع/ 76.

(4) رسائل البديع/ 77.

وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا في ذلك ما يربح للناس في الزرع والضرع، ويعود إليه أمر الضر والنفع.

ويقول البديع⁽¹⁾:

الله شاء أن المحاضر صدور بها، وتملأ المناير ظهور لها وتفرغ الدفاتر وجوه بها، وتعشق المحابر بطون لها، ترشق آثاراً كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه، في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل هذا، ويرفع الدين أهل عن الكلّ هذا يحط أن في إليه تتضرع ولحن واقفة، والتجارات زائفة، والنقود صيارفة، أجمع الناس صار فقد كريماً نظراً لينظر شيمه، مصاب وانتجعنا كرمه: بارقة وشمنا هممه على آمالنا رقاب وعلقنا أحوالنا وجوه له، وكشفنا آمالنا وفود إليه، بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعماءه، تأييده، وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى أن. وصلى الله عليه محمد وآله الأخيار.

لقد كان البديع شاباً في مقتبل عمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين، يبحث عن مكان له بين شيوخ الأدب، مندفعاً بطموح شديد. وذكاء وقاد، ومقدرة على الحفظ، وقد وجد في منازل الخوارزمي، وهو من المتقدمين في عصره بالعلم والأدب، وله منزلة اجتماعية مرموقة سبيلاً للوصول إلى المجد فأعد للأمر عدته، وقد أدرك ما كان عليه جل أهل زمانه من ميل عن الجدل إلى الهزل، واهتمام بالتظرف والنفور من القديم⁽²⁾، ولم يكن الخوارزمي من دعاة هذا الاتجاه، أو السائرين عليه، فلا غرابة بعد ذلك أن يجد البديع مناصرة قوية من الحاضرين، وفيهم الأدباء والعلماء، وفيهم العامة التي لا ترتاح للجد، والتي وجدت في البديع خير من يعبر عن أفاظها وعن نقمتها. وخلاصة القول أن مناظرة البديع والخوارزمي لم تكن إلا تعبيراً عن الصراع

(1) رسائل البديع/ 78-79 وهذه القطعة الأدبية تقرأ من نهايتها أيضاً.

(2) انظر مقدمة الأمثال المولدة/ ورقة 3.

الاجتماعي في كل جوانبه المذهبية والسياسية والفكرية، وأنها لم تكن مناظرة أدبية تعتمد المقدرة والبراعة في إداء الفنون الأدبية، وبالتالي فليس من الجائز البحث عن الغالب والمغلوب، ولكن الأمر الذي لا خلاف فيه هو أن المناظرة قد رفعت شأن البديع، وأنها لم تقلل من منزلة الخوارزمي الأدبية، وأن تأثيرها قد اقتصر على الجانب المعنوي، لما لقيه من أهانة لا تحتمل.

وفاته:

اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته، والمحصّر هذا الخلاف في سنتين متباعدتين. يذكر الثعالبي⁽¹⁾ أن أبا بكر قد توفي في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وأن وفاته كانت بعد مناظرته للبديع بفترة لا تتجاوز عاماً واحداً، ويؤكد الثعالبي أن المناظرة جرت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة⁽²⁾.

وأورد ابن الأثير تاريخين - ثانيين لوفاته، فذكر وفاته في أحداث سنة 383⁽³⁾ ثم أعاد ذكر وفاته في أحداث سنة 313⁽⁴⁾ ولم يفتن إلى هذا الاختلاف، أو ينبه إليه.

ويتفق السمعاني مع الثعالبي في سنة الوفاة، ولكنهما يختلفان في تحديد الشهر فيقول⁽⁵⁾: أنه توفي للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

وقد أخذ ابن خلكان ذلك عنه، وأشار إلى ما ذكره ابن الأثير من أن وفاته كانت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فقال⁽⁶⁾:

(1) البيهقي 201 / 4.

(2) المصدر السابق 257 / 4.

(3) الكامل في التاريخ 101 / 1.

(4) المصدر السابق 171 / 1.

(5) الأنساب 214 / 5.

(6) وفيات الأعيان 402 / 4.

ولما رجع من الشام سكن نيسابور ومات بها في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أنه توفي سنة ثلاث وتسعين، والله أعلم رحمه الله تعالى.

وحين ترجم له الياضي في مرآة الجنان، ذكر أن وفاته كانت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة⁽¹⁾.

وتجمع المصادر على أنه قد توفي في مدينة نيسابور بخراسان ويذهب السيد فكتور الك في كتابه بديعيات الزمان⁽²⁾، إلى أنه اهتدى إلى رأي قريب من الصحة في تحديد وفاة أبي بكر، أعتمد فيه على ما أورده، المستشرق الألماني آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، من أن بديع الزمان قد وافى نيسابور سنة 392هـ معتمداً في ذلك ما نقله ابن خلكان عن ابن الأثير.

ويقول السيد فكتور الك: واعتمد متز بذلك على جملة نقلية غير مفصل زعمه، بيد أننا نستطيع أن نعلل ذلك، فنقول: ليس من المعقول أن يفارق البديع بلدته همذان سنة 380 ولما يتجاوز الثانية والعشرين، فيوافي الري بلدة الصاحب، ويمكث عنده مدة غير وجيزة، ثم يفارقه إلى جرجان، حيث يقيم مدة سنتين لا غير، فيتهيا له من أسباب الثقافة والاحتكاك في مدة وجيزة كهذه ما يجعله كفء لتأليف مقاماته التي تنم عن معارف واسعة وعميقة، وهو ما يزال في هذه السن.

ويردف قائلاً ثم إن ابن خلكان يقرر وفاة الخوارزمي سنة 383هـ ونحن نعلم أن أبا بكر لم يحل عليه الحول - بعد مناظرة البديع حتى توفي فتكون المناظرة الشهيرة قد حصلت سنة 392.

والمرجح عندي: أن أبا بكر الخوارزمي قد توفي في شهر شوال سنة 283، ذلك

(1) مرآة الجنان 2/ 416.

(2) وفيات الأعيان 22 - 23.

أن أبا بكر قد توفي قبل الصاحب بن عباد الذي وافته منيته عام 385هـ ولا أدل على ذلك من الأبيات التي قالها الصاحب حين سمع بوفاة أبي بكر.

أقول لركب من خراسان قادم أمات خوارزميكم؟ قيل لي: نعم
فقلت اكتبوا بالحص من فوق قبره إلا لعن الرحمن من كفر النعم
وما يعزز ما ذهبنا إليه أن الثعالي كان تلميذاً للخوارزمي ومعاصراً له، فأجدر بنا أن نأخذ بروايته.

وأكر ظني أن ما ذكره ابن الأثير لا يبدو أن يكون سهواً، أو هو من غلط الكتابة.

أما ما ذهب إليه السيد الك، فأمر لا يقوم على دليل، ذلك أن ابن خلكان لم يقرر وفاة الخوارزمي كما زعم، وإنما أورد الروايتين، ولم يرجح إحداهما، واكتفى بالقول: والله أعلم وأحسب أنه لم يرجع إلى نص ابن خلكان في كتابه 'وفيات الأعيان' وأنه اعتمد على مفردة آدم متر.

أما التعليل الذي أورده فهو أقرب إلى التحليل، ذلك أنه ليس غريباً أن ينبغ البديع في سن مبكرة، وقد أكدت المصادر هذه الحقيقة، حين ذكرت أنه كان في مقتبل عمره وقت مناظرته للخوارزمي.

وحين صعدت روحه إلى بارئها، أحس تلاميذه بجلل الخطب الذي أصاب الأدب والعلم، وهو الرجل الذي ملأ خراسان علماً وأدباً وقصده التلاميذ من كل حدب وصوب فأقام للأدب سوقاً، وفقدوا بفقده، رجلاً حراً، وصاحب منطق حر.

يقول أبو الحسن عمر بن أبي عمر الرقاني في رثائه⁽¹⁾:
مات أبو بكر وكان امرءاً أدهم في آدابه العر

(1) اليتيمة/ 4/ 209.

ولم يكن حُرّاً، ولكنّه كان أميرَ المنطِقِ الحُرِّ

وينظم تلميذه الحسن بن أحمد الطبسي النيسابوري قصيدة في رثائه، يذكر فيها ما أصابه من الغم والحسرة على فقد الهمام الذي أودى به الحمام، فغيب فيه الشعر والأدب، ويعزي أهل خوارزم على مصابهم الجلل فيقول⁽¹⁾:

شيبَ فرط الأسى قذالي	وكدر الدهرُ صفو حالي
وارتجع الدهر ما جباه	وحيعل الجدُّ بالزوال
وعادت النيراتُ بهما	وناحت العُصم في الجبال
فقلتُ: يا صاحبي ماذا	أتت به كربة الليالي
أقام ربي النشور أم قد	دعا إلى العرض والسؤال

ويورد الثعالي أبياتاً لبديع الزمان الهمذاني في رثائه، دس فيهما سعاية ثانية حين قال⁽²⁾:

حنائك من نفسٍ خافتِ	وليئك من كمدٍ ثابتِ
أبا بكر اسمعُ وقل كيف ذا	ولست بمسمة الصائت
تحمّلتُ فيك من الحزن ما	تحمّله ابنك من صامت
حلفتُ لقد مت عن معشرٍ	غنيين عن خطر المائت
يقولون أنت به شامت	فقلت الثرى بفم الشامت
وعزّت عليّ معاداته	ولا متداركٌ للفائت

(1) أنباه الرواة/ 1/ 277.

(2) البيتمة 4/ 209.

الفصل الثاني

شخصيته

شخصيته وأخلاقه

أ- الترفع والاعتداد بالنفس

إن أول ما يلفت النظر في أخلاق الخوارزمي وصفاته أنه كان مترفعاً معتدلاً بنفسه شديد الاعتداد، يضع نفسه في مراتب الطبقة الأولى من المجتمع.

ويدافع عن ذلك بكل ما أوتي من قوة ويربأ أن يكون مع العامة حيث كانوا⁽¹⁾ ولا شك أن هناك عوامل متعددة قد أنضجت هذا السلوك لديه:

فالعامل الأول هو انتماءه إلى أسرة ثرية - كما يدعي - والارتباط وثيق بين الثراء وبين الاعتداد بالنفس، ولا بد أن يكون لهذا أثر كبير في تربيته التي تلقاها صغيراً على يدي والديه وأسرته.

وكونت أسفاره وتنقلاته في الأمصار عاملاً ثانياً عزز ثقته بنفسه، فقد ترك - أسرته يافعاً ليجوب البلاد باحثاً عن الحلم والمعرفة وناظراً إلى مستقبل مشرق وحياة سعيدة، لا تتحقق إلا بجمع الأموال، وعلو الهمة، والطريق إلى كل ذلك وعر المسالك، كثير الأهوال، وقد كانت تجاربه قاسية مريرة، كما وضح لنا من خلال دراسة حياته.

أما العامل الثالث فمصاحبته للملوك والأمراء وقادة الجيوش والولاة، وكان ذا حظ وافر من ذلك، وقد تركت هذا المصاحبة آثاراً واضحة في شخصيته إذ ظل يلح على أنه من الطبقة الأولى، ولم يترك فرصة تفوته من غير أن يعبر على ذلك.

أما العامل الرابع فشهرته الأدبية، وعلو كعبه بين الكتاب والشعراء في عصره فقد كان غشياً اللسان، ثهاب جنبته، ولعل ارتباطه بعقيدة دينية واستبسالة في الدفاع عنها من الأمور التي أيقظت في نفسه العزة، ومنحته الثقة بالنفس.

وقد حفلت رسائل الخوارزمي بهذه الروح، التي جرّت عليه كثيراً من المتاعب

(1) الرسائل / 14، 24، 31، 103.

والحن، وجعلته يقف في مواجهة أصحاب السيادة والسلطان الذين حسبوا العزة والرفعة وقفا عليهم، فلا يسع عفوهم أنفة أحد من حاشيتهم وأتباعهم أو غيرهم من الأدباء والشعراء، وكان عليه أن ينفخ عن نفسه، وأن يرد كيد الأعداء والولاءة إلى نحورهم، وقد صور لنا صراعه مع هؤلاء القوم، ومدى تمسكه بالعزة في رسالته إلى خليفة الوزير بنيسابور الذي نصح له بالاعتصام على خدمة الأمير، ومنادمة الوزير، فيقول⁽¹⁾: "... ذكر الشيخ أنني لو اقتضرت على خدمة الأمير وعلى منادمة الوزير، لمالت الصروف عن جنبي ناكبة، ولت الخطوب عني هاربة، ولو لم أنتجع غير نيسابور بلدًا، ولا غير من بها أحدًا، لعشت معهم عيشة رغدا، وجواب الشيخ تحت قول الأول:

فبالخير لا بالشر فاطلب مودتي وأي فتى يُقتال منه التَّرهَبُ

مثلي أيد الله الشيخ، لا يحمل على الخدمة بالتقريع والتثريب، ولا بالتهديد والترغيب، ولا تحتلب أخلاق مودته بالإذلال، ولا يدرك مصون ما عنده بالامتهان والابتذال، وإنما يجبس مثلي بالرغبة، ويقيد بقيد من الذهب والفضة، ويرضى منه بالحياة كفيلاً، وبالقدر والتذم ضمينين، وإنما الحرز جاج رقيق ثمين إذا رفق به واستعمل في موضع مثله زين المجالس، وأمتع المجالس، وكان مالاً إلا أنه جمال، وجمالاً إلا أنه مال. وإذا خرق به إنكسر، فعقر الكاسر، وأتعب الجابر، وغم السامع والناظر، وكان ينبغي لأصحابنا أن يقتنصوني بحبالة الإحسان والبر، ويرتبطوني بحبال الحفاظ والشكر، ويعلموا أن البازي العتيق لا يصبر على الإضاعة ولا يقيم في بيت المجاعة.

لقد رافقته عزة النفس في كل مراحل حياته الزاخرة بالتنقل والارتحال في مكامن الأخطار ومواقع العثار، وكان عليه أن يأمن الزلل، ويتجنب العثار، وكان سعيه في

(1) الرسائل / 125.

ذلك حثيثاً. وتمسكه بالقيم التي اختطها شديداً، وظل يفخر بصون نفسه عن مواطن البذلة والامتهان: يقول مخاطباً أبا علي البلعمي⁽¹⁾:

'... قد علم الشيخ أنني مذ كنت لم يسم خدي عذار الهوان، ولم يوضع على رقبتي نير التبذل والامتهان، ولم تطرق الأيام حريم عرضي فتذكره، ولا نالت ستر صيانتني فتركه، ولا ماء وجهي فتسفكه، ولقد اخترقت البدو والحضر، ودخلت ديار ربعة ومضر، فما رأيتني بحمد الله أؤخر عن رغبة، ولا أخلف عن الغاية في موطني رغبة ورهبة، ومعني إذ ذاك سكر الشباب وذل الاغتراب، والقوم قد باينوني التسمية وفارقوني التربة، وإن عرضاً صنته في غير مخالفة الصيانة، لجدير أن لا أهينه في غير موضع الإهانة، فقد يتبدل الشاب، ويقول: أتصون إذا شبت ويمتحن الغريب ويقول: أتعزز إذا أبت، فما عذر من يحتمل الذل وقد رجع إلى الوطن من الغربة، أم هل بعد الشيب إلا الموت مرحلة.'

كان على الخوارزمي، والحالة هذه - أن يوازن بين مطلبين عزيزين لديه هما رفعة النفس وعزتها، وجمع المال من وجوهه المختلفة، والذي لا غنى عنه في سد الحاجات الضرورية، وتحقيق الطموحات الاجتماعية وكان عليه أن يمد يده للأمراء والوزراء والولاة، وقد مدّها عزيزة أبية وكان في ذلك مثال التاجر الذكي الذي يبيع بضاعته بغالي الأثمان، ويشعر المشتري بأنه منعم متفضل عليه. يقول في رسالة إلى بندار⁽²⁾ نيسابور:

'... وسيكون الالتقاء قريباً، فإن الشاعر إذا استغنى حن إلى أهله ورجع إلى أصله، وأحب أن يرى عنوان اليسار عليه، ويجلو نفسه على عدوه وصديقه في معرض الاستظهار، ويعلم الناس أنه زرع رجاء فحصد عطاء، وأسلف من الكلام عرضاً

(1) الرسائل / 31.

(2) البندار: فارسية تعني صاحب الملك أو المحصل، أو أمير القلعة.

زاهقاً، فأخذ من المال جوهراً نافقاً، وفرح الشاعر إذا قبل شعره ونفق سعره، كفرح التاجر صاحب الجواهر، إذا اشترت يتيمة، والشيخ أبي البنت إذا خطبت كريمته⁽¹⁾.

لقد وجد الخوارزمي في الأدب بضاعة نافقة في أسواق الملوك والأمراء، فأنجر بها، وربحت تجارتها، وإنما الأدب سلعة تنفق على الكرام والشيخ منهم، وتكسد عند اللثام، وهو بنجوة عنهم⁽²⁾ لكن أيدي الولاة أرتدت مرات عديدة لتصادر ما ربح ولتفجعه بما جمعه بتفحم المهالك، واختراق المسالك والممالك، وتجبره على دفع ما يستحق عليه من خراج بعد أن اقتنى عدداً من الضياع، فيضج بالشكوى والسخط لأنهم حين يلزمونه خراجاً لا يأخذون أمواله العزيزة عليه فحسب، ولكنهم يتقصون من مرتبته الاجتماعية... وإن درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان، قبيح الأحدث في البلدان، ولئن كان يعمر به بيت الجمال، فإنه يخرب بيت الجمال، وإن كان يزيد في عدد الدراهم إنه ليتقص من عدة المكارم ولئن كان يسمى في العامة جبابة، إنه يسمى في الخاصة خراية، وللبيس أكفان الموتى، وحرقت أدوية المرضى، وقطع الطرق على حجاج بيت الله الحرام وزوار النبي عليه السلام، أحسن في الأحدث وأبعد من العار والنقيصة من إلزام مثلي خراجاً، وسومه غرامة واستخراجاً⁽³⁾.

لقد رأى الخوارزمي في ما اقتناه من ضياع سبيلاً إلى التخلص من ذل الطلب والوقوف على أبواب الحكام، والاتجار بالأدب، وأراد أن يحفظ بذلك ماء وجهه لكن عمال الخراج كانوا له بالمرصاد فسدوا عليه الطريق، وأجبروه على دفع الخراج فيرفع صوته شاكياً أمرهم إلى صاحب الديوان، ولكنه يجد في الغالب - إذناً صماء عند قوم ألفوا استماع الشكايات والمظالم، وهم الخصم والحكم فيقول⁽⁴⁾:

(1) الرسائل / 86-87.

(2) المصدر السابق / 81.

(3) الرسائل / 24.

(4) الرسائل / 65.

... قد علم الشيخ أنني عقدت هذه الصنيعة، ولفقت هذه المعيشة لتكون صبوراً لوجهي عن ذل السؤال وحجاباً لعرضي دون الابتذال، ولأجعل ما يدخل منها من الكفاف جسراً إلى الصيانة والعفاف، فأحبب نفسي إلى أصدقائي وأخفف عقلي على جلسائي، فإن السائل ثقل الكلمة مكروه الزورة، مشنوء اللحظة واللفظة، فمن أعاني على ما اعتقدته وأمسك علي جوانب ما استفدته، فقد كفى أهل الشرق كلي، وخفف عن رقابهم ثقلي، وضرب بين لساني وبينهم سترا ثخيناً...

ويزيد من قسوة الخراج على نفسه أنه شاعر وأديب، لا يجوز أن يؤخذ منه الخراج واستشهد بذلك بأبي تمام والبحري اللذين لم يلزما بدفع الخراج، وكان لهما ما أرادا من الضياع⁽¹⁾:

ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم، حيث صرت ألزم خراجاً التزم بنو المدبر أضعافه للبحري، وأضايق في ضيعة وهب أمثالها محمد بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي، حيث قال البحري:

ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا علي مداها واستقام اعوجاجها
إذا كان لي تربعها واغتلها وكان عليكم عشرها وخراجها

وقال أبو تمام:

فدع ذكر الضياع في شماس إذا ذكرت وبني منها نفار
ومالي ضيعة غير المطايا وشعر لا يباع ولا يعار

فإن كان أولئك رؤساء، فليس رؤساؤنا برؤساء، وإن كان هؤلاء شعراء، فلسنا نحن شعراء، وقد عرف الشيخ أنني لا أقيم على النصف ولا أحل خطة النصف، فإن رأى أن لا يفجع خراسان بلسانها، ولا يخليها من سيفها وستانها فعل⁽²⁾.

(1) المصدر السابق / 81.

(2) الرسائل / 89.

ويقول في مكان آخر: وما ظن سيدي بضبيعة ألزمتني الجزية بعد أن كنت ألزمها الصغير والكبير، واستأديها الرعية والأمير وأخرجتني من عز السلاطين إلى ذل الدهاقين، وجمعت علي فتون الأغنياء، وغم المساكين، وشغلني صدهاها عن أشغال الدنيا والدين.

ويبدو أن وطأة الخراج كانت ثقيلة عليه وعلى غيره، حتى لقد صار عمال الخراج رمزاً للظلم والجور، يقول الخوارزمي في أحدهم⁽¹⁾

ورد علينا فلان، ونحن نيام نوم الأمانة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب ضرعي الدنانير والدراهم، ويسير فينا سيرة السُّنور في الفأر، ولا يسخيرها المسلمون في الكفار حتى افتقر الأغنياء، وانكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان نعمته، وجحد صاحب الغلة غلته، وحتى أخرج البلاد، بل أخرج العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وسبب الفقر إلى أهل الغنى...

... والله ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين ولا السوس في الخبز في الصيف إلا من المحسنين، ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا من العادلين....

وفاءؤه

بالرغم من ظروف العصر الذي عاش فيه الخوارزمي، واختلاف العوامل المؤثرة فيه فقد حافظ هذا الرجل على كثير من القيم التي دأبها الأقدام في طريقها للصراع على السلطة والجاء والمال والبقاء، وقد كان الوفاء أحد المثل التي تمسك بها، فلقد ظل الرجل وفياً لمذهبه الديني ومعتقداته السياسية، ولم يتنازل عنهما على الرغم من قسوة الظروف، وأي وفاء أشد من التمسك بالعقيدة. والدفاع عنها، وتحمل سخط

(1) المصدر السابق/ 110-112.

الأعداء والسلطان في سبيلها؟، لقد تعرض الخوارزمي للمصادرة والسجن والتعذيب على أيدي السامانيين لكنه ظل وفياً للبويهيين، كما وفى لمعتقداته الدينية.

لقد رماه بعض خصومه بأنه متقلب، قليل الوفاء، ونحن لا نسلم بما ذهبوا إليه ذلك أن الخصومة لا تهيج الإنصاف في القول والحكم، يقول أبو سعيد أحمد بن شبيب الشيبى في هجائه⁽¹⁾:

أبو بكر له أدبٌ وفضلٌ ولكن لا يدوم على الوفاء
موذته إذا دامت لخلٌ فمن وقت الصباح إلى المساء

ولعل ما بيناه من وفائه لمذهبه الديني ومعتقده السياسي ما يكفي لدحض هذا القول، ونحن نعلم أن سلوك الإنسان لا يتجزأ. وأنه إن طبع على الوفاء، لا يستطيع أن يتحول إلى غيره، ويصعب عليه أن يجمع التقيضين، وكيف يمكن أن يكون وفياً في هذين - وفيهما يكمن الخطر - ولا يكون وفياً للأصدقاء وسائر الناس. ولعل في هذه الكثرة من الأصدقاء والمعارف، وهم من فئات شتى ما يدل على شدة الوفاء؛ ذلك أن من عرف بالغدر والتحول، وقلة الوفاء، لا بد أن يتحاشاه الناس.

ومن الطريف أن يوازن الخوارزمي بينه وبين المتني وقد تناول في هذه الموازنة هذا الجانب الأخلاقي، فقد أخذ على المتني قلة وفائه وتناقض فعله وقوله. وفخر بنفسه وبوفائه. يقول في إحدى رسائله⁽²⁾

... ونظرت إلى أبي الطيب، وإلى تناقض حكمته، وتفاوت طرفي فعلته حيث قال في سيف الدولة⁽³⁾:

لا تطلبن كرمياً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا

(1) البيتة 4/ 242.

(2) الرسائل 6-7.

(3) شرح الواحدي/ 606.

وقال في كافور الأخشيدي⁽¹⁾:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فقد باع من الوفاء علقاً خطيراً، واعتاض من الطمع ثمناً يسيراً، وحال ضباب
الحرص والرجاء بينه وبين الوفاء. وكان يضايق نفسه في اختيار المتاع، ويسامحها في
اختيار المبتاع، ويخلع خلعة من نظمه تساوي بدرة على عرض من لا يساوي بعرة،
ويزف كريمة من كرائم شعره، إلى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى
الطمع في جحر فأر لدخله، ولو أتاها الدرهم من إست كلب لما غسله، فلا جرم أن
الناس، كما استحسنا قوله واستصتجوا فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من
غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته ويعطي ثم يسترجع
عطيته، فكم من حرّ فضله ثم ثلبه، وكم من عرض كساه ثم سلبه، وكم من أكلة أكل
منها ثم بصق فيها، ولكن في قميص أبي بكر رجلاً إذا أعطى لم يرتجع وإذا طلق لم
يراجع وإذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم، وإذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم، وإذا
طيب فكيه بالمدح للكريم، لم يلطّخهما بمدح للثيم، وإذا زوج كريمة من كرائمه كفوءاً
حجبه أن يتبرجن إلا لديه ويمتليهن غير عينيه، وإنما الغدر من أخلاق النساء، فمن
تعلق بطرف منه، فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجذبها إلى شق النسوان...

ولحن لا نقر الخوارزمي على ما نعت به المتني، ذلك أنه قد ظل وفيّاً لسيف
الدولة، ولم يقل في هجائه بيتاً، وإن مدحه لكافور كان مشوباً بهجاء مبطن، والمهم في
كل هذا وذاك أن الوفاء لا يعني الثبات والجمود، ذلك إن صراع المصالح والمطامح لا
بد أن يؤثر في علاقات الناس، فالعداوة والصداقة، وكل القيم الإنسانية ترتبط
بالمصالح، وكلما ابتعدت المصالح عن الذاتية، واتجهت وجهة اجتماعية فإنها تسمو
وتحترم. وقد أدرك الخوارزمي بعد ذلك خطل رأيه في تقلب أحوال المتني بين الذم

(1) المصدر السابق / 635.

والمدح، واكتشف أن التغير سنة طبيعية لتغير الأحوال والأزمان وبأن الوفاء لا يدوم إذا كان من طرف واحد فقط وذلك حيث يقول⁽¹⁾:

وقد كنت أعجب من الشعراء من مدح إنساناً ثم هجاءه، وأنسبه إلى ضعف المسكة، وإلى وهن العزيمة، والمحلال العقدة، حتى بليت الآن بهجاء الدهر، وطالما مدحته ودفعت إلى حربه، وطالما صالحته ويصف نفسه فيقول⁽²⁾ فأنا وإن كنت شاعر اللسان، فلست شاعر الخلق، ولا شاعر الوفاء والصدق، ولا شاعر الصداقة بالود، ولا شاعر الديانة والعقد، ولا تتلون أخلاقي ألواناً، ولا أكون على صديق، ومن يشكو إليّ زماناً، ولا أكون أخاه أيام دولته، وعدوه أيام عطلته وقد غشت المروءات، وأنثمت المودات، ومات الوفاء والثبات.

قلقه واضطرابه:

لم يهنأ الخوارزمي بحياة مستقرة هادئة إلا في أواخر حياته، حين استقر في نيسابور إثر مقتل العتي، وقيام المزنّي مقامه، فلقد قضى حياته متنقلاً بين الأمصار لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، يبحث عن المال، فيكد ويكدح في الحصول عليه حتى إذا حصل منه على طائل، شد الرحال تتقاذفه الفلوات والآمال إلى أبواب الوزراء والأمراء، فمن خوارزم إلى العراق والشام وبخارى واصفهان، ونيسابور، وخراسان، وخرشستان وطبرستان وفارس، والري، ولجده، تارة هارباً، يبحث عن مأمنه، ترصده العيون في كل بقعة وتكمن له في كل زاوية، لا يدري متى تنوشه يد الحاكم الذي لا يعرف قلبه الرحمة، ولا تدخل الشفقة إليه، وكم تحمل أثناء السجن من عذاب ومصائب، ولقي ألوان الذل على يد جلاوزة السلطان وجلاديه، ثم هو بعد هذا وذلك شاعر مشهور وأديب معروف، له في المجالس رفعة، وفي محافل الأدب صولة

(1) الرسائل / 123.

(2) المصدر السابق / 149.

وجولة، وقد رقد ذلك بعقيدة دينية، ومعتقدات سياسية بينة. هذه الصور المتشعبة لحياته مع ما رافقها من ظروف اجتماعية صاخبة مليئة بالأحداث والنزاعات والحروب الطاحنة تركت بصماتها في شخصية الخوارزمي، فغرست في نفسه قلقاً عميقاً لحس به كل رسالة من رسائله، وتجلّى قلقه واضطرابه من خلال حملته على الزمان وقلة الاطمئنان إليه.

مذهبه الديني، ومعتقداته السياسية

من الصعوبة بمكان أن نفصل بين المذهب الديني، وبين المعتقدات السياسية لهذا الرجل، لما بينهما من ارتباط وثيق خاصة إذا علمنا مقدار تعلقه بمذهبه وتشدده فيه، في حقبة تعد امتداداً طبيعياً للصراعات السياسية والمذهبية، ابتداءً بعهد الخلفاء الراشدين وانتهاءً بالدولة العباسية.

لقد اتخذ الصراع السياسي على السلطة طابعاً دينياً، تجلّى في بروز عدد من الأحزاب الدينية، كالشيعة والخوارج، اللذين برزا إبان المعارك الدامية بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، الذي اعتمد على الحزب الأموي غير المعلن، والذي لم يأخذ طابع الحزب الديني، بقدر ما كان تجمعاً قبلياً وإقليمياً.

وقد استمرت الحروب مستعرة بين هذه الأحزاب، بالرغم من هيمنة الأمويين الذين ووجهوا بثورات متعددة كادت تطيح بهم في بعض الحالات، وفقدوا سيطرتهم على بعض الأقاليم مدة تجاوزت عشر سنوات.

وقد فاق الحزب الشيعي في خطورته حزب الخوارج، واصطدم بالزبيريين الذي حكموا العراق مدة وجيزة، حتى إذا نشط العباسيون، وأنشأوا حزبهم لم يجدوا مفرّاً من الاختفاء وراء الدعوة الهاشمية الواسعة الانتشار، والتي كانت تلقى دعماً وتأييداً كبيرين من أوساط الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام كما حظيت بدعم وتأيد الأطراف العربية، التي تضررت من الحكم الأموي ولم تستفد منه، واستمر الصراع مريراً قاسياً على السلطة، مرتدياً زي المذهبية، التي لم تسلم من الانقسامات

والانشقاقات، ففرقت شيعاً وأحزاباً. واستطاع الحزب الشيعي الاحتفاظ بجذوة الثورة ملتبهة، بعد أن أصيب بخيبة الأمل، إزاء الموقف العباسي من السلطة. وكان الخلاف يتعمق بعد كل محاولة تسحق وشهداء يسقطون.

واستطاع الحزب الشيعي أن يكون أول دولة له في مصر أطلق عليها الدولة الفاطمية وكانت دولة مستقلة عن الدولة العباسية، حتى لقد لقب حكامها أنفسهم بالخلفاء.

واستطاع البويهيون تشكيل إمارة لهم في المشرق، وامتد نفوذهم ليشمل عاصمة الخلافة بعد عام 334هـ، وهم قوم من الديلم، ينصرون مذهب التشيع بصورة عامة إذ كانوا من أتباع زيد بن علي.

كما استطاع الحمدانيون تشكيل إمارة لهم في الموصل وحلب. لكن طموح هذا الحزب لم يكن ليكتفي بهذا القدر، لأن وجه الخلافة ظل سنياً، ليس للعلويين فيه اليد الطولى، ولا هم ولاية الأمر والنهي، وظل التاريخ النضالي الذي خاضوه يشدهم بعاطفة لا تنطفئ جذوتها ترفدها عقيدة راسخة، حملت بعضاً مما تسرب إليه من الديانات الأخرى، ولا سيما ديانات الفرس، وكان لهذا أثره البين في الانقسامات الكبيرة التي نشأت بين أطراف الشيعة، وظهرت نتيجة هذا الخلاف فرق متعددة حافظ أكثرها على المبادئ الأساسية للدين الإسلامي، وخرج قسم منها عن حظيره الإسلام، وذهب مذهباً بعيداً ولم تسلم الأحزاب الأخرى من التمزق والانقسام، والابتعاد والاقتراب من المثل الإسلامية. وكان لا بدّ والحالة هذه أن يظهر من بين هذه الفرق، من ينجح إلى التعصب والتشدد في تطبيق المثل والتعاليم التي انسأقت إليها فرقته، فظهر في الشيعة قوم من الغلاة، سموا وتسموا بالروافض. كما ظهر من السنة فرق غالية، سموا بالنواصب وكان أبو بكر الخوارزمي واحداً من هؤلاء الروافض وقد صرح بهذا حين قال⁽¹⁾:

(1) معجم البلدان 1/ 68.

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ويحكي المرء خاله
فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلاله

ومع أننا لا نستطيع تحديد الجذور المذهبية لأسرته، لأن معلوماتنا عنها محدودة بحيث لا تستبين معالمها، إلا أنه يمكن أن نستدل بهذين البيتين على أنه المنحدر من أسرة شيعة المذهب فنشأ على حب آل البيت وتعلق بهم.

ويعلق ياقوت الحموي⁽¹⁾ على هذين البيتين بقوله: "... ولم يكن أبو جعفر رحمه الله رافضياً (يعني محمد بن جرير الطبري)، وإنما حسدته الحنابلة، فرموه بذلك، واغتنمها الخوارزمي وكان سبأاً رافضياً مجاهراً بذلك".

ولعل ما يدعم هذا القول ما ورد في كتاب "تحفة الوزراء" المنسوب للشعالي حين قال أخبرني من رآه بنيسابور، وقد كظه الشراب، فطلب فقاعاً فلم يجده. فقال: لعن بما قال:

إذا أعوز الفقاع⁽²⁾ لما طلبته هجوت عتيقاً والذلام ونعشلاً⁽³⁾

وعلق قائلاً: فإذا كان يهتف بهذه الجملة لغير علة، فكيف به مع تفريع العلل بتوسيع الأمل بمن يطابقه على كفره، فيوافقه على شره.

وقد استشهد الحصري القيرواني بهذه الحادثة في الاستدلال على مذهبه فقال⁽⁴⁾ وكان الخوارزمي رافضياً غالباً، أخبرني من رآه... الخ. ويقول: "وكان فاحشاً بذيثاً مستخفاً جريئاً على ذوي الإنعام عليه والإحسان إليه".

(1) تحفة الوزراء/ 107-108، وانظر جمع الجواهر/ الحصري القيرواني/ 254.

(2) الفقاع: شراب مسكر يستخرج من الشعير.

(3) يعني أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

(4) جمع الجواهر/ 254.

وفي رسالة الخوارزمي التي بعث بها إلى شيعة نيسابور حينما قصدهم واليها محمد بن إبراهيم، صورة واضحة لما أصاب أهل مذهبه، فقد حشد فيها كثيراً من صور المعاناة الصعبة التي تحملها الشيعة عبر نضالهم الطويل، وقد أفاض عليها شيئاً من تعصبه، فبالغ في الوصف، وأكثر من حشد الأمثلة، وتحامل على الخصوم ونعتهم بنعوت نابية، ويبدو الخوارزمي في هذه الرسالة مشبوب العاطفة، قوي الشكيمة، لا تلين له قناة.

يقول الدكتور زكي مبارك⁽¹⁾: "... لقد انحاز الخوارزمي إلى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه، وفي صف هذا المذهب، وقف وقفة خفيفة، دلتنا على أنه رجل جلاد ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب هذا المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء؛ لأنه كان يشوب تشيعه بالحقن الأسود على بني أمية وبني العباس، ونستطيع أن نقول: أنه كان في هذا الموضوع داعياً صادقاً إلى فكرة لها قيمتها في الحياة الإسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشر في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهينات حين عرض للخلفاء بالفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى في أرحام القيان."

ويردف قائلاً: ومن الحق أن الرسالة المطولة التي بعث بها إلى الشيعة بنيسابور، تبدو لمن يقرأها كأنها صاعقة تصب على رؤوس من عادي من الرؤساء وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي، وهو أزرق الناب، مسموم اللعاب كالحية النضناض وفيها كذلك يبدو طيبه وخبثه، وكرمه ولؤمه وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول⁽²⁾: فإن أصابتنا نكبة، فذلك ما تعودناه، وإن رجعت لنا دولة، فذلك ما قد انتظرناه، وعندنا - بحمد الله - لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة فعند الحن الصبر، وعند النعم الشكر.

(1) مجلة البلاغ الأسبوعي، عدد 162/ أبريل/ 1930 ص 19 وما بعدها، النثر الفني في القرن الرابع.

(2) الرسائل/ 135.

وهو تارة متحزب حقوق، يعدد آثام الخلفاء من بني أمية، وبني العباس يذكرنا بما اقترفوا من الجرائم في تقريب المغنين وإقصاء الفاطميين...

ولعل أبرز سمات هذا الحزب أنه يرى أن الخلافة، يجب أن تكون في أولاد علي وأنها قد غصبت منهم يوم السقيفة، وإن ظلما قد حاق بعلي ابن أبي طالب حين آخر عن الخلافة، فتواهمت إليهم المصائب بعد ذلك فقسمنا قسمين قسماً مات شهيداً، وقسماً عاش شريداً، حتى لقد حسد الحلي الميت على ما صار إليه⁽¹⁾.

قال أمير المؤمنين، ويعسوب الدين عليه السلام: الحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور، وهذه مقالة أسست على الحن، وولد أهلها في طالع الهزاهز والفتن، فحياة أهلها نغص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة، والدنيا عنهم مائلة، فإذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن، ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن، فينبغي أن نتبع آثارهم في الحن. غصبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آله ميراث أبيها صلوات الله عليه وعلى آله يوم السقيفة، وآخر أمير المؤمنين عن الخلافة، وسم الحسن رضي الله عنه سراً، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهرأ، وصلب زيد بن علي بالكناسة، وقطع رأس زيد بن علي⁽²⁾ في المعركة، وقتل محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسي، ومات موسى بن جعفر في حبس هرون، وسم علي بن موسى بيد المأمون وهزم إدريس بفخ حتى وقع إلى الأندلس فريداً....

لقد حمل الخوارجي الخلفاء الراشدين وبني أمية، وآل الزبير وبني العباس أوزار ما حاق بالشيعه والعلويين من ظلم، من حيث هم أولوا الأمر المسكون بمقاليد السياسة، كما حملهم مسؤولية تزييف الدين والأخلاق بما وضعوه على لسان النبي ﷺ من أحاديث، وما قاموا به من تبذير لأموال المسلمين وطمس للتراث الأدبي للشيعه،

(1) الرسائل / 130.

(2) لعله يقصد يحيى بن زيد بن علي الذي قتل ثم حُرَّ رأسه وصلب في الجوزجان (انظر مقاتل الطالبين / أبو الفرج الأصفهاني / 107).

ولم يكتف بذلك بل حمل الأمة كلها مسؤولية ما حاق بهم من ويلات، وما أصابهم من نوازل⁽¹⁾ وبحسبكم أنه ليست في بيضة الإسلام بلدة، إلا وفيها لقتيل طالي ترة، تشارك في قتلهم الأموي والعباسي وأطبق عليهم العدناني والقحطاني:

فليس حي من الأحياء نعرفه من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر

قادتهم الحمية إلى المنية، وكرهوا عيش الذلة، فماتوا موت العزة ووثقوا بما لهم في الدار الباقية، فسخت نفوسهم عن هذه الفانية، ثم لم يشربوا كأساً من الموت إلا شربها شيعتهم وأولياؤهم، ولا قاسوا لوناً من الشدائد إلا قاساه أنصارهم وأتباعهم، داس عثمان ابن عفان بطن عمار بن ياسر بالمدينة، ونفى أبا ذر إلى الربذة، وأشخص عامر بن عبد قيس التميمي، وغرب الأشتر النخعي... واتبعه في سيرته بنو أمية يقتلون من حاربهم، ويغدرون بمن سالمهم، ولا يحفلون بالمهاجري ولا يصونون الأنصاري، ولا يخافون الله، ولا يحتشمون الناس، قد اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولا، يهدمون الكعبة، ويستعبدون الصحابة ويعطلون الصلاة الموقوتة، ويختمون أعناق الأحرار ويسIRON في حرم المسلمين سيرتهم في حرم الكفار....

فلما خلت البلاد لآل مروان، سلطوا الحجاج على الحجازيين، ثم على العراقيين، فتلعب بالهاشميين، وأخاف الفاطميين، وقتل شيعة علي ومحا آثار بيت النبي.. واتصل البلاء مدة ملك مروان إلى الأيام العباسية. حتى إذا أراد الله أن يختم مدتهم بأكثر آثامهم ويجعل أعظم ذنوبهم في آخر أيامهم بعث على بقية الحق المهمل والدين المعطل زيد بن علي، فخذله منافقو أهل العراق، وقتله أحزاب الشام فلما انتهكوا ذلك الحريم، واقترفوا الإثم العظيم غضب الله عليهم وانتزع الملك منهم، فبعث عليهم أبا مجرم، لا أبا مسلم فنظر - لا نظر الله إليه - إلى صلابة العلوية، وإلى لين

(1) الرسائل / 131-134.

العباسية، فترك تقاه واتبع هواه وباع آخرته بدنياء، وافتتح عمله بقتل عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وسلط طواغيت خراسان، وخوارج سجستان، وأكراد إصفهان على آل أبي طالب، يقتلهم تحت كل حجر ومدر، ويطلبهم في كل سهل وجبل، حتى سلط الله أحب الناس إليه فقتله...

... وقل في بني العباس، فإنك ستجد بحمد الله تعالى مقالاً، وجُلّ في عجائبهم، فإنك ترى ما شئت مجالاً، يجي فيؤهم، فيفرق على الديلمي والتركي، ويحمل إلى المغربي والفرغاني... ويموت إمام من أئمة الهدى، وسيد من سادات بيت المصطفى، فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت ضراط لهم أو لاعب أو مسخرة، أو ضارب، فتحضر جنازاته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنده القواد والولاء ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً أو سوفسطائياً ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً ويقتلون من عرفوه شيعياً، ويسفكون دم من سمى ابنه علياً...

... وكفاهم أن شعراء قريش قالوا في الجاهلية أشعاراً يهجون بها أمير المؤمنين عليه السلام، ويعارضون فيها أشعار المسلمين، فحملت أشعارها ودونت أخبارهم، ورواها الرواة مثل الواقدي، ووهب بن منبه التميمي، ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي⁽¹⁾ والهيثم بن عدي⁽²⁾ وداب بن الكاني، وأن بعض شعراء الشيعة، يتكلم في ذكر مناقب الوصي، بل في ذكر معجزات النبي ﷺ، فيقطع لسانه، ويمزق ديوانه كما

(1) الشرقي بن القطامي - 155هـ: هو الوليد بن حسين بن حبيب بن جمال الكلبي، عالم الأدب والنسب، استقدمه المنصور ليعلم ولده المهدي الأدب. ترجمته في تاريخ بغداد 9/ 278 نزهة الألباء/ 42.

(2) الهيثم بن عدي بن عدي الثعلبي الطائي البحتري، أبو عبد الرحمن عالم بالأدب والنسب وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة ترجمته في إرشاد الأريب 7/ 261، مرآة الجنان 2/ 32 - 34.

فعل بعبد الله بن عمار البرقي، وكما أريد بالكميت بن زيد الأسدي وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النمري....

ولو وقف الخوارزمي عند هذا الحد لقلنا أن النعمة على أرباب السياسة من الخصوم هي التي دفعته إلى هذا الموقف المتشدد لكنه تعدى ذلك باتهام النواصب من أهل السنة بالضلال فمن ذلك ما جاء في إحدى رسائله⁽¹⁾ "... ورحم الله المتوفى رحمة تغسل أوضاره، وتحط أوزاره، وألحقه بالطيبين الطاهرين من آل ياسين وفرق بينه وبين النواصب والظالمين، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

لقد ظل الخوارزمي مخلصاً لعقيدته، ولم يتنازل عنها قيد أنملة فقد هجا خلفاء بني العباس في عصره، وعرض بهم وشتت وقد ضيعوا الأموال التي كانوا يباهون بها، ويستغلونها في مقارعة الخصوم، وكسب الأنصار والمؤيدين، ولم يبق لهم بعدها غير القاب يمنحونها لمن لا يستحقها، يقول في هجائهم⁽²⁾:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحش بوابا⁽³⁾
قل الدراهم في كفي خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام القابا

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه ببني بويه وبوزيرهم صاحب بن عباد بشكل خاص وكيف أن الخوارزمي قد أخلص الود لهم طيلة حياته، وما كان ذلك إلا بتأثير مذهبه الديني، الذي اعتبر قيام دولتهم نصرة لهم

(1) الرسائل / 171.

(2) يتيمة الدهر 4 / 130.

(3) الحش: البستان والحش: المتوضأ، سمي به لأنهم كانوا يلذّبون عند قضاء الحاجة إلى البساتين، وقيل إلى النخل المتجمع يتغوطون فيها.

في صراعهم. وقد عبر الخوارزمي عن هذا الموقف بوضوح وجرأة في رسالة بعث بها إلى أبي محمد العلوي⁽¹⁾.

... فأما آل أبي طالب، فإنهم ينزلون منه على سيف التشيع وسنانه وعلى يد الحق ولسانه، وماضهم مع حياته أن لا يعيش لهم الأشر، وما ضرهم مع عطائه أن لا ترد عليهم فذك وخير، غيرة منه على الشرف أن لا يصاب عن الابتذال رحله وأن لا يحفظ فيه وله أهله....

وإذ كانت الفرق الأخرى تباهي بعزها وماضيها، ودول أنشأتها، فقد باهى الخوارزمي بهذه الدولة، وما كانت مباهاة بالسلطان فحسب، بل بما استطاعت كسبه إلى جانبها من الفرق الأخرى الذين أقبلوا على اعتناق مذهب التشيع يقول الخوارزمي⁽²⁾ ... وقد علم السيد أنه ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وهبت لأهلها رويحة، ودالت لهم دولة، كما اتفق المختار ابن أبي عبيد للكيسانية، ويزيد بن الوليد للغيلانية وإبراهيم بن عبيد الله للزيدية، والمأمون لسائر الشيعة، والمعتصم والوائق للمعتزلة، والمتوكل للنواصب والحشوية، وما بلغنا أن أحداً من أصحاب تلك الدول، زاد في عدد تلك النحل، ولقد قتل المختار أهل الكوفة، وبعث كتبه ورسله إلى أهل البصرة، فما قدر أن يزيد جمجمة واحدة في عدد جماجم الشيعة، ولقد رفع المعتصم سوطه ووضع سيفه، وصادر وسلب، ووعد وأوعد فنبأ عنه الدهر بجأته وقامت العوائق عليه في وجه بغيته.

وهذا الرجل⁽³⁾ لم يزل يستدعي بقوله وفعله، ويستعين على عمارة المذهب بجأه وماله، ويجرد لسانه والسيف بمغمد، ويغمد لسانه والسيف مجرد، حتى إذا علم الله صدق نيته، ومضياء عزيمته، وآه لا يريد إلا رضاه، ولا يسلك إلا طريق هداه، جمع

(1) الرسائل/ 178.

(2) الرسائل/ 178.

(3) يقصد الصاحب بن عباد.

عليه القلوب المتعادية، وألف له الاهواء المتباينة، فدخل الجميع دين الله أفواجا، وتقاطروا على استجابة الدعوى فرادى وأزواجا، فلم يبق في نواحي سلطانه أحد من النواصب إلا وقد غاصت عليه الرحمة، وخلصت له الدعوة، فهو مبتدئ بالدرس قد نبغ، أو متوجه في العلم قد بلغ، وأن أحدهم ليدخل في الحق تحسنا فيجد بركة الدين حين يعتقده تديناً...!

وما يزال الخوارزمي مفاخراً بمذهبه وانتشاره في بقاع متعددة حتى لو كسد في بقعة معينة⁽¹⁾:

... فإن كسد التشيع بخراسان، فقد نفق بالحجاز والحرمين والشام والعراقين، وبالجزيرة، والثغرين.

وكما فخر الخوارزمي وتباهى بدولة البويهيين فقد حفظ لسيف الدولة حظه من هذا الفخر⁽²⁾، فالمغرب لسيف الدولة رحمه الله والمشرق لحضرة الوزير أيده الله.

أما موقفه من الفرق الأخرى، فيكاد يتوضح لنا من خلال هذه الفقرة التي ينهي فيها رسالته إلى شيعة نيسابور⁽³⁾:

... ونسأله أن لا يكلنا إلى أنفسنا، ولا يحاسبنا على مقتضى عملنا. وأن يعيذنا من رعونة الحشوية، ومن لجاج الحرورية، وشك الواقفية، وإرجاء الحنفية، وتحالف أقوال الشافعية، ومكابرة البكرية، ونصب المالكية، وإجبار الجهمية البخارية، وكسل الراوندية وروايات الكيسانية، (وجحد) العثمانية، وتشبيه الحنبلية وكذب الغلاة الخطائية، وأن يحشرنا على نصب إصبهاني، وعلى بغض أهل البيت طوسي، أو شاشي، ولا على إرجاء كوفي، ولا على تشبيه قمي، ولا على جهل شامي، ولا على

(1) الرسائل / 139.

(2) الرسائل / 139.

(3) الرسائل / 177.

تحنبل بغداددي، ولا على قول للباطن مغربي، ولا على عشق لأبي حنيفة بلخي، ولا على تناقض في القول حجازي، ولا على مروق سجزي ولا على غلو في التشيع كرخي، وأن يحشرنا في زمرة من أحبيناه، ويرزقنا شفاعة من توليناه، وإذا دعا كل أناس بامامهم وساق كل فريق تحت لوائهم، إنه سميع قريب، يسمع ويستجيب.

ولقد وصف أصحاب الفرق الأخرى بأنهم أهل بدعة، وأن الوزير ابن عباد حين أعانهم على الدخول إلى المذهب الشيعي قد خلصهم من البدعة، فخلصهم من النار⁽¹⁾:

"... وأن رجلاً يحيل طباع الزمان، وينقض بنية البلدان ويفطم الناس عن عادة المنشأ وإلف الإخوان والآباء، ويصير حداً بين الجنة والنار، وبرزخاً بين البدعة والسنة، لعظيم حجم المهمة.

ويبدو أن الخوارزمي قد خلط في عقيدته، بين مذهبي التشيع والاعتزال ومن المعروف أن المذهب الأخير قد انتشر انتشاراً واسعاً في عهد المأمون، وهو مذهب يعتمد العقل والمنطق في تفسير كثير من المشكلات، وقد ترك آثاراً واضحة في العقلية العربية والإسلامية، ولم يكن مذهباً دينياً شأن غيره من المذاهب، بقدر ما كان منهجاً في التفكير، لا يلزم صاحبه بالخروج على الفرقة الدينية التي ينتمي إليها.

يقول في رسالة بعث بها إلى فقيه هراة، يصف حالته وهو بين الموت والحياة⁽²⁾ "... ولولا أنني معتزلي لقلت تأخر الأجل.

ويقول في أخرى: ⁽³⁾ "... وأنا الآن في هذه الجملة واقفي، وعهده بي لا أتواضع للمذهب الواقفية، ومزجي، وما كانت تطمع في مثلي شباك المزجية فكيف أعاتب

(1) الرسائل / 179.

(2) الرسائل / 108.

(3) الرسائل / 63.

سيدي، بل كيف أخاصمه وأواثبه بل كيف أطاعنه وأضاربه، وأقل ما جتته علي غيبته
أنني كنت معتزلياً فعدت به واقفياً.

ويقول مخاطباً السيد أبا محمد العلوي⁽¹⁾ "... ذكر السيد أن اعتداده بي اعتداد
العلوي بالشيعة، والمعتزلي بالمعتزلي، وأنا أقول مكافياً لا مبارياً، ومتابعاً لا موازياً،
اعتدادي بما رزقني الله من اعتداد السيد بي، اعتداد الصحابة بالنبي، واعتداد الشيعة
بالوصي واعتداد المعتزلة بالحسن البصري واعتداد الحجازيين بالشافعي واعتداد
الزيدية بزيد بن علي رضي الله تعالى عنه واعتداد الإمامية بالمهدي...."

احتفظ الخوارزمي بعلاقات وثيقة بكبار العلويين والشيعة يدلنا على ذلك
رسائله المتعددة إلى أبي محمد العلوي، وأبي البركات علي بن الحسين، وهو الذي ورد
ذكره في المناظرة مع البديع⁽²⁾ وتبدو الصلة وثيقة بينهما حين نقرأ الأبيات التي كتبها
أبو البركات إلى أبي بكر⁽³⁾:

لئن كان ذنبي أنني اعتللت	فذلك ذنب صغير صغير
وإن كان هجري من أجله	فذلك ظلم كبير كبير
صدودك عنا صدود الحيا	ة وصد سواك يسير يسير
فزرنني قليلاً تجدد شاكرأ	لديه القليل كثير كثير

ولم تمنعه عمق الصلة، من الاعتداد بنفسه، فيباهي ويفخر بتشيعه، ويرفض أن
يعامل معاملة واحد من عامة الشيعة.

يقول في رسالة بعث بها إلى أبي محمد العلوي⁽⁴⁾: لولا أنني لا أحب أن أفتح

(1) الرسائل / 41.

(2) يقول في رسالة إلى بديع الزمان ولم أرفع عليه إلا السيد أبا البركات - أدام الله عزه - رسائل
البديع / 25.

(3) تاريخ العتي 2 / 52.

(4) الرسائل / 103.

كتابي إلى السيد بعتاب، وأن أكلفه الي تكلف حجة وجواب، لوجد سهامي في الملام
مسددة، وسيوفي في التقريع محدة، وعلم أني إذا ضربت لم تقم ضربتي وإذا رميت لم
تنج رميتي...

... وقد أفرد السيد كل واحد من أوليائه وشيعته بلطف وتناوله مع البر
والتحفي بطرف، غيري، وما كنت أعلم أني سكتت الحلبة، ولا أني ساقاة الكتيبة وأن
إسمي آخر الجريدة، ولعمري إن شيعة السيد لكبار، ولكنني لا أصغر عنهم، وإنهم
لكثير، ولكن مثلي لا يضيع فيهم... وأن قوماً أنا صغيرهم لكبار، وأن أمة أبو ذر
شرها لخيار..

ولم يتورع الخوارزمي عن هجاء أحد العلويين لأنه لم يكن ميالاً إلى مذهب
الشيعة فيقول فيه⁽¹⁾:

شريف فعله فعل وضيع	دنسي النفس عند ذوي الجودود
عوار في شريعتنا وفتح	علينا للنصارى واليهود
كأن الله لم يخلقه إلا	لتنطف القلوب على يزيد

وقد استغل معاصروه من الخصوم تعصبه لمذهبه، فأزروا به وعرضوا به تعريضاً
شديداً ووشوا به، ولعل ما لقيه على يد السامانيين ووزرائهم كان نتيجة طبيعية لهذا
التعصب، وقد استغل بديع الزمان الهمداني هذا الأمر استغلالاً ذكياً وفسلط عليه
لسانه، ووصفه بأنه طعانة لعانة سبابة، للسلف الصالح والصحابة وقد دافع البديع عن
هؤلاء السلف، وعدد مآثرهم، ووصم الخوارزمي بالكفر والإلحاد وهي قصيدة طويلة
يقول فيها⁽²⁾:

(1) اليتيمة/ 230 - 231.

(2) معجم الأدباء 1/ 114 - 116.

وكلني بالهم والكآبة طعانة لعانة سبابة
للسلف الصالح والصحابة أساء سَمعا فأساء جابه
تأملوا يا كبراء الشيعة لعشرة الإعلام والشرعية

وليس بعيداً أن يكون الخوارزمي قد قال أبياتاً في مدح علي بن أبي طالب
وتفضيل مذهب التشيع، ونسبها إلى نصراني⁽¹⁾

عليّ أمير المؤمنين عزيزة وما لسواه في الخلافة مطمعُ
له النسبُ الأعلى وإسلامه الذي تقدم فيه والفضائل أجمعُ
ولو كنت أهوى ملة غير ملي لما كنت إلا مسلماً أتشيعُ

لقد توضحت لنا المرتكزات الفكرية التي استند إليها في تحديد رؤية واضحة تجاه
السلطة السياسية، التي كان لازماً عليه أن يتعامل معها، وكان في ذلك سياسياً بارعاً،
ذلك انه يميز بين أسلوبين في التعامل، الأول ينطلق من أسس مبدئية ثابتة وهو ما
اصطلح على تسميته (بالأيديولوجية) وكان في ذلك مثال الرجل المخلص لعقيدته
والمدافع عنها، المكافح من أجلها وقد دفعه هذا التعامل إلى تحديد مواقف واضحة
وصريحة من التاريخ السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية واتخاذ مواقف متميزة من
الواقع السياسي الذي عاش فيه تبعاً لقربه أو بعده من الخط الفكري الذي التزم به
والثاني: تعامل يأخذ بنظر الاعتبار الظروف الآنية، ومتطلبات حياته المعيشية، وصلاته
بالولاة والحكام وطريقة تقربه منهم وأسلوب مخاطبتهم، على أن لا يصرفه ذلك عن
النهج المبدئي لمذهبه وعقيدته، وهذا ما يفسر لنا انقلاب الولاة والحكام عليه حين لا
يستطيعون التأثير في معتقده الديني والسياسي فقد ظل وفياً مخلصاً لبني بويه متمسكاً
بشروط عقيدته المذهبية وإن اضطرت ظروف الحياة المادية الصعبة إلى اتباع أسلوب

(1) تحفة الناصرية في الفنون الأدبية- أبو القاسم الرشني الأصبهاني/ 37.

للتعامل يفيض بالتواضع والمسكنة، حين يعرض نفسه للخدمة ويستدر العطاء: يقول في رسالة إلى أبي سعيد أحمد بن شبيب⁽¹⁾.

.....'وها أنا- أيد الله صاحب الجيش سيف طير، وسنان شهير ولسان على الأعداء مسلول وسلاح على حساد النعمة مصقول إذا ورد- أيد، الله تعالى- لزممت بابه، وصحبت ركابه، وكنت بوابه....'

ويقول من أخرى إلى أبي الحارث من ولد هاشم بن ماسجور وهو ملك الجبل⁽²⁾....'مكاتبة مثلي للأمير سوء أدب، وقلة حياء ومسكه، وتركى مكاتبته بعدما أمكن، وقرب متناولها مني تضييع لفرصة من فرص العمر، ونهزة من نهز الفوز' وبيّن أسباب المكاتبة ويعرض آله قائلاً:

...'وقلت لا أقل من أن أدس اسمي في أسماء خدم تلك الحضرة الجلييلة وأخدم ذلك السيد قولاً، وإن كنت لم أرزق خدمته فعلاً، وأكاتبه غائباً. إذ كنت لا أصل إليه حاضراً، فكتبت هذه الأحرف، أصل جبلي بجبله، وأعرض بها نفسي لفضله. وأنا أخرج للأمير من عهدة هذه السلعة، وأشهد أنني وسط في هذه الصنعة، فإن الهية تحصر بنان الكاتب، وتعقل لسان الخاطب فكيف حالها مع المكاتب....'

ومن الغريب أن لا يستكتب الخوارزمي لأي من الولاة والحكام وهو الذي ملك أدوات الكتابة، وأجاد استخدامها حتى عرف بها، ولعل مرد ذلك يعود إلى أنه أراد أن يحيا حراً طليقاً من كل قيد، وأن يتعد عن الأعمال التي قد تجره إلى المزالق وهو إلى ذلك داعية دينية وسياسية، لا يستطيع خصومه الاطمئنان إليه، مثل ما يخشى أصدقائه سطوة لسانه وشدة عارضته.

(1) الرسائل / 188.

(2) الرسائل / 113.

نظراته الاجتماعية:

لعل من الطبيعي أن يتأثر الأديب بعصره بما فيه من تيارات فكرية وسياسية وبما يسود مجتمعه من عادات وتقاليد وقيم، وتختلف درجة التأثير باختلاف مواقع الإنسان وارتباط مصالحه، ومقدار وعيه، فهو إما أن ينخرط في الواقع ويصبح جزءاً منه، وإما أن يرفض هذا الواقع، ويعبر عن رفضه بطريقة معينة.

ومن الطبيعي أن يتعمق الرفض، ويتصلب بازدياد التناقض في المصالح والاختلاف في المفاهيم والمعتقدات. وقد يكون الإحساس بالظلم فردياً، وقد يكون الإحساس جماعياً، وينطلق من مصلحة فئة معينة، أو طبقة من طبقات المجتمع، وكلما كان الصراع صراع طبقات أو فئات، زادت حدته وظهرت حقيقته، ذلك أن الظلم الواقع على الفرد يمكن التخلص منه أو الاستسلام له وينتهي الأمر، لكن الظلم الواقع على فئة أو جماعة، لا بد أن يسفر عن وجه بين، ولا يزول إلا بالصراع، ولا بد من انتصار فئة على أخرى.

وليس غريباً أن يأخذ الصراع أشكالاً متعددة، وأن يبرز في كل وجه من وجوه الحياة المتعددة. فالصراع المذهبي يقود إلى صراع سياسي وفكري، وأخلاقي واجتماعي واقتصادي، والثائر على الأفكار لا بد أن ينقل المعركة، إلى كل ميادين الحياة المختلفة. والمصالح الفردية والجماعية هي المحرك لكل هذا وذلك. ولقد وضع لنا - مما سبق - مقدار تعلق الخوارزمي بمذهبه الديني، ومعتقده السياسي وتحمله لأعباء الدعوة للمذهب الشيعي ومواجهة خصومهم وأعدائهم، ولعل من الطبيعي أن ينقل الرجل بذور الرفض من ميادين الفكر والسياسة إلى الواقع الاجتماعي، الذي تفسى فيه الفساد، وعمه الاضطراب، نتيجة للفساد الاقتصادي والسياسي، فالطبقة العامة، وأغلبها من صغار التجار والمزارعين ومن الصناع والفلاحين الكادحين في الأسواق والحقول، قد أثقلت كاهلها الضرائب الفادحة وأنهكتها ويلات الحروب المستمرة بين

الأمراء، والفتن الدامية بين الطوائف، وأقلقها أهل العبث والفساد من لصوص وقطاع طرق، وعيارين وشطار،⁽¹⁾ فانتشر بسبب ذلك كثير من العادات الفاسدة، وفقد الأمن. ... فهذه طائفة من الناس قست عليها ظروف الحياة وهددتها بالموت، جوعاً فاستهانت بأغلى ما يعتز به الإنسان، وفرطت به ... باعت عرضها وتاجرت بشرفها لتظفر بالقوت، واتخذت لنفسها بيتاً تعرض فيها اللذة. كما تعرض السلع في الأسواق، مستهترة بكل ما يسميه الناس عرضاً ودينياً، وتقاليد وأخلاقاً.

وتلك فئة أخرى أراقت ماء الوجه وأهانت المروءة، واتخذت التسول، وسيلة للارتزاق، وفضلتها على الزراعة والتجارة والإمارة، وهؤلاء قوم سدت في وجوههم أبواب الرزق فاستعانوا على العيش بقوة أجسامهم وسعة حيلهم، فاتخذوا من التلصص وقطع الطريق والسطو على أموال الناس يرتزقون منها وأولئك أناس لم يستطيعوا أن يجاروا الناس في ميادين الكفاح فأخفقوا، وتملكهم اليأس من النجاح في هذه الحياة الدنيا فاحتقروها ووقفوا منها موقفاً سلبياً، فدعوا وأسرفوا في الدعوة إلى التوكل على الله والثقة المطلقة بالآخرة، فصوروا الحياة بصورة قائمة وأشاعوا فيها نغمة حزينة مملة، أولئك هم المتصوفة والزهاد.

أما أصحاب الثروة واليسار، والمناصب الكبرى في الدولة في هذا المجتمع فقد كانوا فريسة للقلق والخوف، مهددين في كل لحظة بالمصادرة والقتل والتعذيب والقبض، وزوال النعمة والجاه، كل ذلك من أجل أموالهم ومراكزهم، وكل ذلك أيضاً دعاهم إلى أن ينكبوا على اللذات يعبونها عباً، وإلى الأوقات يختلسونها اختلاساً كأنهم كانوا مع زوال النعمة على ميعاد.

فإذا أضفنا إلى هذا ما كان من ضعف أثر الدين، والتحلال الاعتبارات

(1) الأدب في ظل بني بويه / 45.

الاجتماعية عند القوم، لظهور البدع الدينية، وعودة العادات العرقية القديمة إلى المجتمع من جديد استطعنا أن ندرك سبب انتشار بعض المظاهر الاجتماعية كالفسق والفجور والشراب والغناء وألفاظ المقاذر والمجون في المجتمع، حتى بين العلماء والفقهاء والقضاة الذين ينتظر منهم الوقار، والتزام جانب الدين والأخلاق، واستطعنا كذلك أن ندرك سبب عدم استنكار المجتمع لهذه الموبقات وسبب جموح النزوات والشهوات عند الطبقة العامة⁽¹⁾.

لقد كان من الطبيعي أن يقف الخوارزمي في وجه هذا التيار العاتي، الذي قوض أركان الجمع، وأورده مورد الهلاك فشدد حملته على الزمان، وسخر من العادات والتقاليد الفاسدة وقد اتخذت هذه الحملة مظهرين:

الأول: ثورة على الزمان وأهله مصدرها الذات، وذلك أن تجاربه القاسية وما جرت به عليه من ويلات وإحن وما سببت له من ضياع الأموال والوقوع في الحيرة والقلق والاضطراب والخوف، قد أفقدته الثقة بالزمان، فصب سخطه عليه، ونزع ثقته به، وما أحسبه إلا قد فقد الثقة بأهل ذلك الزمان، فلقد كثر الزيف، وضاعت الحقيقة، وندر الرفاء وقل الأصدقاء، وقد حاول الخوارزمي أن يرفع هذا الكل عن نفسه وعن غيره، بالتشبث بجمال الوفاء ومعاودة الأصدقاء، ولعل كثرة الرسائل الإخوانية التي حواها كتاب رسائله ما يدل على ضعف هذه الأصرة الاجتماعية، وإلى محاولته التمسك بها من خلال إبقاء جبل الود مع الأصدقاء موصولاً، والاكثار من العتاب الذي يمكن أن يعيد الأمور إلى مجاريها كلما تحولت عنها.

لقد سامته الأيام خسفاً، وأوردته موارد التهلكة، فحنق عليها وحقد عليها، لأنها قطعت عليه طريق السعادة والأمل، يقول في إحدى رسائله:⁽²⁾

(1) الأدب في ظل بني بويه هـ 53.

(2) الرسائل / 170.

وهذه عادة الدهر معي، وقديم صنعه بي، فإنه إذا علم أنني أحب أمراً ناطه بالعيوق، ووضعه موضع بيض الأنوق، وأبعده، وهو غير بعيد وشده وهو غير شديد، وأنا بعد اليوم لا أقر للدهر بما اقترحه عليه وأطلبه لديه، فلعلي أخدعه عن طبعه، وأختله عن سوء صنعه، ومن ذا يجادع الأيام أو يغالط الحظوظ والأقسام.

ويقول في أخرى⁽¹⁾ "فإن الأيام قلما رأت يدي علقاً نفساً إلا سلبتني وقلمما أعطتني مما أحب شيئاً إلا حاسبتني، حتى لو صادفت الدواء لجعلته حمى لا يطل جانبه، ولو اختصصت بالماء لصيرته نبعاً لا يروي شارب، أما الناس فما أحصي منهم عدداً ممن ابتعته فباعني وحفظته فأضاعني".

لقد صيرته الحياة قاسياً صلباً لا يالم للمصائب ولا يفرح لإقبال الحياة عليه ولا يأسى لإدبارها عنه، ويعبر عن هذه الحالة بكثير من الألم والمرارة فيقول⁽²⁾: على أنني قد تعودت ضربات الزمان حتى صارت لا توجعني، وألفت صواعقه حتى صارت وإن قربت مني لا تسمعني، ونكبت حتى ما أبكي لنكبة وضحكت حتى ما أضحك لفرحة ولقد:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصال على النصال

أما المظهر الثاني فينطلق من إحساس، بالمهمة الجماعية، قادت إليه عقيدته السياسية، ومذهبه الديني، وما كان عليه من علم وأدب، فسمت بأخلاقه وارتفعت بطباعه، فسخط على الزمان الذي كان يرمز به للسلطان لأنه المسؤول عن تخريب الأخلاق وانتشار الفساد وانثلام المروءة، فسعر حملته عليه مصرحاً بالأمر تارة، مكنياً عنها بالزمان تارة أخرى، يقول في إحدى رسائله "ولحن دُفِئنا إلى زمان هرمت فيه

(1) المصدر السابق / 129.

(2) المصدر السابق / 205.

الدولة، وفترت الدعوة وكسدت السلعة، وبطلت الصنعة، والسلطان بالزمان والزمان بالإمكان، والإمكان على قدر الكيان.

وأنت عبيد الله أكبر همةً وأكرم من فضل ويحيى وخالد
أولئك جادوا والزمان مساعدٌ وقد جاد ذا والدهر غير مساعدٍ

ويقول من أخرى⁽¹⁾: "والدولة تجعل القريب بعيداً، والجحد يرى المخطئ مصيباً، والمجدود يمس بيديه ما لا يراه المحدود بعينه، ويتناول قاعداً ما لا يتناوله غيره قائماً. ويسب الزمان وأهله، ويعبر عن سخطه على هذا الواقع الفاسد الذي انقلبت به الموازين وضاعت الحقيقة في أدراخ الزيف، فيقول⁽²⁾:

"فأنا ولا كفران لله تعالى في زمان يجب أن يجري فيه الجفاء مجرى العادة والسجية، ونضعه موضع السنة بل الفريضة، ونقيمه مقام الجبلّة والشيمة، فننظر إلى حفظ العهد بعين الشماته والطرفة، وننزله منزل الغريبة والنادرة، ونحكم عليه بنقص العادة، وخلاف الجملة"

ويرى أن الوقوف في وجه هذه التيارات وجهاً لوجه، أمر لا يجني منه الإنسان غير الخسران، ولذا فإن عليه أن يحتال للزمان، وأن ينتظر الوقت المناسب الذي يتيح فرصة التغيير فيقول⁽³⁾:

"فإنما أيام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قاتل أيام الإدبار بوجهه صدمته، ومن قاتل عساكر الإقبال أيام كرها هزمته ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيراً..."

(1) الرسائل / 4.

(2) الرسائل / 38.

(3) الرسائل / 102.

ويوجه صرخة مدوية إلى أبناء عصره للكف عن العادات السيئة، والابتعاد عن طرق الضلال والتخريب، فيقول: ⁽¹⁾

فيا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كم تهتكون حجب العوارف بيد الكفران،
وكم تصافحون النعم بالبغي والعدوان، وكم تفضحون ختام العافية بالغدر، وكم
تسترون الخيرات بقلة الشكر، وكم لا تبرزون الصنائع في معرض من حسن الذكر،
ولا تقلدونها حلية من طيب النشر، وكم تتبعون الوفاء بالملق، وتنادون على الأمانة
كما ينادى على الثوب الخلق، وكم تقبحون في النعم، وتحسنون في النقم، وكم تجهلون
ما عرفه الخطيئة مع خبث مذهبه، ولؤم مركبه، حيث يقول:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وحين يستحوذ عليه اليأس، ولا يجد معيناً على الزمان، مع قلة في الحول
والطول، لا يملك إلا أن يستكين، ولكنها استكانة الألم ودلالة الإحساس بالظلم
القاسي، يقول: ⁽²⁾

يا عافاك الله إمش مع الدهر كما يمشي، واجر مع الفلك كما يجري، وأرض بمن
رفقت الأيام به، وارع لمن رعت السعادة له، ولا تزاحم الفلك الدوار، ولا تناطح
الأقسام والأقدار، ولا تصغر الكبار ولا تتحكم على الدهر، فإنه حاكم لا يُتحكم
عليه، ومسلط لا يؤخذ من يديه.

نظرته إلى المرأة:

يلمح دارس أدب الخوارزمي تخلف نظرته إلى المرأة، وكثرة مآخذها بحيث
يمكن اعتبارها من وجهة نظره، رمزاً للفساد الاجتماعي والأخلاقي في مجتمعه، ولحن
لا نعرف مقدار التجربة الشخصية المؤثرة في نفسه، وإن كنا نعرف أنه قد تزوج وأنجب

(1) الرسائل / 5.

(2) الرسائل / 7.

أطفالاً، واقتنى جارية، وأظهر تعلقاً بها، فقد رفض بيعها حين طلبت منه بعشرة آلاف درهم، وقال فيها⁽¹⁾.

يا طالباً روعي لبيتاعها أنت رسول الغم والحسرة
غدوت بالبذرة فأرجع بها لست أبيع البدر بالبدره

ويمكن القول أن العامل الاجتماعي كان له الأثر الكبير في تكوين هذا الرأي عنده، فالمرأة لم تستطع أن تثبت وجوداً مؤثراً في المجتمع يكبح جهوح الرجل في السيطرة والاستعباد، وحالة الحروب المستمرة بين الأقاليم كانت تمنح الرجل مزيداً من الفرص لأحكام هيمنته، وإظهار جبروته، وكان من نتائج تلك الحروب زيادة الفساد الأخلاقي والخلال كثير من القيم، فانتشر البغاء وازداد الفسق والفجور فأحدث هذا ردة فعل لدى طائفة من الناس، تطلب الإصلاح وتنشد التغيير، ويبدو أن ردة الفعل كانت شديدة من الخوارزمي فرأى في المرأة صورة الفساد والفجور ومكمن الشرور وضالة التفكير، وقلة الوفاء، حتى لتحس به قريب عهد من القوم الذين وصفهم الله بقوله (وإذا بشر أحدهم بالأنثى، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)... ولئن حزن أولئك لمولد الأنثى، لقد عد الخوارزمي وفاتها ستراً وأمنية، وكاد يهنئ بوفاتها يقول في رسالة إلى رئيس بهراة يعزيه بأبن أخته وبنته⁽²⁾.

... فأما البنت - رحمها الله فقد كانت حياتها عفافاً وستراً ووفاتها ثواباً وذخراً ولقد كانت في زمان النجاة في رجاله غريبة، وفي نسائه عجيبة، والعفاف في ذكرانه معوز، وفي إنائه معجز، والعقل في شيوخه نادرة تفقد، وفي شبابه ضالة لا توجد، فالحمد لله الذي سترها بالحياء في حياتها، وبالثواب في وفاتها... ولولا ما ذكرته من سترها، ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت إلى التهيئة أقرب من التعزية فإن ستر

(1) اليتمية 4/ 237.

(2) الرسائل / 20.

العورات من الحسنات، وإن دفن البنات من المكرمات، ونحن في زمان إذا قدم أحدها فيه الحرمة، فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر، فقد بلغ أمنيته من الصبر.

واستشهد الخوارزمي - بعد ذلك - بأشعار الأقدمين ليدلل على صحة نظريته التي كانت منسجمة مع نظرة المجتمع في عصره⁽¹⁾

قال الأول: ولم أر نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سُتِرت بقبرٍ

وقال الثاني: تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

وقال الثالث: وددت بنيتي وودت أني وضعت بنيتي في حذر قبر

وقال الرابع: ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال الخامس: سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن زميت

ولقد مزج بين التهئة والتعزية في رسالة كتبها إلى كثير بن أحمد⁽²⁾ وإذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من أطراف الكمال، ولا بد من عوذة يعوذ بها وجه الجمال. فلأن تكون الواقعة في الصغير، خير من أن تكون في الكبير، ولأن يقع سهم الزمان على النسوان أمثل من أن يقع على الذكران.

والحمد لله الذي جعل طي المحنة منحة، وفرج الترحة بفرحة، فستر عورة من حيث سلب أنساً ونزهة، وكفى مؤونة من حيث جلب فجعة.

وفي رسالة بعث بها إلى الوزير ابن عباد⁽³⁾، يعزيه عن شقيقته ويظهر فيها أنفته من ذكر النساء للوزير وكأنني به يتحدث عن منكر تنفر منه النفس البشرية، فلا تقبله، ولا يجوز التحدث به أمام القوم الذين علا شأنهم، وإذا كان ذلك في حرم الوزراء والأمراء، فما بال القوم الذين أزرى بهم الدهر، لا ريب أنهن في منزلة دون هذه، إنه

(1) الرسائل / 20-21.

(2) الرسائل / 60.

(3) الرسائل / 84.

انتقاص شديد للقيم الإنسانية، حين ينجل الإنسان من ذكر النساء.... المصيبة التي قرعت صفاء الوزير في المتوفاة زكى الله عملها، وحقق في مغفرته أملها، وإن كانت نالت كلا من خدمه، ومتحملي أعباء نعمه، بالغم الذي لا تنجلي كربته، والجرح الذي لا تؤمن ضربته، وفجعي من بينهم بالنصيب الأوفر، والقسم الأكثر، فإني أغار لهية الوزير من ذكر النساء أولاً، واتطير لنعمته أن تتخللها التعازي والمراثي ثانياً⁽¹⁾.

ويأخذ على المتنبي قوله في رثاء أخت سيف الدولة حين قال:
يعلمن حين تحيا حسن مبسمها وليس يعلمُ إلا الله بالشئب
فيقول "ولو عزاني إنسان عن أخت لي بمثل هذا لألحقته بها. وضربت رقبتَه على قبرها".

والمرأة في نظر الخوارزمي صورة من صور الضعف والتخلف العقلي والاجتماعي فهي مبدرة للأموال، فاسدة الأخلاق ولذا فإن على الرجل أن يكون قواماً عليها، حذراً كل الحذر في مراقبتها وأن يبعدها عن الرجال لأن الاختلاط يفسد أخلاقها، ويعرض ذويها للعار. يقول⁽²⁾.

"ولولا أن تضييع المال ضرب من العجز والإخلال، وخصلة من خصال النساء لا الرجال، لكنت أترك تلك الضيعة نسياً منسياً.

ويقول في مكان آخر.... وإنما التمايم سلاح النساء، ومن حصون الضعفاء.
"... وكما أن من آفات النساء أنهن إذا أكرمن قبح خلقهن وإذا أهن فسد خلقهن"⁽³⁾

(1) الرسائل / الطبعة العثمانية 1312.

(2) الرسائل / 84.

(3) الرسائل / 122.

و حين وقع الخوارزمي طريق الفراش بسبب حمى أصابته، لم يجد غير المرأة شبيهاً لها، فهي نذير شؤم، وطالع شر، وقد سبقه إلى ذلك المتنبي⁽¹⁾ يقول الخوارزمي⁽²⁾

ولو أبصرت في أرجان نفسي	عليها من أبي يحيى ذمام
ولي من أم ملدم كل يوم	ضجيج لا يلد له منام
مقبلة وليس لها ثنايا	معانقة وليس لها التزام
كان لها ضرائر من غذائي	فيغضبها شرابي والطعام
إذا ما صافحت صفحات وجهي	غدا ألفا وأمسى وهولام

و حين أراد أن يصور قلب الدنيا بين إقبال وإدبار وفرحة وترحة، ربط بينها وبين المرأة التي لا بد من التعامل معها بحذر واستعلاء، يقول⁽³⁾:

وقد جاءت الدنيا إليك كما ترى	طفيلية قد جاوبت قبل أن تدعى
صبت بك عشقاً، وهي معشوقة الورى	فقد أصبحت قيساً وعهدي بها ليلى
ولما رأت خطابها تركتهم	ولم ترض إلا زوجها الأول الأولى
ولم تتساهل في الكفي ولم تقل	رضيت إذا لم تكن إيل معزى
على أنها كانت جفتك تذلا	فخليتها حتى أتت تطلب الرجعى

ثقافته

للخوارزمي حصيلة من الثقافة ثرة، ألم فيها بكثير من علوم العربية، وآدابها فقد برع في حفظ الشعر وروايته، وقصة دخوله على الصاحب، وادعاؤه، حفظ عشرين

(1) في قصيدته التي مطلعها:

ملومكمأ يحل من الملام ووقع فعالة فوق الكلام

(2) اليتيمة 4/ 217.

(3) المصدر السابق 4/ 227.

ألف بيت من شعر النساء⁽¹⁾، دليل على قوة الحافظة وثرائها، حتى اشتهر بالحفظ، قال السيوطي. قال الحاكم⁽²⁾ كان واحد عصره في حفظ اللغة والشعر، وكانت قريحته تقصر عن حفظه⁽³⁾.

ويصفه تلميذه أبو منصور الثعالبي بأنه⁽⁴⁾ "باقعة الدهر وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف، وكان يجمع بين الفصاحة العربية، والبلاغة المفيدة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ويتكلم بكل نادرة، ويأتي بكل فقرة ودرة ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته، وملاحة عبارته، ونعمة نعمته، وبراعة جده، وحلاوة هزله".

ولم يقتصر في روايته على الشعر الجاهلي والإسلامي ولكنه كان يحفظ أشعار المحدثين ويرويها، وقد اعتمد الثعالبي في تدوين أشعار عدد من الشعراء على ما كان يروي له أبو بكر الخوارزمي من محفوظه أو مدوناته، لا سيما شعراء الشام⁽⁵⁾ ويبدو أن الخوارزمي كان يروي شعر أبي الطيب المتنبي، وقد ورد في شرح الواحدي والعكبري عدد من روايات الخوارزمي لايات في الديوان، يؤخذ بها في أغلب الأحيان⁽⁶⁾.

(1) وفيات الأعيان 4/ 401.

(2) الحاكم: محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين له تاريخ نيسابور ومؤلفات أخرى.

(3) بغية الوعاة/ 51.

(4) اليتيمة 4/ 194.

(5) اليتيمة 1/ 45، 104، 20، 122، 135-138، 248، 278، 288، 296، 298 وغيرها كثير.

(6) انظر شرح الواحدي: 1/ 79، 122، 184، 197، 277، 278، 290، 331، 349، 354، 355، 367،

376، 388-389، 445، 572، 753، 868، وانظر شرح العكبري 1/ 21، 73، 155، 205، 225،

227، 334، 2/ 18، 63، 124، 158، 211، 264، 267، 236، 237.

ولم يكن الخوارزمي مجرد راوية للشعر، فحسب، فقد تعدى ذلك إلى فهم الشعر، ونقده، ومعرفة الخصائص الفنية للشعراء، وما اشتهر به كل منهم، وعدّ حفظ الشعر مصدراً من مصادر الإلهام فيه وفي ذلك يقول: "من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحطيئة، وهاشميات الكميت، ونقائض جرير، وخريات أبي نواس وتشبيهات ابن المعتز، وزهديات أبي العتاهية، ومراثي أبي تمام ومدايح البحري، وروضيات الصنوبري، ولم يخرج في الشعر، فلا أشب الله قرنة"⁽¹⁾ ولعل شهرة الخوارزمي في الحفظ، واعتزازه بما يحفظه⁽²⁾ قد دفعت بديع الزمان إلى مصاولته في هذا الميدان،⁽³⁾ بما له من باع طويل فيه.

وقد كان من نتيجة حفظ الخوارزمي وروايته للشعر العربي أن غصت رسائله بالأشعار يتمثل بها في الأغراض المتنوعة التي يطرقها، وأبرزت لديه ظاهرة بينة في عصره هي ظاهرة التضمين، وقد أفرد الثعالبي لهذه الظاهرة موضعاً حين ترجم له فقال⁽⁴⁾ وهذا لمع من تضميناته التي كانت له رشيقة، وطريقة أنيقة يضعها في مواضعها، ويوقعها أحسن مواقعها ويفصح بها عن اتساع روايته وكثرة محفوظاته.

وقد درس الخوارزمي اللغة، واشتهر بحفظها، وأهله علمه بها ليقوم على شرح ديوان أبي الطيب المتني كما أهله هذا الحفظ والاستيعاب لأن يكون واحداً من مشاهير عصره في النثر والشعر حتى قال عنه أبو حيان التوحيدي:⁽⁵⁾ وكان الخوارزمي من أفصح الناس، ما رأينا في العجم مثله...

وقد اعتمد الثعالبي في تأليف كتابه "فقه اللغة وسر العربية" على جلة من العلماء

(1) مطالع البدور: 214 / 1.

(2) الرسائل / 47.

(3) رسائل البديع / 56.

(4) يتيمة الدهر 4 / 212.

(5) أخلاق الوزيرين / 108.

والأدباء، منهم الخوارزمي، مما يدل على عمق معرفته باللغة يقول الثعالبي⁽¹⁾ "وتركت
والأدب والكتب، أنتقي منها وانتخب، وأفصل وأبوب وانتجع من الأئمة مثل الخليل
والأصمعي... ومن سواهم من ظرفاء الأدب الذين جمعوا إلى فصاحة العرب البلغاء
اتقان العلماء، ووعورة اللغة إلى سهولة البلاغة كالصاحب أبي القاسم وحمزة بن
الحسن الأصبهاني، وأبي الفتح المراغي، وأبي بكر الخوارزمي والقاضي أبي الحسن
على بن عبد العزيز الجرجاني. ويبدو أن الخوارزمي قد أخذ فقه اللغة عن أبي الفضل
العروضي⁽²⁾.

وقد عرف عن الخوارزمي سعة علمه بالنحو⁽³⁾، وفي شرحه لديوان أبي الطيب
المتني يتصدى كثيراً لمسائل الإعراب. بحيث يمكن اعتبارها سمة من سمات هذا
الشرح. ولعل اختياره المناظرة في النحو قبل غيره من العلوم⁽⁴⁾ والمعارف حين طلب
إليه البديع ذلك مما يمكن الاستدلال به على علو كعبه فيه، وسعة اطلاعه عليه. ولكنه
لم يترك لنا مؤلفات في هذا العلم.

أما الأمثال فقد كان له حظ موفور في حفظها وروايتها والاستفادة منها في
شعره ونثره، وقد كونت جزء من مخزونه الثقافي والفكري، ويبدو أنه اطلع
على الكتب المصنفة في هذا الباب وذكر عدداً من حكماء العرب الذين اشتهروا
بالأمثال⁽⁵⁾ مثل أكثم بن صيفي⁽⁶⁾ وبهنس الفزازي، وعامر بن الظرب

(1) فقه اللغة / 16-22.

(2) نفس المصدر / 40، 42-43، 47، 90، 139، 268، 229، 332، 333.

(3) اليتمية 4 / 194.

(4) رسائل البديع / 55.

(5) الأمثال المولدة / ورقة 3 و4.

(6) أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن نخاشن بن معاوية التميمي حكيم العرب في الجاهلية،
وأحد المعمرين، أدرك الإسلام ولم يسلم توفي سنة 9هـ.

العدواني⁽¹⁾ وعمرو بن حمزة الدوسي⁽²⁾ وذكر أسماء عدد من الذين تصدوا لجمع الأمثال كأبي عبيد والمفضل الضبي، والأصمعي، وعلي بن زين الطبري⁽³⁾ وقبلهم عبيد بن شرية الجرهمي⁽⁴⁾.

وقد قاده ذلك إلى تصنيف كتاب جمع فيه الأمثال المولدة التي استحدثها أبناء عصره وستحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن مؤلفاته.

ويعد الخوارزمي واحداً من أدباء عصره الذين لم يكتفوا بدراسة الأدب واللغة وحفظ الشعر، لكنهم عمدوا إلى سبر أغوارها والتعرف على سر الفصاحة العربية، فكان أن ألم بكل ما يمت إلى هذا التراث بصلة، فدرس التاريخ العربي والإسلامي⁽⁵⁾ وحفظ أيام العرب وأنسابها، وقد أفرد باباً في كتابه الأمثال المولدة تناول فيه أيام العرب في الجاهلية والإسلام⁽⁶⁾ عددها وذكر أطراف النزاع فيها ومن دارت عليه، وقد اشتهر عنه اهتمامه بالأنساب. يقول السمعاني⁽⁷⁾ "ذكر الحاكم أبو عبد الله في تاريخ نيسابور فقال: اجتمعت معه في نيسابور وبخاري، ثم جاءنا إلى نسا، ثم استوطن

(1) هو عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ العدواني، حكيم خطيب، كان إمام مصر وحكمها وفارسها وهو من المعمرين في الجاهلية.

(2) عمرو بن حمزة بن رافع الدوسي من الأزد. أحد المعمرين من حكام العرب في الجاهلية مات قبل الإسلام ترجمته في الإصابة 5821 البيهقي 1/ 215.

(3) علي بن زين الطبري، أبو الحسن طبيب حكيم مولده ومنشأه بطبرستان له مصنفات عدة منها (الدين والدولة - مطبوع) أخذ عنه الرازي الطب.

(4) عبيد بن شرية الجرهمي، راوية من المعمرين من الحكماء والخطباء في الجاهلية أدرك النبي، له مصنفات في الأمثال والتاريخ توفي سنة 67هـ.

(5) انظر رسالته إلى شيعة نيسابور، 130 وما بعدها وانظر الرسائل / 97.

(6) الأمثال المولدة 47/ ب 49/ ب.

(7) الأنساب 5/ 214.

نيسابور وقلما اجتمع معي إلا وذاكرني بالأسامي والكنى والألقاب حتى يحيرني في حفظه لهذه الأنواع.

وكان من نتائج تمسكه بمذهبه الديني تزوده، بحصيلة من الثقافة تساعده على فهم المذهب، والرد على الخصوم، وفي رسالته إلى شيعة نيسابور ما يشير إلى معرفته بتاريخ الشيعة وغيره من المذاهب، وإدراك ما بينها من خلاف في المعتقدات ولا بد أن يكون قد ألم بشيء من علم الكلام واطلع على الفلسفة، لما لهذا من ارتباط بالعقائد الدينية والسياسية في عصره.

ولعل مهنة التدريس التي زاولها ومنادمة الملوك والرؤساء مما اقتضاه ثقافة موسوعية استطاع بها أن يؤثر في محدثيه ويز أقرانه، ويرفع من مستوى تلاميذه.

مصادر ثقافته:

أما مصادر ثقافته، فكثيرة ومتنوعة، وأبرزها القرآن الكريم الذي هو مصدر العقيدة الإسلامية، وعمود اللغة، ويبدو أن الخوارزمي قد حفظ آياته، واستوعبها وأكثر من الاستشهاد بها في رسائله وأجاد استخدامها، وكان يدفعه إلى هذا الحفظ، محاولة لفهم العقيدة الإسلامية، وسر لأغوار اللغة، واستفادة من الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، بيد أنه لم يهتم بالحديث كثيراً، ذلك أن استشاده به، قليل نادر، ولعل ميله إلى مذهب الاعتزال كان من العوامل المؤثرة في ذلك.

وتؤلف دواوين الشعر العربي مصدراً غزيراً من مصادر ثقافته فاستقى منه عللاً بعد نهل، حتى اشتهر برواية الشعر وحفظه، كما درس كتب اللغة والأدب. ودرس كتب الأمثال والعروض والفقه، والأنساب، ودرس التاريخ وكتب الأنساب ويمكن الاستدلال بهذه الفقرة من رسائله على تعدد مصادر ثقافته، ذلك أن الدقة في التخصيص لا يجيدها إلى مطلع، أخذ بقدر.

يقول⁽¹⁾: ... لو كنت أحمد بن يوسف في البلاغة وعبد الحميد بن يحيى في اتساع الكتابة، وجعفر بن يحيى في الاختصار وأبا الريح في التوسع والإكثار وأبا العيناء في العارضة. وأبا العتاهية في البديهة، وابن المعتز في التشبيهات وأبا نواس في الخمریات والطردیات والعتابي في المعاتبات، والنابغة في الاعتذارات وصریح الغواني في الاستعارات والفرزدق في الفخریات، وجريراً في المهاجاة، وغلبت في المخاطبة صعصعة بن صوحان، وقمعت في الفصاحة خالد بن صفوان، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلاً، وأتيت بعجوز آل رقية مبتدعاً، وبعذرآء آل خارجة مقتضياً، وضرب لي المثل في المقامات لا بسحبان وائل، وبوهي بي في العي عندي لا بباقل وحفظت حفظ الشعبي وحاضرت محاضرة ابن القرية النمري، وأبدعت إبداع أبي تمام الطائي، ووعظت عظة الحسن البصري، وجادلت جدل النظام في الكلام، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجدل والهزل، وأرييت على إياس بن معاوية في الذهن والعقل، وبهرجت الأصمعي رواية، وزيفت أبا عبيدة حفظاً ودراية، وعلمت أمير المؤمنين عليه السلام الحلال والحرام، ولقنت شريحاً القضاء والأحكام، وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم، ووفقت توفيق سليمان في الحكم، وأخذ عني بطليموس علم الهيئة وارسطا طاليس علم الفلسفة وبلنياس باب الطلسم والحيلة، وقرأ علي سيويه نحو البصريين، والفراء نحو الكوفيين، واختلفت إلي الهند في تعليم الحساب، ودرس علي أبو عثمان المازني علم التصريف والإعراب، واقتبس مني الخليل عروض الشعر، وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر، وضرب علي قالب خطي خط ابن مقله، وتوارث الكتابة أهل بيتي، كما توارثها بنو ثوابه، وأملت على الكلبي شجرة النسب. وعلي أبي عمرو بن العلاء أيام العرب، وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب... ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الإخوان لساني أو يجري فيه بناني لقصر عن ذلك عناني.

(1) الرسائل / 183 - 184.

وقد عمد الخوارزمي إلى إبراز تنوع معارفه من خلال الرسالة التي بعث بها إلى أبي الحسن البديهي الشاعر معرضاً به منتقياً من معارفه، هازئاً به⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي أن تؤثر حياة التنقل والترحال في ثقافته وشخصيته فتعلم منها درساً أكسبه ثقة بالنفس واعتداد بها وأورثته عمقاً في التفكير، ومقدرة على التحليل كما أنها صقلت طبعه وفتحت ذهنه وشحذت قريحته بمجالسة الأدباء والشعراء ومنادمة الوزراء والأمراء، وكانت مجالسهم عامرة بالأدب وتنافس فيها الشعراء وتبارى فيها الكتاب، وتوسع فيها العلماء فقد اتصل الخوارزمي بمشاهير عصره في اللغة والأدب في حله وترحاله. لقي ابن جني والعروضي والمتني وغيرهم في بلاط سيف الدولة كما لقي ابن العميد والصاحب وأبا حيان في بلاد المشرق وكان له صلات و صداقات مع كثير من الشعراء والأدباء والمؤرخين والمحدثين والفقهاء. وقد أدرك الخوارزمي أهمية هذه المجالس في صقل العقول، وتفتح الأذهان، فسجلها في إحدى رسائله: إذ يقول⁽²⁾:

"ولم يخرج أهل تلك البلدة في قالب الكمال، ولا يستوفون شرائط الرجال، ولا ينظمون في طرفي القول والفعال، وهم يرون كل يوم وارداً ويشهدون وافداً، ويسمعون نغمة، ويطالعون نعمة ... وهم يلتقون على باب الوزير مع كل كاتب وحاسب، ويجلسون في سدته مع كل كاتب وشاعر، ولا يعدمهم أن ينظروا إلى ذي صناعة معاشية أو معاذية، وإلى ذي آلة رياضية أو عقلية، فترق ألسنتهم وتصفوا أذهانهم، وتتنزه أبصارهم، وتدق أفكارهم لاقتباسهم علم كل مكان، .. واستماعهم تبيان كل لسان، ولترددهم بين اللغات المختلفة، وبين الأخلاق المتميزة فهم يبصرون ويستبصرون."

(1) الرسائل/ 191-240.

(2) الرسائل/ 104.

ولم تسعفنا المصادر لمعرفة مقدار إجادة الخوارزمي للغة الفارسية وإطلاعه على آدابها، أو وجود كتابات أو أشعار أو مؤلفات له فيها، ولكن هذا لا ينفي معرفته بهذه اللغة وهو من أصل أعجمي، ونشأ في بيئة أعجمية ولا بد أن تكون قد أمدته بنصيب من الثقافة، وأن يكون قد اطلع على آدابها ودرس تاريخها وفي رسائله ما يشير إلى مثل هذا الأطلاع⁽¹⁾ وقد ترك لنا أبياتاً في شعره مزج فيها بين العربية والفارسية: يقول فيها⁽²⁾

سُكاري أَخْذِي بالدستبند ⁽³⁾	قطعنا شط نهر الهند مند
شَمُول قرقف من جهنبد	وراح قهوة صفراء صرف
يدير الكأس من فينا كالدرند	وساق شبه دينار أانا
وأصبحنا بحال خردمند ⁽⁴⁾	فلما دب سكر الليل فينا
ويلقى نفسه كالدردمند ⁽⁵⁾	متى تدنو لقبلته تلكا
يحاكي أنه جند بن جند	وهذا شعر مزاح ظريف

وخلاصة القول أن الخوارزمي قد ألم بثقافة واسعة متنوعة متشعبة تعددت مصادرها، وكان جل اعتماده على نفسه، ولم يكن لشيخه ذلك الأثر البين في ثقافته، وحين سئل الخوارزمي وهو على فراش الموت ما تشتهي؟ قال أنظر في حواشي الكتب⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق/ 36، 77.

(2) معجم البلدان/ 5-418- مادة هند مند.

(3) الدستبند: نوع من الرقص الجماعي الشبيه بالدبكة.

(4) خردمند: عاقل، فهيم مدرك ذكي.

(5) الدردمند: المتألم المريض.

(6) الخلاصة/ 1.

شيوخه:

لم يعرف عن الخوارزمي ملازمته لشيخ العلم والأدب، ولكن تنقلاته في الأمصار قد أتاحت له فرصة الأخذ عن عدد منهم، وقد بقي أثرهم ضعيفاً في ثقافته، وكان جل اعتماده على نفسه في الدرس والإطلاع ومن شيوخه:

1- الصفار: ⁽¹⁾ إسماعيل بن محمد بن صالح بن عبد الرحمن أبو علي الصفار النحوي - صاحب المبرد. لقيه الخوارزمي في العراق، وأخذ عنه النحو ⁽²⁾، وكان سنياً متعصباً وكان مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، وتوفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ودفن في بغداد.

وليس لدينا ما يشير إلى مقدار تأثيره بشيخه، ولكن هذا الأثر يبدو ضعيفاً لقصر المدة التي قضها الخوارزمي في بغداد، وكان اتصاله به أثناء رحلته إلى بلاط سيف الدولة في حلب.

2- أحمد بن كامل ⁽³⁾ بن خلف بن شجرة بن منصور بن كعب بن يزيد أو بكر القاضي وهو أحد أصحاب محمد بن جرير الطبري ولي قضاء الكوفة، وكان من العلماء بالأحكام والقرآن والنحو والشعر، وأيام الناس، وتواريخ أصحاب الحديث، وله مصنفات في أكثر ذلك، توفي سنة 350هـ لقيه الخوارزمي في بغداد وأخذ عنه.

3- ابن خالويه ⁽⁴⁾: الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان أبو عبد الله اللغوي النحوي، من كبار أهل اللغة العربية، وقد لقيه الخوارزمي في بلاط سيف الدولة بحلب، ودرس عليه النحو واللغة والشعر والأدب، وقد أفاد الثعالبي في كتابه "فقه اللغة

(1) ترجمته في تاريخ بغداد 6/ 302.

(2) الأنساب - السمعاني / 5/ 214.

(3) ترجمته في تاريخ بغداد 6/ 32-303.

(4) ترجمته في اليتمية 1/ 123، معجم الأدباء 4/ 5، نزهة الألباء / 23.

وسر العربية ما رواه الخوارزمي عن ابن خالويه⁽¹⁾ ويبدو أن الخوارزمي لم يتأثر بموقف ابن خالويه من المتنبي وقد كان بينهما مناظرات.

تلاميذه

زاول الخوارزمي مهنة التدريس، فأمه التلاميذ، يأخذون عنه الأدب ويدرسون عليه اللغة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها⁽²⁾ ويبدو أنه قد اشتغل بها أول مرة في العراق بعد عودته من بلاط سيف الدولة، ولعل ظروف الحياة المعاشية هي التي أجبته إلى ذلك، ولكنه - على أي حال - لم يتفرغ للتدريس إلا في أواخر حياته بعد أن استقر في نيسابور، وقد درس عليه عدد غير قليل من التلاميذ في الأماكن التي ارتحل إليها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عدداً من تلاميذه أصبحوا فقهاء وهم من مذاهب مختلفة، فأغلب الذين عرفناهم ينتسبون إلى المذهب الحنفي، وفي هذا ما يدل على إلمامه بالفقه الإسلامي، وثقة أصحاب المذاهب الأخرى بما للخوارزمي من علم وأدب تدفع الطلبة إلى التزود بها، رغم الخلافات العقائدية والمذهبية.

وقد احتفظ الخوارزمي بصلات وثيقة بتلاميذه، فكان يكتب إليهم شاكياً همومه ومصائبه، حين تلم به الخطوب، حتى إذا علم بمرض أحدهم سارع في الكتابة إليه مواسياً ومشجعاً، يفرح حين تفتح الحياة صدرها لأحدهم، فيكتب إليه مهتماً وناصحاً وموجهاً، وحين بلغه أمر تلميذ له خرج على منهج المناظرة والحجة كتب إليه⁽³⁾.

بلغني أنك ناظرت، فلما توجهت عليك الحجة كابر، ولما وضع نير الحق على

(1) فقه اللغة وسر العربية 16-22.

(2) اليتيمة 1/194.

(3) الرسائل/12.

عنقك ضجرت وتضاجرت وقد كنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تعقه، وأهيب
لحجاب الأنصاف والعدل من أن تشقه. كأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز،
وأن وجه الظلم مبرقع بالقبح، وأنت إذا استدركت على نقد الصيارفة، وتتبع أخطاء
الحكماء والفلاسفة قد طرقت إلى عيبك لعائبك، ونصرت عدوك على صاحبك، وقد
عجبت من حسن ظنك بك، وأنت إنسان، والله المستعان.

فهذا منهج قيم في المناظرة، وإقامة الحجة، وطريقة في التأديب لا تخلو من قسوة
تطلبها الضرورة.

وهو رقيق شديد الرقة في معاملتهم، تقطر عباراته عاطفة وحنوا عليهم، فكأنهم
أبناء أصلاب فيقول في مخاطبة أحدهم⁽¹⁾:

كتبك يا ولدي عندي تحف وشماعات، وأنوار وباكورات أفرح بأولها وانتظر
ورود ثانيها واشكرك على ماضيها، وأعد الأيام والليالي على باقيها، فكثّر علي
سوادها، ووفر علي أعدادها، وأعلم أنني أحبك حباً مستكناً وبادياً.

أحبك مالمالو كان بين معاشر من الناس أعداء لجرّ التّصافيا
وأنس بك حاضراً، واشتاق إليك غائباً، شوقاً لو عرفته: لتكبرت على الورى
ولم تقم وزناً لأهل الدنيا.

ولما لم يكن بمستطاعنا معرفة مقدار ما للخوارزمي من أثر من في تلامذته لنقص
المعلومات، ولضياع مؤلفات أغلبهم، فقد آثرنا الاختصار على ما وضح من أثر في عدد
من التلاميذ كالثعالبي والعروضي والهروي، واكتفينا بذكر أسماء الباقيين مع النزر
القليل من المعلومات المتعلقة باتجاههم في الأدب، وهناك عدد آخر من التلاميذ لا
نعلم عنهم شيئاً. فقد وردت أسماؤهم في شعره ورسائله كأبي سعيد رجاء، وأبي

(1) الرسائل / 76.

القاسم العباس ابن الوليد الأصفهاني، فلم نر أهمية كبيرة لإدراج أسمائهم أما أشهر تلاميذه فهم:

(1) الثعالي - أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري له مصنفات عديدة تناول فيها معارف شتى، كانت سائدة في عصره فقد ألف في اللغة والنقد والبلاغة بفروعها، والمجتمع والموسوعات، ولكنه برز في التراجم وكتب الاختيارات⁽¹⁾ وقد طبع عدد من مؤلفاته ومازال القسم الأكبر منها مخطوطاً أو مفقوداً.

وقد ترك الخوارزمي آثاراً بينة في مؤلفات الثعالي ومن هذه الآثار:

1- اعتماد الثعالي على كثير من مرويات الخوارزمي في كتابه الشهير يتيمة الدهر⁽²⁾ والاستعانة به في تدوين عدد من الوقائع التاريخية والأدبية كما في سيرة أبي الطيب المتنبي، والصاحب بن عباد والمهلي، وغيرهم⁽³⁾ وكان واحداً ممن أخذ عنهم في كتابه فقه اللغة وسر العربية⁽⁴⁾ ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الثعالي الموجودة من ذكر له أو إسناد إليه، أو إعجاب وترديد لأرائه.

2- تفضيل الثعالي شعراء الشام على غيرهم من شعراء عرب العراق وما يجاورها⁽⁵⁾، فقد استدلل الثعالي على ذلك بتجربة الخوارزمي ورأيه في شعراء الشام، الذين أعجب الخوارزمي بهم أشد الإعجاب، ولعل لهذا

(1) الثعالي ناقدًا وأديبًا/ 171.

(2) أنظر مقدمة القسم الأول من اليتيمة.

(3) المصدر السابق 1/ 135 وما بعدها، 2/ 234، 3/ 307.

(4) انظر مقدمة فقه اللغة.

(5) اليتيمة 4/ 24-26.

التفضيل أثر فيما جرى عليه الشعالي من دراسة الأدب حسب الأقاليم،
وبيان أثر البيئة في الحياة الأدبية.

(2) ومن تلاميذه المشهورين أبو الفضل العروضي⁽¹⁾ لقد روى أن الخوارزمي قد
استخلفه على درسه عند غيبته⁽²⁾، ويبدو أنه قد تأثر به في موقفه من أبي الطيب
المتني، حيث صنف كتاباً في شرح ديوان أبي الطيب⁽³⁾.

وقد وصفه الدكتور محسن غياض⁽⁴⁾ بأنه "حلقة من سلسلة المدرسة الفارسية التي
أعجبت بالمتني، وعكفت على شرح ديوانه، فهو أبرز تلامذة الخوارزمي، وأبعد
مشايخه تأثيراً فيه، وفيما شرحه من شعر الشاعر وأبو الفضل العروضي شيخ أبي
الحسن الواحدي، وقد تأثر الأخير بشعره كثيراً.

(3) محمد بن آدم بن كمال أبو المظفر الهروي⁽⁵⁾ كان يُقصد للتدريس في النحو وشرح
الدواوين، ويمكن عده واحداً من سلسلة مدرسة الخوارزمي في شرح ديوان أبي
الطيب، وربما تأثر به في الاهتمام بالأمثال، فقد صنف كتاباً في شرح أمثال أبي
عبيد.

ومن تلاميذ الخوارزمي المعروفين محمد بن أحمد بن محمد بن أشرس⁽⁶⁾ وهو

(1) أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف العروضي ترجمته في معجم الأدباء 2/ 87 تنمة اليتيمة
23/ 2، أنباء الرواة 1/ 119، الوافي بالوفيات 8/ 33، بغية الوعاة 1/ 369.

(2) معجم الأدباء 1/ 369.

(3) انظر: التبيان-المقدمة (ج-د)، الصبح المنبي/ 268-269.

(4) انظر المقال المنشور في مجلة المورد المجلد الرابع، العدد الرابع 1975 بعنوان (المستدرك على ابن
جني فيما شرحه من شعر أبي الطيب المتني خمسون نصاً من كتاب مفقود لأبي الفضل
العروضي).

(5) ترجمته في معجم الأدباء 6/ 267.

(6) ترجمته في معجم الأدباء 6/ 326-328.

أديب فاضل شاعر من أهل نيسابور، وأبو نصر أحمد بن علي بن أبي بكر الزوزني الذي ورد العراق والمخرط في سلك شعراء عضد الدولة⁽¹⁾ ومنهم الحسن بن أحمد الطبسي النيسابوري⁽²⁾ وقد رثى أستاذه بقصيدته التي مطلعها.

شَيْبَ فُوطٍ الْأَسَى قَدْ ذَالِي وَكَدَّرَ الذَّهْرُ صَفْوَ حَالِي

ومنهم أبو العلاء صاعد بن محمد الاستوائي، وقد انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بخراسان⁽³⁾.

ومنهم ابن درست عبد الرحمن بن محمد الحاكم⁽⁴⁾ له مصنفات عديدة وقد وصفه الثعالي بأنه من أعيان الفضل وأفرادهم وشعره كثير الملح والنكت حسن الديباجة، كأنه يصدر عن طباع المقلقين من أهل العراق.

مؤلفاته:

(1) رسائله:

لأبي بكر الخوارزمي ديوان رسائل معروف، يمكن عده نموذجاً عالياً للنثر الفني في القرن الرابع الهجري، حيث شاعت المحسنات البديعية وطغت الصنعة على الأدب، ويشمل ديوان رسائله ما يزيد على مائتي رسالة في مواضيع شتى يغلب عليها طابع الرسائل الإخوانية.

طبعت رسائل الخوارزمي ست طبعات أقدمها طبعة كوبرلي 1274هـ، ثم في

(1) ترجمته في اليتيمة 4/ 446-447.

(2) ترجمته في نزهة الألباء/ 265-266 دمية القصر/ الباخريزي- القسم السادس رقم (522).

(3) ترجمته في الفوائد اليتيمة: 71، تاريخ بغداد 9/ 344 الجواهر المضيئة 1/ 26 تاج التراجم في طبقات الحنفية/ 29.

(4) ترجمته في اليتيمة 4/ 425-428 فوات الوفيات 1/ 549 تحقيق محي الدين عبد الحميد، الجواهر المضيئة 1/ 309 بغية الوعاة 307 وله ترجمة في دائرة معارف البستاني 1/ 482.

بولاقي سنة 1279هـ وطبع بالمطبعة العثمانية 1312هـ ثم في استانبول - مطبعة الجوائب 1297، وفي بمباي 1301⁽¹⁾ ثم في بيروت - دار الحياة - عن طبعة الجوائب وهي طبعات غير محققة تشوبها أخطاء كثيرة وفيها اختلافات يسيرة وقد تماثلت في ترتيبها.

أما النسخ المخطوطة فهي كثيرة ومتناثرة ذكرها بروكلمان في كتابه - تاريخ الأدب العربي - وقد أطلعت على قسم منها ولا يكاد يختلف ما أطلعت عليه عما هو مطبوع، ولم أجد في مخطوطة الموصل⁽²⁾ رسالته إلى شيعة نيسابور، وقد ذكر بروكلمان المخطوطات التالية⁽³⁾

رسائل الخوارزمي: برلين - (8626-2627)⁽⁴⁾ توتنه 71 رقم 1، فينا 279، ليدن 343-344، باريس أول 6009 مكاتب، كمبردج أول 1499-1500، الموصل رقم 3، أيا صوفيا 4310 (منشآت أنظر NZKM 21.73) حميدية 1200 (أنظر ZA 27.156) فيضية 1604=1605 (أنظر ZDMG 68.81) كوبرلي 1293 (أنظر MSOS XIV, 18) بايزيد 2640 (مع مقامات يبرز فيها عيسى بن هشام كما في مقامات بديع الزمان الهمداني أنظر (RESCHER 504).

وقد تبين لي أن مخطوطة بايزيد رقم 2640 إن هي إلا مجموع ضمن رسائل بديع الزمان الهمداني ومقاماته، وإن لا علاقة للخوارزمي بهذا المخطوط سوى ما ورد فيه من نقد لشعره على لسان بديع الزمان، وأن المقامات التي يبرز فيها عيسى بن هشام ليست إلا مقامات بديع الزمان المعروفة.

(1) تاريخ الأدب العربي 2/ 111.

(2) مصورة في المكتبة المركزية.

(3) تاريخ الأدب العربي 2/ 111.

(4) أنظر E.AHLWARDT, 71570-571

(2) ديوان شعره:

لأبي بكر الخوارزمي ديوان شعر معروف في عصره تهاداه تلاميذه في حياته، مما يدل على أنه قد رتبته بنفسه بدليل قوله⁽¹⁾:

نسخة شعري التي طلبتها- يا ولدي- سائرة إليك، وغير مضمون بها عليك.
وقد ذكره الثعالبي فقال: ⁽²⁾ "وديوان رسائله مخلد سائر، وكذلك ديوان شعره كما ذكرت المصادر الأدبية المتقدمة ديوانه"⁽³⁾.

أما المراجع الحديثة فقد ذكرت ديوانه، وأشار أغلبها إلى أنه مفقود وذكر بروكلمان⁽⁴⁾ أنه لم يبق لنا من شعر الخوارزمي إلا نماذج رواها صاحب اليتيمة، ولكنه عاد فذكر أن للخوارزمي ديوان شعر في (كامبرج) برقم (ثالث 518) وأن ديوانه قد طبع في القاهرة سنة 1903، وتوحي عبارته (وعاب جامع مخطوطة بايزيد رقم 2640) أن للخوارزمي شعراً مجموعاً.

وقد تبين لي أن لا وجود لديوان مطبوع للخوارزمي، فلقد فتشت عنه في العراق ومصر ولبنان وسوريا وتركيا ورجعت إلى فهارس المطبوعات، واستفسرت من المختصين فلم أعثر له على أثر⁽⁵⁾ ويبدو أن بروكلمان قد وهم وربما قصد ديوان بديع الزمان الهمداني الذي طبع في القاهرة سنة 1903، أما المجموع الذي أشار إليه، فقد

(1) الرسائل / 75.

(2) اليتيمة / 4 / 194.

(3) أنظر وفيات الأعيان / 4 / 401.

(4) تاريخ الأدب العربي / 2 / 10.

(5) وما يؤيد هذا القول ما ذكره مصطفى الشكعة في كتابه "بديع الزمان الهمداني رائد القصة والمقالة" حين قال "ولكن لسوء الحظ لم نعثر على ديوانه 81/82، ويقول السندوي في حاشية صفحة 154 من كتاب المقابسات "وله ديوان شعر لم نره" وقد طبع الكتاب الأول سنة 1959 وطبع الثاني سنة 1929.

تبين لي في أثناء زيارتي إلى تركيا- أنه كتاب يحتوي رسائل البديع ومقاماته وحيث تعذر علي الحصول على نسخة مصورة من مخطوطة (كامبرج) اضطررت للسفر إلى بريطانيا للإطلاع عليه بعد أن اعتذرت الجهة المختصة عن التصوير، فوجدت أن الديوان المشار إليه يعود إلى شاعر عاش في القرن العاشر الهجري يدعى (أبو بكر محمد العباس الطبرخزي الخوارزمي البكري)، وجلّ شعره في التصوف الإسلامي، وقد نسب الديوان خطأ إلى أبي بكر الخوارزمي في فهرس جامعة كامبرج.

(3) كتاب الأمثال المولدة،

كتاب جمع فيه الخوارزمي أمثالا استحدثها مولدو العصر وأبناء الدولة العباسية من أهل بغداد وغيرها من العراق ودمشق وذواتها من الحجاز⁽¹⁾.
ويصف الخوارزمي أمثاله فيقول⁽²⁾ "وهي قريبة إلى الفهم، عذبة على اللسان ومقبولة في العقل، لا يجهلها العامة ولا يتكبر عنها الخاصة، وأكثرها مرسلّة لا يعرف أصحابها لإتيان الزمان على ذلك، ولأنّ كلام العرب تقيده الأفهام، ولا تشغل بتخليده الأقلام، ولا يجري في الضبط والرواية مجرى كلام العرب الذين حفظوا أنسابهم فوعوها، وأيقنوا أن الأشعار دواوينهم فرووها، فأخذها الباقي عن الماضي وتلقفها المستفيد عن الراوي حتى وصلت إلينا فأودعناها الكتب وشغلنا بها الخواطر".
توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة فيض الله في تركيا برقم (2133) ضمن مجموع حوى عدداً من كتب الثعالب، ويتضمن هذا المجموع الكتب التالية: كتاب الأمثال، كتاب منتخب سنن العرب وكتاب تحسين القبيح، وتقبيح الحسن، وكتاب تحفة الوزراء، وكتاب المبهج ومواسم العمر، وسر الحقيقة، ووردت عبارة على الغلاف تقول "كلها للثعالب رحمه الله".

(1) الأمثال المولدة/ 3- ب.

(2) المصدر السابق 3- ب.

وجاء في آخر كتاب الأمثال ما نصه⁽¹⁾ آخر كتاب الأمثال جمع أبي بكر الخوارزمي، وصلوات الله وسلامته على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وقع الفراغ من نسخه في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة اثنين وأربعين وأربعمائة، وكان الفراغ من هذه الأحرف التالية في العشر الأوسط من شعبان سنة ثمان وعشرين بعد الألف من الهجرة.

وفي معهد جامعة الدول العربية بالقاهرة فيلم مصور لهذا المخطوط تم تصويره سنة 1949، وهو يمثل نموذجاً سيئاً للتصوير ذلك أن صفحات عديدة منه غير مصورة، وإن كثيراً من الصفحات قد صور نصفها الجاني وترك الآخر وكنت قد حصلت في أثناء زيارتي للقاهرة على نسخة من هذا الفيلم فاستنسختها وعمدت إلى مقابلتها مع النسخة الأصلية باستانبول وأكملت النواقص، فحصلت لدي نسخة تامة من هذا المخطوط.

ومن القدماء الذين ذكروا هذا الكتاب أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر قال معلقاً على بيت شعر للخوارزمي⁽²⁾:

وعاش إلى أن يترك الناس مدحه ومن ذا الذي يرجو إياب المثلّم

وفي الأمثال: لا أفعل كذا حتى يعود المثلّم. وهو مثل استشهد فيه الخوارزمي على الأمثال التي سارت في أقاليم محددة ولم يكتب لها الشيوخ، وروى قصته⁽³⁾ كما نقل عنه في كتابه (الكناية والتعريض) فقال⁽⁴⁾:

... وذكر الطبري في كتاب الأمثال المولدة: أنه يقال للسكران إذا بلغ غاية

(1) الأمثال المولدة/ 67.

(2) اليتيمة 4/ 220.

(3) الأمثال المولدة 7/ أ.

(4) الكناية والتعريض/ 50.

السكر: قد عبر موسى البحر^١ وقد ورد هذا المثل في ورقة (20- ب) من كتاب الأمثال وجاء فيه 'فإذا ذكروا أن السكران قد بلغ أقصى غاية سكره وطفح قالوا قد عبر موسى البحر، أي جاوز حد العقل إلى حد الجهل'.

كما نقل الثعالي عنه في كتابه 'ثمار القلوب' ولكنه لم يذكر اسم الكتاب، وقد اختصر فيه ما كتبه الخوارزمي عن أيام العرب. يقول الثعالي^(١)... قال أبو بكر الخوارزمي: فيما يقولون 'ما يومي من فلان بواحد: أي ما الشر علي منه من جهة واحدة والغالب في اليوم أنه لا يذكر إلا في الشر، كقوله سبحانه وتعالى: "وذكرهم بأيام الله" أي عقوبته ووقائعته في أعدائه.

وقالوا في الدعاء: أراني الله يومك، ويوم عبيد يوم قتله ويوم العنز يوم ذبحها، وأنت إذا نظرت إلى قولهم: يوم البسوس وهو يوم بكر وتغلب، ويوم تحلاق اللمم وهو بينهما، ويوم الفجار وهو بين كنانة وقيس، ويوم النجاج، وهو بين أسد وتميم وعامر... حتى عد أكثر من مائة يوم، ثم قال، فإذا نظرت من الأيام إلى يوم بدر وأحد، والخندق وحنين... حتى عد أيام المغازي كلها ثم قال: فإذا نظرت بعدها في يوم اليمامة على حنيفة، ويوم الحيرة لخالد على بني ببيعة، حتى عد أكثر وقائع الإسلام، علمت أن ذلك أكثر من قولهم، يوم الشورى، ويوم بركواء.

وقد ورد ذلك مفصلاً في كتاب الأمثال المولدة 47/ب-49/ب.

ولعل في هذا ما يثبت نسبة الكتاب لأبي بكر الخوارزمي، وينفي نسبته للثعالي الذي صنف كتاباً في الأمثال مختلفاً عن هذا الكتاب في مادته ومنهجه.

يقع الكتاب في تسع وستين ورقة تحتوي كل صفحة على حوالي سبعة عشر سطرًا. قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء، ورتبه على أبواب بعد مقدمة مسهبة تناول

(1) ثمار القلوب/ 640.

فيها دواعي تصنيفه للكتاب، وحدد منهجه وعرف فيه المثل. جاء في المقدمة⁽¹⁾... ثم إن هذا الكتاب صنفناه نداري به الزمان، ونجانب به الوقت ولكل زمان تصنيف يحكيه، وفي كل وقت علم يقتضيه، وربما ضاق الوقت عن صرف الجد، وجل عن كل الهزل، فاحتيج إلى سلوك طريقة بينهما، ولكل مقام مقال.

ونحن نخرج من عهدة هذا الكتاب، ونبرأ إلى الناظر فيه من عيبه عنده، ونكشف له عن صورته، ليكون نظره فيه عن بصيرة، وتركه عن معرفة، فإنه إن طلبه غير عارف بفضله كان مقلداً، وإن رفضه دون إقامة الحجة في رفضه كان متحاملاً متعصباً.

ثم يبين لنا منهجه في الجمع والتأليف، ومصادر الأخذ فيه فيقول:⁽²⁾ هذا- أرشدك الله- كتاب التقط من أفواه الشطار والعيارين، وجمع في مجالس المغنين والمضحكين⁽³⁾، وروى من البم⁽⁴⁾ والوزير وحصل في أثناء الرباط⁽⁵⁾ والمزامير، وسمع أكثر ما فيه من السؤال والسائلة، وتلقف من بين كلام الظرفاء والصوفية، فإن طالبتنا في أسانيدة باسم الحسن البصري وبالرواية عن بكر بن عبد الله المزني، وبالمراسيل من قرقد السبخي، والسماع عن محمد بن كعب القرظي، وقتادة بن دعامة السدوسي أو أحدثنا في أبياته برواية الأصمعي واختيار المفضل الضبي، وتصحيح أبي عثمان المازني، وإجازة محمد بن المستنير النحوي، وابن عبد الله بن الأعرابي، أو أردت منا في أمثاله أن يكون من حكم أكثم بن صيفي، وأمثال بيهس الفزاري، أو نوادر عامر بن الظرب العدواني، وعمرو بن حمزة الدوسي، كنت قد طالبتنا بما نعيه عنه، وتحكمت علينا بما نعجز عنه وكل شيء من معدنه يجلب، وكل متاع من قرارته يطلب.

(1) الأمثال المولدة/ 2-ب.

(2) الأمثال المولدة/ 2-ب.

(3) المصدر السابق/ 2-ب.

(4) البم والوزير: من أوتار العود وأراد بهما ضاربي البم والوزير.

(5) الربط: ملهاة تشبه العود (فارسية معربة).

وقدم الخوارزمي اعتذاراً عن هذا المنهج، يلمح الدارس من خلاله تمسكه
بالقديم واحترامه له، رغم ما تفرضه ظروف الحياة الاجتماعية والاتجاه الذوقي العام
فيقول⁽¹⁾:

"ونحن نعتذر إليك من الحاجة إلى جمع هذا الكتاب بما عليه جل أهل هذا الزمان،
وخدم السلطان من الميل إلى الأدب الرطب لسهولته والنفور عن الأدب اليابس
لوعورته، حتى أن أحدهم يتطير من شعر أهل الجاهلية، ويتبرم بعويص النحو واللغة،
ويضرب "قفا نيك" مثلاً لكل مبتذل، ويجعل "عفت الديار" معياراً لكل متروك مهمل، قال
بعضهم:

خلقنا على باب الأمير كأننا (قفانك من ذكرى حبيب ومنزل)⁽²⁾
وقال الآخر:

خلقنا عنده حتى كأننا (ألا هي بصحنك فأصبحينا)⁽³⁾
وقال آخر:

وأرزاقتنا لا تستبين وجوهها (لما نسجتها من جنوب وشمال)⁽⁴⁾

أما أبواب الكتاب بعد المقدمة فهي التالي:

- 1- باب الوصف والإبلاغ.
- 2- باب في حسن الاستعارة والتمثيل.
- 3- باب ما يجري مجرى العظة والحكمة من كلام المولدين والإسلاميين.

(1) الأمثال المولدة / 3-أ.

(2) مطلع معلقة امرئ القيس.

(3) مطلع معلقة عمرو بن كلثوم.

(4) عجز بيت في معلقة امرئ القيس.

- 4- باب في المواعظ والأمثال.
 - 5- باب في شتم الرجل والدعاء عليه.
 - 6- باب مدح الرجل والشفقة عليه.
 - 7- باب في تفاريق المجون والتشبيه.
 - 8- باب آخر في مثل ذلك.
 - 9- باب في تناول المولدين واستعاراتهم.
 - 10- باب جماع آداب الأمثال في الهزل والمجون وما يجري مجراها.
 - 11- باب آخر فيما يجري هذا المجرى من الهزل.
 - 12- باب آخر في الأعداد ما تدخل الهزل.
 - 13- باب آخر في الهزل في الاستعارة.
 - 14- باب من الهزل في أمثال السؤال.
 - 15- باب افعّل من كذا.
 - 16- باب آخر في التشبيه في كأن وكما.
 - 17- باب (لم يسمّه، وقد يكون بسبب من سهو النساخ).
 - 18- باب ما جاء من ذلك في القرآن الكريم، وضربت بها الأمثال.
 - 19- جماع أبواب الأمثال التي تفرد بها أهل بغداد.
 - 20- باب لهم فيما يجري مجرى العظة والتمثيل.
 - 21- باب لهم فيه حسن الاستعارة هزلاً وجداً.
 - 22- ما جاء في الأشعار والأخبار السائرة.
 - 23- باب الأراجيز.
- وتكمن أهمية الكتاب في كونه مصدراً من مصادر دراسة الأمثال في العصر

العباسي ويساعد على كشف كثير من العادات والتقاليد، ذلك أن أمثال العصر صورة ناطقة للحياة الاجتماعية، ويزيد من أهميته أنه عمد فيه إلى تدوين الأمثال التي يتداولها الأدباء والظرفاء والسابلة، والسؤال والغرباء والمغنون، وأغلبهم من العامة.

ومن الجدير بالذكر أن الميداني قد استوعب في كتابه 'مجمع الأمثال' أغلب ما ورد في كتاب الأمثال للخوارزمي، ويبدو أنه كان واحداً من مجموعة كتب الأمثال التي رجع إليها، ونحل فصولها وأبوابها⁽¹⁾ فقد نقل من الأمثال المولدة - في بعض الحالات - التعليقات والشروح التي وردت في أمثال الخوارزمي، ولعل أبلغ دليل على الأخذ من غير إشارة إلى المصدر ما أخذه في الباب التاسع والعشرين وهو الباب المخصص لأيام العرب - فقد نقل أيام الإسلام من 25-87⁽²⁾ بتسلسلها وبألفاظها كما أوردها الخوارزمي، هذا غير ما نقله بألفاظه دون تسلسله في أيام العرب الأخرى.

4- كتاب شرح ديوان أبي الطيب المتنبي:

أغفل الثعالبي الإشارة إلى عدد من مؤلفات الخوارزمي، ولم ينسب منها إليه صراحة غير ديوان شعره، وديوان رسائله⁽³⁾. وقد ورد ذكر كتاب الأمثال المولدة بطريقة عابرة - كما بينا -.

وكتاب شرح ديوان أبي الطيب المتنبي أحد المؤلفات التي أغفل ذكرها الثعالبي، ولا نعلم سبباً لذلك. وليس بين أيدينا ما يشير إلى تعمد الثعالبي في هذا الإغفال، فقد عرف عنه أكباره وتقديره لشيخه. وليس هذا الكتاب مما يصح إغفاله أو تجاهله، ذلك

(1) مجمع الأمثال 4/1 يقول: حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً. ونخلت ما فيها فصلاً فصلاً وباباً باباً.

(2) المصدر السابق 2/445-448.

(3) البيهقي 4/194.

لما لشعر أبي الطيب من أهمية في ذلك العصر، ولما لشروحه من أهمية في ترجيح كفة على أخرى في الصراع الدائر حول الشاعر وشعره.

وقد تابعتُ جل المصادر الثعالي في إغفاله أو تغافله، ولم نجد من يذكر للخوارزمي كتابه من المتقدمين سوى العكبري، فقد جاء في مقدمة كتابه⁽¹⁾.

وجمعت كتابي هذا من أقاويل شراحه الأعلام، معتمداً على قول إمام القول المقدم فيه، الموضح لمعانيه، المقدم في علم البيان أبي الفتح عثمان، وقول إمام الأدباء، وقدوة الشعراء أحمد بن سليمان بن أبي العلاء، وكتاب أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي... وقول جماعة كأبي علي بن فورجة، وأبي الفضل العروضي، وأبي بكر الخوارزمي وأبي محمد الحسن بن وكيع، وابن الإفليلي، وجماعة، وسميته التبيان في شرح الديوان.

ويبدو أن العكبري قد أفاد من روايات الواحدي عن الخوارزمي مثل ما أفاد من شرح الخوارزمي نفسه، فقد أخذ عنه في تسعة عشر موضعاً خمسة عشر منها في موضوع الرواية⁽²⁾، والأربعة الأخرى تتناول شرح الأبيات⁽³⁾.

أما الواحدي، وهو تلميذ أبي الفضل العروضي فقد أفاد من شرح الخوارزمي ولكنه لم يذكر اسم الكتاب، ولم تكن إفادة الواحدي مقصورة على الشروح والروايات ولكنه أفاد، من منهج الخوارزمي في الشرح أيضاً، فقد أورد أربعة عشرة رواية منسوبة للخوارزمي⁽⁴⁾ يرجحها تارة ويرجح غيرها عليها تارة أخرى، ويورد معها أحياناً شرح الخوارزمي للبيت.

(1) التبيان المقدمة - ج - د.

(2) التبيان 1/ 21، 73، 155، 205، 225، 227، 343، 18/ 2، 63 و 124، 158، 211، 236، 237، 264 و 267.

(3) التبيان 1/ 246، 338، 168/ 2، 364.

(4) انظر شرح الواحدي 1/ 79، 122، 184، 197، 277، 278، 354 و 355، 366، 388، 445، 572.

أما الشروح فكان يستعين بها على تفسير النص، وغالباً ما يفتتحها بقوله 'وكان الأستاذ أبو بكر الخوارزمي يقول... ثم يورد الشرح وقد خطأ الواحدي ابن جني، وأبا علي الفارسي فيما ذهباً إليه في تفسير قول أبي الطيب⁽¹⁾.
كأنه زاد حتى فاض عن جسدي فصار سمعي به في جسم كتمانني

ثم أورد شرح الخوارزمي للبيت وعقب على ذلك قائلاً: 'والأستاذ أبو بكر فسّر هذا التفسير، وهو على ما قال'

ونقل الواحدي عن شيخه العروضي خمساً من الروايات والشروح التي يسندها إلى شيخه الخوارزمي⁽²⁾

ولم نجد لهذا الكتاب ذكراً بعد ذلك إلا عند البديعي في كتابه الصبح المنّي⁽³⁾ فقد عدّد فيه شروح ديوان أبي الطيب وذكر من بينها شرح الخوارزمي وأتى به متأخراً مع أنه من أقدمها ولم يوضح طبيعة الشروح التي ذكرها فقال: '... وقد انتدب العلماء لديوانه وشرحوه شروحاً كثيرة لفهم من تكلم على ديوانه أجمع، ومنهم من تكلم على بعضه، فمن شروحه:

كتاب ابن جني، وهو أول من شرحه، وكتاب اللامع العزيزي لأبي العلاء المعري وكتاب معجز أحمد لأبي العلاء المعري وكتاب أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي... وكتاب أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي...'

وقد سار مؤرخو الأدب الحديث على نهج سلفهم، ولم يعرضوا في ترجمة الخوارزمي لغير ديوانه شعره ورسائله. وما تجدر الإشارة إليه أن المستشرق الألماني بروكلمان على شدة تتبعه لشروح ديوان أبي الطيب لم يذكر هذا الشرح.

(1) شرح الواحدي/ 88.

(2) المصدر السابق/ 288، 331، 753، 768.

(3) الصبح المنّي/ 268-269.

ومن أوائل المستشرقين الذي عرضوا لهذا الشرح المستشرق الفرنسي بلاشير في كتابه أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي، لقد عدّ الخوارزمي رأس مدرسة في شروح ديوان أبي الطيب وقرر⁽¹⁾ أن الديوان مفقود.

وقد اهتديت بعد بحث طويل إلى وجود نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبة دبلن بإيرلندا⁽²⁾ وقد حصلت على نسخة مصورة (ميكروفلم) لهذا المخطوط وتبين لي أن المخطوط هو الجزء الثاني من شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي بكر الخوارزمي، فقد كتب على الصفحة الأولى: الجزء الثاني من شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للخوارزمي.

أما كاتب هذا العنوان فهو أحمد بن شاهين القبرسي المعروف بالشاهيني⁽³⁾ (995-1053هـ - 1587-1643م) أديب شاعر ناب في القضاء بدمشق وتولى قضاء الركب الشامي سنة 1030هـ وكتب بالخط نفسه أبياتاً من شعره ونص على ذلك بقوله:

ولكاتبنا أحمد بن شاهين: ثم كتب ثلاث مقطوعات شعرية تتكون الأولى من ستة أبيات مطلعها:

أي ذنب لي قل لي غير حظ منك قل

وقد وجدت المقطوعة ذاتها منسوبة إليه في كتاب نفحة الريحانة⁽⁴⁾ مما يؤكد صحة نسبة الشعر إليه وكتب في الطرف الأيسر من الصحيفة ذاتها بيتين لابن نباته

(1) أبو الطيب المتنبي/476-477، وتابعه الدكتور محسن غياض/المورد م: 4ع: 4/1975.

(2) يعود الفضل في ذلك إلى أستاذي الدكتور علي الزبيدي الذي لم يتوان عن تقديم المعلومات الأولية وزودني برقم المخطوط في المكتبة.

(3) انظر ترجمته في تراجم الأعيان 1/139 خلاصة الأثر 1/210، ريحانة الإلباء 1/228 ونفحة الريحانة 1/96.

(4) نفحة الريحانة 1/130.

المصري يتغنى فيهما بجمال دمشق، ويبدو أن هذا المخطوط كان - فيما مضى - ملكاً لهذا الرجل وقد تضمنت الصفحة الأولى من الورقة الثانية ترجمة لأبي الطيب المتنبي، نصّ كاتبها في نهايتها على أنها ملخص من تاريخ القاضي شمس الدين بن خلكان، ويختلف هذا الخط اختلافاً كبيراً عن الخط الذي في الورقة الأولى، كما يختلف عما في المخطوط. ومن المرجح أن هذه الترجمة قد ألحقت بالمخطوط بعد زمن طويل من استنساخه.

يقع المخطوط في مائتي ورقة من الحجم الكبير، ويبدو أن ناسخين قد تعاونوا على نسخة، فالأوراق من (3- 101) بخط واحد وما بعدها بخط ناسخ آخر (من 101- 139) ثم يكمل الناسخ الأول ما بقي حتى النهاية وقد قدر الدكتور حسين محفوظ أن هذا الخط يعود إلى منتصف القرن الخامس أو بداية السادس.

يبدأ الشرح في هذا المخطوط بهذه العبارة (للعقلاء ومن هذا الباب قول الله

تبارك وتعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وهي بقية شرح بيت أبي الطيب:

حالفته صدورها والعوالي فليخوضن دونه الأهوالا

من قصيدته في مدح سيف الدولة التي مطلعها:

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فللا

ويبدأ بعد ذلك بشرح قوله:

وليمضن حيث لا يجد الرمح مداراً ولا الحصان مجالاً

ويمكن أن نستدل بأن ورقة قد سقطت من هذا المخطوط تحتوي على الأبيات الخمسة الأولى من القصيدة، وأن ناسخاً آخر هو الذي كتب ترجمة أبي الطيب في مقدمة المخطوط، ولعل في هذا ما يدل على أن مالك المخطوطة لم يكن لديه الجزء الأول منها ولو كان عنده الجزء الأول، لاكتفى بالترجمة له في مقدمته.

وقد رتبت القصائد في الديوان حسب أشخاص الممدوحين، فالسيفيات

والكافوريات، ومدائح فاتك ومراثيه، ثم قصائده في مدح عضد الدولة، والعميديات
ثم يعود مرة أخرى إلى قصائده في مدح عضد الدولة، وفيما يلي جدول بمطالع
القصائد بحسب ما وردت في المخطوط:

(السيفيات)

هكذا هكذا، وإلا فلا لا	ذي المعالي فليعلون من تعالى
حدثهم المولد والقديما	رأيتك توسع الشعراء ذمأ
جلبت حمامي قبل وقت حمامي	ذكر صبا ومرابع الآرام
هو أول وهي المحل الثاني	الرأي قبل شجاعة الشجعان
كناية بهما عن أشرف النسب	يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
ماذا يزيدك في إقدامك القسم	عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
أنا أهوى وقلبك المتبول	مالنا كلنا جويا رسول
فسمعا لأمر أمير العرب	فهمت الكتاب أبر الكتب

الكافوريات:

وحسب المنايا أن يكن أمانيا	كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
ولا أنا عن نفسي ولا عنك راضيا	أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا
ولمن يلدني من البعدهاء	إنما التهتئات للأكفاء
حمر الحلوى والمطايا والجلابيب	من الجأذر في زي الأعاريب
وأشكو إليها بيننا وهي جنده	أود من الأيام ما لا توده
ويذل المكرمات من النفوس	يقل له القيام على الرؤوس
دار مباركة الملك الذي فيها	أحق دار بأن تدعى مباركة
وأم ومن يمت خير ميمم	فراق ومن فارقت غير ملزم

أنوك من عبد ومن عرسه
حسم الصبح ما اشتتهه الأعادي
أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
بم التعلل لا أهل ولا وطن
صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
عدوك مدموم بكل لسان
ملومكما يحل عن الملام
منى كن لي أن البياض خضاب
من أية الطرق يأتي مثلك الكرم
أما في هذه الدنيا كريم
لو كان هذا الأكل أزودنا
أتحلف لا تكلفني مسيراً
عيداً بأية حال عدت يا عيد
جزى عرباً أمست بيليس ربها
لأن تك طيئ كانت لثاماً
لحى الله وردانا وأما أنت به
أعددت للغادرين أسياً
بسبطة مهلاً سقيت القطارا
ألا كل ماشية الخيزلي
وأسود أما القلب منه فضيق

من حُكِّم العبد على نفسه
وإذا عتته السن الحساد
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
ولا نديم ولا كأس ولا سكن
وعناهم من شأنه ما عنا
ولو كان من أعدائك القمران
ووقع فعالة فوق الكلام
فيخفى بتبييض القرون شباب
أين المحاجم يا كافور والحلم
تزول به عن القلب الهموم
ضيفا لما وسعناه إحسانا
إلى بلد أحاول منه مالا
لما مضى أم لأمر فيك تجديد
بمساعاتها تقرر بذاك عيونها
فالأهها ربيعة أو بنو
له كسب خنزير وخرطوم ثعلب
أجدع منهم بهن أنافاً
تركت عيون عبيدي حيارى
فدا كل ماشية الهيدبي
فجيب وأما بطنه فرحيب

مدائح فاتك ومراثية

لا خيل عندك تهديها ولا مال
الحزن يقلق والتجمل يردع
يذكرني فاتكاً حلمه
حاتم نحن نساري النجم في الظلم

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال
والدمع بينهما عصي طيع
وشيء من الند فيه اسمه
وما سواه على خف ولا قدم

العميدات

باد هواك صبرت أم لم تصبرا
جاء نيروزنا وأنت مزاره
بكتب الأنعام كتاب ورد
أحب امرئ حببت الأنفس
نسيت وما أنسى عتاباً على الصدّ

وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
وودت بالذي أراد رتاده
فدت يد كاتبه كل يد
وأطيب ما شمه معطس
ولا خفراً زادت به حمرة الخدّ

في عهد الدولة:

أوه بديل من قولتي واهـ
مغاني الشعب طيباً في المغاني
أثلث فإننا أيها الطلل
أزائرياً خيال أم عائد
آخر ما الملك معزى به
قد صدق الورد في الذي زعما
ما أجدر الأيام والليالي
فدى لك من يقصّر عن مداكا

لمن نأت والبديل ذكراها
بمنزلة الربيع من الزمان
نبكي وترزم تحتنا الأبل
أم عند مولاك أني راقد
هذا الذي أثر في قلبه
أنك صيرت ثمره ديمـا
بأن تقول ماله ومالي
فلا ملك إذن إلا فداكا

وسأورد فيما يلي نماذج لهذا الشرح، من القصيدة التي كان الخوارزمي معجباً بها:

من الجآذر في زي الأعاريبِ حُمُر الحلَى والمطايا والجلابيب

من للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعظيم، والجؤذر: ولد البقرة والزي:

اجتماع الزينة، وأصله زوى لأنه من قولك: زويت الشيء إذا جمعته، ويقال في تصريف الفعل منه تزيا، والأصل تزوى.

الأعاريب: جمع الجمع، يقال عرب وأعراب، وأعاريب، والجلباب درع واسع تلبسه المرأة، وجمعه جلابيب وجلابيب.

شبه النساء بالجآذر فقال: من هؤلاء الجآذر التي خرجت في زي العرب ثم جعلها حمر الحلَى والمطايا والجلابيب، وذلك لأن أشرف الحلَى الحمر من الذهب واليواقيت، وأشرف المراكب حمر النعم، وأشرف ملابس النساء المجسّدات⁽¹⁾ والمعصفرات إن كنت تسأل شكاً في معارفاً فمن بلاك بتسهيّد وتعذيب

هذا استفهام في الأول نفسه، فقال: إن كنت تسأل عنهن شكاً منك في معرفتهن فهن من فتتك ومن بلاك بالتسهيّد والتعذيب، وانتصاب شكاً على التمييز أو على أنه مصدر لعله، المعارف: جمع المعرفة، وإنما جمع المصدر لاختلاف وجوهها ويجوز أن يعني بالمعارف الوجوه، لأن الوجه سمي معرفاً، لأن المعرفة تقع بها وقوله: من بلاك إنما وحده حملاً على لفظ (من) كقوله تعالى ومنهم من يستمع إليك والبيت على طريقة عبد بني الحسحاس:

يعسّدن مريضاً هنّ هيّجن داءه ألا إنّما بعض العوائد دائياً
أزورهم وساد الليل يشفع بي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

(1) المجسّدات: جمع مجسد: قيل هو الثوب الأحمر أو المطلي بالزعفران.

هذا البيت أحسن ما اخترع في هذا المعنى، وقد أتى به جماعة ممن تقدمه فلم يوفوا حقه، وذلك إنما استوفى الغرض في أحسن لفظ وأعذب عبارة، فجعل سواد الليل شفيفاً له، وبياض النهار مغرياً به وقد قال الأول إلا إنه لم يأت به على هذا الحال، فإنه اقتصر على ذكر الليل فقال:

قالت الليل موعد لك منا فارقب الليل إن أردت اللقاء

وجاء ابن المعتز فجمع بينهما فقال:

الشمس نامة والليل قواد

إلا أن في لفظه سخفاً، والمتني تناول هذا المعنى من الحضيض فعلا به على السماك، وصار أولى به من الأول.

نخلص من ذلك كله إلى ما يلي:

1- ليس لدينا ما يثبت عنوان الكتاب كما وضعه مؤلفه، ومن المرجح أن يكون العنوان هو المدون على المخطوط شرح ديوان أبي الطيب المتني لا سيما أن كاتب العنوان من المعروفين في عصره بالأدب.

2- أن الكتاب هو من تأليف أبي بكر الخوارزمي، ولعل ما دون على المخطوط من نسبة الكتاب إلى مؤلفه مما يساعد على إقامة الدليل على صحة نسبته.

ثم إن الكتاب يخلو من ذكر أي من شراح ديوان أبي الطيب سوى ابن جني الذي ورد ذكره مرتين، ليس فيهما نقل عن شرحه ولكن في الاستدلال على بعض الوقائع وفي هذا ما يدل على تقدم صاحبه، ولو كان متأخراً لاضطر إلى الاستعانة بشروح غيره في فهم النص، أو الرد على ما يراه مجافياً للمعنى.

كما أن المخطوط يكاد يخلو من الروايات المتعددة، وهذا يعني أن الشارح كان قريب الصلة بالمتني، واعتمد رواية واحدة ولو كان متأخراً لاضطر إلى تناول الروايات، وترجيح بعضها على بعضها الآخر.

3- أن الخوارزمي قد شرح الديوان كله، وأن الجزء الأول من الديوان، الذي ما يزال مفقوداً يحتوي على القسم الأكبر من الشرح.

4- يكتسب الكتاب أهميته لكونه واحداً من أقدم شروح ديوان أبي الطيب إذا لم نقل أنه كان أقدمها، فقد عاصر الخوارزمي المتني وجمعهما بلاط سيف الدولة وحضر الخوارزمي مجلسه ولعله قد قرأ عليه شعره، وكان الخوارزمي يكبر ابن جني عمراً كان الأخير دون العشرين من عمره حين غادر المتني بلاط سيف الدولة الحمداني، ومع أننا لا نعرف التاريخ الذي شرع فيه الخوارزمي في تأليف كتابه، إلا أن من المحقق أنه قد انتهى منه بعد مقتل أبي الطيب، بدليل شرحه للديوان كاملاً، وما دما لا نعرف الزمن الذي بدأ فيه ابن جني بشرح ديوانه، ولا نعرف وقت انتهائه على وجه التحديد فإن بالمستطاع أن نقول أن الكتابين قد ألفا في وقت واحد. كما يكتسب الكتاب أهميته لأن صاحبه قد عدّ رأس مدرسة في شروح ديوان أبي الطيب، ومن المؤكد أن تلاميذه قد تأثروا به في شرحه كالهروي، وأبي الفضل العروضي وتلميذه الواحدي وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الهراشي.

أما خصائص هذه المدرسة فقد تجلت في هذا الشرح من خلال:

(1) ما تحلى به المؤلف من موضوعية في الشرح والتحليل، فلم يتحامل على المتني كما فعل صاحب الحاشي، ولم يتعصب له كما فعل ابن جني، ولكنه لم يستطع أن يخفي إعجابه بما في شعر أبي الطيب من جزالة ومتانة، وما فيه من صور وكنایات وتشبيهات.

(2) لم يقصر الشارح اهتمامه بالشروح اللغوية كما فعل ابن جني، ولكنه تناول فيه شروحاً لغوية ولحوية وأدبية وصرفية.

5- كتاب الأمالي: انفرد بذكره الميداني⁽¹⁾ في تفسير قولهم: 'لا أفعل كذا ما غبا غبيس'

(1) مجمع الأمثال 2/ 239.

يقول... ورأيت في أمالي الخوارزمي أن معنى غبا: أظلم والغيبس من أسماء الليل....⁽¹⁾

وقد يكون المقصود هو كتاب الأمثال الذي تحدثنا عنه فيما سبق، وأن تصحيفاً قد أصابه.

ولعل هذا الكتاب هو ما أشار إليه تلميذه الحسن بن أحمد الطبرسي النيسابوري في رثائه حين قال⁽¹⁾.

يا أهل خارزم من يعزي أنتم أم المجد والمعالي
أم القسوافي أم المذاكي أم التعاليق والأمالي

وليس غريباً أن يكون لمثله هذا الكتاب، وهو رجل اتخذ التدريس مهنة وربما جمع في كتاب ما كان يمليه على تلاميذه من العلوم والآداب.

6- مفيد العلوم ومبيد الهموم: طبع هذا الكتاب طبعتين: الأولى سنة 1906م - 1323هـ، والثانية سنة 1909م، 327هـ، وقد نسب الكتاب إلى الشيخ جمال الدين أبي بكر الخوارزمي.

وقد نسب السيد يوسف إليان سركيس⁽²⁾ هذا الكتاب إلى أبي بكر الخوارزمي بعد ترجمة له، ذكر فيها أنه ولد سنة 316، وقال عنه الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي وأشار إلى ما ذكره حاجي خليفة من نسبة الكتاب إلى بعض المغاربة⁽³⁾.

يتناول الكتاب موضوعات كثيرة ومتشعبة، يقول مؤلفه في المقدمة⁽⁴⁾ "... من كان له

(1) إنباه الرواة 1/ 277.

(2) معجم المطبوعات العربية والمعربة/ 838 - 839.

(3) كشف الظنون 2/ 1772.

(4) مفيد العلوم ومبيد الهموم 6-7.

هذا الكتاب لا يضيق صدره أبداً، ويعرف به قواعد الشرع، وقانون نصرة الممالك، ونصرة المذهب، ورد الخصم، وتذكر الآخرة، وقاعدة العدل، وعاقبة الأمور، ونذير العدو إلى غير ذلك... وسميته مفيد العلوم ومبيد الهموم ورتبته على اثنين وثلاثين كتاباً.

والكتاب ليس لأبي بكر الخوارزمي الذي نحن بصدد دراسته ذلك أن الكتاب قد ألف بعد وفاة الخوارزمي، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤلف في الباب الثاني من كتاب سير الملوك⁽¹⁾ يقول:

قرأت في سير السلطان الغازي محمود بن سبكتكين رحمه الله... ومن المعروف أن السلطان محمود بن سبكتكين قد توفي في سنة 421هـ.⁽²⁾

ثم أن مؤلف الكتاب رجل من أتباع السنة الأشعرية، والخوارزمي شيعي متعصب، يقول المؤلف⁽³⁾ أفترقت الأمة من أهل القبلة على اثنين وسبعين فرقة، أهل الحق منهم السنة الأشعرية ومن سواهم فضلال.

ويقول في مكان آخر⁽⁴⁾: قال النبي ﷺ ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها فرقة. (اعلم) أن الناجي من هذه الأمة أهل السنة والجماعة وذلك بفتوى النبي ﷺ، لما سئل: من الناجي؟ فقال: ما أنا عليه وأصحابي، وكان على السنة والجماعة، دون البدعة والمخالفة وقد استشهد مؤلف الكتاب بقول ماثور للخوارزمي⁽⁵⁾ من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحطيئة،

(1) المصدر السابق/ 344.

(2) الكامل في التاريخ 9/ 398.

(3) مفيد العلوم/ 18.

(4) المصدر السابق/ 335.

(5) مفيد العلوم/ وانظر مطالع البدور في منازل السرور/ 1/ 214.

وهاشميات الكميت ونقائض جرير⁽¹⁾ وخريات أبي نواس وتشبيهات ابن المعتز،.... إلخ.

وعليه فالكتاب ليس للخوارزمي، وقد وهم السيد سركيس بهذه النسبة ولم أستطع من خلال ما بذلته من جهد التعرف على مؤلف الكتاب ذلك أن كتب التراجم لم تسعفنا في معرفة شخصية المؤلف.

7- المكارم والمفاخر: طبع هذا الكتب في القاهرة سنة 1354هـ - 1935م وقام بنشره السيد عزة العطار، سكرتير لجنة الشبيبة السورية بالقاهرة آنذاك، وقد نسب الكتاب إلى أبي بكر الخوارزمي، وترجم له في المقدمة، وقد استند في نسبته إلى الخوارزمي إلى طريقة الكتابة، وأسلوب التراكيب اللتين اشتهر بهما الخوارزمي يقول: وقد عثرنا على رسالة صغيرة باسم (المكارم والمفاخر) منسوبة إلى الخوارزمي ومع أننا لا نملك من الأدلة ما يثبت صحة نسبة هذه الرسالة إلى الخوارزمي. نكاد نحزم أنها لا بد أن تكون من إنشائه ووضعه، لأن طريقته في الكتابة، وأسلوبه في التراكيب يتجلىان في إنشاء الرسالة وأسلوب تأليفهما.

وقد تبين لي أن هذا الكتيب مستل من كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم المنسوب إلى جمال الدين أبي بكر الخوارزمي، وهو الكتاب السابع عشر منه⁽²⁾ ويبدو أن الناشر قد أضله اسم الخوارزمي الذي نسب الكتاب إليه، فلم يرحجاً من نسبته لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي. وقد وضح لنا أن كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم ليس لأبي بكر الخوارزمي.

8- رسم المعمور من البلاد: نسب هذا الكتاب إليه البغدادي في كتابه هدية

(1) وقلائص جرير وفيه تصحيف.

(2) مفيد العلوم ومبيد الهموم / 227 - 247.

العارفين⁽¹⁾، وعمر رضا كحاله في معجم المؤلفين⁽²⁾، كما نسبته حاجي خليفة⁽³⁾ إلى الخوارزمي ولم يسمه. وقد وهم هؤلاء في نسبة الكتاب إليه، ذلك أن عنوان الكتاب يشير إلى أنه يتناول علم البلدان، ولم يعرف لأبي بكر مثل هذا الاتجاه وأرجح أن يكون مؤلفه محمد بن موسى الخوارزمي الذي اشتهر بالفلك والرياضيات، والكتاب مفقود.

9- كتاب المناقب: ذكر هذا الكتاب الشرواني⁽⁴⁾ ونقل عنه حكاية تقترب من الأسطورة، تظهر شدة العذاب الذي لقيه عبد الرحمن بن ملجم لما اقتربت يده من فعل أثيم بقتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. يقول الشرواني:

ومن كتاب المناقب لأبي بكر الخوارزمي قال: قال أبو القاسم بن محمد...الخ.
وقد جمع محقق كتاب (المناقب) لمؤيد الدين الخوارزمي، السيد محمد رضا الخراسان أسماء الكتب التي ألفت في مناقب علي بن أبي طالب من غير الشيعة فكان منها ما أسماه مناقب علي بن أبي طالب - لأبي بكر الخوارزمي المتوفي سنة 383 ويبدو أن السيد الخراسان قد وهم في مذهب الخوارزمي هذا.
ولا يبعد أن يكون للخوارزمي مثل هذا الكتاب، لما عرف به من تمسك بمذهبه وعمل لنصرته. ولكننا لم نعثر على هذا الكتاب.

(1) هدية العارفين 2/ 57.

(2) معجم المؤلفين/ 119.

(3) كشف الظنون 1/ 902.

(4) حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح/ 95.

الفصل الثالث

شعره

شعره

مقدمة

لم يبق لنا من شعر الخوارزمي غير ما احتفظت به يتيمة الدهر وما تناثر في كتب الثعالي الأخرى، وما استطعت جمعه من المصادر المختلفة فقد سبق أن أشرت إلى ضياع ديوانه، وهذا يعني أن الدراسة ستقتصر على ما بقي من شعره، وأغلبه مقطعات من قصائد لا نستطيع معرفة القدر الضائع منها، ولا الأغراض الواردة فيها، كما لا نستطيع تحديد القدر الضائع من قصائد الديوان.

وليس من ريب أن فقدان الديوان سيعود على هذه الدراسة بكثير من الخسران، ولن يكون النقص إلا حليفها، لأن الباحث لا يستطيع أن يتوصل إلى نتائج مرضية عبر معلومات ناقصة مبتورة، ذلك أن كثير من أشعاره المتناثرة، قد دونت للاستشهاد بها على أغراض محددة، يقتطع لأجلها بيت أو أبيات من قصيدة تخدم ذلك الغرض، ويبدو أن الضائع من شعره كثير، ذلك أنه قال الشعر مبكراً فقد فارق وطنه في ريعان عمره، وحداثة سنه، وهو قويم الأدب نافذ القريحة حسن الشعر⁽¹⁾ وعاش بعد ذلك حياة طويلة زاخرة، اتصل خلالها بالحكام والولاة في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر، ودُبج فيهم قصائد المدح ليأخذ عطاياهم وينال حظوتهم، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أننا لم نعثر له على بيت واحد في مدح سيف الدولة الذي عاش في بلاطه حقبة من الزمن، وأنى له أن يأخذ رفته من غير أن يقدم شيئاً مما عنده، وما كان له من بضاعة غير الأدب، وغير قصائد يقدمها بين يدي ذلك الأمير لينال بها استحسانه، ويدخله في حاشيته. كما لم نعثر له على بيت واحد في مدح البلعمي الذي رافقه مدة من الزمن، بعد عودته من الشام، وكان إذ ذلك قوى العود يتدفق قوة وشباباً، وتطفح آماله بنوال الأمير، ويرتجي منه رفعة، وعلو منزلة، وما بغير قصائد المدح يتواصل حبل الود بين

(1) اليتيمة 4/ 204.

الشاعر والسلطان. ولم يبق لنا من ثمرات تلك الصحبة غير بيتين في هجاء البلعمي
دونهما صاحب اليتيمة.

وقد ضاع شعره في مدح والي سجستان وأميرها خلف بن أحمد الذي توطدت-
علاقته به، ولم يبق من مخلفات تلك الصلة غير قصيدة الشكوى والألم والاستغاثة التي
بعث بها إلى أبي نصر الميكالي، وهي تعد بحق من أجود ما ترك من شعر لما فيها من
عاطفة صادقة تنم عن ألم وحرقة. ولم يبق لنا من شعره في مدح بني شار غير أبيات لا
يعتد بها كثيراً في دراسة شعره. كما أن ما بقي من شعره في مدح آل بويه ووزيرهم
الصاحب بن عباد، لا يساعد كثيراً على معرفة النسق العام للقصيدة، ومقدار الترابط
بين أجزائها، وطريقته في الابتداء والانتهاى وطبيعة المؤثرات الزمنية للشعر والتاريخ في
بناء القصيدة، ورسم الصورة.

ويبدو واضحاً أننا قد فقدنا أكثر أشعار الخوارزمي، التي كان يكن أن تعيننا على
دراسة شعره، واستخلاص التجربة الفنية فيه، وقدرته على الموازنة بين القديم
والحديث، وأثر العوامل السياسية والاجتماعية في توجيه شعره ورسم مساره.

شاعريته والعوامل المؤثرة فيها

ولعل من الضرورة- قبل البدء في دراسة شعر الخوارزمي- أن نبحث في عوامل
تكوين شاعريته، ومدى الأصالة فيها، ذلك أن قول الشعر، والتضلع من الأدب، من
الأمور التي لا تستقيم بسهولة، ولا يرد حياضها كل من أراد، فكيف تسنى لهذا الرجل
أن ينبغ في الشعر والكتابة. وأن يجد له مكاناً فيهما وقد نسله أبوان من غير العرب
ونشأ في بيئة لمس المتنبي غربة العربي فيها. فعبر عن ذلك بقوله⁽¹⁾:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

(1) ديوان المتنبي بشرح الواحدي/ 766.

ومع إدراكنا لما كان للعربية من وجود فاعل ومؤثر لا سيما في دواوين الأمراء والولاة وما كانت تعنيه في أذهان هؤلاء القوم الذين شدهم الدين الإسلامي إلى العربية بأوثق الأسباب، وإدراكنا لأثر العوامل الاقتصادية والسياسية في الاتجاه إلى تعلم العربية، ودراسة آدابها ومحاكاة أهلها والاندفاع إلى منافستهم بها، إلا أن هذه العوامل كلها لا تكفي لإبطال الأثر التربوي والنفسي للغة الأم، وإن لم تكن إذ ذاك لغة البيت والشارع.

ونحن بدورنا لا نستطيع إهمال العامل الذاتي في الإبداع، ولا نستطيع إهمال الموهبة، ولكننا ندرك أن الموهبة وحدها لا تكفي وأن عوامل كثيرة لا بد أن تؤثر في صقلها لتضعها في الطريق المناسب. فهل كانت المدة القصيرة التي قضاها يافعاً في خوارزم، كافية لصقل تلك الموهبة، والتأثير فيها ذلك الأثر الكبير، بحيث استطاعت أن تخلق من الخوارزمي شاعراً وأديباً في العربية مشهوراً؟. ذلك ما نرتاب في مقدار صحته، فقد وضح لنا في أثناء دراسة حياته أنه قد رحل إلى العراق ولما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يكن له شيوخ مشهورون بحيث يتسنى لنا تحديد أثرهم في ميله واتجاهه ونبوغه، كما أن مدة بقائه في العراق لم تكن طويلة -كما نعتقد- وأن أثرها فيه كان محدوداً، ونحن نميل إلى أن بيئة الشام عامة وبلاط سيف الدولة في حلب كانا من أهم عوامل صقل موهبته فقد كانت هذه البيئة موثلاً للشعراء والأدباء، ومحطاً لرحالهم، جمع شعراؤها بين فصاحة البداوة، وحلاوة الحضارة، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان، وبني ورقاء، وهم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين أداة السيف والقلم⁽¹⁾

لقد أفلحت رحلة الخوارزمي، إذ وصلته بأشهر حاضرة من حواضر الأدب حيثئذ، وكان ما يزال في ريعان عمره. وعنقوان أمره، قد دوخ بلاد الشام، وحصل من

(1) البيمة 25/1.

حضرة سيف الدولة مجلب في مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء والفضلاء، فأقام ما أقام بها من أبي عبد الله بن خالويه، وأبي الحسن الشمشاطي وغيرهما من أئمة الأدباء، وأبي الطيب المتنبي، وأبي العباس النامي، وغيرهما من فحول الشعراء، بين علم يدرسه، وأدب يقتبسه ومحاسن ألفاظ يصيدها، وانقلب عنها، وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر، وكان يقول: ما فتق قلبي، وشحذ فهمي وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب⁽¹⁾.

ولا نستطيع أن نغفل أثر العامل الذاتي في التثقيف، فقد درس الخوارزمي دواوين الأقدمين. وحفظ أشعارهم، وروى أشعار المحدثين. فكان ذلك عاملاً من عوامل يقظة الموهبة والإبداع لديه، فلا غرو بعد هذا أن تتشرب نفسه العريية ويسبر أغوارها، ويبد فيها كثيراً من أقرانه في الشعر والنثر.

ويبدو الخوارزمي منحازاً إلى القديم ميالاً إليه، يألم لانكفاء القوم عنه، وابتعادهم عنه، وإهمالهم له. ولكنه يدرك أسباب الانكفاء والإهمال، فالأدب آلة تنفق بطلب الطالب لها، ورغبته فيها، كما تكسد برغبته عنها، وانزوائه منها، فالمهمل إذا احتيج إليه مستعمل، والمستعمل إذا استغني عنه مهمل ولذلك ترك الناس ذكر الشيخ والقيصوم، واقبلوا على ذكر النرجس والورد، وطورا ذكر الأثافي والرماد، والوقوف على الأطلال والأوتاد، إلى ذكر البساتين والأنهار والتعلل بالأنوار والأزهار، واغبوا ذكر زينب وعثمة، وأكثروا ذكر تحية ونزهة، إذ كان هذا أجرى على لسانهم، وأشبهه بحكم زمانهم، أما زمانهم، فقد امتاز بميل أهله عن الجد إلى الهزل والاهتمام بكل ما هو جديد، ويعود ذلك إلى استتباب الحضارة، وما يسرته من متع الحياة، وهيأته من

(1) اليثيمة 1/26.

ظروف اللهو والعبث ويروز عادات وتقاليد لم تكن مألوفة لدى القدماء، وانتشارهم في بيئات مختلفة عن بيئة الشعر القديم.

فلا غرابة أن ينفر القوم من القديم لما فيه من صرامة وجد وما يصوره من عادات وتقاليد، وبيئات تضاءلت تأثيراتها في حياتهم، وانقطع حبل الصلة بها، يقول الخوارزمي⁽¹⁾:

فبالجملة إن الناس بالزمان، والزمان بالسلطان والسلطان متصرف على حكم حاشيته وبيطانته، وناظر بأعين كتابه وكفاته، وجلهم بل كلهم مائل عن موارد الجد إلى حلاوة الهزل، يستبشع الإعراب، ويلعن الأعراب، ويتطير من شعر الشماخ⁽²⁾ والطرماح⁽³⁾ إذ روه، وينفر من كلام قس⁽⁴⁾ والاهتم⁽⁵⁾ إذا حكوه، فإن فاوضه مستعطف بيت لحاتم طيء زوى وجهه، وصعر خده، وسد أذنه، وجعل حرمان من أنشده مرآه، هذا إذا لم يتعد إلى شتم الحي ولعن الميت.

ولعل إعجابه بالشعر القديم بما فيه من أصالة وقوة، وما له من ارتباط نفسي بمصدر مهم من مصادر ثقافته وعلمه، قد قاده إلى الإعجاب بشعر الشعراء الذين نهجوا نهج القديم في القوة والجزالة، غير منقطعين عن العصر والبيئات الجديدة، فرآى في شعرهم روحاً جديدة مزجت بين الجديد والقديم، وقد نجد في هذا ما يفسر إعجاب الخوارزمي بشعر أبي تمام والبحري وأبي الطيب المتنبي.

(1) الأمثال المولدة/ 3-ب.

(2) الشماخ: هو معقل بن ضرار من حرمة الغطفاني شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لييد والنابعة، ترجمته في الإصابة (3913).

(3) الطرماح: هو الطرماح بن حكيم شاعر وخطيب من طي، خارجي، وكان صديقاً للكميت انظر ترجمته في الشعر والشعراء 2/ 489، والأغاني 12/ 38 دار الثقافة.

(4) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك أحد حكماء العرب. ومن كبار خطبائهم، أدرك الإسلام ولم يسلم ترجمته في البيان والتبيين 1/ 27 الأغاني 14/ 40.

(5) الأهم: هو سنان بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر، من خطباء العرب المشهورين.

كان أبو تمام قدوة في الشعر تحتذى، وقد ورد إطرأؤه لأبي تمام في إحدى رسائله، حين استشهد بيتين له هما⁽¹⁾:

وإن أولى البرايا أن تؤاسيه عند السُرور لمن آسأك في الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يالفهم في المنزل الحشن

يقول: وشهادة أبي تمام في الكرم تقوم مقام شهادة أمة، بل أمم، ولئن كان خزيمة بن ثابت⁽²⁾ ذا الشهادتين عند الأنبياء والحكام، فإن أبا تمام ذو الشهادتين عند الأحرار والكرام. ويرى الخوارزمي، أن المتنبي قد تأثر بأبي تمام، وأخذ من معانيه، وقد وضع هذا من خلال شرحه لديوان أبي الطيب.

أما إعجابه بشعر البحتري فقد عبر عنه بقوله⁽³⁾: "غرر البحتري ووسائط قلائده، وأبيات قصائده، أكثر من أن تحصى، وعندي أن أفصح أبياته وأبلغها وأجمعها لكثير من المعاني بالقليل من الألفاظ:

فمن يرض بعد السخط كان على هدى وليس لمن بعد الرضى يسخط اهتدى
فإن الرضى بعد العدا يكشف الفلا وإن العدا بعد الرضا يجلب القلى

ويرى الثعالبي أن الخوارزمي كان لشدة إعجابه بيتين للبحتري يقول: لا تشدونيهما فارقص طرباً، وما أقبح الرقص بالمشايخ. والبيتان هما:

يذكرنيك والذكرى عناء مشايه فيك طيبة الشكول
نسيم الروض في ريح شمال وصبوب المزن في راح شمول⁽⁴⁾

(1) الرسائل / 101.

(2) خزيمة بن ثابت: صحابي من أشرف أوس، شهد صفين مع علي وقتل فيها ترجمته في الإصابة رقم (2247).

(3) الإعجاز والإيجاز / 188، ولم أجد البيتين في ديوان البحتري.

(4) وفي الديوان 1736 / 3 (وذكر فيك - والذكرى عناء. شباهه فيك بينة الشكول).

أما إعجابه بشعر المتنبي، فقد عبر عنه تعبيراً عملياً، إذ عمد إلى شرح ديوانه شرحاً كاملاً معبراً بذلك عن شدة الإعجاب به لما فيه من قوة ومثانة، وما حواه من استعارات وتشبيهات بديعة جمع فيها بين القديم والحديث، وألم فيها بروح العصر إلمامه باللغة الأصيلة.

ويقول الخوارزمي⁽¹⁾: أمير شعراء العصر، أبو الطيب المتنبي وأمير شعره قصيدته التي أولها⁽²⁾:

من الجأذر في زي الأعريب حُمِر الحُلَى والمطايا والجلايب
وأُمير هذه القصيدة قوله⁽³⁾:

أزورهم وسواد الليل يشفع بي وأنثى وبياضُ الصبح يُغري بي
وقد دمج فيه أربعة من الطباق، وهي: الزيارة والانتشاء والسواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والإغراء ولا يعرف لأحد مثله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخوارزمي على شدة إعجابه بشعر المتنبي واهتمامه به، لم يكن ليخفي مأخذ له على أخلاقه وسلوكه، فقد رماه بالبخل، وقلة الوفاء، وتناقض القول والفعل، يقول الثعالبي⁽⁴⁾: "سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: كان أبو الطيب قاعداً تحت قول الشاعر:

وإنَّ أحقَّ الناسِ باللومِ شاعرٌ يلومُ على البخلِ الرجالَ ويبخلُ
ولمَّا أعرب عن عادته وطريقته في قوله⁽⁵⁾:

(1) خاص الخاص / 146 - 147.

(2) ديوان المتنبي للواحدى / 633.

(3) المصدر السابق / 634.

(4) البيتة 1 / 135 - 136.

(5) ديوان المتنبي / الواحدى / 374.

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الثرب خاتمته

ولم تستطع الصلة الوطيدة التي كانت تربط الخوارزمي بالصاحب بن عباد، أن تجر الخوارزمي إلى مهاجمة المتنبي أو الانتقاص من شعره، فقد وقف موقف المحايد من الخلاف معه، وبين أن شعراء بغداد قد نالوا من عرض المتنبي، وتباروا في هجائه، لأنه ترفع عن مدح الوزير المهلي، فسأط ألسنة الشعراء عليه. وكان يرى أن الصاحب بن عباد، قد اتخذ المتنبي غرضاً يرشقه بسهام الوقعة، ويتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته، وهو أعرف الناس بحسناته، وأحفظهم لها، وأكثرهم استعمالاً لها، وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته لأن المتنبي لم يقم له وزناً. ولم يجبه إلى طلبه في زيارته وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان⁽¹⁾.

وقد تأثر الخوارزمي في شعره بأبي الطيب المتنبي إذ أخذ عنه كثيراً من معانيه وأغراضه، وقد أورد صاحب اليتيمة عدداً من المواضع التي أخذ فيها الخوارزمي عن المتنبي إذ يقول⁽²⁾: قال أبو الطيب المتنبي، وهو من قلائده:

فإن تُفَقِ الأنامَ وأنتَ منهم فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ
وقال أيضاً

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدنُ الذهبِ الرُّغامِ

أخذ أبو بكر الخوارزمي معنى البيتين، وهما قريب من قريب، فقال:
فديتك ما بدا لي قصد حُرٍّ سواك من الورى إلا بدا لي
وإنك منهم، وكذلك أيضاً مسن الماء الفرائد والآلي
وتسكن دارهم وكذلك سكنى الحجارة والزمرد في الجبال

(1) انظر اليتيمة 1/ 136 - 138.

(2) اليتيمة 1/ 146.

وقال أبو الطيب⁽¹⁾:

وصرت أشك فيمن أظفنيه لعلمي أنه بعض الأنام

أخذه الخوارزمي فقال:

قد ظلمناك يُحسن الظنُّ يا بعض الأنام

ويبرز التأثر واضحاً في المعنى والوزن والقافية في قصيدته التي وصف فيها الحمى. يقول المتنبي من قصيدة له⁽²⁾:

وزائرتي كأن بها حياءَ فليس تزور إلا في الظلام

بدلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنهما فتوسعه بأنواع السقام

كأن لها ضرائر من غذائي فيغضبها شرابي والطعام

إذا ما فارقتني غسّلتني كأننا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردُها فتجري مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوقٍ مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدّها والصدق شرٌّ إذا ألقاك في الكرب العظام

أبنت الدهر عندي كل بنتٍ فكيف وصلت أنت من الزحام

ويقول الخوارزمي في وصفها⁽³⁾:

ولو أبصرت في أرجان نفسي عليها من أبي يحيى ذمام

(1) المصدر السابق 1/147.

(2) شرح ديوان المتنبي/ الواحدي 978/ ومطلعها قوله:

ملومكمما بجل عن الملام ووقع فعاليه فوق الكلام

(3) اليتيمة 4/217.

ولي من أمّ ملدم كلّ يوم	ضجّيع لا يلدّ له منام
مقبلة وليس لها ثنايا	معانقة وليس لها التزام
كأنّ لها ضرائر من غذائي	فيغضبها شرابي والطعام
إذا ما صافحت صفحات وجهي	غدا ألفاً وأمسى وهو لام
إذا لرأيت عبيدك والمنايا	تصيح به تنبه كم تنام

ولا يفوتنا قبل تناول الشعر بالدراسة أن نلم قليلاً بما للخوارزمي من نظرات وآراء في الشعر والشعراء، وبعض اللمحات النقدية التي لا تكون مادة نقدية تستحق أن نفردها فصلاً خاصاً. ذلك أننا سنكون مغالين إذا صورناه ناقداً، أو أن له نظرية في النقد. وقد يكون من المفيد إيراد هذه اللمحات التي يمكن أن تساعد على تحليل شعره. ومعرفة بعض معايير الهامة ومدى تذوقه للشعر وكيف كان يصدر أحكامه، وأثر ثقافته في ذلك، ومن المعروف أن الخوارزمي، لم يترك كتاباً في النقد ولم يعهد له مثل هذا الميل، وإن كان اهتمامه بالشعر ودراسته ونظمه، قد استوجبت معرفة بقواعد النظم، وأساليب القول وتلمس معاني الحسن والإبداع، وملاحظة مواضع الوهن والضعف والإلمام وبالبلاغة والعروض، وقد فصلنا ذلك في الكلام على ثقافته.

ومما يلفت الانتباه من بين تلك اللمحات النقدية ما كان يذهب إليه من ملازمة الشعراء للمبالغة والتزيد والكذب أحياناً، ولعله قد تأثر في ذلك بالآية القرآنية ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٣٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾.

ولكنه لا يرى في كذبهم ومبالغتهم وإفراطهم ما ينتقص من مكانتهم

(1) سورة الشعراء، الآيات من 224 - 226.

الاجتماعية، فللشعر ضروراته، وها هو يتحدث عن نفسه مبرئاً إياها من الكذب والنفاق، وقلة الوفاء، فيقول⁽¹⁾:

"وأنا وإن كنت شاعر اللسان، فلست شاعر الخلق، ولا شاعر الوفاء والصدق ولا شاعر الصداقة والود، ولا شاعر الديانة والحق.
ويقول من أخرى⁽²⁾:

أنت رحمك الله تعالى من أيدي هؤلاء الشعراء الكذابين مرحوم، وفيما بينهم مظلوم، سلبوك علاك وهي حلاك، ونخلوها قوماً سواك، والمدح الكاذب ذم، والبناء على غير أساس هدم.

ويصف الشعراء في إحدى رسائله، ويبين رفعة منزلتهم وسمو مكانتهم في المجتمع مع ما في شعرهم من مغالاة وكذب ونفاق، فيقول⁽³⁾: وما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا فيهم، إذا ذموا ثلبوا، وإذا مدحوا سلبوا وإذا رضوا رفعوا الوضيع، وإذا غضبوا وضعوا الرفيع، وإذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد، ولم تمتد إليهم يد، غنيهم لا يصادر، وفقيرهم لا يحتقر وشيخهم يوقر، وحديثهم لا يستصغر، وسهامهم تنفذ في الأعراض إذا نبت السهام عن الأغراض، وتصل إلى البعيد، كما تصل إلى القريب، وشهادتهم مقبولة، وإن لم ينطق بها سجل. ولم يشهد بها عدل، وسرقتهم مغفورة، وإن جاوزت ربع دينار، ولو بلغت ألف قنطار، إن باعوا المغشوش لم يرد عليهم، وإن صارموا الصديق لم يستوحش منهم. بل ما ظنك يقوم هم صيارفة أخلاق الرجال، وسماسرة النقص والكمال، بل ما ظنك يقوم هم

(1) الرسائل / 149.

(2) المصدر السابق / 204.

(3) الرسائل / 11 - 12.

أمراء الكلام يقصرون طويله، ويخففون ثقله ويقصرون ممدوده، ولم لا أقول ما ظنك
بقوم يتبعهم الغارون، وفي كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون.⁽¹⁾
ويبدو أن الخوارزمي كان شديد التأثر بنقد القدماء، فلمحاته النقدية لا تتعدى
إظهار الاستحسان، وتفضيل البيت أو القصيدة أو الشاعر على غيره، وغالباً ما يخلو
هذا الاستحسان من تعليل، وإذا أورد شيئاً، فلا يتعدى عبارات ساذجة تتناول جانباً
من جوانب البيت أو القصيدة، فالمتني أمير شعراء عصره⁽²⁾ وقصيدته (من الجآذر في
زي الأعراب.. أمير شعره، وأمير هذه القصيدة قوله: (أزورهم وسواد الليل يشفع
بي) أما تعليقه لهذا الحكم النقدي فأساسه البلاغة. فقد جمع الشاعر فيه أربعة من
الطباق، ولا يعرف لأحد مثله - كما يقول -.

ومن أمثلة ذلك ما تكرر في كتابه شرح ديوان المتني، وسأورد فيما يلي عدداً
من الأمثلة التي يمكن القياس عليها:

يقول في شرح قول أبي الطيب⁽³⁾:

دَمِنَ تَكَاثَرِ الْهُمُومِ عَلَيَّ فِي عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثَرِ اللَّوَامِ

ما أحسن ما أتى بالمقابلة في هذا البيت ويقول في شرح بيت آخر⁽³⁾:

أرواحنا انهملت وعشنا بعدها من بعد ما قطرت على الأقدام

هذا البيت سلك فيه طريقته في قوله:

أشاروا بتسليم فجَدنا بأنفسِ . تسيل على الأماق والسَّم ناقع

... وكأنه قلب على الشعراء طريقتهم، لأن المعهود من الدمع أن يتسلى به
المكروب، وعلى ذلك وردت الأشعار، وهذا جاء فقلب عليهم ذلك وبالع...!

(1) خاص الخاص / 146 - 147.

(2) شرح ديوان المتني للخوارزمي 9 - 10.

(3) المصدر السابق 10 - 1.

ويقول في آخر⁽¹⁾:

وتعذر الأحرار صير ظهرها إلا إليك عليّ فرج حرام

هذا البيت مخلصه حسن، ألفاظه جزلة، ونظمه سديد.

ومن ذلك أيضاً⁽²⁾:

وحشاه عادية بغير قوائم عقم البطون حوالك الألوان
هذه استعارة حسنة، فإنه كنى عن النفس بالعادية..... وهناك شواهد كثيرة
تؤكد حقيقة ما ذهبنا إليه من تأثره بنقد القدماء، يقول الثعالبي⁽³⁾: وكان الخوارزمي
يقول: أغزل بيت للعصريين قوله (يعني أبا الطيب المتنبي):

قد كنتُ أشفقُ من دَمعي على بصري فاليومُ كلُّ عزيزٍ بعدكم هائاً

يقول الثعالبي⁽⁴⁾: سمعت الخوارزمي يقول: أحسن ما قيل في مدح النساء قول

الشاعر:

ونحن بنو الدنيا وهنّ بنائها وعيش بني الدنيا لقاء بناتها

وأبلغ ما في ذمهن قول الآخر:

إن النساء شياطينُ خلقن لنا فكلنا يتَّقِي شر الشياطين

على أنه نقض قول من قال:

إن النساء رياحين خلقن لنا فكلنا يشتهي شم الرياحين

وقد أخذ الخوارزمي على المتنبي قوله في رثاء أخت سيف الدولة:

يعلمن حين تحيا حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب

(1) المصدر السابق 11-أ.

(2) المصدر السابق 17-ب.

(3) الإعجاز والإيجاز/ 217.

(4) ثمار القلوب/ 270.

ولم يجد غير عبارة هي أقرب إلى روح الجاهلية منها إلى روح عصره فقال: لو عزاني إنسان عن حرمة بمثل هذا، لألحقته بها، وضربت عنقه على قبرها⁽¹⁾. ويقول الثعالبي⁽²⁾: وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: لم أسمع في وصف الطفيلي، أبلغ من قول الحمدوني:

أراك السدھر تطرق كل دار كأمر الله يحدث كل ليلة
يقول الثعالبي⁽³⁾: وسمعت أبا بكر الخوارزمي غير مرة يقول: أنا أحفظ في هجاء المغنين ما يقارب ألف بيت، وليس فيه أبلغ وأوجز وأطرب من قول أبي الفتح لكشاجم⁽⁴⁾:

ومغنٌ بـأرد النغمة مختل اليـدين
مـا رآه أحد في دار قـوم مـرتين

وكان الخوارزمي يعجب بحسن الكتابة، ويثني على قائلها فقد روى الثعالبي⁽⁵⁾ أن الخوارزمي أعجب بقول الشاعر:

وإذا الكتريم أضاع مطلب أنفه أو عرسه لكريهة لم يغضب
وقال: أنظر كيف لطف هذا الشاعر بحذقه للكتابة عن فرج الأم بقوله (مطلب أنفه).

كما نقل الثعالبي⁽⁶⁾ إعجاب الخوارزمي بما جاء في قول أبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب من كناية نادرة حيث يقول:

(1) الرسائل/ 84، البيمة 84/1

(2) ثمار القلوب/ 35.

(3) خاص الخاص/ 64.

(4) انظر ديوان كشاجم، تحقيق خيرية محفوظ/ 475.

(5) الكناية والتعريض/ 7.

(6) الكناية والتعريض/ 8.

ثم فما عندك خيرٌ يرتجي أيها الأير القليل المنفعة
طالما جدلت فرسان الوغى وافتتحت القلعة الممتنعة
وتقحمت مطامير الهوى فعرفت الضيق منها والسعة

وعهدي بالأستاذ الطبري ينشد هذه الأبيات، ويعجب من جودتها في معناها ويقول: إن من يكتنى عن الأحراج والفقاح بمطامير الهوى لمن شياطين الإنس الذين سخر لهم الكلام حتى قادوه بالين زمام.

تلك هي طريقة الخوارزمي في التعبير عن خلجات نفسه تجاه الشعر، وتأثره بأسلوب القدماء في النقد واضح بين، ونقده نقد تأثري لا يتعدى الإعجاب وإصدار الأحكام، وكثيراً ما يردد عبارات الاستحسان كقوله: وهذه استعارة حسنة، وكناية حسنة، ومعنى حسن، وقد يلجأ في بعض الحالات إلى التوضيح والتفسير ولا يتعدى حدود الكلمة أو البيت.

أما دواعي الشعر عنده، فالطرب والرغبة والرغبة، والطرب صفة تصيب الإنسان من شدة السرور أو الحزن، فيقول: على أني قد طلقني الشعر، ولا أقول طلقته، وإنما الشعر⁽¹⁾ بالطرب أو الرغبة أو الرهب، وما بقي شيء يسر به خاطر ولا كريم فارغب، ولا بقي وجل فأرهب، وبين هذا القول وقول الأول في المفاضلة بين الشعراء سبب وثيق: فأشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب، والأعشى إذا طرب وزهير إذا رغب، والنابعة إذا رهب، ولعل في هذا ما يؤكد عمق صلته بالقديم سواء أكان في الشعر أم في النقد أو التذوق.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا الحديث أن نشير إلى أن الخوارزمي لم يستطع التخلص من تأثير العصر، ومقتضيات الحياة الجديدة بما لها من تأثير على الذوق

(1) الرسائل / 45.

الأدبي، فقد تطورت معاني الموضوعات القديمة واستقلت فروع من الموضوعات القديمة، وظهرت أغراض جديدة.

ومن يقرأ شعر الخوارزمي يجد فيه السمات الشعرية العامة للقرن الرابع فمن حيث الأغراض، وهذا ما ستحدث عنه بالتفصيل - نجد أن الخوارزمي قد نظم في الموضوعات الجديدة المستقلة كالوصف، وجارى شعراء عصره الذين تباروا في وصف الأطعمة والشراب، وقد وجدنا له بعض المقطوعات التي يمكن عدّها من أدب الفحش والمجون، وإن كان دافعها الهجاء ومثلما تأثر الخوارزمي بالأغراض الشعرية في عصره فقد تأثر بالمعاني والأساليب واهتم بالصناعة والمحسنات.

أغراضه:

من الطبيعي أن يستجيب الإنسان إلى نوازع نفسه، ومتطلبات حياته، وظروف عصره وبيئته، ولا بد أن تترك هذه العوامل مجتمعة أثراً بيناً في سلوكه، وطريقة تفكيره، فتضفي عليه لوناً معيناً، وتميزه به من غيره.

كان الخوارزمي نزاعاً إلى المجد منذ صباه، ولم يجد غير الأدب طريقاً يوصله إلى الشهرة، فسلكه، وقاده ذلك إلى الرحلة والتجوال، ففرع أبواب بغداد والشام ثم عاد إلى الشرق فطوف فيه ما طوف، ولقي من المتاعب والمصاعب الشيء الكثير وحصل له من الشهرة في الأدب ما أراد، ولكن شهرة الأدب لا تكفي ولا بد لها من رفد مادي يعلى به مكانته الاجتماعية ويسد به حاجته.

ولعل في هذا ما يفسر لنا كثرة المديح في شعره، فقد أراد أن يتوصل به إلى الملوك والولاة والحكام. فيأخذ عطاءهم وينال من خلاله شهرة أدبية في مجالسهم الزاخرة بالشعراء والأدباء والعلماء، ومنهم من طارصيته، وجلس على باسق من الأرض، لا يظال إلا بكد النفس، وعظم الهمة فقد عاصر الخوارزمي شعراء أفذاذاً، كالمتني، وأبي فراس، والسري الرفاء، والخالديان والنامي وغيرهم وكان عليه أن يقف معهم أو قريباً منهم، كي لا تضيع فرصته وتحمده ريمه، فكد عقله وذهنه، واتجه إلى

القديم ينهل منه، يغير على المعاني فيأخذ الجزل منها، يصوغه في قوالب شعرية تقليدية ولا عليه بعد ذلك أن يأخذ عليه بعض معاصريه منهجه في السطو على المعاني. كما فعل القاضي أبو الحسن الجرجاني حين رماه يقول: ⁽¹⁾
لو نفضت أشعاره نفضة لانتشرت تطلب أصحابها

لقد كون غرض المديح العمود الفقري في شعره، فأغلب ما وصلنا من شعره في المديح، يلي ذلك الهجاء والرثاء، وجل هذه الأغراض هي ثمرة صلته بدواوين الولاة والحكام.

أما شعر الشكوى والأخوانيات فهو قليل بالإضافة إلى ما عرف عنه من ميل إلى التشكي والتظلم، ولم نجد له غير مقطوعة واحدة في العتاب، وقد وجدنا له شعراً في الوصف والخمرة وكلها مقطعات صغيرة، وستناول فيما يلي بالتحليل أهم أغراضه.

المديح:

لقد ارتبط شعر المديح عند الخوارزمي بطموحاته وتطلعاته. فرآى فيه - كما قلنا - سبيلاً للوصول إلى المجد، كما وجد فيه سبيلاً لتحقيق المنفعة وما كان ليخفي حرصه على تحصيلها. ولعل هذا النهج كان نتيجة طبيعية لظروف العصر التي جارت على الأدباء والشعراء. فتركهم فيها - لمؤثرات شتى -، يصارعون الحياة في سبيل لقمة العيش، ويتلقفون فتات الملوك والأمراء والوزراء ويبحثون عن المجد في أحضان الضعة، ويهرعون إلى قول الشعر في مدحهم رياء ومداجاة، لا استجابة لعواطف صادقة أو أحاسيس مرهفة ولم تكن تلك الظروف وليدة ذلك العصر فحسب، بل كانت امتداداً طبيعياً للظروف السابقة ومن هنا أصبح الأدب سلعة تباع وتشترى،

(1) أحسن ما سمعت/ 45-46، تنمة اليتيمة 1/ 10.

وينادى عليه كما ينادى على الثوب الخلق، وقد برزت هذه الظاهرة بجلاء في شعر الخوارزمي، وعبر عنها بقوله: ⁽¹⁾

يا أيها الخاطب مدحي وهل يورد من غير رشاء قليب
شيئان لم يجتمعا لأمرئ حب الدنانير وحب الحبيب

فالبذل، والعطاء هما ثمن المديح، وهما رشاء الود، وهل يورد من غير رشاء قليب. وكما أن الجمع بين الحب وبين الأنانية متمثلة بالبخل أمر لا يمكن تحقيقه فكذلك الحصول على المدح لا يكون بغير البذل والعطاء، ولسان الشاعر روضة لا تسلف الزهر حتى تستسلف المطر، فإذا ما أسلف أحدهم مِدْحَةً ولم يقطف ثمارها جرد من لسانه سيفاً مصلتاً يدافع به عن حقه وطالب به مطالبة القوي، ولا يتردد في عتاب من آخر حقه أو توبيخ من تغافل عنه، فها هو يكتب قصيدة إلى أحدهم يعاتبه على تأخره عن تقديم ما وعده به، ويعنفه على فعلته، ولم تحل قصيدته من إغلاط في القول رغم ما تضمنته من معاني المديح حيث يقول: ⁽²⁾

ألا من بلغ الأستاذ أني أنا الصمصام أغمده الحياء
المجدب والسباخ لديك مرعى ونظماً والسراب لديك ماء
يطرقنا الزمان وكل يوم لنا خطب حواشيها البكاء
وكنّت وعدتنا نظراً فأبطأ وقد تتبلغ الخيل البطاء
فان عز القضاء لديك يوما فموجود لدينا الاقتضاء
ويرضى بالرجاء سواي قوم وما عندي لحكمكم ارتضاء
فان أخوا الرجاء على يقين من البلوى وفي القرع امتراء
وشر المرتجين أخو مطال يعمّر في جوانبه الرجاء

(1) اليتيمة 4:234، والقلب هو الدلو.

(2) نثر النظم/ 40.

إذا أضحي فموعه مساءً وإن أمسى فموعه ضحاً
وهذا العتب واسطة ولكن لها طوقان مدح أو هجاء
وبين النجح والتعويق حد وقنطرة يقال لها السخاء
فلا تشك الزمان فليس يشكو مسيء نفسه أنت القضاء

فهو لا يقبل بالرجاء، ولا يثق بالوعد بل يأخذ ثمن بضاعته ساعة بيعها،
ويجني ثمار غرسه أو ان نضجه، والعتاب وسيلة تضع المدوح على مفترق طريقين:
طريق التكفير عن التقصير، بمواصلة البذل، وطريق النكوص والتراجع، واحتمال
أوزار ذلك، عتاباً مرأً:

ولما أن غرست إليك ودّي فلم يثمر لديك زكيّ غرسي
ازدت ملابسةً، وازدت هجراً فصنتك عنهما فهجرت نفسي
لأن الذنب ذني حين أهدي إلى من لا يريد الأنس أنسي⁽¹⁾

كان الخوارزمي إذن متكسباً في شعره، ولذا كانت فضيلة الكرم من أهم
الفضائل لديه. يقدمها في شعره على غيرها، يعلي قدرها، ويكثر ذكرها ليذكر الأمير
بالعطاء، فالكرم صفة لازمة من صفات المدوح وهذه الصفة، وإن كانت مستحبةً في
الأخلاق العامة للمجتمع، فإنه لا يذكرها لمجرد رفعة صاحبها. وعلو منزلته ولكنها
وسيلة من وسائل الكدية والسؤال. فنحن نمدح الرجل بالشجاعة وعلو الهمة حين
نريد منه نصرة واستظهاراً، ونعلي فيه العلم والأدب حين نطمح إلى إكرام العلماء
والأدباء، ونمدح فيه الكرم حين نطمح في عطايه.

إن وصف أولي الأمر من الولاة والحكام بالكرم أمر لا يتطابق مع الفهم
الصحيح للكرم، تلك العادة التي تعود في جذورها إلى أصول الضيافة العربية، التي

(1) بغية الوعاة/ 51، الحصون المنيعه 7/ 186.

حتمتها ظروف التنقل والترحال في بوايد مقفرة، تتطلب تقديم العون والطعام للمارة والأضياف مع حسن الملاطفة والجماملة، فالبذل من المال الخالص هو الجدير بمثل هذه الصفة، أما أولئك الولاة والحكام فليس عطاؤهم من الكرم في شيء، ذلك أنهم يعطون من أموال الدولة، ويهبون من خزائنها، وقد لا أكون مغالياً إذا قلت أن ما كانت تتظاهر به هذه الفئة من الكرم، لا يعدو أن يكون وسيلة سياسية ناجحة، لا تخلو من تبذير وإسراف ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد المدح عند الخوارزمي من الإشادة بهذه الصفة، التي يسبغها على ممدوحيه كقوله من قصيدة في مدح عضد الدولة⁽¹⁾:

غريب على الأيام وجدان مثله وأغرب منه بعد رؤيته الفقرُ
فلا حرّاً إلا وهو عبد لجوده ولا عبد إلا وهو في عدله حرُّ
عجبتُ له لم يلبس الكبر حِلّة وفينا لأن جُزنا على بابهِ كبرُ

وقوله من قصيدة أخرى في مدحه، وقد درت عليه أخلاف الرزق، فأصبح له وكلاء يشرفون على إدارة أمواله، وكثر بكثرتها المنتفعون به. وقد أصبح ذا ثروة ويسار بسبب اتصاله بعضد الدولة⁽²⁾:

بِحَمْدِكَ لَا يَحْمَدُ النَّاسُ أَضْحَى وَكَيْلِي لَيْسَ يَكْفِيهِ وَكَيْلُ
وَكَاثُوا كُلَّمَا كَالُوا، وَزُنَا فَصَرْنَا كُلَّمَا وَزَنُوا نَكِيلُ
وَزَدَتْ مِنَ الْعِيَالِ وَذَاكَ أَتَيْ كَتَبْتَ عَلَى لِقَائِكَ مِنْ أَعْوَلُ
وَعَشْتُ وَنَاقَصْتُ رِزْقِي فَأَضْحَى (مفاعلتن مفاعلتن فعول⁽³⁾)
وَكُنْتُ أبيعُ مِنْ سَقَطِ الْقَوَافِي وَأَحْجَرُ مَا تَضُمَّتِ الْحُمُولُ
وَأَكْتُمُ مِنْ أَبَايَعِ دِقْ بَزِي ففَاضَ عَلَيْهِ نَائِلُكَ الْجَمِيلُ

(1) البيتة 4/ 222.

(2) البيتة 4/ 223، خاص الخاص/ 190.

(3) هذا وزن بحر الوافر، وهو يريد أن رزقه أصبح وافراً.

لقد أفاض عليه بنو بوبه بعطائهم، فلم ينس جميل أياديهم عليه وانتشاهم إياه من غائلة الفقر والجوع، إلى حالة الغنى والثراء فتغنى بذلك في شعره وعدد أوجه العطاء، وهي كثيرة، يقول من قصيدة في مدح عضد الدولة: (1)

إلا حركالي أبرويز بن هرمز	وقولا له: قم تلق أعجوبة قم
تطلع إلى الدنيا لتعلم أن ما	ملكته من الدنيا بمقدار درهم
لعمرك لولا آل بوية في الوري	لكان نهاري مثل ليل المتيم
هم جعلوني بين عبد وقينة	ودار ودينار وثوب ودرهم
وهم تركوا الأيام تعجب أن رأت	سلوي، ولا أرقى السماء بسلم
وهم غمروني دائماً بصلاتهم	فصنت عن الإبطاء شعري فيهم

وصفة الكرم التي تطفى على ممدوحيه، تكاد تكون ملازمة لصفات أخرى أهمها الشجاعة والبسالة في الحروب، وإجادة الكتابة، وقد جمع الخوارزمي كل هذه الصفات في بيتين مدح بهما الصاحب بن عباد الذي أعجب بهما إعجاباً شديداً وقد قيل أن الصاحب بن عباد قد خلع عليه كل ملابسه، وكذلك فعل الحاضرون (2):

يَدُ تَرَاهَا أَبَدًا	فَوْقَ يَدٍ وَتَحْتَ فَمٍ
مَا خُلِقَتْ بَنَائُهَا	إِلَّا لَسِيفٍ أَوْ قَلَمٍ

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب الوزراء والأمراء في الدولة العباسية في تلك الحقبة قد اهتموا بالكتابة ودخلوا ميدان الأدب والشعر ولا يخفى ما كان لابن العميد والصاحب بن عباد، وأبي الفضل الميكالي وغيرهم من منزلة في الأدب والكتابة، وقد عمت هذه الظاهرة وتبارى القوم في الافتخار والتمدح بالكتابة، وكان طبعياً أن تتردد

(1) البيتة 4/ 223-224، الإعجاز والإيجاز/ 199.

(2) غرر الخصاص 1/ 26.

هذه الصنعة في شعر المديح، ويروى الوطواط أن أبا بكر الخوارزمي قصد الصاحب ابن عباد ومدحه بقصيدة قال فيها⁽¹⁾:

وما خلقت كفاك إلا لأربع عوائد لم يُخلق لهن يدان
لشرك أفواه وتنويل نائل وتقليب هندي وأخذ عنان

فلما بلغ إلى هذا البيت قال له: لم تذكر القلم، وهو آلة الكاتب وبه تقدم ورأس ويقول في مدح الصاحب بن عباد:⁽²⁾

أخو كلمات ما جلاها لسانه على أحد إلا غدا وهو خاطب
متى يروها أهل الصناعة ينشدوا (عجائب حتى ليس فيها عجائب)

وفي قصيدته التي يمدح بها أبا نصر المكالي، نلاحظ مقدرًا التلازم بين تلك الصفات، وامتزاجها، فأبو نصر كريم لا ينزف الإلحاح نائلة، يجمع الأموال ليفرقها في طلب الآمال، وهو عالم لو قسمت علومه على الناس لما بقي فيهم جاهل، وأخلاقه رفيعة سامية، وأقواله عذبة جميلة تكاد تسيل من شدة عذوبتها، فكأنما هي أمواله التي تتدفق على السائلين بغير حساب، وهو إلى ذلك كله شجاع يهاب سطوته الفرسان، باسل لا ترهبه الحروب، ولا تغضن وجنته لأنه اعتاد خوض غمارها⁽³⁾:

زف المنام إلي طيف خيالي لو أن طيفاً كان من أبدالي
لو أن هذا الدهر يشكر لم يدع شكر الأمير وقد غدا من آله
لا ينزف الإلحاح قائله ولا سؤل امرئ ينهاه، عن آماله
والخلق عند سؤاله والجود من عدالي والموت من عماله
وفعاله كمقاله، وشماله كيمنه، ويمينه كشماله

(1) اليتيمة 4 / 214.

(2) اليتيمة 4 / 214.

(3) تاريخ العتي / 37.

تتجمع الأموال في أماله	يفرق الأموال في أماله
لا علم إلا عزه في عزه	لا عز إلا حالة من حاله
وله علوم لو قسم على الورى	ما زاد عاقله على جهاله
وخلائق لو أنهن كواكب	أضحى السها في الضوء مثل هلاله
وفصول قول هن أعذب مسمعا	من راحة المشغول من أشغاله
سمح البديهة ليس يمسك لفظه	فكأنما ألفاظه من ماله
وكأنما عزماته وسيوفه	من حدهن خلقن من إقباله
متبسّم في الخطب تحسب أنه	من حسنه متلثم بفعاله

وليس غريباً أن تفتقر القصيدة إلى أدنى حد من العاطفة، وصدق الإحساس برغم ما حوته من معان تقليدية كثيرة، هي غاية ما يوصف به الممدوح. فغياب الصديق في العاطفة، والأصالة في التجربة الشعرية، قد أحال تلك المعاني إلى كومة من الألفاظ المرصوفة بنظام قاصر عن إيصال القارئ إلى حالة الاستمتاع أو الإعجاب. وربما أحسّ بالنفور، وكيف يرتاح القارئ إلى قوله:

لا علم إلا عزه في عزه لا حر إلا حالة في حالة
وكيف لا ينفر من تكرار الألفاظ ومن الحشو الثقيل في قوله:
وفعاله كمقاله، وشماله كيمينه ويمينه كشماله

ويبدو أثر القديم واضحاً في شعره، ففي قصيدته التي يمدح بها شمس المعالي قابوس بن وشمكير نلمس مقدار تأثيره بمعاني القدماء سواء أكان تضميناً مباشراً، أو غير مباشر، فقد سار على طريقتهم في استنهاض الهمم، وشحذ العزائم، والتذكير بالآباء والأجداد وما لهم من ماض مجيد، وهو إلى جانب تأثيره بالقديم لا يستطيع إخفاء أثر المحدثين في شعره، فالإعجاب بالبديع والميل إلى المقابلات قد انعكس في

شعره، فكما عمد المتني إلى المقابلة بين سيف الدولة الحمداني وبين السيف عمد
الخوارزمي إلى المقابلة بين شمس المعالي وبين الشمس يقول ⁽¹⁾ :
شموس هن الخِذْرُ والبدرُ مغربٌ فطالِعُها بالينِ والهَجْرُ غاربُ
ولكنَّما شمسُ المعالي خلافُها مشارِقُه ليستُ لهُنَّ مغاربُ
وما لُقْبوه الشمسَ إلا وقد رَوا (بانك شمس والملوك كواكب)
أقول لزوار الأمير ترجلوا فمن زاره من راجل فهو راكبُ
وإن زارةُ الفُرسانُ كُنتُ كفيلَهُم بأن يرجعوا والخيلُ فيهم جنائبُ
إذا رجعوا عن بابهِ فنشيدَهُم (وإن سكتوا أثنت عليه الحقائق)
إلى كم يحلُّ المرءُ مثلكَ بلدةُ بها منبرٌ فيها لغيرك خاطب
لقد هان من أمسى ببلدة غيره (وقد ذلُّ من بالت عليه الثعالب)
عليك بهذا السيفِ فاقض ديونهُ فللسيف دينٌ عند حَقِّك واجبُ
ولا تقعدنْ تُغضي الجفونَ على القذى وفي الأرضِ مركوب ورمح وصاحبُ
غريمكَ هذا الدهرُ فالزمه يغترم فلن يوقظَ الغُرامَ إلا المطالبُ

وإلى جانب المعاني العامة المعروفة في شعر المديح معان استقاها من المثل
والمبادئ والأفكار الشائعة في عصره، وقد بينا في فصل سابق أن الخوارزمي كان يميل
إلى مذهب الاعتزال ولهذا امتدح للصاحب نصرة هذا المذهب، وأشاد بنصرته العدل
والتوحيد، وهو واحد من أهم مبادئ الاعتزال، يقول ⁽²⁾ :

ومن نصر التوحيد بالعدل فعله وأيقظ نوام المعالي شمائله
ومن ترك الأخيار ينشد أهله (أجل أيها الربيع الذي خف أهله)

(1) اليتيمة 4 / 221، تاريخ العتي 1 : 407.

(2) اليتيمة 4 / 214.

ومن هنا يتبين أن غرض المديح كان شديد الالتصاق بحياته السياسية والاجتماعية حتى أنه طغى على غيره من الأغراض، وحق لنا أن نلحقه بقائمة الشعراء المداحين.

الهجاء:

يعد الهجاء واحداً من أهم الأغراض التي علق بها لسان الخوارزمي فكثير في شعره، وتعود أسباب هذه الكثرة إلى كثرة خصومه، وتكسبه بالشعر وظروف حياته المتنقلة في بقاع تتطلب سطوة السيف أو اللسان. ولم يكن الخوارزمي صاحب سيف فيعمله، فكان يضرب بلسانه دفاعاً عن نفسه وعن مصالحه، وكانت ضرباته سريعة ومؤثرة، تنم عن صدق الإحساس، ومقدرة على الاستجابة السريعة لمؤثرات الحياة، ومعرفة أثر الكلمة في جرح الإحساس، وقد تميز ما وصل لنا من شعره في الهجاء بأنه مقطعات صغيرة أغلبها لا يتعدى البيتين، تحمل في طياتها ضربات موجعة مليئة بالسخرية اللاذعة، فمن ذلك قوله في هجاء أبي بكر النحوي البستي:

لَحَوِيكُمْ فِي حَقِّهِ مَعْرِفَةٌ لَا نَكْرَةَ
ذُو لَحِيَّةٍ مَبْسُوطَةٍ وَفُطْنُهُ مُخْتَصِرَةٌ

ويتجلى صدق العاطفة والإحساس في قصيدته التي كتب بها إلى الصاحب ابن عباد يمدحه فيها، ويشكو إليه ما حل به على يد حسام الدين أبي العباس تاش أحد قادة جيوش السامانيين وقد ضمن هذه الشكوى المرة هجاء عرض له من خلال صور المأساة التي حلت به على أيدي السامانيين. فقد صادروا أمواله التي جمعها بالتكسب والمديح، فكانوا كالجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس؛ فلا يترك خلفه غير الألم والحسرة والدموع، ولأنهم يصادرون أموال الشاعر التي جمعها بالتكسب والوقوف على أبواب الممدوحين فهم متكسبون مثله وهو أمر مستقبح من السلاطين والولاة يقول:

(1) القيمة 4/ 234-235.

جزى الله عني أهل سامان ما أتوا وفي الله للشار المضيع طالب
هم زوجوني الهمة بعد طلاقه وذلك عرس للماتم جالب
هم أعطشوا زرعي فشمت سحائباً غرائب لما أخلفتني القرائب
فأنحوا لزرعي بالحصاد وأنصبوا مياها لها أيدي سواهم مذائب
أنحصد أيديكم، ويزرع غيركم فأنتم جراد والملوك سحائب
فأنتم مدحتم آل بوية لا أنا (وأمدح من لفظ اللسان حقائب)

وحين توجه إلى بني شار، ولم يجد عندهم ما كان يأمله من خير عميم، ورزق
وفير، ومكانة مرموقة، جرد لسانه لهجائهم، فعاب عليهم قلة الوفاء والبخل، في
الوقت الذي كانوا يدعون الكرم، ويطلبون المديح من الشعراء والأدباء.⁽¹⁾

ألا أبلغ بن شار كلامي ومن لم يلقهم فهو السعيد
علام ابتعثتم فرساً عتيقاً وليس لديكم علف عتيد
وفيم حبستهم في البيت بازاً يحبس الطير عنه أو يجيد
فلا قريتموه فعلنتموه⁽²⁾ ولا خليتم عنه يصيد

فهو لا يكتفي بهجائهم، والتعريض بهم، ولكنه يفخر ويباهي بنفسه إذ لا يقيم
على الخسف، ولا يرضى بعيش الذل والهوان كالفرس الكريم لا يصلح أن يقتنيه غير
الكرام، والصقر الذي لا بد لمن يريبه أن يكرمه، ويقدم له طعاماً يقوم مقام الصيد
الجزل.

ومع ذلك، فلا يكاد يخفي على القارئ ما في تلك الأبيات من ذلة وخضوع
وأنه وإن وصف نفسه بالعتق وعراقة الأصل فإنه لم يخرج عن كونه فرساً ابتيع بدراهم

(1) البيعة 4/ 206-207.

(2) فعلنتموه: أي تكلفتم رزقه، وفي البيعة فعلنتموه، ولا يستقيم به الوزن والمعنى.

معدودات ثم حرمه الشاري العلف أو بازا اصطيذ وحبس دون طعام. لا شك أن
الطمع هو الذي أورد الشاعر موارد الذل والخنوع وهجاؤهم بالبخل لا يعد شيئاً إزاء
ما ورط الشاعر فيه نفسه. وإن حب المال هو الذي حمله وغيره من الشعراء على إراقة
الوجه تحت أقدام الممدوحين. وتتجلى السخرية واضحة في بيتين آخرين هجا فيهما
طاهر بن شار، وقرنه بالكلب⁽¹⁾ :

لله في كل ما قضاه لطائف تحتها بدائع
سبحان من يطعم ابن شار ويترك الكلب وهو جائع

⁽²⁾ وقد قاده تعصبه للمذهب الشيعي إلى هجاء الخلفاء العباسيين الذين غصبوا
الشيعة حقهم، وقد ضعف نفوذهم وسلطانهم بقوله:

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

ولعل هذا التعصب هو الذي حدا به إلى هجاء أحد العلويين لأنه مال عن
مذهب التشيع، واعتنق مذهب السنة⁽³⁾.

شريف فعله فعل وضيع دنيء النفس عند ذوي الجدود
عوار في شريعتنا وفنح علينا للنصارى واليهود
كان الله لم يخلق له إلا لتعطف القلوب على يزيد

(1) البيتة 4/ 221، تاريخ العتي 1: 407.

(2) البيتة 4/ 230، سيرة جلال الدين منكبوتي / 182.

(3) البيتة 4/ 230-231، عيون التواريخ 12/ 225.

فالليل إلى السخرية واضح بين، ويكاد يكون أشد وضوحاً في هجائه لأبي سعيد بن ملة حيث يقول⁽¹⁾ :

أرى لك أفعالاً تناقض أمرها على أنها في القبح والعار واحد
نبيذك ذا حلوً ووجهك حامضٌ وماؤك ذا سخن وفعلك بارد

وقد يلجأ الخوارزمي في بعض الحالات إلى استعمال الألفاظ، والتلاعب بالكلمات والحروف، زيادة في تشويه صورة المهجو، والتندر به فمن ذلك قوله في طاهر بن شار⁽²⁾ :

وقال أنا المليك فقلت حقاً بقلب اللام نوناً في الهجاء
ولم أر من أداة الملك شيئاً لديك سوى احتمالك للواء

واحتمال اللواء كناية عن السقوط الأخلاقي، ولعل مقطعاته الأخرى لا تخلو من إسفاف في المعنى، واستعمال لكلمات مبتذلة لا يقبلها الذوق، يقول في هجاء أبي سعد بن دوست الهروي:

أبو سعد له ثوب مليح ولكن حشو ذاك الثوب خريه
فلإن جاوزت كسوته إليه فليس وراء عبّادان قرية

أما تلاعبه بالألفاظ، فيظهر واضحاً في هجاء طاهر السجزي وكان يكنى بأبي الحسين⁽³⁾ :

ألا يا سائلي بأبي حسين وفي التجريب علم مستفاد
هو ابن سميّه، والطاء عينٌ وشبه كنيّه والسين صَادٌ

(1) اليتيمة 4 / 231.

(2) اليتيمة 4 / 207، الكناية والتعريض / 35.

(3) اليتيمة 4 / 232.

يعني أنه ابن عاهر، وابن حصين هي كنية الثعلب وقد تدفع به السخرية أحياناً إلى سلوك طريق مليء بالسخف يفيض بكلمات نابية ومعان مبتذلة رخيصة، فيذكر العورات ولا يكتفي، وقد كان هذا اللون شائعاً في ذلك العصر، اشتهر به طائفة من الشعراء، كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي وغيرهما ويبدو أن الخوارزمي قد تأثر بهذه الطائفة من الشعراء ويقول في هجاء أحدهم⁽¹⁾ :

فسا الشيخ سهواً وفي كفه راح فلمناه لوماً قبيحاً
فقال: لي الدخل والخرج لي فادخلت راحاً وأخرجت ريحاً

وخلاصة القول أن فن الهجاء عنده يمثل الوجه الآخر للعلاقات التي كانت سائدة بين الشعراء والحكام، وأن هذا الفن كان شديد الالتصاق بمقتضيات العصر ومتطلباته، وأن ظاهرة الفحش والإقذاع في الشعر كانت رائجة مقبولة عند السامعين.

الرثاء:

الرثاء من الأغراض التقليدية المعروفة في الشعر، فما من شاعر إلا أحس بثقل الفراق الأبدي الذي يجلبه الموت وأحس بالألم والحزن الذي يعانيه أهل الراحل لفقده. من أجل ذلك كان الرثاء - بصورة عامة - على جانب كبير من الصدق في التعبير لأننا حين نفقد إنساناً، لا نحزن لفقده فحسب، ولكننا نحزن لفنائنا المرتقب فقد يتصور كل منا أنه صائر إلى زوال، وأن الآمال التي يحملها تتحطم أمام صورة الموت المخيفة، ولهذا كان الاتجاه إلى الحكمة، والميل إلى الزهد من السمات البارزة في شعر الرثاء. ما نفع كل أعراض الحياة، وما فائدة الصراع الذي نخوضه من أجل الطموح، إذا كان الموت هو المآل؛ فعظماء التاريخ يموتون وبسطاء الناس يموتون، والكل صائر إلى زوال، فالحكمة الناسكة المثبطة للعزائم والهمم هي السائدة في هذا اللون من الشعر.

(1) اليتيمة 4 / 232، نهاية الأرب 4 / 75.

يقول الخوارزمي في رثاء مؤيد الدولة، وتهنئة فخر الدولة البويهية⁽¹⁾ :

الم تر أن الموت قد نصح الدنيا	وقال لمن يسعى لها أنتم الحمقى؟
يقولون عالجنا فصح علينا	وما اعتل من يبقى وما صح من يغنى
إذا الناس ظنوا أنهم في سلامة	فأبدانهم صحت، وأنفسهم مرضى
وقولا لفخر الدولة الملك الذي	تسير العلى في طرق هيمته حسرى
رزئت أخاً لو خير الجند في أخ	من الناس طراً ما عداه ولا استثنى
وقد جاءت الدنيا إليك كما ترى	طفيلية قد جاوبت قبل أن تدعى

وقد جمع الشاعر في هذه القصيدة بين الرثاء والمديح، وهو أمر معروف لدى الشعراء الذين سبقوه، ويمكن القول أن العاطفة في مثل هذه القصائد، أعني قصائد رثاء الولاة والحكام لا يمكن أن ترقى إلى مستوى العاطفة في رثاء الأصدقاء والأقارب، الذين نحس بلوعة حقيقية لفراقهم، فنصف الأطفال وهم يصرخون، والنساء وهي تولول وتنشج، ونستعيد ماضي الذكريات التي جمعتنا بهؤلاء وحرارة الدمع، وثقل الفراغ الذي يخلفه فقد الأبناء والآباء. على أن ما بقي من شعر الخوارزمي يكاد يكون خالياً من رثاء الأقارب والأبناء والأصدقاء، وهو الذي يمكن أن نستدل به على عمق التجربة وصدق الأحاسيس والمشاعر عنده، ولا نستثنى من ذلك قصيدته في رثاء أبي الحسن المحتسبي التي حاول أن يظهره فيها صديقاً وعشيراً له في حياته، إذ لم يستطع التخلص من تأثير المصالح والمنافع التي كان يحصل عليها، فكان كمن يندب حظه بفقده، لا من يحزن لفراق الصديق بعاطفة مشبوبة. يقول في هذه القصيدة⁽²⁾ :

وصاحب لي لو حلّت رزيتة بالطير ما هتفت يوماً على فنن

(1) البيتة 4/ 227، تاريخ العتي 1/ 132.

(2) البيتة 4/ 229-230.

عاشرته عشرةً لو أنها وقعت
حتى إذا نلت سُؤلي من مواهبه
تكلّثه بعدما سارت محاسنه
يا دهرُ أتكلتني حتى أبا الحسن
وصنت سهمك مني يوم قتلكه
جمعت ضديّين من خرقٍ ومن أدبٍ
قد كنتُ أعجبُ لم أخرتُ من أجلي
ولم يكن في الوريّ ذا منظرٍ حسنٍ

بين الضحى والدجى سارا على سننٍ
وصادني بشباك الوصل والمنن
في العظم واللحم سير الماء في الغصن
لقد أمنتُ عليه غير مؤثمن
في مقتل القلب لا في مقتل البدن
بطش الجهول، ومكر العاقل الفطن
فالآن أدري لما قد كنت تذخرني
في مخبر حسنٍ إلا أبو الحسن

فالتصنع والافتعال ظاهران في أبيات هذه القصيدة، رغم كل المحاولات التي بذلها لإظهار الحزن والتفجع، فقد وصف الرزية بأنها شديدة وأنها لو أصابت الطير لما عاد إلى الغناء والترنم، وأن عشرته كانت متينة بحيث لو وقعت بين الضحى والدجى، وهما على طرفي نقيض لما افترقا، وأن موته كان ضربة لآماله ومصالحه، ثم يهجم على الدهر معاتباً ومعنفاً، ولم يجد غير معنى باهت ينعت به، وهو تطابق المنظر والمخبر.

أما قصيدته في رثاء ابن العميد ورغم أنها من قصائد رثاء الولاة والحكام فهي تختلف عن غيرها من القصائد بحكم الظروف التي قيلت فيها، ويخيل إلي أنه كان صادقاً في مشاعره، ذلك أن مقتل ابن العميد على يد بني بويه، ووزيرهم صاحب بن عباد، كان يمكن أن يدفع به إلى التشفي بمصابه، واستخلاص العبرة من الدرس القاسي الذي لقنوه إياه، ولكن صدق العاطفة وعمق الإحساس قد دفعا به إلى رثائه ويكائه برغم ما كان يمكن أن يجره عليه ذلك من وبال، ولعل خوفه من التصريح بأسباب الفجيعة هو الذي دعاه إلى مخاطبة الدهر وتقرّيعه وتأنّيه، وقد ذكرنا في فصل سابق أن الدهر عنده وعند غيره من الشعراء كان ذا مدلول سياسي يرمز به إلى السلطان وإلى ولاة الأمر، وأنه حين يعنفه ويلومه، إنما يعنف مرتكبي الفعلة الشنعاء. ثم يعمد بعد

ذلك إلى الحكمة والدعوة إلى الزهد في هذه الحياة التي لا تستقيم لأحد، ويخاطب نفسه، ويتحدث عن الألم والحرقه والدموع الغزيرة التي تنسكب من عينيه حزناً والماء، ويضرع إلى الله أن يضيفي عليه ذبول رحمة وغفرانه، ويندفع إلى المغالاة في الحزن، فيتمنى الموت طمعاً في لقاء مرتقب يوم القيامة، يقول في رثائه⁽¹⁾ :

يا دهرُ إئلك بالرجال بصيرُ	فلطالما تَجتاحُهم وتُسيرُ
يا دهرُ غيري من خدعتَ بباطلِ	وابنُ العميدِ مُغيَّبٌ مقبورُ
الآن نادتنا الثُجاربُ طَلَّقوا	دُنياكم إنَّ السُرورَ غُرورُ
يا دهرُ ظلِّ لمخلييك فريسةً	رجلٌ لعمري لو علمتَ كبيرُ
رجلٌ لو أنَّ الكُفرَ يحسُنُ بعده	هُجِيَ القَضاءُ، وأُتِبَ المَقْدورُ
أشكو إليك النَّفسَ وهي كئيبةٌ	وأذم فيك الدَّهرَ وهو غزيرُ
وأقولُ للعَيْنِ الغزيرِ بُكاؤُها	خطبٌ لعمري لو عَميتَ يسيرُ
قد مِتُّ بعدَكَ ميتةً مستورةً	قد ساقها لي موثك المشهورُ
ودفنتُ في قبرِ الهُمومِ وضُمَّني	كفنان: ضيقُ الصُّدرِ والتَّفكيرُ
ضحكتُ إليك الحُورُ ضحكك كلِّما	وافاك ضيفٌ أو أتاكَ فقيرُ
وضفتُ عليك ذبولَ رحمةِ ربنا	والله بَرُّ بالجوادِ غفورُ
وسقى ضريحك مستهلَّ عمره	شَهْرٌ، وعمرُ النبتِ منه شُهورُ
جودٌ ككفِّكَ أو كعيني أو دمٌ	أجراه سيفُكَ في العدى مشهورُ
أهوى القيامةُ لا لشيءٍ غيرَ أن	القاك فيها والأنامُ حُضورُ
وأحبُّ فيك الموتَ علماً أننا	بعدَ المماتِ إلى اللِّقاءِ نصيرُ

(1) اليتيمة 4 / 226-227.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعر الذي يقال في رثاء الولاة والحكام أغلبه متكلف فيه ثملق كاذب، وفيه محاباة، يهرع الشاعر إلى صفات المدح فينسبها إلى المرثي يصفه بالكرم والشجاعة والعفة والطهر، ويبالغ في هذه الأوصاف مبالغته في مدح الأحياء. ورثاء الخوارزمي لم يخرج عن هذا الإطار وقصيدته في رثاء ركن الدولة شاهد على انسياقه وراء هذه المعاني ودليل على غياب العاطفة الوجدانية وفقدان الصدق في الأحاسيس والمشاعر. كما أن القافية الساكنة التي بنى القصيدة عليها والنغمة الموسيقية الراقصة لا تستطيعان أن تقنعا القارئ بصدق الانفعال: يقول⁽¹⁾:

أَلَسْتَ تَرَى السَّيْفَ كَيْفَ انْثَلَمَ	وَرَكْنَ الْخِلَافَةِ كَيْفَ انْهَدَمَ
طَوَى الْحَسَنَ بْنَ بُوَيْهِ الرُّدَى	أَيْدِي الرَّدَى أَيُّ جَيْشٍ هَزَمَ
طَوِيلُ الْقَنَاءِ، قَصِيرُ الْعِدَاتِ	ذَمِيمُ الْعُدَاةِ حَمِيدُ الشُّيَمِ
فَصِيحُ اللِّسَانِ، بَدِيعُ الْبَنَانِ	رَفِيعُ السُّنَانِ سَرِيعُ الْقَلَمِ
يَكِيلُ الرُّجَالَ بِأَقْدَارِهَا	وَيَرَعَى الْبُيُوتَاتِ رَعَى الْحَرَمِ
جَوَادَ عَلَيْهِمْ بَخِيلٌ بِهِمْ	إِذَا سَاءَ خَصٌّ، وَإِنْ سَرَّ عَمٌ
فِيَا دَهْرُ سَحَقًا وَلَا تَحْتَشِمِ	فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ الْمُحْتَشِمِ
وَخَطُّ الْفَنَاءِ عَلَى قَبْرِهِ	بَخَطُّ الْبَلَى وَبَنَانُ السُّقَمِ
إِذَا تَمَّ أَمْرٌ دَنَا نَقْصُهُ	تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ

ويبدو أن الخوارزمي قد تأثر بقصيدة الخنساء في رثاء أخيها صخر حيث تقول⁽²⁾:

طويل النجاد رفيع العماد ساد عشيرته أمردا

(1) البيتة 4 / 226.

(2) ديوان الخنساء ط 5 / 31.

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
ويحمل للقوم ما عالمهم وإن كان أصغرهم مولدا
تري المجد يهوي الى بيته يرى أفضل المجد أن يحمدا

ولعل الدوافع التي قادت به إلى رثاء أحد خصومه، وإظهار الحزن في موضع الشماتة تتلاءم مع المثل العربية التي لا تقر الشماتة بالأموات، لأنها لا تعبر عن عراقة الأصل ولا عن نبل الأخلاق، ولا هي مما يتحلى به الشهم الكريم، وقد وجد في هذا الموقف تجاوباً مع ميله إلى الترفع والاعتداد بالنفس اللذين كان يتحلى بهما فأبدى الحزن والجزع وأظهر نبل العاطفة الإنسانية رغم الخصومة والعداء واستعداد بالحزن أحزانه، وتذكر بالموت آلامه. فما انصاع للحقد، ولا انطلق إلى التشفي ولكنه عمد إلى طريقة شبيهة بالعتاب، عتاب لا يخلو من مرارة، ولكنه لا يبلغ مبلغ السخط، وصور لنا الصراع الدائر في نفسه بين مشاعر الفرح وبين مشاعر الحزن ولكل منهما مسوغ، وفي كل منهما صدق، أحس أنه خسر بفقده رجلاً كريماً، وأحس بالفرح لأنه تخلص من الظلم الذي ناله على يديه واستطاع - رغم التناقض - أن يشعرنا بميل واضح إلى الحزن والألم، وقد لجأ كعادته إلى الحكمة، فدعى إلى تحكيم العقل والاعتدال في كل أمر، والابتعاد عن المغالاة في المحبة والكراهية، فعدو اليوم قد يكون صديق الغد، وصديق اليوم قد يكون عدو الغد، ويمكن أن نعد هذا اللون من الرثاء جديداً في بابه. ولطول القصيدة نقتطع أبياتاً منها⁽¹⁾:

أيدي السيف أي فتى يُبِيد وأية غاية أضحى يُرِيد
لقد صادت يد الأيام طيراً تضيق به حباله من يصِيد

(1) القصيدة في البيتمة 4/ 228-229.

فلا أدري أضحك أم أبكي
 صديقٌ قد فقدناه قديمٌ
 مصابٌ وهو عند الناس نعيمٌ
 تهنيي الأنام به ولكن
 وسيفٌ قد ضربت به مراراً
 فلما أن تقلل ظلت أبكي
 ومن عجب الليالي أن خصمي
 وأن النصف من عيني جمودٌ
 إذا سفت عليه دموع عيني
 وآثار له عندي قباحٌ
 فنصف من مدامعها سحينٌ
 فمن هذا رأى في الناس مثلي
 ومن نكد المنية فقد حُرٌ
 فلذا هُنا، وقال مضى عدوٌ
 رأيت العقل ينفع وهو قصدٌ
 كمثل الدرع إن خفت أجئت
 وتهديني المنية أو تُشيدُ
 وتكل قد وجدناه جديداً
 ونحس وهو عند الناس عيذاً
 تُعزيني الموائق والعهودُ
 فمن ضرباته بني لي شهودُ
 وعندي منه بعد دم جسيدي
 يبيد، وأن حزني لا يبيدُ
 وأن النصف من عيني جليدُ
 نهاها الهجر منه والصدودُ
 يجمش بينها الرأس الحديدُ
 ونصف من مدامعها برودُ
 أريد من النى ما لا أريدُ
 تخالف فيه إخواني الشهودُ
 وذا عزى وقال مضى وديد
 ويلقي في المهالك إذ يزيدُ
 وإن ثقلت فحاملها جهيدُ

الشكوى:

الشكوى صوت صدى حزين ينبعث من أعماق النفس الإنسانية نتيجة
 إحساس بالضعف والظلم، غايتها التخفيف عن النفس من خلال نقل الأحاسيس
 للآخرين طلباً للمشاركة، وبجثاً عن الخلاص، وبقدر ما يحس الإنسان بثقل كاهل
 الحياة عليه ومجانبتها لطموحه وأهوائه وقلة الحول والطول في التغيير، تتصاعد زفرات

الشكوى وتندفع الأهات الحرى. وقد تكون الشكوى نتيجة إحساس جماعي، كما قد تكون نتيجة اضطهاد فردي، أو إحساس بالاضطهاد، وربما استغل هذا الغرض في طلب المنافع، واعتمد أسلوباً في الحياة، من غير ما إحساس بظلم أو استجابة لأحاسيس صادقة..

ولم يكن غرض الشكوى عند الخوارزمي إلا استجابة لكل هذه الدافع، فقد أحس بالظلم الواقع على معتنقي مذهبه في عقيدتهم وآرائهم السياسية وأحس بالاضطهاد الفكري، مثلما أحس بمرارة الفقر والجوع وتعثر آماله وطموحه، ولم يستطع إخفاء حقيقة الرغبة في اجتناء المنفعة رغم التظاهر بالعفة والترفع، وقد اتخذت الشكوى لديه صوراً متعددة. فمن شكوى الزمان الذي تجسدت فيه صورة الاضطهاد الديني والسياسي والفكري، إلى شكوى الفقر والمرض والحرمان وشكوى الأصدقاء والإخوان، ولما لم يستطع التصريح عمداً إلى التلميح، واختار الدهر غرضاً يرشقه بسهام الهجاء والشكوى فذلك الدهر ظالم غشوم، لا يؤتمن، ولا تدوم عطاياه، وإن بدا كريماً، فهو كالسيل العرم لا يعتد بسقاية ما خربه، وكالسم الزعاف، يخيب أمل شاربه في الشفاء، يقول الخوارزمي⁽¹⁾:

لا تشكر الدهر لخير سببه	فإنه لم يتعمد بالهبة
وإنما أخطأ فيك مذهبه	كالسيل إذ يسقي مكاناً خربة
والسم يستشفي به من شره	ما أثقل الدهر على من ركة
حدثني عنه لسان التجربة	ما أهون الشوكة قبل الرطبة

وأسهل الكد على من أكسبه

(1) البيهقي 4/ 240.

وحين يساوره اليأس، وتلم به الخطوب فلا يتبين طريقه، يلوذ بالشعر شاكياً
وقد تتخذ شكواه شكل الحديث مع النفس كقوله ⁽¹⁾ :

لِمَ لا أجانس دهري في تقلّيه لِمَ لا أبادل إنساناً بإنسانِ
لم لا أحكي حبيباً في مقاتلته ما اليوم أول توديعي ولا الثاني
لِمَ لا أقارضُ ما قد قاله حَسَنٌ وصلاً بوصلي وهجراناً بهجرانِ

ولعل حياته المليئة بالاضطراب والاغتراب، وتقلب أحواله بين الثراء الفقر قد
أشعرته بقسوة العوز والحاجة، والفقر من ألد أعداء الإنسان يقتل في نفسه الطموح،
ويورثه الذل، ويغرس في قلبه الحقد. وقد كانت معاناة الخوارزمي شديدة، ذلك أنه
المحدر من أسرة غنية ما لبثت أن افتقرت، حتى إذا جمع بركوب الأهوال شيئاً من
الثروة سلط الله عليها يد الولاة والحكام، فذهبت بدداً، وافتقد بفقدانها كثيراً من
أدعياء الصداقة. يقول من قصيدة له ⁽²⁾ :

ولقد بلوتُ الأصْدَقاء فلم أر فيهم أوفى من الوَفْرِ
وكذاك لم أر في العدى أحداً أنكى لمن عادى من الفقرِ
ذهب الغنى وورثت عادته فأنا الغني وغيري المثيري
وتجمّعت في اثنتان ولم يتجمعا في سالف الدهرِ
لا يبرح المقصوص موضعه ولقد قُصصتُ فطرتُ عن وكري

أما إحساسه بالاضطهاد الفكري، الذي عبر عنه بقوله ⁽³⁾ :

وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان... ولم أر أميراً يحجر على

(1) تمام المنون/ 311.

(2) البيمة 4/ 236.

(3) الرسائل/ 10.

كاتب في كتابته أو على شاعر في شعره. فقد عبر عنه شعراً بأسلوب ساخر من خلال نصيحة غير مألوفة، تحمل معاني النقد المشوب بالمرارة والسخط فيقول⁽¹⁾ :

فإن سرّك حرماناً به تصبّح مقلّياً
فكن ذا أدبٍ جزلٍ وكن مع ذاك نحويّاً

ويرتبط شكوى الفقر عنده بإظهار الأسف لانعدام الجود والكرم، إذ ينعى على الموسرين شحهم وبخلهم، وتملصهم من التزام حق السائل والمحروم، وتمنى أن يكون صاحب جيش فلا يتسلح بغير السؤال والاستجداء لأن الناس ينهزمون منه، ولعل في هذا ما يشير إلى شيوع ظاهرة التسول والاستجداء في القرن الرابع وثقل ظل المتسولين. ويقول من قصيدة له⁽²⁾ :

خبت نار العلى بعد اشتعال
عدمنا الجود إلا في الأماني
فياليت الدفاتر كن قوساً
فأثرى الخلق من كرم الخصال
ولو أني جعلت أمير جيش
لما حاربت إلا بالسؤال
لأن الناس ينهزمون منه
وقد ثبتوا لأطراف العوالي

ويكاد يفصح عن الطلب والسؤال، عن طريق رسم صورة لحالة البؤس والشقاء التي تلم به مستندراً الشفقة والعطف، مثال ذلك قوله⁽³⁾ :

ولي قميص رقيق
تقوده الأوهام
وجبة لا تساوي
تصحفها والسلام

(1) غرر الخصائص 1/ 18.

(2) نثر النظم / 73.

(3) المصدر السابق / 69.

ومثلما شكّا الخوارزمي الدهر والفقر شكّا المرض. وقد مرت بنا قصيدته إلى
الصاحب بن عباد في شكوى الحمى التي أصابته وهو بأرجان⁽¹⁾، وما انتهى إليه حاله
من ضعف وهزال، فشبه الحمى بامرأة غيور، لكنها تغار من طعامه وشرابه ونومه
وراحته، تعترض له في كل حين، وتسد عليه كل دروب الهرب، وتقطع عليه إحساسه
بالحرية والخلاص، ويشكو ما آل إليه من ضعف وما صار إليه من هزال بعد مرضه
فيقول⁽²⁾:

ضنيتُ فلو أدخلتُ في حلقِ بقَّةٍ خريفيةٍ من دِقَّتِي لم تغصَّ بي
وأصبح قلبي في يدِ الهمِّ واغتدت أمانِي في أظفارِ عنقاءِ مغربِ

أما الشكوى من الإخوان والأصدقاء فشائعة في شعره، وقد بينا في فصل سابق
مقدار تبرمه بما ساد مجتمعه من زيف ورياء ومصانعه وقلة وفاء، وقد انعكس هذا
الشعور في أدبه شعراً ونثراً، وإن كان آيين في النثر منه في الشعر: يقول⁽³⁾:

ولي والله إخوان كثيرٌ نصيبي من فعالهم سواء
ولكني رأيتك من أناسٍ إذا لم يحسنوا فلقد أساؤوا

وتلتقي تجربته مع الأصدقاء بتجارب السلف الذين أدركوا قلة الوفاء بين
الأصدقاء حتى أصبح الظفر بصديق ودود من الأمور المستحيلة، فقد قال الأول:
ثلاثة ليس لها وجود الغول والعنقاء والودود

ويقول الخوارزمي⁽⁴⁾:

(1) البتيمة 4/ 217، نهاية الأرب 2/ 262.

(2) ثمار القلوب/ 505.

(3) البتيمة 4/ 234.

(4) ثمار القلوب/ 495.

تغربتُ أسألُ من عنّ لي من الناس هل من صديقٍ صدوق
فقالوا: عزيزان لا يوجدان صديقٌ صدوقٌ وببيضُ الأثوق

ويعقه واحد من تلاميذه، وكان قد حظي منه برعاية كريمة، وزوده بعلم جم
غزير، فيحز في نفسه سوء فعلته فيقول ⁽¹⁾:

هذا أبو بكرٍ صقلت حسامه فغدا به صلتاً عليّ وأقدما
أمسى يجهلني بما علمته ويريش من ريشي لرميي أسهما
أرقيت بي في سلمٍ حتى إذا نلت الذي تهوى كسرت السلماً

ومع أن شعر الشكوى من الأغراض المعروفة في الشعر العربي إلا أنه انتشر
انتشاراً واسعاً في القرن الرابع. وكان أثراً لما أصاب الناس في هذا العصر من ضروب
الحن والنكبات، واللوان الفاقة والبؤس، فذوو المناصب الكبيرة كثيراً ما كانوا
يتعرضون للقتل والسجن، واستصفاء الأموال، والأغنياء قلما تصفو لهم الحياة لأنهم
مهددون بالاستيلاء على أموالهم، والمتقفون لا يكادون يحصلون على الكفاف من
العيش، والطبقة العامة فريسة للجوع والمرض والجهل ⁽²⁾.

الوصف:

يبدو أن للوصف مكانة لا يستهان بها في شعر الخوارزمي وتظهر في هذه
المقطعات قدرته الشعرية على رسم صورة الموصوف عن طريق الإكثار من
التشبيهات والاستعارات الحسية والعقلية، مع ميل واضح إلى المبالغة عن طريق
التكرار، وحشد الصور.

(1) البيتة 4/ 235-236.

(2) الأدب في ظل بني بويه/ 339.

وقد تنوعت موضوعات الوصف عنده وتعددت، إذ وصف القلاع والقصور
كما وصف النباتات والحيوانات، والخمر والطعام.

وما تجدر الإشارة إليه أن أثر البيئة الطبيعية في شعره يكاد يكون معدوماً رغم
ما تميزت به حياته من مظاهر التنقل والارتحال في بيئات مختلفة المناظر والمناخ
والتضاريس، فمن مناطق شديدة الحرارة في فارس والعراق إلى مناطق معتدلة في بلاد
الشام، ومن سهول فسيحة إلى جبال ووديان وهضاب ومن بقاع غصبة، وأنهار ومياه،
وجدول وثلوج إلى بقاع مقفرة مأوها سراب، وطيرها غراب، وفي هذا التنوع في
البيئات يتنوع جمال مظاهر الحياة، فكان من المفروض أن تمد شاعريته بمزيد من
الخصب وتنمي قابلية الوصف عنده، ولكننا لم نجد أثراً لذلك في شعره، ولعل ذلك
يعود إلى أنه كان شاعراً مقلداً ومتفعلاً بالشعر، لا يهتز للجمال اهتزازاً للمصالح
والمنافع، وقد يكون فيما ضاع من شعره شيء من ذلك ولكننا لا نستطيع الحكم على
الضائع، وإن كنا لا نستطيع الاقتناع بسهولة باختفاء الغرض كلية نتيجة الضياع.

وقد بقي لنا من شعره قصيدتان في وصف المباني والقلاع عارض في واحدة
منهما قصيدة الرستمي⁽¹⁾ في الوزن والقافية وقد تناول فيها وصف الدار التي بناها
الصاحب بن عباد. وقد استطاع الخوارزمي أن يجمع فيها بين الوصف والمديح
بعبارات مشرقة جميلة، وتشبيهات ظريفة أنيقة، فالدار لشدة ارتفاعها عممت رأس
الغمامة، وأنارت ظلمة الليل الحالك بما يشع فيها من أنوار، وهي دار رحبة رحابة
صدر صاحبها، تطفح بالكرم مثلما تطفح أياديه. ولتألقها وشدة جمالها باهت الأرض
بها السماء ويحسب الناظر للصحن لا تساعه أنه لا يستطيع قطعه إلا مراحل ويصف
النقوش والزخارف التي زينت الجدران، والمياه العذبة الصافية اللامعة كأنها نجوم ذائبة

(1) انظر البيّمة 3/ 209 ومطلع قصيدة الرستمي:

نصين لحبات القلوب حبائلاً عشية حل الحاجيات حبائلاً

أو سيوف مشرعة، ويصف الروض متهللاً نضراً ندياً ويشبّهه بوجه المدوح حين يلحظ مستعطياً:

(1) فيقول:

أكلُ بناءٍ أنتَ بانيهِ مُعْجِزُ	بنيَتَ المعالي أم بنيَتَ المنازِلَا
فلا الإنسُ تبني مثلهنَّ معالماً	ولا الجنُّ تبني مثلهنَّ معاقِلا
كنائسُ أضحتْ للغمامِ عَمَائِمَا	علوّاً وأمست في الظلام قنادِلا
رحابٌ كأنَّ قد شاكلتْ صدرَ ربُّها	وبيضُ كأنَّ قد نازعتهُ الشُمائِلا
وبهوٌ تباهي الأرضُ منه سماءُها	بأوسعَ منها آخراً وأوائِلا
وصحنٌ يسيرُ الطرفُ فيه ولم يكن	ليقطعهُ بالسير إلاً مراحِلا
تلوح نُقُوشُ الجُصِّ في جُدرانِهِ	كما زَيْنُ الوَشْمِ الدَّقِيقُ الأنامِلا
وماءٌ إذا أبصرتْ منه صفاءُ	حسبتْ نجومَ الليلِ ذابتْ سوائِلا
رأيت سيوفاً قد سللن على الثرى	وصارت لها أيدي الرِّياح صياقِلا
وروضٍ كعِشِ السَّائِليكِ نضارةً	ووجهكُ يشرأ حينَ تلحظُ آمِلا

أما القصيدة الثانية فقد وصف فيها قلعة من القلاع التي افتتحها مؤيد الدولة، واستنزل منها صاحبها المسمى (كوشيار)، فشبهها ببكر لم تفتض لأن مهرها غال، وأنها لشدة مناعتها لا يحلم بالوصول إليها أحد، ولا ترقى الريح إليها بغير سلام، وكأنما الصوت المنبعث من هذا الطود الشامخ صوت ديك سماوي يصيح مترنماً، لشدة اقترابها من السماء، وشبهها لقدمها بعجوز تنافس الدهر قدمه، ولكنها احتفظت مع ذلك بقوة الكاعب، وشدة بأسها، ويكرر تشبيهاته واستعاراته التي أوردها في

(1) البيتة 3/ 217-218.

وصف دار الصاحب، فالنجوم عمايتها وتخوم الأرض أساسها والتنافس عليها بين
الأرض والسماء قائم على قدم وساق⁽¹⁾ :
ويكرّ تحامتها البُعولُ مخافةً فقد تُركت من كثرة المهرِ أيما
ممنعةً لم يغلطِ الدُّهرُ باسمِها ولم يرها في الثُّومِ إلا توهُماً
تزلُّ عقابُ الجَوِّ عن شُرفاتها وتبغي إليها الريحُ مرقىً وسلماً
ويسمعُ في الأفلاكِ صيحةً ديكها فتحسبُ ديكَ العرشِ صاحَ ترُثُما
عجوزٌ تُرى في صحّةِ الجسمِ كاعباً ولو أرُخت كانت من الدُّهرِ أقداً
تواري أساساً بالتُّخومِ مُؤزراً وتبرز رأساً بالتُّجومِ مُعمّماً
تُنازعها الأرضُ السماءُ وتدّعي لديها بها حقّاً لها مُتَهضماً
وتحسبُها زُهرُ الكواكبِ كوكباً هوى خلفَ شيطانٍ رجيمٍ فخيماً

ويظهر لنا من هاتين القصيدتين قدرته على استيعاب الصور والربط بينها وبين
صور ذهنية قريبة من الخيال بجمال المبالغة في التشبيه، والكنائية والاستعارات وتبدو
هذه الظاهرة جلية في وصف الحيوانات والنباتات: فمن ذلك قوله في وصف لجأة⁽²⁾ :
بنتُ ماءٍ بدت لنا من بعيدٍ مثلما قد طوى البخاريُّ سيفه
رأسُها رأسُ حيّةٍ وقراها ظهَرُ ثُرسٍ وجلدُها جلدُ صخرة
مثل فُهرِ العطارِ دق به العطر فحلت طرائق الطيب ظهره
يقطعُ الخوفُ رأسها فإذا ما أمتتهُ فرأسُها مُستقرّة

لقد أبدع في وصف الحركة والسكون في البيت الأخير، فكفى عن الحذر وشدة

(1) نهاية الأرب 1/ 405.

(2) نهاية الأرب 10/ 317.

الخوف والسرعة في إخفاء الرأس بقطع الرأس، وهي حركة تتطلب سرعة وخفة ورشاقة، وترتبط بالرعب والخوف والفرع مثلما يرتبط السكون والاستقرار بالطمأنينة والأمن.

(1) ويقول في وصف القنفذ:

ومدجج وسلاحه من نفسه	شاكي الدواير أعزل الإقبال
يمسي ويصبح لم يفارق بيته	ولقد سرى عدداً من الأميال
وتراه يكمن بعضه في بعضه	فتطيش عنه أسهم الأهوال
عناؤه مثل النقطين وخطمه	يحكي ثدي رضاعة الأطفال
وكان أقلاماً غرز بظهره	مس المداد رؤسها يليل
تهارب الحيات حين يرى	هرب اللصوص رأيت سواد الوالي
وكأنه الخنزير إلا جلده	وصياحه وتقارب الأوصال

فيشبهه بالفارس المدجج بالسلاح، لكن سلاح الفارس رمح وسيفه ودرعه، وسلاح القنفذ درع شائك يقيه الخصوم، قد اتخذ منه بيتاً لا يفارقه، يلوذ به حين يداهمه الخطر بحركة انطوائية سريعة، وهو لصغر حجمه، وضآلة جسمه، له رأس صغير تطل منه عينا تشبه النقط، ومقدمة أنفه تشبه حلمة الثدي، ومع ذلك تهرب الحيات منه حين تراه خوفاً وهلعاً، كما يفر اللصوص أمام الشرطة، وهو في شكله العام شديد الشبه بالخنزير ولكنه يختلف عنه في جلده وصوته وحجمه.

ويقرب الوصف عنده في هذه المقطوعة من الألغاز والأحاجي ذلك الغرض الذي شاع في القرن الرابع، واشتهر به عدد من الشعراء وأهم خصائص هذا اللون من الشعر هو الميل إلى الإبهام، وذلك بطريق التلميح والتلويح بالأوصاف العارضة،

(1) نهاية الأرب 10/165-166.

وليجاد نوع من الصلة دون التصريح، وتبدو هذه الظاهرة واضحة في وصف النباتات
فمن ذلك وصفه للرياس⁽¹⁾ :

ولعبة عاج في قميصٍ مورِدٍ أسافلُه خُضِرَ وأزرارُه حمِرُ
كأنَّ يديها والأناملُ خُضِبَتِ وشُدَّتْ على أطرافها خرقٌ خُضِرُ

وكقوله في الند⁽²⁾ :

وطيبٍ لا يُخلُّ بكل طيبٍ يَحْيِينَا بأنفاسِ الحبيبِ
يظَلُّ الذيلُ يسْثَرُه ولكن نَئِمُ عليه أزرارُ الجُيوبِ
إذا ما شمَّ أنفٌ حنَّ قلبٌ كان الأنف جاسوسُ القلوبِ

ويصف الريحانَ فيكثرُ من التشبيهات مع أنه لا يتناول التفاصيل وربما ألجأه إلى
ذلك ميله إلى المبالغة في تزيين صورة الموصوف من خلال الربط بينه وبين ما يقترن به
من صور حسية مستقاة من الواقع فيقول⁽³⁾ :

وصفت ريحاناً إذا ما وصفه واصفُه قيل له: زد في الصفة
دَقُّقَه صانعه ولطْفَه كأَنه وشم يدُ مَظرفه
أو خطَّ وراقٍ أدق أحرفه أو زغباتٍ طائرٍ مُصففة
أو حُلَّةٍ بخُضرة مفوفة

أما الخمر فيبدو أن لها مكانة في نفسه فكان يعاقرها ويمتّع نفسه بها وكان كما

(1) نهاية الأرب 11/ 64.

(2) البيتمة: 4/ 239.

(3) البيتمة 4/ 239-240، نهاية الأرب 11/ 255 في البيتمة (وضعت ريحان).

يقول الثعالي⁽¹⁾ : يقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأنس، ويجري على قضية قول كشاجم⁽²⁾ :

عجباً ممن تعالت حاله فكفاه الله زلات الطلب
كيف لا يقسم شطري عمره بين حالين نعيم وأدب

وقد مرت بنا أبيات الصاحب بن عباد⁽³⁾ إلى أبي بكر التي يحثه فيها على مواصلة الشرب، وعدم الإصغاء لأهل النصيح. وفيها ما يدل على ولع الخوارزمي بالشرب.

ولم يبق لنا غير مقطوعتين له في الخمر، وليس فيهما وصف دقيق للخمرة غير ما ذكره عن لونها الذي شبهه بالذهب في البيت الأول من المقطوعة الأولى حيث يقول⁽⁴⁾ :

وصفراء كالدينار بنت ثلاثة شمال وأنهارٍ ودهرٍ محرم

ويتنقل بعد ذلك إلى بيان آثارها الاجتماعية والنفسية، ويظهر تناقض الآثار باختلاف الوضع النفسي والاجتماعي والديني، ففيها مسرة المحزون، وعذر المعريد وكبر الجوسي، وفتنة المسلم، وفي شربها حياة للنفوس، وقتل لها، حين يشربها الفقير المعدم ينسى فقره ويؤسه، وتعيد إليه ثقته بنفسه فيشعر بغنى النفس. وطالما أودت بثروة الأغنياء لما يرتكبون من أفعال تحت تأثيرها، فأفقرتهم. ثم يأتي بعد ذلك إلى وصف الساقى. فيشبهه بالظبي في خفته ورشاقتة وكلما دار بأقداحها دارت معه أعينهم رغبة في وصاله، فكانوا يرشفون من يده خمرأ ومن شفاهه وخديه خمرأ،

(1) اليتيمة 4 / 208.

(2) الديوان: 69، وفيه (عجبي.. ذلات).

(3) اليتيمة 3 / 227.

(4) اليتيمة 4 / 238.

فتتضاعف اللذة وتزداد المتعة، ويبدع في وصف الظلام بميل واضح إلى التجريد فيشبهه في شحوبه بمعاش الفقير، وقلب المعلم الذي يذوب حنواً ورقة على تلاميذه. يقول:

وصفراء كالدينار بنت ثلاثة	شمالٍ وأنهارٍ ودهرٍ محرمٍ
مسرةٌ محزونٍ، وعذرٌ معربٍ	وكبرٌ مجوسيٍّ، وفتنةٌ مسلمٍ
ماتٍ لا حياةٍ، حياةٌ لميتٍ	وعدمٌ لمن أثرى، ثراءٌ لعدمٍ
يدور بها ظي عيونا	على عينه من شرطٍ يحى بن أكثرٍ
يُنزّهنا من ثغره ومُدَامِهِ	وخديّه في شمسٍ ويدٍ وأنجمٍ
نهضتُ إليها والظلامُ كأنه	معاشٌ فقيرٌ أو فؤادٌ معلّمٍ

أما المقطوعة الثانية. فيصف فيها كوز الفقاع، وهو وعاء مستدق العنق، متسع القاعدة، محكم الإغلاق، إذا فتح تصاعد منه الزبد، وكنى عن الشرب من فوهتها بالتقبيل، لكنها تثور وتهدر، كأنما هي امرأة عزوف، وفي وصفه ميل إلى استخدام أسلوب الألغاز والأحاجي: يقول فيها⁽¹⁾:

وضيقة القسم دحداحة	عليها قميصٌ ندى أخضر
تثور إذا كشفوا رأسها	وإن قبلوا فمها تهدر

الغزل:

اتخذ الخوارزمي لنفسه في الغزل منهجاً تقليدياً، هذا فيه حذو الأقدمين، ويرجع السبب في ذلك إلى منهجه في الشعر، وقد عرفناه مقلداً لا يرفض الجديد، كما يعود إلى الجذب العاطفي، إذ لم يعرف حياة الاستقرار، فكان دائب الحركة، كثير التنقل، كثير الهموم والمتاعب شغلته متاعب الحياة في جمع الرزق، والاهتمام بالأمور السياسية والمذهبية، فلم تترك لقلبه فرصة الانشغال بالأمور العاطفية ولهذا جاءت تجربته في هذا

(1) محاضرات الأدباء 4/ 379.

الجانب فقيرة، ولا لحس فيها بجرارة العاطفة ولا نتيين صدق الإحساس. رغم كل المحاولات التي بذلها للارتفاع إلى مستوى التجربة الحقيقية وبرغم ما حشد لها من رقيق الألفاظ وجميل المعاني.

ولا يفوتنا أن نشير إلى ما تحدثنا به في الفصل السابق عن تخلف نظرتة إلى المرأة، وحقده عليها وعددها بؤرة رذيلة، وملاذ فسق وفجور، ولهذا كان من غير الطبيعي أن يوفق بين نظرتة تلك وبين الغزل والنسيب.

وقد سار التقليد عنده في منحيين: الأول: استهلال قصائد المديح بأبيات الغزل والتشبيب جرياً على نهج القصيدة التقليدية، وغالباً ما تكون مشوبة بافتعال ظاهر، فالغزل أو التشبيب، وسيلة الشاعر للتوصل إلى غرض المديح، ولا يهم الشاعر كثيراً أن ينقل تجربته ولا أن يعبر عن اللوعة واللهفة التي يحسُّ بها، ولا يهدف إلى سرد مغامراته ومقابلاته. لأن هذه الأمور لا تهم الممدوح في قليل أو كثير. وإذا كانت قصائد المديح تنجح إلى المبالغة، فمن الطبيعي أن يأخذ غرض الغزل سمات القصيدة ذاتها.

وتتضح هذه الظاهرة في شعره من خلال قصيدته في مدح عضد الدولة فقد ساق ستة أبيات من الغزل ليتوصل إلى مقابلة سخيفة وليقول بأنه حسد ناظره على التمتع بجمال تلك المرأة، كما تحسد الأفلاك نعل فناخسرو وذلك حيث يقول في قصيدته⁽¹⁾:

وكم ليلة لا أعلم الدهر طيها	مخافة أن يقتصّ مني لها الدهر
سهاذ ولكن دونه كل رقدة	وليل ولكن دون إشراقه الفجر
وسكر الهوى لو كان يحكيه لذة	من الخمر سكر لم يكن حرم السكر

(1) البيتة 4/ 211.

ولما أدارت مقلّة جاهليّة هلاك امرئ في ضمن ثوبي لها نذر
ومالت كأنّ قد سُقّيت خمر خدّها وكيف يُميلُ الخمرُ من ريقه الخمر
حسدتُ عليها ناظري إذ تُحلُّهُ كما تُحسُدُ الأفلاكُ نعلَ فناخسرو

ومع ذلك فأبياته لا تكاد تخلو من جمال في الصنعة، ومتانة في التركيب. وقد
حشد كثيراً من ألوان البديع، وأتى بالعديد من المقابلات الجميلة والتشبيهات الموفقة.
وشبيه بذلك ما جاء في مقدمة قصيدته في مدح قابوس بن وشمكير، حيث
استهل قصيدته بمطلع غزلي أراد به التوصل إلى مقابلة في المعاني بين خوف الجفون
وخوف الممدوح شمس المعالي يقول ⁽¹⁾:

قامت تودعني بالأدمع السّجَم والصمتُ بينَ يدٍ منها وبينَ فَم
الينُّ أخرسها، والينُّ أنطقها وهذه حالةٌ في الناسِ كلّهم
قد طالما انهزمتْ عنا الجيوشُ فلا تحارينا بجش الورود والمعنم
لم يبقَ في الأرضِ لي شيءٌ أهابُ فهل أهاب انكسار الجفن ذي السقم
استغفر الله من قولي: غلطتُ، بلى أهابُ شمس المعالي أمةً الأمم
كأنّ لحظك من سيفِ الأميرِ ومن حثم القضاء ومن عزمي ومن كلمي

أما المنحى الثاني، فهو الميل إلى الغزل العفيف، الذي يذوب قلب الشاعر فيه
حسرات على فراق الحبيب، ويتفطر شوقاً إلى لقائه فإذا حظي منه بنظرة أو ابتسامة
شكا وقع السهام، وأحس بطعنات الرماح في القلب الواله المعذب، ولقد تتبع
الخوارزمي الأقدمين في خطواتهم، ونسج على منوالهم، وأخذ قسماً من معانيهم فهذه
أبيات في الغزل وثيقة الصلة بما جاء في شعر عنتره بن شداد العبسي حيث يقول ⁽²⁾:

(1) تاريخ العتي 1/ 404-405، نسمة السحر 2/ 320.

(2) لم أجدهما في الديوان، ولا في معلقته.

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
فوددتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنها
مني وبيضُ الهندِ تُقطرُ من دمي
لمعت كَبَارِقِ ثُغْرِكَ المتبسّم

(1) ويقول الخوارزمي :

ولقد ذكرتكَ والنجوم كأنها
يلمعنُ من خللِ السُّحابِ كأنها
والأفقُ أحلكُ من خواطرِ كاسبٍ
فمزجتُ دمعِي بالدماء ولم أكن
درّ على أرضٍ من الفيروزِ
شَرَرِ تطايرٍ في دُخانِ العَرْفَجِ
بالشَّعرِ يستجدي اللثامَ ويرتجي
صرفَ الهوى والعهدِ إن لم أمزج

ويتضح من هذه الأبيات مقدار تأثيره بالحضارة من خلال موازنة الصور والتشبيهات الواردة في القصيدتين المشتركتين في موضوع واحد. فالدر والفيروز، من ألفاظ الحضارة الجديدة، وبينها وبين السيف والرمح والسنان مسافة ما بين المدنية والبداءة ثم إن تشبيه الأفق بخواطر الكاسب من الأمور المرتبطة بالحضارة، ويتصور نفسه عاشقاً أضناه العشق، وغيب رشده فيكثر أصدقاؤه لومه، محاولة منهم لإرجاعه إلى جادة الصواب ويرد عليهم رد العاشق الموله، ويقول لهم إن اللوم لا يجدي العاشق شيئاً، لأن القلب ضعيف لا يحتمل الفراق، وقد يكون في الفراق مقتله، فلا تتعبوا أنفسكم في لومي وتقريعي، فمتى كان في الوجود حب ورشد (2) :

ليس على القلبِ للعدولِ يدُ
كل فؤادٍ مع الهوى غرضُ
يا أيها الطالبون بي رشداً
ولي فؤادٌ قد صرّت أفقده،
ولا ليومي من الفراقِ غدُ
وكلُّ يومٍ مع النوى أمدُ
متى التقى الحبُّ قطُّ والرشدُ
لم أنتفع بعده بما أجيد

(1) البيتة 4 / 211.

(2) البيتة 4 / 212.

شهدت للقلب حين علقه بأله للوجوه متقد

ويقوده خياله إلى اصطناع تجربة مستقاة من الشعر القديم تموج بالعتاب، فيتخيل
حيبته مرتحلة، ويقف ليودعها فتلمح ابتسامة على وجهه، فيخالجها الشك، وتنظر إليه
شزراً عاتبة، لائمة، فيعز الأمر عليه، ويحاول أن يثبت صدق عاطفته. وشدة حزنه
ولوعته، فيخاطبها بقوله⁽¹⁾ :

اغرك يوم البين مني تبسمي	فشيعت سهماً من فؤادي بأسهم
رويدك عهد القلب بالصبر بعدكم	وحقك عهد النار بالبرد فافهمي
عذيري من ضحك غدا سبب البكا	ومن جنة قد أوقعت في جهنم
زعمت باني قد سلوت وهذه	أراجيف من في عزمه قتل مسلم
على ذا فدومي أجرمي وتجرمي	وبكّي وأبكّي، وأظلمي وتظلمي
كانك لا تروين بيتاً لشاعر	سوى بيت (من لا يظلم الناس يظلم)
تعلمت فعل الدهر ثم سبقته	فأنساني التلميذ فعل المعلم
أديري لحاظ القلب في لتظري	إلى مفلس من صبره عنك معدم
ولا ترسلي هذي اللواحق كلها	فواحدة تكفيك قتل المتيم

وبالرغم من أنه كان يميل إلى التقليد - كما قلنا آنفاً -، فإنه كان يستجيب إلى
متطلبات العصر استجابة حيية فرضتها الظروف ولا تخلو تجربته من سذاجة، وافتعال
فقد روى أنه رفض بيع جارية له بمبلغ عشرة آلاف درهم، وقال في ذلك⁽²⁾ :

يا طالبا روعي لبيتاعها أنت رسول الهم والحسرة

(1) شرح المضمون به على غير أهله.

(2) البيتة 4/ 237.

جئت بالبدره فارجع بها لست أيسعُ البدرَ بالبدره
ويقول في قينه له ⁽¹⁾ :

وقينه أحسنُ من لقيها تملي كتابَ الحُسنِ مقلتها
ونقطه وشكله خدّها إذا اجتلاها اللحظُ أنشدناها
(واهاً لريّا ثم واهاً واها)

أما الغزل بالمذكر، فقد وجدنا له مقطوعتين من الشعر تتألف الأولى من ثلاثة أشطر، وتتألف الثانية من ثلاثة أبيات وربما استهواه الجناس في المقطوعة الأولى أكثر مما استهوته الفكرة ولم يعرف عن الخوارزمي مثل هذا السلوك. ونخلص إلى القول أن الغزل عند ليس غرضاً أصيلاً، وليس فيه إبداع ولا ابتكار. وأنه حاول أن يساير فيه الشعراء من غير أن يكون له تجربة. كما أنه لم ينزلق إلى الهاوية التي انزلق إليها شعراء الغزل الماخن.

الحكمة:

في شعر الخوارزمي اعتناء قليل بالحكمة والأمثال وقد عثرنا له على مقطعات صغيرة قليلة من الشعر الذي يمكن أن يعد خلاصة لتجاربه الشخصية صاغها بأسلوب النصيحة الذي يقترب من التعليمية فهو يميل إلى استخدام النهي والتعجب والوصف الموحى، وقد يميل إلى التقرير أحياناً، وهذا الضرب من النصائح التي تقترب من الحكمة لا يستطيع أن يرقى إلى مستوى الحكمة في شعر المتنبي أو في شعر زهير مثلاً.

فاعتداده بنفسه، وأسلوبه في العالي والترفع قد ولدت حكمة في قوله ⁽²⁾ :
عليك بإظهار التجلد للعدى ولا تُظهرن منك الذبول فتحقرا

(1) المصدر السابق 4 / 213.

(2) البيتة 4 / 240، خاص الخاص / 192.

أَلَسْتَ تَرَى الرِّيحَانَ يُشْتَمُ نَازِراً وَيَطْرَحُ فِي المِضْضَةِ أُلًى تَغِيرَا
وَتَجْرِبَتُهُ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ، وَمَعْرِفَتُهُ بِالنَّاسِ، وَجَدَهُ فِي تَحْقِيقِ طَمَوحِهِ هِيَ الَّتِي أَمَلْتَ
عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ فِي قَوْلِهِ ⁽¹⁾:

لَا تَصْحَبِ الْكِسْلَانَ فِي حَاجَاتِهِ كَمْ صَالِحٍ بِفُسَادِ آخِرِ يَفْسَدُ
عَدَوِي الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةً وَالْجَمْرُ يَوْضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمَدُ
وَلَعَلَّ صِلَتَهُ بِالْوَلَاةِ وَالْحُكَّامِ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَقَلُّبٍ وَاضْطِرَابٍ، وَرَفْعَةٍ
وَاتِّضَاعٍ، وَمَا لَقِيَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَمَا حَلَّ بَغِيرِهِ قَدْ أَنْطَقَتْ لِسَانَهُ فَقَالَ ⁽²⁾:
وَبَعْضُ النَّاسِ يَعْلُو وَهُوَ سُفْلٌ وَبَعْضُ النَّاسِ يَسْفُلُ وَهُوَ عَالِي
وَقَالَ:

مَا أَثْقَلَ الدَّهْرَ عَلَى مَنْ رَكَبَهُ حَدَّثَنِي عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِيبَةِ
لَا تَشْكُرُ الدَّهْرَ خَيْرَ سَيِّئِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ بِالْهَبَةِ
وَإِنَّمَا أَخْطَأَ فِيكَ مَذْهَبُهُ كَالسَّيْلِ إِذَا يَسْقَى مَكَاناً خَرِبَهُ
وَالسَّمُّ يَسْتَشْفِي بِهِ مَنْ شَرِبَهُ

وقد تحدثنا في غرض الرثاء عن ميل الشعراء إلى الحكمة، فالخوف من الموت
ينطق الألسنة بالحكمة، وهي في الغالب حكمة زاهدة مثبطة، يتنازع فيها البقاء والفناء،
ولكن طغيان الفناء أشد عمقاً، وأبين أثراً، وقد وجدنا هذا الميل في شعر الخوارزمي
ومثال ذلك قوله في مطلع قصيدته التي رثى بها ركن الدولة ⁽³⁾:

(1) المصدر السابق 4 / 229.

(2) أعيان الشيعة 45 / 261.

(3) شرح تاريخ العتيبي 1 / 132.

ألم تر أن الموت قد نصبح الدنيا وقال لمن يسعى لها أنتم الحمقى
يقولون عالجنا فصيحاً علينا وما اعتل من يبقى، وما صح من يغنى
إذا الناس ظنوا أنهم في سلامة فأبدائهم صحت وأنفسهم مرضى

وقد أورد الثعالي في كتابه التمثيل والمحاضرة مجموعة من الأمثال السائرة من
شعر الخوارزمي في ذلك العصر منها قوله ⁽¹⁾:

وإذا مدّة الشقي تناهت جاءه من شقائه متقاضى
وقوله:

ولا تعجبا أن يملك العبد ربه فإن الدمي استعبدن من ملك الدمي

ويبدو أن ثقافته في الأمثال وروايته للشعر القديم لم تؤثر كثيراً في هذا الجانب
من شعره، واقتصر أثرهما في ما يعرف بالتضمين، فقد ضمن أشعاره كثيراً من الأمثال
والأشعار التي تعنى بالحكمة وتناسب الغرض، نحو قوله ⁽²⁾:

وصارخة للزوج كان غناؤها لها كنية عمرو وليس لها عمرو

من بيت لأبي صخر الهذلي ⁽³⁾:
أبى القلب إلا حبها عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

وكقوله ⁽⁴⁾:

وعاش إلى أن يترك الناس مدحة (ومن ذا الذي يرجو إياب المثلّم)

(1) التمثيل والمحاضرة/ 125.

(2) الينيمة 4/ 220.

(3) المصدر السابق 4/ 220.

(4) هو عبد الله بن سلمة السهمي، من بني هذيل بن مدركة، كان في العصر الأموي مولى لبني مروان
توفي سنة 80هـ/ 700م.

وقد جاء في الأمثال: (لا أذهب حتى يعود المثلّم)

وقوله⁽¹⁾:

لقد هان من أمس ببلدة غيره (وقد ذلّ من بالت عليه الثعالب)

لقد أصبح واضحاً أن الخوارزمي طرق أغراض الشعر التقليدية المديح والهجاء والرثاء، والغزل والوصف وأخذ بنصيب غير قليل من أغراض العصر التي عملت الظروف على إبرازها، ولكنه بقي معتدلاً لم يندفع للجديد، ولم يخف ارتباطه بالتراث الشعري القديم، وإنه عاش أسير الظروف النفسية والاجتماعية التي تحيط بشعراء الدواوين.

الخصائص الفنية:

لقد صار من الواضح أننا لا نقف أمام عبقرية شعرية متميزة في تاريخ الأدب العربي، وأن شخصية الخوارزمي الشعرية، لم تستطع أن تضيف جديداً إلى الشعر في مضامينه وأشكاله، ولذا فإن دراستنا للخصائص الفنية في شعره، لن تضيف جديداً إلى الخصائص الفنية العامة المعروفة في الشعر العربي، بل ستنصب على معرفة مقدار التزام الخوارزمي بهذه الخصائص، ومقدار التركيز على جانب دون غيره، ومقدار تأثيره بعصره، وبأدب العصور التي سبقت وأثر ثقافته في الاتجاه الشعري العام.

1- المحاكاة والتقليد:

وما هو ليس بخاف أن ثقافة الخوارزمي المستندة إلى القديم الموروث قد أثرت بشكل بارز في خط سير شعره، فسار على نهج أصحاب المدرسة الكلاسيكية الجديدة⁽²⁾ الذين استطاعوا المواءمة بين الموروث، وبين ظروف حياتهم العصرية، وكان

(1) البيتة 4/ 221، تاريخ العتي 1: 408.

(2) للتفصيل انظر: بلاشير/ أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي/ 24.

شعارهم (دفع الشعر العربي على طريق الحياة). وقد امتلك قادة هذه المدرسة الحديثة من أمثال ابن قمام والبحري والمتني من المواهب والقدرات ما مكنهم من تجاوز الطريق الضيق المحفوف بالمخاطر بين القديم الجاف، والجديد المترف، وخطوا لتابعيهم منهجاً لا يستقيم بسهولة لكل من أراد.

جرى الخوارزمي في شعره على منهج هؤلاء وحذا حذوهم في أغراضهم ولغتهم ومعانيهم، ولكنه لم يستطع أن يرقى إلى درجتهم لأنه كان يتكئ عليهم ولا يجاريهم، فقد مثلت قصيدة المديح العمود الفقري بين أغراضه، وحافظت على شكلها التقليدي العام، واحتفظت بالمقدمة الغزلية والطللية، مثلما احتفظت قصيدة الرثاء بغرضي الحكمة والمديح.

وتميزت قصيدة الهجاء لديه بروح السخرية العالية من خلال التصوير الكاريكاتيري والألاعيب اللفظية التي يأتي بها على سبيل الألغاز، زيادة في الاستهجان والاستهزاء، وبقيت ألفاظه محافظة على عفتها، وإن زلت قدمه أحياناً، فإنه لم يهوَ إلى الحضيض كما هوى ابن حجاج وابن سكرة الهاشمي وإضرابهما.

أما من حيث المعاني، فقد كان الخوارزمي يستمدّها من ثقافته الثرة المستندة إلى الأصول العربية العريقة كما يستمدّها من واقع حياته الحضرية، ولم يتوان عن الإغارة على معاني الشعراء ليصوغها في قوالب شعره، محافظاً في الغالب على جمال النسق، وحلاوة التركيب، ودقة المعاني.

وقد أشرنا - فيما مضى - إلى شدة إعجابه بشعر أبي الطيب، وتأثره بمعانيه وشعره، يقول بلاشير⁽¹⁾: (....) ولا عجب بعد هذا الإجلال العفوي (للمتني) أن يعمل الشاعر المترسل أبو بكر الخوارزمي وهو أحد المعجبين منذ زمن بأبي الطيب بعد عودته إلى خراسان على نشر ديوان أبي الطيب وتقليد شعره).

(1) أبو الطيب المتني - دراسة في التاريخ الأدبي / 476.

ولقد عرضنا فيما سبق لعدد من المواضع التي نسج الخوارزمي فيها على منوال المتنبي، وظهرت محاكاته لقصيدة عنتر بن شداد في مقطوعته الغزلية:

ولقد ذكرتكَ والنجوم كأنها در على أرض من الفيروزج

كما تبين لنا مقدار تأثيره برثاء الخنساء لأخيها صخر في قصيدته التي رثى بها مؤيد الدولة حيث يقول:

طويل القناة، قصير العادات ذميم العداة، حميد الشيم

ولعل من الطريف أن نورد رأياً لبديع الزمان الهمداني في شعر الخوارزمي، مع ما فيه من غلو مبعثه العداوة والحقد، وإن كان لا يخلو من صحة، لا سيما في مسألة الأخذ التي عدها البديع نوعاً من السرقة غير المباحة.

يقول بديع الزمان⁽¹⁾: سألت أمتع الله بك عن الخوارزمي وشعره، وقلت إنني أجد فيه بيتاً لو روي في المنام لأوجب الغسل حسناً، وبعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة تنناً، ولعمري إن هذين البيتين لو كانا نبتين ما نبتا في أرض، أو ثمرين ما اجتنيا من غصن، فكَذلك إذا كانا شعرين يبعد أن يصدرَا عن صدر، ويطبعا من طبع، أو يصبَا على قالب قلب، أو يكونَا نفسيْ نفس، فقد يسمن الشاعر ثم يَغث، ويحيد القائل ثم يرث، ولكن لا كما تراه في شعر أبي بكر، وما كنت لأكشف هذه الأسرار، وأهتك تلك الأسرار، وأظهر منها العار والعوار، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا، وتجهيز قدح إلينا فيما روينَا من مقامات الاسكندري... وقد رتبت شعر الخوارزمي ثلاث مراتب، فثلث مسروق وهو الأوسط، وثلثه رديء وهو الأسقط وثلثه لا جيد ولا رديء، وسنأتي بعون الله على القصائد التي ادعاها، وأعرفك من أين سرق مسروقها، وسلخ مسلوخها، وعلى ما طبخه، فأكشف لك عيوبه، حتى نأتي

(1) رسائل ومقامات بديع الزمان الهمداني مخطوط - مكتبة بايزيد - تركيا رقم 2640 ورقة/

على ديوانه أجمع، ثم نفرغ لرسائله⁽¹⁾، فأعرفك ما يردد من أسجاعه، ويكرر من ألفاظه فهو لا يتعدى فرقتين، ولا يتخطى طبقتين، وتلك الأسجاع هي التي يطرز بها كلامه ويقرر نظامه، ويطرف محاضراته، ويوسط محاوراته، فإذا خلت منها كتبه وقصائده كان ما يبقى منها غفلاً عطلاً لا يحلو ولا يحلى، فأوله قصيدته:

لغير محبك الرأي السديد وغير فؤاده القلب الجليد

هذا المعنى لكثرة ما تداوله الشعراء، لا أدري ممن أخذه، وساعد عليك من قال ممن صب على هذا القالب، فأقربه بيت أبي الطيب المتنبي، حيث يقول:

بغيرك راعياً عَيْثَ الدُّثَابِ وغيرك صارماً ثَلَمَ الضُّرَابِ⁽²⁾

أخذ وزن البيت ومعناه ولفظه، فإن كانت قضية القطع ترجب في الربيع، فما أشد شفقتي على جوارحه أجمع. وأنشدني أبو عبد الله الفارسي لبراكويه الزنجاني⁽³⁾:

مضى العُمُر الذي لا يُستعاد و(إن) لم يُقَضَّ من ليلى مُراد
بكيت وذكرها عندي جديداً وشاب الرأس واسودَّ الفؤادُ
تواصى بالرحيل بنو أبيها فقلت: لغير رأيكم السُّدادُ

أخذ معنى البيت ولفظه ووزنه، وأحسب أن ربيعة من مكدم⁽⁴⁾، وعُيْبَةُ بن الحارث⁽⁵⁾ بن شهاب كانا لا يستحلان من النهب ما استحلّه، فإنهما كانا يأخذان جله،

(1) يمكن الاستدلال بهذا القول على أن للبديع كتاباً ضائعاً في نقد شعر الخوارزمي ورسائله.

(2) ديوان المتنبي/الواحد/543.

(3) الزنجاني: لم أعثر على ترجمة له.

(4) ربيعة بن مكدم: هو ربيعة بن مكدم بن عامر بن حرثان من بني كنانة أحد فرسان مضر في الجاهلية، ترجمته في بلوغ الأرب للآلوسي 1/144. وسمط اللال/910.

(5) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، مؤلف مقاييس اللغة، والجمل والصاحبي أستاذ أستاذ بديع الزمان والصاحب بن عباد (349-395هـ).

جله، وهذا الفاضل قد أخذه كله وأنشدني أبو الحسين أحمد بن فارس لبعض العرب
وقد خطب إليه بنت تسمى الدُرْمَكُ، فقال:

أتاني في ثياب الحسنِ ملساً وعينُ القبحِ ما تحت الثيابِ
ليخطب دَرْمَكاً فصددتُ عنه فقلتُ اغربِ بِجَانِحَةِ الغرابِ
فغيري من يُغرّر بالأماني وغيري من يُهاجُ إلى سَرابِ
أخذ معنى البيت ووزنه ولفظه أكثر مما يأخذ اللص بعد حائط ينقبه، وثقب
ينقبه.

قال: وأنشدني لابن الرومي:
وقائلة بالنصحِ لِمَ لا تزوّجي فقلتُ لها غيري إلى القرنِ أحوج
ولعل ابن الرومي سرق من أبي بكر هذا البيت.

ويليه الثاني مسروق أيضاً، وهو:
وفي الثوبين منه مستهام⁽¹⁾ هـوالُ لواعظِهِ قُيُود
أخذه من أبي الجلباب في قصيدته التي أولها:

وماء الوجه ويحك يا حذام صريعك بين ثوبي مُستهام
ولعمري إن هذه ليست بسرقة، وإنما هي مكابرة محضة وأحسب قائله لو سمع
هذا لقال (هذه بضاعتنا ردت إلينا)... الخ

وقد أشرنا فيما تقدم إلى ظاهرة التضمين في شعره، وقد تنبه إليها الثعالبي من
قبل فخصها بنصيب وافر من العناية وأبدى إعجاباً كبيراً بها حيث يقول:
وهذه لمع من تضميناته التي كانت له رشيقة، وطريقة أنيقة، يضعها في مواضعها،
ويوقعها أحسن مواقعها، ويفصح بها عن اتساع روايته، وكثرة محفوظاته، فمنها قوله:

(1) مستهام: هائم.

ولما أكثر الحساد فيه وقالوا قد تغضنت الحدود
أجاب الفضل عنه حاسديه (لأمر ما يسود من يسود)

البيت لبلعام بن قيس الكناني
ومن ذلك قوله:

مقابل بين أقوام وألوية مُردّد بين إيوان وديوان
إذا أتى داره الأضياف أنشدهم (وإخوتي أسوة عندي وإخواني)
المصراع لأبي تمام.

... ومن تضميناته للأمثال قوله:

يا جالي البنت بعدما ثقت تبرز القدر بعدما قلبت
هذا كما قد يُقال في مثل (جُصّصت الدار بعدما خربت)

ويمكن القول أن سبب شيوع التضمين في شعره يعود إلى غلبة الأسلوب الثري عليه، وكان كثير الاستشهاد، بالشعر والقرآن والأمثال في نشره، فامتد أثر ذلك إلى الشعر، كما يعود إلى إدراكه أهمية المثل والحكمة في النفس العربية ولم تكن الأبيات والأشطر والأمثال التي يضمنها في شعره إلا من ذلك النوع الذي يقترب من المثل أو يفعل فعله، وقد عرفنا أن الخوارزمي كان شديد الاهتمام بالأمثال.

وهو لا يستطيع في بعض الحالات أن يجيد في المعنى إجادة شعرية ترقى به إلى مستوى المعاني الشعرية العربية القديمة، فيلجأ إلى التضمين ليغطي عيوب النقص التي يمكن أن تتكشف، وفوق كل هذا كان الخوارزمي شديد الحرص على إظهار قدرته على الحفظ والرواية والاستيعاب، ولا يسعنا إلا أن نشارك الثعالي استحسانه وإعجابه.

الوحدة الموضوعية

أما الوحدة الموضوعية، فيبدو أن الخوارزمي لم يخرج على ما هو مألوف في

القصيدة العربية التقليدية، فقد استهل بعض قصائد المديح بأبيات من الغزل والنسيب، والوقوف على الأطلال، ليصل بعد ذلك إلى الغرض الرئيسي، ولكننا لا نستطيع الحكم على مقدار شيوع هذه الظاهرة، لأن شعره لم يصل إلينا مكتملاً وقد بينا عند الكلام على غرض الغزل أن تلك المطالع لا تحمل في ثناياها تجربة عميقة وإنما هي وسيلة يتوصل بها إلى غرض المديح، ولا نستثني من هذا الحكم وقوفه على الأطلال

ووصف الرحلة في قصيدته التي مدح بها أبا نصر الميكالي حيث يقول ⁽¹⁾:

صنعت بعيني صنْع ساكنها بي	تلك الدِّيارُ فريسةُ الأحقابِ
رزحى للركابِ برازحي الركابِ	والى الأميرِ ابنِ الأميرِ تواهقتْ
وغدوا لحاجتهمْ غُدُوَّ غرابِ	لبسوا الدُّجى لبسَ الغرابِ لريشه
فضلاتُ عتب في خلال عتابِ	والفجرُ بطرقٍ والظلامُ كأه

ومن المعلوم أن تنوع الأغراض في القصيدة الواحدة لم يكن ليؤثر كثيراً على الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية القديمة لأن الشاعر في الجاهلية والإسلام حين يقف بالأطلال باكياً ويمر بديار الحبيبة، تتماوج في ذهنه أطراف الحبيبة وتعود به الذكريات إلى الماضي، فيرتبط ذلك كله بوصف الرحلة وأتاعبها ويصف ناقته أو فرسه التي قاسمته مشقة السير، كل ذلك ليضفي على الممدوح شيئاً من المهابة، وليصل بعد ذلك إلى الموضوع الأصيل الذي بنى القصيدة عليه. ينتقل الشاعر من غرض إلى غرض بطريقة انسيابية، يمهد في كل غرض للغرض الذي يليه، ولكن هذا الترابط الموضوعي والعضوي ذا الدلالة النفسية لم يتحقق كثيراً في شعر الخوارزمي، ولا أدل على ذلك من الطريقة البائسة في التخلص من الغزل المفتعل الكاذب إلى المديح في قصيدته التي مدح بها عضد الدولة حيث يقول ⁽²⁾:

(1) تاريخ العتي 2/ 39-40.

(2) اليتيمة 4/ 211.

حدث عليها ناظري إذ تحله كما تحسد الأفلاك نعل فناخسرو

ولا يعني هذا القول انعدام الوحدة الموضوعية في شعر الخوارزمي وإنما يعني بذلك شعر المديح الذي يكون عمود شعره الفقري، إذ هو شاعر متكسب.

وهناك العديد من القصائد والمقطعات التي تتحقق فيها الوحدة الموضوعية إذ لا مناص من ذلك، ومنها قصائد الرثاء التي يلتئم فيها الحزن بالحكمة وذكر المناقب والتعزية وهناك المقطعات الوصفية التي تكاد تنفرد بالغرض، وهذا يعني أن القصيدة في شعر الخوارزمي ليست ذات شكل بنائي واحد، وإن بناء القصيدة يتصل اتصالاً وثيقاً بالغرض فقصائد المديح تقليدية لا تصل حد التوفيق، وربما وفق في غرضي الهجاء والرثاء أكثر من غيرهما، ففي الهجاء تعبير صادق عن حسه وإنفعالاته، وإظهار لمقدرته على استخدام السخرية، والإتيان بالصور والتشبيهات الدقيقة والمؤثرة.

المحسنات اللفظية والبديعية:

من المعروف أن القرن الرابع الهجري قد شهد اهتماماً واسعاً بالصناعة اللفظية التي غرس بذورها في الشعر مسلم بن الوليد وأبو تمام الطائي واستمرت تؤتي أكلها من بعدهما، حتى كادت تغطي على الشعر، وتبارى فيها الشعراء، مثلما تبارى الناثرون في استخدامها.

ومع أن الخوارزمي كان من حذاق هذه الصناعة في النثر إلا أن هذه الظاهرة لم تكن شديدة البروز في شعره، ولعل اهتمامه بالمقابلات المعنوية فاق اهتمامه بالمحسنات البديعية، فمن ذلك قوله ⁽¹⁾:

فذا هُئى وقال: مضى عَدُوٌّ وذا عَزى وقال: مضى وديد
رأيتُ العقلَ ينفعُ وهو قَصْدٌ ويلقي في المهالك إذ يزيد

(1) البيتة 4/ 229.

ومنها قوله:

ولا يومٌ تعيشُ به حميدٌ	فلا يومٌ تموتُ به مجيدٌ
تأكلُ فهو موجودٌ فقيدٌ	وما أصبحتُ إلا مثلَ ضرسٍ
وفي قلعي له ألمٌ شديدٌ	ففي تركبي له داءٌ دويٌّ

ومن الجدير بالذكر أن قصيدته في رثاء أبي سعيد الشيبني قد تميزت بهذه الظاهرة التي وفق فيها توفيقاً شديداً ودلت على مقدرة كبيرة على الإتيان بالصور المتقابلة، والمعاني المتباينة التي تفصح عن مبلغ الحيرة والاضطراب لفقد عدو كان صديقاً، فمن مقابلاته المعنوية قوله ⁽¹⁾:

أيا من قُرْبِهِ خِبرَةٌ	ويا من بُعْدِهِ عِبرَةٌ
ويا من وصله يومٌ	ويا من هَجَرَهُ قُسرَةٌ

ومن ذلك قوله ⁽²⁾:

رأيتك إن أيسرت خيئت عندنا	مقيماً وإن أعسرت زرت لماما
فما أنت إلا البدرُ إن قلَّ ضوؤه	أغب، وإن زاد الضياءُ أقاما

ومنه قوله ⁽³⁾:

أو ما رأيت البحرَ يغرقُ	منه بالخطأبِ اليسير
والناسُ مثلُ الجسمِ يعثمدُ	القييلَ على الدُّبِير
يتحاملُ العضنُ الخطير	بقوَّةِ العضنِ الحَقِير

(1) البيتة 4/ 237.

(2) المصدر السابق 4/ 239، أسرار البالغة/ 124.

(3) المصدر السابق 4/ 234.

كتحامل الرُّوح الطَّويل بزجُّه ذاك القصير

فالجناس والطباق موجودان في شعره، وتكاد المحسنات البعيدة لديه تأتي عفو
الخاطر من غير تكلف واحتشاد، وقل أن نجد في شعره مثل قوله:
يا شادناً متَّ قبْلَه قد صارَ في الحُسْنِ قبْلَه
امنن عليَّ بقُبْلَه

وقد يلجأ الخوارزمي أحياناً إلى استخدام الألاعيب اللفظية والعروضية، فمن
الأول قوله في هجاء أحدهم⁽¹⁾:
وقال أنا المليكُ فقلتُ حقاً بقلبِ الألامِ نوناً في الهجاءِ
ولم أرَ من أداءِ الملِكِ شيئاً لديكِ سوى احتمالِكِ للواءِ
ومن الثانية قوله⁽²⁾:

وعشتُ وناقصَ رزقي فأضحى (مفاعلتن مفاعلتن فعول)

ويجدر التنويه بأن الخوارزمي بما له من باع طويل في الأدب، لم يخل شعره من
سقطات انقاد إلى بعضها بسبب ميله إلى المغالاة والافراط، وقد أخذ عليه الثعالبي قوله
في مدح شمس المعالي قابوس بن وشكير⁽³⁾:
لقد هانَ من أمسى ببلدةٍ غيره (وقد ذلَّ من بالت عليه الثعالبي)

فقال: هذه من سقطاته وعرره الواقعة في غرره فيه سوء أدب، وهو بالتقريع
أشبه منه بالتقريض، وليس مما يخاطب به الملوك.

(1) البيتة 4 / 207 الكناية والتعريض / 35.

(2) المصدر السابق 4 / 232.

(3) البيتة 4 / 222.

ومما زلّ فيه أقبح زلة قوله من قصيدة في الصباح، وقد اعتل:
نعوا لي نفس المجد ساعة أخبروا بما يشتكي من سقمه ويمارس
فإن في لفظة النعي ما فيها من الطيرة، إذ هي مما يقع في المرئية لا في العيادة ثم
قال:

فهلا فداءه من ليس مثله ومن ربّعه في ساحة الجود دارس
جزى الله عني الدهر شراً فإنّه يضايقني في واحد وينافس

(1)

ومن سقطاته المنكرة قوله للصاحب من قصيدة:

ومهيّب كائماً أذنب النّاس إلى فاهم مغشون ذلاً
وظريف كأن في كلّ فعل من أفاعيله عرائس تجلى

فإن الكبراء والمحتشمين لا يوصفون بالظرف، إذ هو من أوصاف الأحداث
والقيان والشبان، ولم يرض بالفرطة في هذه اللفظة حتى شبه أفاعيله بعروس تجلى،
فلو مدح مخثلاً لما زاد، والكامل من عدت سقطاته، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم
هفوة.

ومع تحفظنا الشديد على ما ورد في مناظرة الخوارزمي والبديع من أشعار
وغيرها فإنه من الضروري أن نشير إلى النقد الذي ساقه البديع لأبيات ادعى أنها
للخوارزمي في المناظرة التي جرت بينهما ومع أن الخوارزمي قد أنكر قوله للألفاظ
التي نقدها البديع، فإنه لا يبعد أن يكون للسرعة الشديدة التي نظمت فيها الأبيات أثر
كبير في الوقوع في الزلة. ولعل في إنكار الخوارزمي لها دليل على معرفته بما فيها من
خطأ.

(1) اليتيمة 4 / 223.

الفصل الرابع

نثره

نثره

مقدمة:

يعد القرن الرابع الهجري من أزهى العصور في تاريخ الأدب العربي، فقد نضجت فيه الحياة العقلية، وترسخت فيه الدعائم الحضارية لقرون النهضة التي سبقتها، فكان من نتيجة ذلك تطور فن الكتابة النثرية، بحيث أصبحت ذات سمات مميزة، وبرزت فيه عناصر فنية جديدة استطاعت أن تصبغه بصبغتها.

وكما يقول الدكتور زكي مبارك⁽¹⁾، فإن تلك الخصائص لم تكن جديدة كل الجدة. ولكن فيه خصائص ثلّح عند كتاب القرن الأول والثاني والثالث، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمي وبيديع الزمان. ولعل أبرز الخصائص الفنية التي امتاز بها النثر في هذا القرن هو الالتزام بالسجع والاهتمام بالمحسنات البديعية، والتأني في الكتابة واختيار الألفاظ والمعاني والمبالغة في ذلك⁽²⁾.

ومع ذلك فقد احتفظ النثر الفني في هذا القرن بكثير من الخصائص الفنية التي كانت سائدة في القرنين الثاني والثالث، كالترسل والازدواج. ولكنه - على كل حال - كان بداية لعصر الانحطاط الذي أصبحت فيه الصنعة والزخرف والتكلف غاية في ذاتها.

هذا بالإضافة إلى أن مجالات النثر الفني في هذا القرن قد توسعت فظهرت فنون جديدة لم تكن معروفة كالمقامات، واختص عدد من الكتاب بنمط من الكتابة الفنية، وهو ما عرف بالرسائل الإخوانية⁽³⁾.

(1) النثر الفني في القرن الرابع 1/ 127.

(2) المصدر السابق 1/ 127-136.

(3) المصدر السابق 1/ 200.

ويعد الخوارزمي واحداً من أشهر كتاب الرسائل الإخوانية في القرن الرابع الهجري، ومن الكتاب الذين أعطوا لهذه الرسائل سماتها الفنية المعروفة، واستطاعوا أن يغزو بها الموضوعات التي كانت حكرًا على الشعر.

مكانته الأدبية:

لقد استطاع الخوارزمي أن يجد له مكاناً بين أدباء عصره وكتّابه، وبلغ من الشهرة والسطوة ورفعة المنزلة مبلغاً كبيراً، شهد له بها معاصروه ومنهم الثعالبي⁽¹⁾ فقد كتب تعليقاً على المناظرة بين الخوارزمي والبديع قال فيه⁽²⁾ ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لهبوب ريح الهمدان، وعلو أمره، وقرب نجمه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبري لمباراته، ويجترئ على مجاراته....

ومن الواضح أن الثعالبي قد بالغ كثيراً في تقدير مكانة شيخه، ولكننا مع ذلك لا نستطيع إلا أن نسلم بأقوال واحد من مشاهير الكتاب في عصره، وهو أبو حيان التوحيدي، الذي أعجب بفصاحة الخوارزمي، حيث قال⁽³⁾ كان الخوارزمي من أفصح الناس، ما رأينا في العجم مثله.

أما المتأخرون والمعاصرون، فليسوا بأقل إعجاباً من القدماء بشخصية الخوارزمي الأدبية، وأهمية رسائله، فقد قال عنه الكلاعي⁽⁴⁾ بأنه من أفراد الدهر، وأمراء النظم والنثر ونقل ابن الفوطي⁽⁵⁾ قولاً للموفق بن أحمد المالكي يمتدح فيه فخر

(1) انظر البيهقي 4/ 194.

(2) المصدر السابق 4/ 257.

(3) أخلاق الوزيرين/ 108.

(4) أحكام ضعة الكلام/ 124.

(5) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ج4 - ق3/ 392.

(1) خوارزم ، ولم يجد غير الخوارزمي له قريناً حيث يقول: -"خوارزم كانت قبل فخرها، مزهوة بأبي بكرها، صادقة في زهوها به من بكرها، مباهية به، مباهاتها بيكرها، تعده لغرائبه من رغائبها، وتعدده لرغائبه من غرائبها، وما أخطأت خوارزم باعتقادها فيه، وإفاضة ما سمع من النظم والنثر من فلق فيه. نعم حال الخوارزمي في فنه إلى جنب فنون العلامة حويلة، وسحره الفياض بالنسبة إلى جدول دجيلة، هذا بون ما بينهما في علم الأدب وحفظ لغات العرب."

وقد استطاعت شخصية الخوارزمي الأدبية أن تفرض نفسها وأن تجد لها مكانة مرموقة شهد بها المستشرقون مثل ما شهد لها سابقوهم، فقد وصفه يوهان فك⁽²⁾ وبروكلمان⁽³⁾ بأنه واحد من كبار رجال النثر في القرن الرابع، وأنه استطاع أن يقرض الشعر الرشيق والنظم الأنيق.

وقد شارك المعاصرون أسلافهم إعجابهم بشخصية الخوارزمي الأدبية، فقد وصفه الدكتور مصطفى الشكعة⁽⁴⁾ بأنه ذو أدب خليق بالدرس والعناية، ككاتب مجيد، وشاعر عظيم وخصه الدكتور زكي مبارك بدراسة في كتابه النثر الفني في القرن الرابع⁽⁵⁾ ، ووصفه بأنه شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي، وشغلت الناس عدة أجيال وأن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن دراسة نثر الخوارزمي ستقتصر على رسائله، ذلك أن

(1) فخر خوارزم: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزنجشري المفسر.

(2) العربية/ 166.

(3) تاريخ الأدب العربي 2/ 111.

(4) بديع الزمان الهمداني/ 81-82 (ونحن لا ندعي بأنه كان شاعراً عظيماً).

(5) انظر ج 2/ 316-337.

أغلب مؤلفاته لم يصل إلينا، وأن ما وصل منها لا يشكل مادة ثرية فنية باستثناء ما ورد في مقدمة كتابه الأمثال المولدة، ومع أن لهذا النمط من الكتابة أسلوباً خاصاً أملاه فن التأليف، فإن لتلك المقدمة مزايا وخصائص وضعتها في عداد النثر الفني.

ولو تهيأ لنا الظفر بمقدمة كتابه شرح ديوان أبي الطيب وغيره من المؤلفات لتكونت لنا مادة ثرة تساعدنا على معرفة آرائه في النثر والشعر والحياة العقلية مما يعين على دراسة فنه الثري، وقناعته بهذا النمط أو ذاك من أنماط الكتابة وفنونها.

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نلمح إلى أن معرفة التطور في الكتابة عند الخوارزمي من الأمور التي يصعب رصدها، ذلك أن جميع رسائله غير مؤرخة، وأنها جاءت - في أغلب الأحيان - غفلاً من اسم المرسل إليه، وحتى الذين ذكرت أسماءهم فأغلبهم غير معروف، ولذا كان من الصعب تحديد مسار تطور فن الكتابة عنده بين عهدي الشباب والشيخوخة.

ولم نستطع أن نتبين وجود فوارق تميز بين رسائله فهي متشابهة في خصائصها الفنية والأسلوبية، وهذا يعني أن الخوارزمي لم يقع أسير ظروف معينة فرضت عليه التحول من نمط إلى آخر.

أغراضه:

تناول الخوارزمي في رسائله أغراضاً كثيرة ومتعددة، شملت مناحي الحياة المختلفة، ولهذا التنوع في الأغراض أسبابه: فقد شارك في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية، واتسمت حياته بالتنقل والاعتراب، فكان له أصدقاء ومعارف كثيرون، وهم في منازل وطبقات اجتماعية متفاوتة فمنهم الأمير والوزير، وقائد الجيش، والوالي وعامل الخراج، ومنهم الكاتب والشاعر، وفيهم الأشراف والشيخ والقضاة، وكان الخوارزمي حريصاً على إظهار مقدرته الأدبية من خلال الرسائل الفنية التي بدأت تأخذ شهرة الشعر، وتنوب عنه في بعض ميادين، وقد وجد الخوارزمي في هذا اللون الأدبي ميداناً فسيحاً، يوصله إلى الشهرة، فأكثر فيه، ولعل مرد هذا الخصب في كتابة

الرسائل الإخوانية يعود إلى أن الخوارزمي لم يكتب لأي من الأمراء أو الوزراء، وقد ساعد ذلك على بروز شخصيته الأدبية التي كان يمكن أن تطمس في خضم العمل الرسمي، وتضيق موهبته الفنية في زخم الرسائل الديوانية التي تذيب- في أغلب الأحيان- شخصية الكاتب بشخصية رؤوسه.

لقد أوجبت عليه صلاته بالحكام والولاة وقادة الجيوش، مشاركتهم في البأساء والضراء، فيهنئ بالتولية والفتوح والأعياد، ويشكر لهم جزل العطاء، ووافر المنحة، ويكيل لهم المدح والثناء، حتى إذا ألت به ملمة، أو حلت به نائبة سارع إلى الشكوى، وما أكثر ما كان يشتكي عمال الخراج، وقد وقفوا له بالمرصاد وأذاقوه العذاب. ولطالما أطلق لسانه في عتاب من يتأخر عن الإجابة على رسائله، وهو عتاب يموج بالمديح والافتخار. فإذا أصيب أحدهم بعزيز أو ألم به خطب كتب إليه معزياً أو مواسياً، ولا يفوته أن يشمت ببعضهم حين يجنون ثمرة فسادهم عزلاً وتشريداً ولا تخلو رسائله من غرض الاستجداء، وطلب المواصله.

أما حياته الاجتماعية، فلم تكن أقل تأثيراً من سابقتها، فقد ربطته مهنة التعليم بطائفة من التلاميذ الذين حرص على إبقاء صلات وثيقة بهم، فيكتب إليهم موجهاً متشوقاً، واعظاً حيناً، عاتباً موبخاً لائماً حيناً آخر، ويفوض لبعضهم أشغاله حين لا يجد سبيلاً إلى البقاء في موطنه، ولم يكن بد من الاحتفاظ بعلاقات طيبة أو سيئة بأدباء عصره ومؤيديه، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الصلة أثر في تحديد غرض الرسالة وأسلوبها، فالمودة تطلق لسانه في امتداح أدبهم وفضلهم وعلمهم، والعداوة تفجر البغضاء، وتجلب السخرية والازدراء. ورسالته إلى أبي الحسن البديهي ثمرة من ثمار ذلك اللد. وليس يخفى ما للعوامل المذهبية من أثر في رسائله فقد آلى على نفسه أن يكون مدافعاً عن المذهب الشيعي، ناصراً لأهله، يتفجع لفجيعتهم، ويفرح لفرحهم، وقد كثرت رسائله إلى أبي محمد العلوي وتعد رسالته إلى شيعة نيسابور خير مثال على ذلك الأثر.

لقد حوت رسائل الخوارزمي كل هذه الأغراض، وأغراضاً غيرها ولكنها بقيت خالية من رسائله إلى أسرته وأقربائه، ولعل سبب ذلك يعود إلى أنها تحتوي أموراً خاصة، فلم يخرجها مع رسائله الأخرى التي لم ير حرجاً في إظهارها. وأنه كان يظهر الرسائل التي تبرز مكانته الاجتماعية. وستناول فيما يأتي بالتفصيل أهم أغراضه.

العتاب:

حظي غرض العتاب في رسائل الخوارزمي بالنصيب الأوفر والاهتمام الأكبر. وليس يخفى أن الخوارزمي قد استخدم هذا الغرض استخداماً ذكياً، للوصول إلى غاياته وأهدافه، وأماط اللثام عن كثير من المثل والعادات والتقاليد الاجتماعية لذلك العصر، وكان يرى أن العتاب لابد أن يفضي إلى إحدى طريقتين: المودة أو القطيعة: يقول في رسالة كتب بها إلى رئيس دامغان⁽¹⁾:

أنا أغار لما بيني وبينك - أيدك الله - من ذلك التملق، ومن عشق التشوق وأقشر لك عصا العتاب، وأتسرع لك بخشونة الجواب، إذا كانت الحالة بيننا مبنية على أساس الصدق، ومصونة - بحمد الله تعالى - عن شوائب المدق، وليس بعد العتاب إلا التقدم إلى الصلة أو النكوص إلى القطيعة، وإنما هو جسر عن يمينه العتبي والرجعي، وعن يساره النوى والشكوى، فلا تفتح من التجوز باباً أغلقته يد الوفاء ولا تبح من الحفاظ جانباً حمته قضية الود والإخاء... وقد خرقت فيك حجاب المجاملة، ولبست لك ثوب المكاشفة، فإن أدبك ذلك فمؤدب العاقل إخوانه، ومرآته زمانه، وسوط الفرس الجواد عنانه، وإن أبيت، فما أنا باخع نفسي على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً⁽²⁾.

ولعل خير ما يوضح فلسفة العتاب عنده ما جاء في رسالته إلى صاحب الجيش

(1) الرسائل/ 185 ودامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس.

(2) الآية في سورة الكهف/ 6 ﴿فَلَمَّا كَفَتْ نَجَحْتُمْ نَفْسَكُمُ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

جواباً عن رسالة مدحه وعاتبه فيها حيث يقول ⁽¹⁾ : فُهمت كتابك الذي هو أشرف كتاب إلي، فقد رصع بأظرف عتاب علي، وما كان أحوجك أن تجعل كلامك بمائه. وتحلي ظفرك الناصع ببهائه فلا تشوبه بالعتاب، ولا تكدره بمر الخطاب فتكون قد أدبتنا بصمتك، وعاقبتنا بعفوك، فكفاك سلاحاً لك قراع الحلم دونك، فربما بلغ الإحسان من العقوبة ما لم تبلغه الإساءة، ودخلت المسرة مداخل تنبو عنها المساءة، على أنني ما أجهل منفعة العتاب، ولا أنكر مرافقه بين الأحباب، ولا أشك في أنه يطري خلق الود، ويجلو غيرة العهد، ويداوى أدواء القلوب، ويترجم عن خفيات القلوب، وأنه الأنموذج بين الأولياء والأعداء، والجسر بين المدح والهجاء والمصلح للعشرة الفاسدة، والمقرب بين الديار المتباعدة، ولهذا أشتقت لفظة العتبي، وهي الرجوع إلى الرضا، ولكن إذا كان مصدره عن شكاية ومنبعه عن جناية، ووقع عن فترة في الود عرضت أو ثلثة في الإنصاف حدثت، جمع الشمل، وجدد الوصل، وصقل ما صدئ من العشرة، وأزال ما وقع من الفترة، وإذا كان مصدره عن تجرم وتجن كان مفتاحاً لباب العريضة ومكدرراً لصفو المودة، وترجماناً عن لسان القطيعة، وإنما هو دواء إذا لم يصادف داء استحال داء، وإذا صادفه كان شفاء....

أما دوافع العتاب فكثيرة، وأكثر ما جاء منها في رسائله بسبب انقطاع المراسلة، فمن ذلك رسائله إلى الوزير ابن عباد ⁽²⁾ ، وإلى حاجبه أبي الحسن بن دايه ⁽³⁾ ، وأبي الفرج خليفة الوزير بطوس ⁽⁴⁾ .

وطبيعي أن تختلف حدة العتاب باختلاف المرسل إليه. فحين يعاتب الصاحب

(1) الرسائل / 181.

(2) الرسائل / 157.

(3) الرسائل / 25.

(4) الرسائل / 26.

بن عباد على انقطاع المراسلة يخلط العتاب بالمديح، ويذكر أيادي الرجل عليه، وما أسداه من كريم النعم، وما خصه به من وافر الفضل، ويتشوق إلى تلك الأيام التي جمعت بينهما، ويعض أنامله ندماً على ما فات منها. ويبدو أن علاقته بالصاحب قد جاوزت حدود العلاقة بين الأديب والوزير، فيخاطبه مخاطبة الصديق ويكاد يخرج في بعض عباراته عن اللياقة: يقول في رسالة بعث بها إلى الوزير ابن عباد⁽¹⁾ :

إذا رأيت كتاب الوزير وقد ورد على غيري، غرت عليه غيرة الفحل على الشول، بل غيرة المرأة على البعل، ولوددت أن لم يكتب به غيري أو من يشكره مثل شكري، فإني مع استقصاري لنفسي في ذلك، أتعبت الوراقين، بل أتعبت الكرام الكاتبين، وأبقيت للخواطر والألسن شغلاً طويلاً، وطرحت عليها عبئاً ثقيلاً، ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصاراً، وكان ليالي بها نهاراً، وساعاتي فيها أسحاراً، كما أن أيام فراقه ليال طوال، وليلة فراقه تعد بليال، وإني بعد صبري على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر، واسع المجال في ميدان الصبر، ولقد أصابت عين الزمان وفائي، وسلبتي حسنتي، وهي جزعي بفراق أصدقائي، فأجرني الله تعالى على هذه المصيبة، ولا حرمني عليها جميل الأجر والثوبة. لا يبعني الوزير، وقد اشتريته بأهل الدنيا ولا يبعني عنه، وقد قرّني الحب إليه، ولا يبخل علي بكتبه، فعهدي به لا يبخل علي بفضته ولا بذهبه، وليأنف من أن يكتب اسمه في جريدة البخلاء، بعدما صدرت به جرائد الأجواد السمحاء إن شاء الله تعالى.

وحين يكتب إلى تلاميذه تقطر كلماته حباً وحنواً وعطفاً ويخلط العتاب بالعظة والنصيحة، يخاطبهم مخاطبة الأب البار الرحيم... يوجههم ويرعاهم، ولا يتردد في إظهار القسوة والتلويح بالشدة إذا دعت الضرورة. يقول في رسالة كتب بها إلى أحد تلاميذه، وقد ولي خلافة البندار بطوس⁽²⁾ :

(1) الرسائل / 157.

(2) الرسائل / 26.

وردت كتب ولدي على يد جماعة أصدقائه وكافة أوليائه وطلبت حصتي، فلم أجد فيها، فليت شعري هل قصدني من بينهم الزمان، وكيف خصني منه بالحرمان وكيف صرت المستثنى، وقعدت على طريق إلا، وكيف عدني ولدي في الأجانب وكنت أعد نفسي في الأقارب وهلا إذ لم يدخلني في جملة إخوانه وأصفيائه، أدخلني في جملة أوليائه، وقد اغتفرت هذه الواحدة، وسوء أخذه إن عاد إليها ثانية فما يسع عفوي لأكثر من مرة، ولا تنال إقالي أكثر من عشرة.

هذا العمل أول ما جرى ولدي في ميدانه، وسابق أهل زمانه، فإن طلب الغاية، وبذل الجهد والطاقة، لحق السابق، وفات اللاحق، وإن قصر فاته المراد، وسبقته الجياد، وهو ابن رجل إن سبق ابنه لم يشكر، وإن سبق لم يعذر، فليتعب نفسه، فلا راحة مع الهمة وليسهر عينه فلا نوم مع طلب الغاية، وليحذر فلتات اليد واللسان وسكرات الشبان، فإن سكر الشباب أشد من سكر الشراب، وليكتب في قلبه بيد عقله قول الأول:

خدمة السلطان والكاسات من أيدي الملاح ليس يلتثمان. فاختر رفعة أو شراب راح.

وتتحول رفته في العتاب إلى ما هو قريب من القسوة لأن أبا محمد العلوي وهو من أشرف العلويين في ذلك العهد قصر في الكتابة إليه، ولم يخصه ببر ولطف كما خص غيره، يقول في رسالة بعث بها إليه⁽¹⁾: لولا أنني لا أحب أن أفتح كتابي إلى السيد بعتاب. وأن أكلفه إلى تكلف حجة وجواب، لوجد سهامتي في الملام مسددة، وسيوفي في التقريع محذرة، وعلم أنني إذا ضربت بلساني لم تقم ضريقتي، وإذا رميت لم تنج رميتي، ورد كتاب الشريف - أيده الله تعالى - وهو الكتاب الشريف كاتباً، السعيد حاملاً المغبوط ناسخاً، المحسود راوياً، وفيه الكلام الذي لا ييليه الزمان، ولا تمجه

(1) الرسائل / 103.

الأذان، وقد أفرد السيد فيه كل واحد من أوليائه وشيعته بلطف، وتناوله من البر والتحفي بطرف، غيري، وما كنت أعلم أنني سكيت الحلبة ولا أنني ساقه الكتيبة ولا أن اسمي آخر الجريدة، ولعمري أن شيعة السيد لكبار، ولكن مثلي لا يضيع فيهم، وأعوذ بالله تعالى من الكساد، فإنه أخو الفساد، وأستجيره من أن أكون محباً غير محبوب، فإن المحبة شجرة لا تثمر إلا على عرقين، وسقف لا يبقى إلا على عمادين، وأن قوماً أنا صغيروهم لكبار، وأن أمة أبو ذر شرها لخيار....

ولكن سورة العتاب تتلاشى بعد ذلك لتحل محلها مبالغة مفرطة في بيان الآثار الناجمة عن غياب ذلك السيد:

"خرج السيد فخبا لنجم العلم، وأفلت شمس الأدب، وانهدم ركن السحاب، وفل سيف العطاء، وغارت عين الأريحية، وانثلم جانب الإنسانية، وانهزمت عساكر الكرم، وأغبر وجه السيف والقلم، ونضب ماء الحياة، وركدت ريح البهاء، وضرب بنيان العقل، وتضعضع جبل التوحيد والعقل.."

ثم ينتقل بعد ذلك ليتحدث عن كرم الصاحب بن عباد، وفضله، وفضل أصبهان وأهلها.

وهكذا يتبين لنا أن غرض العتاب، أساسه المودة، وغايته إصلاح ما فسد منها، يرأب به الصدع ويداوى به الجراح، ويكاد لا يخفى على القارئ ما فيه من شدة، وما تضمنه من امتداح النفس، وكان الخوارزمي شديد الحرص على إظهار مكانته الاجتماعية، وسطوة قلمه ولسانه، وهو مع ذلك يوازن ألفاظه موازنة دقيقة كيلا يخرج العتاب عن غايته، مع ميل واضح إلى المبالغة، فغالباً ما تكون الفكرة صغيرة، ولكنه يطورها، وينقلها من حيزها المحدود إلى حدودها القصوى، ولكن براعته في الصياغة، وأسلوبه في المزاجية وحسن تلفظه. تساعد القارئ على احتمال غلوائه، مثلما تساعد سهولة اللغة ويساطتها، وربما أحس القارئ بالضيق حين يضطر إلى مجازاة عباراته المترادفة ذات المدلول الواحد، والتي يأتي بها عادة للتهويل والمبالغة.

التهنئة:

اقتضت علاقات الخوارزمي الاجتماعية، وصلاته بأولي الأمر مشاركتهم في المسرات، وهي كثيرة ومتنوعة، وقد وجدنا في رسائله طائفة من رسائل التهنئة، في الأعياد والانتصارات والفتوحات والتولية، والتخلص من النكبات والمصائب، والشفاء من الأمراض ومع أن لهذه المشاركة أهمية بالغة في التعبير عن الأحاسيس والمشاعر إلا أنها لم تكن خالصة لها، بل كان يرى فيها، وسيلة للتذكير بنفسه، وإن لم يكن خامل الذكر، ولكن من طبع الساسة التجاهل والتغافل والتناسي وهو لا يطبق فيهم هذا الأمر، ولا يترك الفرصة تفوته، فقد عرفهم عن كذب، وعرف فيهم شدة تعلقهم بالمجاملة والتزلف والملق، ورغبتهم في الإطراء والتمدح، حتى لو لم تنطبق عليهم صفات المديح، ولو لم تمسّسهم من قريب أو بعيد.

فمن هذه الرسائل رسالته إلى صاحب الديوان يوم المهرجان وقد حوت اعتذاراً عن تقديم هدية في هذه المناسبة⁽¹⁾: 'لولا ما يمس الشيخ من الانقباض عند الهدايا جلت أو قلت، وإن كان ليس مع عطاياه جليل، كما أنه ليس مع تواضعه قليل لأفنييت في هديتي إليه الأعلاق والجواهر، ولأتعبت في حملها إليه الخف والحافر، ولسبقت في ذلك الأولين، واتبعت فيه المتأخرين، عرف الله تعالى الشيخ بركة هذا المهرجان، وأفرده بذلك عن سائر أيام الزمان ولا زال يلبس الأيام قشيبها وهو جديد، ويقطع مسافة بعدها ونحسها وهو حديد، والسلام.'

أما التهنئة بالانتصارات والفتوح، فتكاد تكون ضريبة على أولياء النعمة والحاشية ويلتزم بها الأدباء قبل غيرهم، وهم أقدر الناس على تصوير حالات الفرح والاستبشار في نفوس أبناء الشعب، وأعلم الناس في معرفة أثر الكلمة في نفوس الممدوحين، وما هم عليه من حب التزلف، والميل إلى تهويل الحروب والمعارك

(1) الرسائل / 73.

والانتصارات، وبيان آثارها النافعة على العدل والسلام، وتركيز دعائم الدولة إلى غير ذلك: يقول في رسالة كتب بها إلى أبي القاسم بن علي صاحب جيش الصّاغيان⁽¹⁾ :

لَمْ يَزَلْ يَبْلُغُنِي مَا يَرْتَفِعُ عَلَى يَدِ الْأَمِيرِ مِنَ الْفَتْوحِ الَّتِي تَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَفُوحُ مِنْهَا رَوَائِحُ الْعِزِّ وَالسَّنَاءِ، فِي أَوَّلِئِكَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ امْتَنَعُوا بِشِدَّةِ كَلْبِهِمْ، وَقِلَّةِ سَلْبِهِمْ، وَمَتَارَكَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا لَهُمْ، وَرِضَاهُمْ رَأْسًا بِرَأْسِ مَنْهُمْ، حَتَّى لَقَدْ حَقَنْتِ الدَّمَاءَ، وَسَكَنْتِ الدَّهْمَاءَ، وَأَمَنْتِ السَّبِيلَ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ، وَرَجَعَ الْنَافِرُ، وَعَمَرَ الْغَامِرُ وَاجْتَمَعَتِ الْبَيْضَةُ، وَأَغْمَدَ السَّيْفُ، وَرَكَزَ الرَّمْحُ، وَقَرَّتِ الْأُمُورُ قَرَارَهَا وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَهَذَا صَنَعَ لَمْ يَخْصُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَهْلَ أَفْقٍ دُونَ أَفْقٍ، وَلَا أَفْرَدَ بِمِزِيَّتِهِ سَكَانَ غَرْبٍ دُونَ سَكَانَ شَرْقٍ؛ إِذْ كَانَتْ النِّعَمُ فِيهِ عَمَتْ كُلَّ مَنْ عَرَفَ الْإِسْلَامَ وَفَضْلَهُ، وَعَادَى الشُّرْكَ وَأَهْلَهُ. لَا زَالَ الْأَمِيرُ يَرَى كُلَّ يَوْمٍ بِسَيْفِهِ فَتْحًا يَعْظُمُ بِهِ الْخُطْبُ، وَتَسْتَبِقُ فِيهِ الْكُتُبُ، وَلَا زَالَ الشُّرْكَ مِنْ قِتْلَاهُ، وَالتَّفَاقُ مِنْ جِرْحَاهُ، وَالْفُسَادُ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَسْرَاهُ، حَتَّى تَمَلَأَ فَتُوحَهُ كُلُّ سَامِعٍ وَنَاطِرٍ، وَتَشْغَلَ كُلُّ كَاتِبٍ وَشَاعِرٍ.

وَحِينَ وَلِيَ عَلِيٌّ بَنُ كَامَةَ وَلَايَةَ قَوْمِ خَوَارِزْمٍ بِرِسَالَةٍ إِلَيْهِ يَهْتَهُ فِيهَا، وَيُظْهِرُ فَرْحَهُ وَابْتِهَاجَهُ، وَيَمْدَحُهُ وَيَمْدَحُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَهُمْ مِنَ السِّيَادَةِ فِي مَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ، قَدْ خَضَعَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَدَانَتْ لَهُ الْمَنَابِرُ، فَهُمْ أَصْحَابُ سِيَاسَةٍ وَرِثَاسَةٍ، وَيُنْهِي رِسَالَتَهُ بِالِدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَدِيمَ لِهَذَا الْوَالِي عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ وَأَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى دَرَجَاتٍ عَالِيَةٍ، وَأَنْ يَهَيِّئَ لَهُ مِنَ الْإِنتِصَارَاتِ مَا يُمْكِنُهُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْأَقَالِيمِ، وَالْوُصُولِ إِلَى سِدَةِ الْمُلْكِ، يَقُولُ فِي رِسَالَتِهِ⁽²⁾ :

كُتِبَتْ، وَالْوَلَايَةُ الَّتِي شَرُفَتْ بِالْأَمِيرِ، وَلَمْ يَتَشَرَّفْ بِهَا، وَتَسَبَّبَتْ لَهُ وَلَمْ يَتَسَبَّبْ لَهَا، وَصَغُرَتْ قِيَاسًا إِلَى شَأْنِهِ مِنْ حَيْثُ كَبُرَتْ إِلَى مَقَادِيرِ أَهْلِ زَمَانِهِ. قَدْ بَلَّغُنِي خَبَرَهَا،

(1) الرسائل / 162.

(2) الرسائل / 164-165.

فجررت ذيلي فرحاً ورحت لا تحملني أعواد سرجي مرحاً، ووددت لو شربت البحر المحيط عليه قدحاً، وأين بالأمير عن افتراع المنابر، وقيادة العساكر، وهو من أهل بيت يحكم بالملك صغيرهم، ويشيب عليه كبيرهم، تقرأ أسمائهم المنابر النافرة، وتسكن بأعلامهم البلاد الشاغرة، لم يرضعوا إلا ثدي ولاية، ولم يروا إلا تحت راية، ولم يفتدوا إلا في حجر سياسة ورئاسة، فلا زال يترقى ذروة رتبة بعد رتبة، ولا زال اسمه يفتزع خطبة بكرة بعد خطبة، ولا زال الملك سليله ونتيجته، والعز صنيعة وخريجه، حتى يمتلك الأقاليم ويفترش السرير العظيم، فيعطي القوس باريها، ويملك الزعامة من يليق بها، ويحسن فيها.

ومما يغلب على هذه الرسائل قصرها ووحدة موضوعها، والدقة في اختيار ألفاظها ومعانيها، حتى تكاد تقترب من القصيدة، وليس بخافٍ ما فيها من مبالغة وتعمد لإظهار قدرته على السجع، ومهارة في استخدام البديع، والإتيان بالتشبيهات والاستعارات اللطيفة.

ولا أكون مجانباً للحقيقة إذا قلت أن هذا النمط من الرسائل له دلالة اجتماعية، إذ لم يكن بوسع كل من أراد أن يخاطب بها الأمراء والوزراء، وأن مكاتبتهم بهذا النمط من الرسائل يقتصر على طائفة من الناس يرتبطون بهم بوشائج وصلات تتجاوز حدود العلاقة بين الأديب والسلطان، لأن العادة في التهئة والمديح أن يقف الشاعر أو الأديب بين يدي الأمير أو الوالي ينشد، قصيدة أو خطبة بطريقة رسمية. أما هذه الطريقة من التهئات، فيلوذ بها من وجد لنفسه موقعاً متميزاً، لا يعفيه من الالتزام، ولكنه يعطيه فرصة أكبر للتعبير عن خلجات نفسه.

التعزية والمواساة

اشتملت رسائل الخوارزمي على ثمان رسائل في التعزية، وجل هذه الرسائل موجهة إلى الملوك والوزراء والأمراء، وهي تدل على قوة علاقته بهم، وما له عندهم من

مكانة، كما تعكس جوانب من العادات والتقاليد، وقد أشرنا في فصل سابق إلى تخلف نظرتة إلى المرأة الذي هو انعكاس للواقع الاجتماعي، فقد كتب إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له، وكتب إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته، وكتب إلى كثير بن أحمد يعزيه عن ابنة له، وكتب إلى الوزير ابن عباد يعزيه بوفاة أخته، وكتب تعزية إلى شخص يكنى بأبي بكر وكتب إلى أبي منصور ملك الصاغانيان يعزيه عن عمه، وكتب إلى ملك خوارزم شاه لما أصيب بابنه، وكتب إلى أبي طاهر وزير أبي علي بن إلياس بكرمان⁽¹⁾.

وقد تميزت رسائله في التعزية بقصرها، وتفردا بغرضها، باستثناء رسالته إلى صاحب بن عباد، التي استهلها بالحديث عما لقيه من تكريم وعناية، وما حظي به من إكرام على يد عامل الوزير، وما تكلفه من نعم، ثم ينتقل إلى غرض التعزية بعد امتداح الوزير والثناء عليه، ويطلب مكافأة العامل الذي أكرم وفاده.

وغالباً ما يفتح رسائله بقوله (كتابي، أو كتبت...) على عادته في معظم رسائله الأخرى، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الغرض مباشرة ويبدأ في الحديث عن أثر الفاجعة في نفسه، وما جرته عليه من هموم وما أورثته من كمد، وقد يعرج على الحياة فيمطرها بوابل من النعوت السيئة، يقول في رسالة كتب بها إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له⁽²⁾:

كتابي عن سلامة، وما سلامة من يرى كل يوم ركناً مهدوماً ولحداً ملحوداً وأخاً مفقوداً، وحوضاً من المنية موروداً، ويعلم أن أيامه مكتوبة وأنفاسه محسوبة، وأن شباك المنايا له منصوبة. أف لهذه الدنيا ما أكر صافيها، وأخيب راجيها، وأغدر أيامها

(1) انظر الرسائل 15 و 18 و 60 و 82 و 161 و 166.

(2) الرسائل / 15-16.

ولياليتها، وأنخص لذاتها وملاهيها، تفرق بين الأحياء والأحباب بالفوات، وبين الأحياء والأموات بالرفات.

ورد عليّ خبر وفاة فلان، فدارت بي الأرض حيرة، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة، وملك الوله والوهل قلبي وساوس وفكرة، وتذكرت ما كان يجمعني وإياه من سكري الشباب والشراب، فعلمت أنه شرب بكأس أنا شارب من شرابها، ورمي بسهم سوف أرمى به فبكيت عليه بكاء لي نصفه، وحزنت عليه حزناً لي شطره، وسألت الله تعالى فإنه أكرم مسئول، وأعظم مأمول أن يفيض عليه من رحمته ما يتم به سهمه في نعمته، وأن يتغمد كل زلة ارتكبها برحمته، ويضاعف له كل حسنة اكتسبها بمنته....!

ينتقل بعد ذلك إلى الترحم على الميت، وبيان مآثره وفضائله ويشجع أهله وذويه على التذرع بالصبر، والتجمل بالعزاء، وينتهي بعد ذلك إلى الدعاء والضراعة إلى الله ليغفر ذنوبه. ويصفح عن خطاياهم، ويسأله المثوبة لأهل الفقيد على جميل صبرهم...!

ولعل أبلغ رسائله، وأكثرها صدقاً، ونبل عاطفة، واشتمالاً على روح الإيمان الصادق، ومعرفة لأثر الفجيرة في النفس تلك الرسالة التي كتب بها إلى رجل يكنى بأبي بكر، فقد تجنب المبالغة، وأحسن اختيار الألفاظ والعبارات واستشهد بالشعر، وآيات من القرآن، فأحسن الاختيار، يقول في رسالته⁽¹⁾:

بلغني ما قاساه شيخي - أيده الله تعالى - في هذه المصيبة من غم يشكى، بل يبكي، وجزع يضني بل يفني، والموت خطب ثقل حتى خف، وكثر حتى قل، وهان على الباقي لما رآه بالماضي، وعلى المعزى لما رآه في المعزى، ودخل الجميع تحت قول المتنبي.

(1) الرسائل / 147.

يدفنُ بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

وشيخي أعرف بالله، وأقرأ لكتاب الله، وأروى لأخبار رسول الله من أن يتأدب
بغير أدب الله، ولا يسلم لقضاء الله، ولكن لمفاجأة المصيبة لدعة يستراح منها إلى مباحة
الصديق، وإلى تسلية الأخ الشقيق؛ فقد يأنس المريض إلى العائد، وإن علم أنه لا يملك
شفاءه، ولا يدفع بلاءه، جعلنا الله تعالى بمن يستنجز بالصبر ما وعده من البشرى،
والصلوات والرحمة والهدى، فإنه تعالى ذكره ذكر الصابرين فقال: أولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون¹ وألهمنا العزاء عما استأثر به، والشكر
على ما أخلف منه، والسلام.

وقد استطاع الخوارزمي أن يجمع في إحدى رسائله بين غرضي التعزية والتهنئة،
بأسلوب شيق رقيق، حتى ليحس القارئ أنه أمام قطعة شعرية اختيرت ألفاظها،
ونمقت عباراتها، فكأنما الحزن والفرح يتراجحان في كفة ميزان فيغلب هذا تارة،
ويغلب الآخر تارة أخرى. وقد أفاد الخوارزمي من البديع أيما إفادة، فامتلات القطعة
بالطباق والمقابلات، وحليت بالسجع. ورغم قصر الرسالة فإن الكاتب لم يستطع
التخلص من المبالغة التي حفلت بها معظم رسائله، يقول في رسالته، وهي موجهة إلى
ملك خوارزم شاه، وقد أصيب بآبنة⁽¹⁾:

كُتبت، وأنا مقسّم بين فرحة وترحة، ومرّدّد بين محنة ومنحة، أشكو جزيل
الرزية، وأشكر جزيل العطية، وأسأل الله تعالى للأمير الماضي الغفران والرحمة، وللأمير
السيد التأييد والنعمة فإن المصيبة بالماضي، وإن كانت تستوعب الصبر، فإن الموهبة
بالباقى تستنفذ الشكر، والحمد لله الذي كسر ثم جبر، وسلب ثم وهب وابتلى ثم
أولى، وأخذ ثم أعطى.

كتب على المشرق خاصة بل على الدنيا كافة أن تطمس آثارها وتظلم أقطارها

(1) الرسائل / 160.

وتهب ربح الخراب عليها، وتنظر عين الكمال إليها، حتى ذبلت شجرة المملكة،
ووهن ركن الملة، وطرف ناظر الدولة، وانثلم جانب الدعوة، ثم استدرك الله تعالى
برحمته خلقه، فرد إلى الأمير حقه، وقرت الدولة في قرارها، وعادت النعمة إلى
صاحبها، وطلعت الشمس من مطلعها ووضعت الرئاسة في موضعها، فأنا الآن بين
شكاية الأيام وشكرها، وبين حرب الدهر وسلمه، أبكي وأنا ضاحك وأضحك وأنا
باكى العين، إلا أن الضحك علي أغلب، والفرح إلي من أهم أقرب، لأن المصيبة
ماضية، والنعمة باقية.

رحم الله تعالى الماضي رحمة تهون علينا مصرعه، وتبرد له مضجعه، وتضاعف
حسناته، وتمحو سيئاته، وأعان الأمير على رعاية ما استرعاه، وألهمه شكر ما أعطاه،
وتولاه فيما ولاه، ولاه جزيل ما أولاه، وأيد بالهيبة سلطانه، وثبت بالبقاء أركانه،
وحرس من الغير زمانه.

أما رسالته إلى كثير بن أحمد، فيبدؤها باعتذار لطيف عما سيقدمه من مواعظ
ونصائح لا يرى أن مثله الحق في إسدائها إلى رجل عرك الحياة، وجربها، رجل يعود
إليه سراة القوم، حين تلم بهم الخطوب، فيجدون فيه ضالتهم. ومثل هذا التواضع
شائع في رسائله إلى أصدقائه. ومن لهم فضل عليه. وهو يرى أن المشاركة في الحن
واجبة على الأصدقاء والمحبين.

ثم يذهب إلى بيان آثار الفجعة في نفسه، وقد أصيب بسهامها وهو إذ يدرك أثر
الفجعة في النفس، يدرك أيضاً مقدار الكمد والحزن الذي يسببه السكون إليها،
والسكوت عليها، وأن على المحزون أنه يخفف عن نفسه إما بالبكاء، وهو لا يليق
بالرجال، وإما بالإذاعة والاشتكاء للإخوة والأصدقاء ويحاول الخوارزمي بعد ذلك
تخفيف الفاجعة على النفس، فيحمد الله على أنها قد أصابت الصغير دون الكبير،
وأصابت الأنثى دون الذكر، ويكاد يغبط ذويها على صغر المصيبة، وقلة شأنها إذا
قورنت بمصائبه ومصائب غيره، فمن قلب الزمان لهم ظهر الجفن فإن محنة هؤلاء صافية
صرفاً، وخالصة بحتاً.

وينتهي رسالته بالدعاء لوالدي المتوفاة، ويستمطر الرحمة والغفران على المتوفاة، يقول في رسالته⁽¹⁾:

لحن معاشر أولياء الشيخ ومتحملي أعباء نعمته، والمتسمين بسمة جملته، إذا صددت قرائحنا وفسدت أذهاننا، جلوناها بمجالسته وغسلنا عنها وضر التغير باتباع طريقته، ومسنا أنفسنا بما نراه ونتعلمه من سياسته لبطانته ثم لرعيته، وإذا كانت الحال هذه فمن المحال أن نبيع على الشيخ ما اشتريناه منه وإن فجلب إليه ما جلبناه عنه، وأن نقيم أنفسنا مقام المتعلمين، وأن نحمل إليه مواعظ بذلة كلامه منها أبرع، وبداية توقعاته منها أبداع، ولكن لا بد للمحب أن ينطق لسانه وقلمه بما يترجم به عن ودائع صدره، ويعبر عن نيته وسره، ولا بد لمن شارك ربيبه في أيام الرخاء والمواهب من أن يشاركه في أيام الغموم والمصائب ليكون قد خدمه من النوبتين، وتصرف معه في الحاليتين، وأثبت اسمه في جريدة الشركاء المساهمين مرتين، وبلغني خبر المصيبة فاغتممت بها غمين ونفذت إلي سهام الفجيعة من طريقين، أما إحداها فهي أنني أغار على هذه الجنبه الكريمة، وعلى هذه الدولة المستقيمة من أن تنفذ فيها رمية الزمان، أو تتناولها يد من أيدي النقصان.

أما رسائل المواساة، فكان يكتب إلى أصدقائه، ومعارفه حين يلزم بأحدهم عارض لا يصل حد النكبة والمصيبة، وذلك كأن يصاب بمرض أو علة، فقد كتب إلى (اردهل) رسالة حين ورد عليه خبر علته⁽²⁾، وكتب إلى تلميذ له رسالة أخرى حين ظهر عليه الجدري⁽³⁾ وكتب إلى تلميذ آخر حين ورد عليه كتابه بأنه عليل⁽⁴⁾، ولعل أطرف الرسائل في هذا الباب رسالته إلى كاتب بعض الأمراء، وقد ورد عليه كتابه

(1) الرسائل / 60.

(2) الرسائل / 55.

(3) الرسائل / 158.

(4) الرسائل / 109.

يشكو فيه الجرب⁽¹⁾. فقد حوت إلى جانب المواساة شيئاً من السخرية وقد وصف فيها علاجاً، وأبدى معرفة بالطب، وأكثر فيها من النصائح.

ومن دواعي كتابة هذه الرسائل مواساة الولاة والكتاب الذي يتعرضون بين الفينة والأخرى إلى إنقلاب سادتهم عليهم، فمن كان له حظ من سعادة، هرب بدمائه، لا يلوى على شيء، وهو سعيد بالنجاة رغم الفزع والخوف والاضطراب، ولا يجد الخوارزمي محيصاً عن الكتابة إلى مثل هؤلاء مواسياً، ومشجعاً، ومهتئاً بالسلامة ويظهر من خلالها نبل عاطفته وصفاء سريره، فمن ذلك رسالته إلى أبي الحسن الحاكم بن أبي حاتم لما هرب من نيسابور إلى بخاري⁽²⁾، بعد أن أرادوا القبض بها عليه، ومنها رسالته إلى وزير خازم شاه، لما نكب⁽³⁾ ورسالته إلى قاضي سجستان حين نكبه أميرها⁽⁴⁾.

يعمد الخوارزمي في هذه الرسائل إلى إظهار الحزن، والتألم للمصائب، وبيان مقدار تأثيره بالنازلة والعلة ثم ينتقل إلى بيان آثار العلة في المريض وطرق الوقاية والعلاج، ويهرع إلى تهوين الأمر بالإجابة عما يمكن أن يطرح من استفسارات، وما يمكن أن يلزم بذهن المواسي من أوهام لأنه يدرك أثر الوسواس في نفس المريض، فيريجه بهذه الإجابات ويجري في هذه الرسائل على عادته في ذم الدهر والأيام، ويختتمها بالدعاء والضراعة إلى الله لتخليصه مما هو فيه يقول في رسالة كتب بها إلى تلميذ له، ظهر عليه الجدري⁽⁵⁾:

وصلني خبر الجدري، فنال مني، وهيج حزني، وأراع قلبي، وأسهر عيني، وهذه

(1) الرسائل / 115.

(2) الرسائل / 43.

(3) الرسائل / 102.

(4) الرسائل / 171.

(5) الرسائل / 158.

العلة، وإن كانت موجعة، وفي رأي العين فضيحة شنيعة، فإنها إلى السلامة أقرب، وطريقها إلى الحياة أقصر لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد الممرض والمعالج تصل إليها، وإنما هي قرح نبهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة. وظاهر الداء أسلم من باطنه، وباطن الجرح أهون من كامنه، وهذه بعد، علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، وإذا كانت العلة عامة، كانت أكثر طباً ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح إلى المشاركة، وتأنس بالجماعة، كما تستوحش من الوحدة. ولعمري إنها تورث سواد العين وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار ومن المحنة إلى المحنة صروف ومقدار. وإذا أخطأت سهام الأيام جانباً وأصابت جانباً، سرت أكثر مما أساءت، لأن الحسنة فيها تستبعد وتستغرب، والسيئة منها، تنتظر وترتقب، ولست أستطيع لك غير الدعاء، ولا أكلّم في بابك إلا طبيب الأطباء ولا أصانعه عنك إلا بالثقة والرجاء، لا أسأل صحتك إلا ممن خلق علتك، وأرى لك أن تحسن ظنك بربك، وتستغفره من ذنبك، وتجعل الصدقة شفيحك واليقين طبيبك، وتعلم أنه لا داء أدوا من أجل، ولا دواء أشفى من مهل، ولا فراش أوطأ من أمل، شفاك الله تعالى وكفاك، وسلمك وعافاك، وبلغك رضاك، وحسبك به طبيباً وكفاك.

لقد امتازت هذه الرسائل بوحدة الموضوع، وترايط الأطراف، وعمق المعاني وحسن التعليل، مع العناية بالسجع والمزاوجة والمقابلة بين الجمل والمعاني. وهذه السمات تنطبق على كل رسائل المواساة. على أن رسائله إلى أصدقائه المنكوبين، تزخر بالحكمة والنصيحة، والدعاء ويستعين فيها بشعر الأقدمين وحكمهم، ولا يخفى مالتجاربه الشخصية من أثر في هذه الرسائل، وقد عرف الساسة عن قرب في الشدة والرخاء، في المودة والعداوة، يقول في رسالة كتب بها إلى وزير خوارزم شاه لما نكب⁽¹⁾

(1) الرسائل / 102.

قد امتدت مدة هذا البلاء، وأوهمتنا أن الدار دار البقاء لا دار الفناء وصار
الخطب فيها سبباً من أسباب سوء الظن بالآثام وداعية إلى قلة الاستقامة إلى الأيام،
ونصرة لفعال اللثام على الكرام. ولقد عجبت من ذلك الأمير، كيف استبدل العبيد
بالأحرار، وكيف تحول من ظهر الفرس إلى ظهر الحمار، وكأنه لم يسمع في الخبر بدل
الأعور أريد بذلك قول الشاعر:

أفريت مذ قلنا غداة أتيتنا بدلاً لعمرك من يزيد الأعور

ولما سمعت أيد الله الشيخ بهذه النادرة التي تضحك الثكلى، وتترك العقول
حيرى قلت: لا إله إلا الله. وما أعرف لها فائدة إلا أنها أنطقت الناس بالتوحيد، وإن
كان على وجه التعجب لا على وجه التهليل والتحميد، اللهم اجعلنا ممن يتعجب إذا
سمع الغرائب، فإنه إذا كثر العجب زال التعجب كما قيل:

على أنها الأيام قد صرن كلها (عجائب حتى ليس فيها عجائب)

فأما الآن فقد كان ما كان، فإني أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوباً من الصبا
ثخيناً ويولي حوادثه ركناً من التماسك ركيناً وأن تجده الأيام حراً، وأن تصفيه
الحوادث إذا أذاقته مرأً وأن يداري مع ذلك سلطانه، ويصغر بلسانه إساءته، ويكبر
أحشائه ويروض لسانه في الخلق على شكره، لئلا يجمع به في الجلوة إلى غيره، فإنما أيام
الحنة موج من تطأطأ له تخطاه ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الأدبار
بوجهه صدمته ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته، ومن طالب السلطان
بالنصفة طلب عسيراً، ومن حاسب على القليل من العتب لقي كثيراً، وآفة الناصح
آلته، وعيب الكامل في الحنة دالته، لأنه يطالب بثمن نصيحته، ويدل على صاحبه
بكفايته، ويعتقد أن طول الخدمة أكد حرمة، وأن تأكيد الحرمة عنده قرابة ولحمة.
ولعمري إن ذلك كذلك، ولكن الغضب ينسي الحرمات، ويدفن السيئات ويخلق
للبريء جنایات.

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر، لا عارٌ بما فعل الدهر

وقد يعرض الخوارزمي من خلال هذه الرسائل إلى مظاهر الظلم الاجتماعي. وظواهر الفساد، ولكنه يكتفي ببيان آثارها وشدة وقعها وتأثيرها، وكان يرى أن خير العلاج الوقاية، وأن الصبر واحتمال المكاره هما السبيل إلى الخلاص، لأن أيام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه، ففي رسالته إلى قاضي سجستان حين نكبه أميرها يشير الخوارزمي إلى ظاهرة فقدان العدالة، وظلم الولاة والحكام، الذين يأخذون بالبلاغات الكاذبة، ولا يغفرون صغيرة ولا كبيرة، فيتحدث عنها بأسلوب ساخر يلمس القارئ من خلاله مقدار السخط والغضب على هذه الظاهرة، وقد نجد العذر للخوارزمي لأنه لم يستطع التصريح بما يجول في نفسه من ضرورة مقاومة الفساد، والاكتفاء بتجنب الوقوع في الشرك: يقول في رسالته⁽¹⁾:

ولكني علمت أن والينا هذا رجل ينظر إلى الذنب الخفي، ويتغابي عن العذر الجلي، وله أذنان، واحدة يسمع بها البلاغات وهي كاذبة وأخرى يصم بها عن المعاذير، وهي صادقة، وليس بينه وبين الصفو نسب، ولا له إلى التثبت طريق ولا مذهب، ولو تعرضت لسخطه بعد ما عرفته من شططه لتحملت دونه الوزر في ظلمي، ولكنت مقدمته إلى ذمي، ومن قعد تحت الريبة ركبته، ومن تعرض للظنة نالته: ومن دعا الناس إلى ذمه رموه بالحق وبالباطل

وأقل ما ينبعث من حضوري أن يثب هذا الجواد وثبة يصون القاضي عنها، ويتذلني لها، فأكون قد ضررت نفسي ولم أنفع غيري، فإذا المحنة قد تضاعفت على القاضي ضعفين، وتكررت عليه كرتين.

ويمضي الخوارزمي في البحث عن وسيلة للخلاص، فيدخل في حوار مع نفسه ويكشف عن الصراع الدائر بين الأقدام والإحجام وبين الخوف والألم، وبين الاستقرار والأمل، فيقول:

(1) الرسائل / 171.

فلما مثلت بين تخلفي آمناً، وحضوري خائفاً، عدلت بين طرفي الرؤية ووزنت بين مقدار المحنة، فرأيت أن أميل مع السلامة وأقنع من العمل بالنية، واغتفر عهدة التفصيل لصحة الجملة، فغبت وكلي غير جسمي شاهد، وتميزت وما أنا إلا مشاهد وبعدت وقلي قريب، وباينت وقلي سهيم، وأغضيت على عين كلها قذى، وانطويت على صدر كله شجاً، وانصرفت بقلب ساخط راض، وأغمضت بجفن ضاحك باك، وقلت:

فإن تسجنوا القسرى لاتسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل
ولقد نسجت في ذم الظالم حللاً لا يبلها الماء، ولا يجففها الهواء ولا تغطي عليها
الظلماء، والمغبون من احتقب الاثم، والغارم من غرم العرض والرابع من محنته فانية،
ومثوبته باقية.

الشكوى:

يعتصر الألم قلب الخوارزمي كلما انقلب الزمان عليه أو حلت به نائبة أو أصابه مكروه، ومن يقرأ رسائله يطالعه الحزن والألم والشكوى، وسوء الظن بالأيام، فقد وصف محنه بأنها أكثر من الكثير، وأكبر من الكبير، وبأنها زائدة على محن الناس وفاضلة عن معايير العادة والقياس⁽¹⁾، لقد ذاق الخوارزمي مرارة التشرد والهوان فقد صفع، وضرب وحبس، ولاحقه موظفو الخراج، وقعدوا له كل مقعد، فصودرت أمواله، وساءت حاله، فأنطقت هذه الحياة المضطربة لسانه بالشكوى، مثلما أنطقه المرض والألم، فمن ذلك ما كتب به إلى قاضي القضاة، يشكو إليه حاله، وما صار إليه أمره بعد إصابته بالحمى يقول فيها⁽²⁾:

كتابي إلى القاضي عن سلامة من الله تعالى بها بعد اليأس منها وقربها بعد البعد

(1) الرسائل / 34.

(2) الرسائل / 169-170.

عنها، وأهلني لها أضعف ما كنت أملاً وأسوأ ما كنت عملاً، وأقبح ما كان بيني وبين الله تعالى أثراً حين انحلت عقدة الرجاء، ولحظتني عين البلاء، وأمراضني طبيب الأطباء، وبعدت علي مسافة الشفاء، وتقاصرت عن علاجي خطوة الدواء، وأفلسنت من العافية، كما أسرت من الحمى، وقربت من الآخرة، كما بعدت من الدنيا ووقفت على جسر قدامه الوفاة، وخلفه الحياة، ونظرت إلى المنية عن عين كربة نظرها، حديد بصرها، وعرفتني أن ابن آدم ضعيف التركيب، مستقضى الترتيب، دواؤه داؤه وبقاؤه فناؤه، وأعضاؤه أعداؤه، كفاه موتاً أن يبقى فيهرم وحسبه داء أن يصح ويسقم، ثم أراد الله تعالى أن يُري عبده رحمته بعدما أراه قدرته فأقامه من صرعته، واستله من مخالب علته، وأزال عنه يد المنية بعدما اشتبكت به، فله الحمد رباً عفواً غفوراً، رحيماً شكوراً يأخذ حكمة وعدلاً، ويعفو رحمة وفضلاً.

ولعل أكثر رسائله تعبيراً عما كان يحسه من ظلم، تلك الرسالة التي كتب بها إلى صاحب ديوان الحضرة، يشكو ما آل إليه أمره، وقد زحفت عليه عساكر النحس وابتلي بأمواله التي جمعها بتقحم المهالك، يقول في رسالته⁽¹⁾:

كتابي إلى الشيخ من الديوان، وأنا فيه ملتحف بالحرمان، مشتمل بالذل والهوان قاعد بين النقصان والخسران، عن يميني مستخرجان، وعن يساري وكيلان، والحمد لله على تصاريف الدهر وأحواله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، فقد أحفيت قلبي ويدي في كتيبي إلى الشيخ أخطب نظره لي، وأنشد ما أظلمت من عنايته بي، فلم يعطف علي عطفه، ولم يشغل لحاجتي طرفه، وإذا إدباري مصمت لا يسمع الدعوى ولا يقبل الرقي، وما أشكو إلا نحسي، ولا أهجو إلا نفسي، وما خصمي غير حرمانني، ولا قرني إلا زمانني. ورد علينا فلان ولحن نيام نوم الأمانة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب فينا

(1) الرسائل / 111-112.

ضرعي الدنانير والدراهم ويسير فينا سيرة لا يسيرها السُّنُورُ في الفأر، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار حتى افتقر الأغنياء، وانكشف الفقراء. وحتى ترك الدهقان ضيعته، وجحد صاحب الغلة غلته.

ومن رسائله المؤثرة التي عبر فيها عن خوفه وألمه، تلك الرسالة التي كتب بها وهو هارب على وجهه فراراً من البلعمي، فوصف ما حل به من ذل وهوان وما صار إليه حاله من فقر وجوع وألم. يقول في رسالته إلى أبي علي البلعمي⁽¹⁾: 'كتابي إلى الشيخ، وقد أمضت الأيام في حكمها، وأنفذت في صبري تجلدي سهمها...'

انتهت بي المحنة بعد فراق الشيخ إلى غاية ليس بينها وبين الموت حجاز، ولا وراءها للبلاد مجاز حتى لقد ركبت غير دابتي، وأكلت غير نفقتي، ونزلت بيتاً بكرأ، وأكلت خبزاً يسراً....

ولا يخالجننا الشك في أن صيحات الألم، وأصوات الحزن والشكوى لم تكن إلا صدىً حقيقياً لحياة الخوارزمي في ذلك العصر، ولقد كان في كل ذلك خير معبر عن حياة أدباء عصره.

النصح والتوجيه:

حرص الخوارزمي على توجيه تلاميذه ونصحهم وإرشادهم لما فيه خيرهم ومصلحتهم وكان يرى في ذلك واجباً من واجباته، وقد استمد من تجربته، ومن تجارب الماضين مادة غنية مليئة بالحكمة، يبسط لسانه فيها لتلاميذه، فلا يجدون غضاضة في اتباعها، لأنها تعبير صادق عن مشاعر الود والمحبة، وأنى للمرء أن يجد نصيحة أخلص من نصيحة أستاذه، وتوجيهاً أسلم من توجيه شيخه ومؤدبه.

ولم يقف الخوارزمي عند حدود النصح والتوجيه التي يملها الارتباط بمجلسه،

(1) الرسائل/ 30.

ولكنه كان يلاحقهم بعد انتقاهم إلى الحياة العملية، كما جاء في رسالته إلى تلميذ له
قلد خلافة البندار بطوس⁽¹⁾:

وشبيه بذلك ما جاء في رسالته إلى وكيل الوزير ابن عباد بأصفهان حين ولي
سوق الطعام⁽²⁾:

كتابي وقد علم الله تعالى أن أمرك مستول على أفكاري، وشاغلي عن ساعات
ليلي ونهاري، فإنك بصدد شغل إن كفته لم تشكر، وإن عجزت عنه لم تعذر، إذ كان
الإحسان من شرطك، والإساءة غير مضمونه بك، والذي أراه لك أن تقسم لكل
ساعة حقاً من نفسك، وتعرف إلى كل وقت طائفة من شغلك، ولا تبت ليلة إلا وقد
أقمت وظيفة يومها، ولا تمر بك ساعة إلا وقد توفرت عليها بقسمها، ولا تؤخر عمل
اليوم إلى الغد، ولا تهمل نفسك في شغل السبت إلى الأحد، فإن الأشغال إذا تزاخت
أعمت الناظر، وشغلت القلب وال خاطر، وبلدت الكافي والماهر.

الشفاعة:

رغم أن حياة الخوارزمي قد أحيطت بظروف قاسية واتسمت بطابع الاضطراب
إلا أنها لم تخل من حالات استقرار نتيجة العلاقات الحسنة التي تربطه بأولى الأمر حتى
إذا كان له موقع في نفوس هؤلاء هرع إليه المتظلمون لإزالة ظلاماتهم، إذ يجدون فيه
شفيعاً مسموع الكلمة، محفوظ المكانة، ولا يجد بداً من الكتابة إلى أصدقائه من الولاة
والحكام، الذين كان يحس أنهم لا يردون له مطلباً.

لهذا النمط من الرسائل أسلوب خاص، يتطلب لباقة وفطنة، وحسن توسل
وكان عليه أن يخلط الشكر بالمديح، والاعتزاز بالتدلل، وقد استطاع الخوارزمي أن

(1) الرسائل / 26-27.

(2) الرسائل / 45-46.

يجمع كل ذلك في رسالته التي كتبها إلى أبي عمر المكندي وزير صاحب جرجان حيث يقول⁽¹⁾:

وعدّ الشيخ يكتب على الجلمد، إذا كتب وعد غيره على الجلمد، ولكن صاحب الحاجة سيء النظر بالأيام، مريض الثقة بالأنام لكثرة من يلقاه من اللثام، وقلة من يسمع من الكرام، وفلان نفّض عندي غرائر شكره، واستعان بي على تحمل ما أثقله من أعباء بره، فاعلمته أنني أثقل بنعمة الشيخ ظهراً، وأضيق منه بما لزمني أداؤه صدرأً، وأنشدته شعراً.

أعنين هلاً إذ كلفت بها كنت استعنت بضارع العقل
أقبلت ترجو العون من قبلي والمستعان به لفي شغل
ثم إنني تذممت أن أرد أخواني في ماعون طلبوه من لساني فأصحبته هذه
الأحرف والشيخ يلمظه بالزيادة حلاوة الشكر، ويعرفه فعلاً لا قولاً حميد عاقبته، وما أفاض فيه من جميل النشر، فمثله عرف الشاكرين الصنعة، ونفق بينهم هذه السلعة.

الرسائل الدينية

لعل أبرز تلك الرسائل هي الرسالة التي بعث بها إلى شيعة نيسابور⁽²⁾، وهي رسالة تبين مقدار التزام الخوارزمي بالمذهب الشيعي الذي كان يعتنقه، وقد فصلنا القول في ذلك في الفصل الثاني، ولعل أبرز ما يميز هذا النمط من الرسائل هو التعصب الشديد الذي ينطلق من عاطفة جياشة مؤمنة بكل قيم هذا المذهب وتراثه، والحق على خصومه وأعدائه.

ومن يقرأ رسائله إلى أبي محمد العلوي⁽³⁾، يحس فيها أثر العاطفة الدينية

(1) الرسائل / 13-14.

(2) الرسائل / 130-139.

(3) انظر الرسائل / 9 و 32 و 167 و 174.

والمذهبية التي كانت تمد الخوارزمي بثقة عالية بالنفس ترفعه عن أضرار الحياة المادية، لتضعه في صف أصحاب العقيدة الذين لا يتوانون لحظة في التضحية من أجلها، ومن الرسائل الدينية تلك الرسالة التي بعث بها إلى فقيه في تعهد مسجد⁽¹⁾:

أحق الأماكن أن يصاب ولا يهان، وأولاهها بأن ينحى عن مدرجة الاختلال ويرفع عن أن تتناوله يد الابتذال، مكان بني ليجمع شمل التعبد، ويضمن نشر التهجد وترفع منه الحوائج إلى من لا يضجر من السؤال، ولا يتبرم بكثرة السؤال، وهو الكبير المتعال فإن صيانة هذا المكان صيانة الدين، بل صيانة الإسلام والمسلمين وكبت الكفر والكافرين، وما ظنك بموضع هو بيت من بيوت الله، ومظنة لقراءة وحي الله تصف فيه الأقدام بين يدي الله، وتميز فيه أولياء الله من أعداء الله، وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهو مجلس من مجالس الأخبار، ومسكن من مساكن الأبرار، وحصن من حصون المسلمين على الكفار... الخ.

هذه هي أهم الأغراض التي كتب فيها الخوارزمي، وقد تكلمنا عنها بشيء من التفصيل ولعل من المفيد أن نشير إلى أن الخوارزمي قد كتب في عديد من الأغراض فمن ذلك طلب المكاتبة والمواصلة والتشفي والتشوق والاستعطاف وقد أثرنا الاقتصار على دراسة الأغراض الآنف ذكرها لأهميتها وشيوعها في رسائله.

الخصائص الفنية:

تطورت الرسائل الفنية في القرن الرابع الهجري تطوراً كبيراً وقد ساعد على تطورها ظهور عدد من الكتاب الذين وجدوا في النثر طواعية وقدرة في التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم، تفوق قدرة الشعر، فعمدوا إلى التفنن في صياغتها ووسعوا دائرة أغراضها، وطوروا من أساليبها، كالصاحب بن عباد والخوارزمي والبديع الهمداني.

(1) الرسائل / 163.

وبالإضافة إلى ظهور هذه الفئة من الكتاب فإن هنالك عوامل أخرى ساعدت على هذا التطور، ولعل أبرز هذه العوامل هو التنافس الذي كان قائماً على أشده بين كتاب الدواوين الذين أصبحت لهم منزلة اجتماعية وسياسية مرموقة ويختار منهم الوزراء والولاة.

ولم يكن العامل الحضاري أقل تأثيراً من سابقه، ذلك أن ظروف الحضارة وتوسع الموضوعات الإنسانية وتطور مدارك الفرد من الأمور التي لا بد أن تعكس نفسها على الأدب، وأن تؤثر في أذواق الناس وثقافتهم، مثلما تؤثر في سلوكهم.

وقد تميزت الرسائل الفنية في هذه القرن بمجموعة من الخصائص والسمات كالالتزام بالسجع، والاهتمام بتجميل النص واستخدام المحسنات البديعية، والميل إلى المبالغة والإطناب، والاستشهاد بالشعر، والأمثال والآيات القرآنية.

وستتناول في هذه الدراسة أبرز الخصائص الفنية التي امتازت بها رسائل الخوارزمي سواء في شكلها أو مضمونها.

ولا شك أن الالتزام بهذه الخصائص وغيرها مسألة نسبية تحددها شخصية الكاتب الأدبية، ولعل هذه الفوارق هي التي تطبع شخصية الكاتب وتبين أصالة فنه وصدق إحساسه وعمق تجربته.

مقدمات الرسائل ونواتيمها:

ليس للخوارزمي منهج واحد في افتتاح رسائله، وإن كان الطابع العام فيها خلوها من عبارات الثناء والتفخيم والتعظيم وكلمات التحية المتعارف عليها، كما أنها تكاد تخلو من التحميدات التي درج كتاب الرسائل الديوانية والإخوانية على الابتداء بها في العصور السابقة، وإن ما جاء منها في رسائله إنما يأتي بعد مقدمة أخرى وأنه لم يلتزم بها في أغلب رسائله، فمن ذلك قوله⁽¹⁾:

(1) الرسائل/ 106.

كتابي عن سلامة لا أتهنا بها إلا بسلامة الشيخ، والحمد لله تعالى على سلامته، وعلى سلامتي في جملة. وصلى الله على سيدنا محمد النبي، وعلى عترته.
وكقوله⁽¹⁾: كتابي - أطال الله بقاء سيدي - من حضرة الوزير عن سلامة بسلامته مشبكة، وحال بجميع أحواله متمسكة، والحمد لله على النعمة عليه أولاً، وهو حين يحمد الله على سلامته، وسلامة من يكتب إليه فإنه ليجاري بها سنن الكتاب ويتابع طريقته، ويجعل منها مصدراً للتفاؤل، يقول في إحدى رسائله⁽²⁾:
"وإني إن أصدرت كتابي إليه بالسلامة، مع أن قلبي غير سليم من الألم ولا صحيح من ألوان السقم، فإنما أريد بذلك التفاؤل للكتاب، واتباع رسوم الكتاب".
ويغلب أن يفتح الخوارزمي رسائله بقوله "كتابي" أو كتب، ليتقل بعد ذلك إلى المضمون، وذلك نحو قوله⁽³⁾:

كتابي إلى الشيخ، وأنا في خمار شرطي من الدهر.

كتابي ولو استقبلت من أمري ما استدبرت.

وقوله⁽⁴⁾: كتبت إلى الأستاذ معاتباً مرة، ومستعجباً كرة.

كتبت وقد أذن الدهر بالعتبي بعد العتب وقد يبدأ رسائله بالمضمون مباشرة، وكان الحديث متصل بينه وبين المرسل إليه، فكأنما هو جالس أمامه يخاطبه، كتب إلى أحد تلاميذه فقال⁽⁵⁾:

بلغني أنك ناظرت، فلما توجهت عليك الحجة كبرت.

(1) الرسائل / 85.

(2) الرسائل / 101.

(3) الرسائل / 8 و 10.

(4) الرسائل / 23 و 89.

(5) الرسائل / 12.

وكتب إلى تلميذ آخر له⁽¹⁾:

'فلا ترتفع علينا لشغل وليته'

وقد يبدأ رسائله بيت أو بيتين من الشعر يأتي بهما على سبيل الحكمة والمثل نحو قوله⁽²⁾:

'ما زلت أنشد- أيد الله الحاكم- قول الأول:

رُبَّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ جُرْ نَفْعاً تَرْتَجِيهِ
خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ

فأنظر إلى تنزيله، ولا أقف على حقيقة تأويله.

وكثيراً ما يبدأ رسائله التي يرد بها على رسائل الآخرين بقوله: وصل كتابك أو وصل كتاب الشيخ، أو وصل كتاب الأمير، أو وصل كتاب سيدي.

ومن الواضح أن أسلوبه في مقدمات رسائله لم يرتبط بغرض الرسالة، وإنما هي مقدمات مشتركة بين سائر رسائل التهئة والمديح والعتاب، ولم يميز بها طبقة أو فئة من غيرها، وكل ما في الأمر أنه كان يستخدم عبارات وصفية دارجة، كالشيخ والسيد والوزير والأمير، وغالباً ما يخاطب تلميذه بلفظه 'ولدي'.

أما خواتم الرسائل، فغالباً ما تنتهي بالدعاء الذي يستمد معانيه من طبيعة الغرض الذي حبرت فيه الرسالة فهو في معرض الرثاء يستمطر الرحمة والغفران للمتوفى، ويستلهم الصبر والعزاء لآله وذويه. وهو في معرض الشكر والثناء ضراعة إلى الله لإدامة النعمة، وزيادة الرفعة وهو في المواساة ابتهاج إلى الله لرد كيد خصوم إلى محورهم وإعادة الأمور إلى مجاريها، أو طلب للاعانة على التخلص من المرض أو المصيبة.

(1) الرسائل/16.

(2) الرسائل/17.

وقد يخرج على هذا المؤلف أحياناً، ويأتي بدعاء تحس فيه رغبة في الإغراب كما جاء في رسالته إلى أبي الحارث ملك الجبل، وهي رسالة شكر ومدح وثناء فهو يقول⁽¹⁾:

"ولقد سلك الأمير من الكرم طريقاً يستوحش فيها لقلّة سالكيها، وعمر للمعروف داراً لا يستأنس بها لعدم ساكنيها، وبيته في قفارها لدروس آثارها، وانهدام منارها، أعانه الله على صعوبة الطريق، وقلّة الرفيق، وألهمه صبراً يهون عليه احتمال المغارم، ويقرب عليه مصافاة المكارم، فبالصبر تنال العلى، وعند الصباح يحمد القوم السرى".

وقد يعبر الخوارزمي في دعائه عن مقدار برمه بالعادات والتقاليد التي كان يضيق بها ذرعاً، فيضرع إلى الله أن يخلص المجتمع منها، فمن ذلك قوله⁽²⁾:

ألهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل، ويموت النقص كما مات الفضل".

وشبيه بذلك قوله⁽³⁾: والله تعالى أسأل أن يهب ريح الكرم، ويطلع نجم الهمم، ويجلو عن خلقه صبدأ هذه الأخلاق والشيم بمنه وكرمه".

ولعل من المفيد أن نشير إلى فلسفة الدعاء عند الخوارزمي:

فهو يدرك أن الدعاء حيلة من لا حيلة له، وأنه دليل على الضعف والعجز وأن الإنسان إنما يلجأ إلى الدعاء لضيق ذات يده، يقول في إحدى رسائله⁽⁴⁾:

"ولكن الدعاء غاية من ضاق إمكانه ولم يساعده زمانه، وقطعت من مسافة همته خطوة جدته، وبه يكافى من قلت بسطته، وعجزت قدرته".

(1) الرسائل / 114.

(2) الرسائل / 129.

(3) الرسائل / 91.

(4) الرسائل / 55.

وقد ينهي الخوارزمي رسائله بأبيات من الشعر أو آية قرآنية أو بطائفة من الحكم والأمثال. كما يختتم رسائله بعبارة 'إن شاء الله' ⁽¹⁾، وقد ⁽²⁾ تنتهي بعبارة 'والسلام' ⁽³⁾.

وبذا يتضح لنا أن الخوارزمي لا يميل إلى منهج محدد في الإبتداء والانتهاى وأن لا تصنع فيهما.

الالتزام بالسجع:

اتسم أسلوب الخوارزمي في رسائله بالالتزام بالسجع حتى أنه صار خصيصة من خصائص فنه النثري، ولعل من الصعوبة أن تعثر للخوارزمي على فقرة خالية من السجع، وليس الأمر غريباً فقد كان واحداً من الذين اختطوا هذا السبيل، فكانوا رأس مدرسة أدبية عنيت بالسجع والمحسنات البديعية والزخرفة، فما يذكر الميل إلى الصنعة والزخرف إلا ذكر الخوارزمي، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمداني والصابي والثعالبي، يقول الدكتور زكي مبارك ⁽⁴⁾:

'وكتاب هذا العصر ينقسمون إلى ثلاث طوائف طائفة تلتزم السجع التزاماً مطلقاً، ولا تخرج عنه إلى في قليل من الأحيان، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان الهمداني والخوارزمي والثعالبي والصابي والميكالي وابن عباد وابن دريد وابن نباتة وابن وشمكير.'

ونستطيع أن نقرر أن إلتزام الخوارزمي بالسجع وغيره من المحسنات لم يصل إلى الدرجة التي بلغها بديع الزمان والصاحب ابن عباد في رسائلهما. فالسجع عند

(1) أنظر الرسائل / 152 و 158 و 128.

(2) الرسائل / 165-167.

(3) أنظر الرسائل / 17 و 23 و 55 و 61.

(4) النثر الفني في القرن الرابع / 138.

الخوارزمي حلية يجمل بها مقطوعاته الأدبية، ولكنه لا يعمل في صناعتها ولا يذهب بها مذهباً بعيداً كما فعل البديع الذي عدها عنصراً مهماً من عناصر فن الكتابة، يقصده الكاتب قصداً، ويتفنن فيه ما شاء، ولم يعد السجع في مقاييسه ذلك التوافق الصوتي بين المقاطع الأخيرة من الجمل نتيجة التشابه في الحروف والحركات ولكنه مذهب آخر قوامه المغالاة والإفراط في الإلتزام بالسجع، والتنويع والتفنن في اختراع الألوان الجديدة. حتى أن بديع الزمان الهمداني أخذ على الخوارزمي اقتصاره على ذلك النمط المتعارف بين الناس، فقد جاء في المناظرة⁽¹⁾ أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، المتناول بكل يد وفم.

وقد أعجب الخوارزمي بالسجع أيما إعجاب، وعبر عن إعجابه بقوله⁽²⁾: قرأت الفصل المسجّع، فشغلني الاقتباس منه عن الجواب عنه، ولقد عمد السيد إلى كل سجة منتخبة في زاوية ملقاة في ناحية، فألجمها بلجام، وقادها بزمام.

على أن من الواضح أن الخوارزمي كان يميل إلى السجة القصيرة، وهي التي تقع في جملتين قصيرتين، لينتقل بعدها إلى سجة أخرى، ولا شك أن هذا اللون من السجع لا يحتاج إلى كثير من الاحتشاد والاستعداد، وأنه يحقق للقارئ فرصة الانتقال بين أنغام عذبة تبعث على الحركة ولنقرأ هذه الرسالة التي كتب بها إلى أحد تلاميذه⁽³⁾:

"وصل يا ولدي كتابك القصير لنجد، المختصر جداً، وفهمته، ذكرت أنك مشتاق إلى اللقاء، وستبطن في ذلك القدر والقضاء، والمسافة بيننا صغيرة البقعة ضيقة الرقعة، إذا ذرعت بذراع الهوى، ومسحت بيد الذكرى، وهي بعيدة إذا سمت بيد التسلي، ونظر إليها بعين التغافل والتناسي، والبعيد قريب إذا التقى العزم والتوفيق، كما أن

(1) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان/ 76.

(2) الرسائل/ 34.

(3) الرسائل/ 145-146.

القريب بعيد إذا التقى التفريط والتعويق، فلا تتعلق بأذنب العلل، لو صح منك الهوى أرشدت للحيل.

وقد يخرج الخوارزمي عن هذه القاعدة، فيكرر سجعاته في جمل متعددة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى رغبته في المبالغة التي تدفعه إلى التثنية نحو قوله⁽¹⁾:

لو رأيتك امتطيت السماكين وانتعلت الفرقدين، وملكت الخافقين، واستعبدت الثقلين، وتناولت الشمس والقمر بيدين، ووطئت الفلك برجلين ما بلغت ما أريد وكنت استزيد وأستعيد.

ولم تقتصر عناية الخوارزمي بالسجع في أواخر الكلمات ولكنه كان يذهب أحياناً إلى الموازنة بين الجمل فيوفق بين ألفاظها وأوزانها، فكان كل كلمة في الجملة تقابل غيرها في الجملة الأخرى، فالفعل يقابله فعل وحرف الجر يقابله حرف جر، والفاعل يقابله فاعل، وحروف الكلمات متساوية متناسقة، والحركات متشابهة أو متقاربة فمن ذلك قوله في وصف الصاحب⁽²⁾:

حتى إذا علم الله صدق نيته، ومضاء عزيمته، ورآه لا يريد إلا رضاه، ولا يسلك إلا طريق هداه، جمع عليه القلوب المتعادية، وألف له الأهواء المتباينة، فدخل الجميع دين الله أفواجاً، وتقاطروا على استجابة الدعوة فرادى وأزواجاً، فلم يبق في نواحي سلطانه أحد من النواصب، إلا وقد غاصت عليه الرحمة وخلصت له الدعوة، فهو متوجه بالحلم قد نبغ أو متوجه في العلم قد بلغ.

ومع أن الطابع العام لسجع الخوارزمي لا يخرج عن المألوف، ولا يدفع بقارئه إلى النفور لوضوح معانيه وبساطة أفكاره، وسهولة ألفاظه، فإنه لم يسلم من المبالغة التي تقتضيها طبيعة الرسالة، فقد كتب إلى أحدهم رسالة وصفها بأنها مزحة خفيفة،

(1) الرسائل / 206.

(2) الرسائل / 178.

وإن كانت ثقيلة عليه، وظريفة وإن كانت خفيفة لديه ومحبية إلى سامعها وإن كانت بغیضة عليه فقال⁽¹⁾:

'فلان قد أبطأ علي، فليت شعري، هل الريح قلعت أم الأرض ابتلعت أم الأفق نهشته، أم السباع استغوته أم الشياطين استهوته، أم أصابته بائة، أم أحرقته صاعقة أم رفته الجمال، أم اغتاله الجمال، انتكس على ظهر جمل أم تدحرج من رأس جبل، أم وقع في بير، أم انهار عليه شفير... الخ.'

ومن الواضح أن هذا النمط من السجع متعمد تحس فيه أثر الصنعة على غير ما جرى عليه الخوارزمي.

المحسنات البديعية

لم يقتصر اهتمام الخوارزمي بالسجع وحده، فقد اهتم بالمحسنات البديعية التي تزين النص وتجمله، وتلبسه من الوشي قشياً، وتهبه من الجمال رونقاً وطلاوة، ليفصح عن القدرة المبدعة في الإتيان بكل ما هو طريف.

وقد انصب اهتمام الخوارزمي على الطباق أكثر من غيره من المحسنات، حتى لا تكاد تخلو منه مقطوعة من رسائله ولعل مرد ذلك يعود إلى رغبته في إبراز معانيه وإظهارها قوة الدلالة، شديدة التأثير، ففضيلة الكرم تستمد عناصر قوتها من خسارة البخل والشح، وفضيلة الشجاعة والمروءة تستمد عظمتها من ضعة الجبن والذلة والخضوع.

ولنأخذ هذه القطعة من رسائله، ونرى كيف أن الطباق ساعد على إبراز المعاني التي أرادها، رغم أنه سار فيه على غير مقتضى العادة:⁽²⁾

'... وأنا أكسب الثراء لأتخذ به الأصدقاء، والصديق هو العقدة التي لا يجلها

(1) الرسائل / 88.

(2) انظر الرسائل / 68.

الدهر، والذخيرة التي لا يفسدها الخير والشر، والكنز الذي لا ينقص منه الغنى والفقر، وسائر الأعلاق تفقد من حيث توجد، وتحل من حيث تعقد، ويدب إليها الفناء كما يتفق لها البقاء، ويتسلط عليها الأعداء، كما يحسد عليها الأصدقاء وتمسها النار فتحرقها، ويصيبها الماء فيغرقها، فالذهب والفضة حجران يغنيان إن حركا، ويفسدان إن تركا، والضياع والعقار جمادات وموات، لا ترحل مع صاحبها إن رحل ولا تنزل بنزوله إن نزل، يتحكم فيهما الحدثان، ويعمل عمله الزمان، فإذا حاربت الأيام سقم، وإذا سالمته هرم.

ولعل شغفه بالمقابلات المعنوية هو الذي حدا به إلى استخدام الطباق لأنها تستدعي أول ما تستدعيه تقابلاً بين الألفاظ واختلافاً في الدلالة مثال على ذلك قوله⁽¹⁾:

أعلم أن كفران النعمة، لو أحله الشرع لحرمه الطبع، ولو جاز عن طريق الملة والديانة لحظر عن طريق المروءة والصيانة، فإن للمحسن من الله عيناً كائلة لا تنام وأن وراءه من واقية الإحسان ركناً منيعاً لا يرام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حظ الجناس في رسائل الخوارزمي هو أقل بكثير من الطباق، وأن أغلب رسائله تخلو من الجناس، سواء الجناس التام الذي تتشابه فيه حروف الكلمة وحركاتها أو الجناس الناقص. ويعود السبب إلى أن الخوارزمي لم يكن مغالياً في الاهتمام بالمحسنات. وأنه أخذ منها بطرف ولم يبلغ فيها مبلغ المتأخرين الذين صارت الصنعة همهم الأول والأخير، فأخذوا يتأنقون في اختيار الكلمات المتماثلة في حروفها وحركاتها، لما أحسوه من وقع موسيقي، ولما حسبوه براعة وتفناً. ومن أمثلة ما جاء في رسائله قوله⁽²⁾:

(1) الرسائل / 5.

(2) الرسائل / 53.

"سألت فلاناً عن جسم سيدي في صحته وعلته، وفي ضعفه وقوته فعرفني ما سرّني، فلا زال صحيح الخلق، كما هو صحيح الخلق وقوي الجسم كما هو قوي الدين والعلم."

ومن ذلك قوله⁽¹⁾:

"ما تأخر جواب كتاب شيخي جهلاً بحقه اللازم الواجب ولا إنكاراً لأفضاله المتراكم المتراكب."

التضمين والاستشهاد بالشعر:

عمد الخوارزمي إلى تضمين رسائله بأبيات من الشعر يختارها لقوة دلالتها، ومتانة تركيبها، وحلاوة نغمتها، فيوشح بها رسائله فكأنما هي حلية تضاف إلى سائر الحلى التي دأب على تجميل نصوصه الشعرية بها.

ولقد أجاد الخوارزمي في اختيار الأبيات الشعرية التي ترفد معانيه، وتسندها، وكان له ما أراد من جمال الصنعة، فعبّر عن رهاقة ذوقه، وقدرته على الاستفادة من الشعر الذي شغف بحفظه، وقد جنح الخوارزمي إلى الاستشهاد بشعر الأقدمين، ولم يستشهد إلا قليلاً بأشعار المحدثين، وهو أمر يتسق مع ما ذهبنا إليه في تحديد اتجاهه الشعري.

ولم يكن للخوارزمي منحى واحد في الاستشهاد، فتارة يستهل بها رسائله، ولا تلبث أن تجد رسائل أخرى ختمت بالشعر، ولكن أغلب استشهاداته وتضميناته تأتي في عرض الكلام.

وقد يستشهد الخوارزمي بيت واحد أو بيتين، وقد يستشهد بشطر بيت، وقد يستشهد ببعض المقطعات، ولكن الغالب فيها هو البيت أو البيتان.

(1) الرسائل / 21.

ونستطيع أن نقرر حقيقة إكثار الخوارزمي من الاستشهاد بالشعر إلى درجة المبالغة أحياناً، فقد استشهد بالشعر سبع مرات في رسالة واحدة. وساق مجموعة من الأبيات استدلالاً على فكرة واحدة كما جاء في رسالته إلى أبي محمد العلوي: حيث يقول:⁽¹⁾

وتعرفت فيه من خبر سلامته أدامها الله له، ولي به، ما أوجب صيام أيام دهري، وقيام ليالي عمري، على أن تكون الأيام في طول يوم يزيد بن الطثرية، والليالي في وزن النابغة الذبياني أردت بقول ابن الطثرية.

ويوم كظلّ الرمح قصر طوله

ويقول النابغة:

وليل أقاسيه بطيخ الكواكب

لا بل على شريطة أن تكون الشمس كشمس ذي الرمة التميمي، ونجم الليل كنجم العباس بن الأحنف، أردت بقول ذي الرمة.

والشمس حيرى لها في الجو تدويم

ويقول العباس بن الأحنف الحنفي:

والنجم في جو السماء كائه أعمى تحير ما لديه قائد

لا بل على شريطة أن تكون صفة الليل كما قال خالد الكاتب:

وليل الحب بلا آخر

وصفة النهار كما قال الآخر:

ويوم كأن المصطلين بجره وإن لم يكن جمر قعود على جمر

(1) الرسائل/ 125.

ونظير ذلك ما جاء في رسالته إلى رئيس بهراة⁽¹⁾، فقد استشهد بخمسة أبيات من الشعر ليصل إلى نتيجة مفادها أن دفن البنات من المكرمات.

وظاهرة الاستشهاد بالشعر تفوق ظاهرة التضمين في رسائله، فهو في حالة الاستشهاد يذكر اسم الشاعر⁽²⁾، وقد يوميء إلى عصره⁽³⁾، كأن يقول: 'أنشدت قول الأول، أو قال الأول، أما التضمين فيكون بالانتقال المباشر من الشر إلى الشعر، ويكون له حينها ميزة المثل والحكمة، فلا يذكر اسم الشاعر، فكأنه يريد أن يعطي للبيت صفة المثل الذي لا ينسب.

ولا شك أن للتضمين من قوة الدلالة ما لا يصل إليه الاستشهاد، وكان لحذق الخوارزمي، وسخاء حافظته، ومتانة لغته ما ساعد على استقرار هذا الضرب في كتاباته الثرية، فكأنما هي من صلب ما يكتب، وركن أساسي من البناء الفني للرسالة. فمن جميل تضميناته ما جاء في رسالته إلى أبي إسحاق الحاجب حيث يقول⁽⁴⁾:

فلا غضاضة عليك في امتداد يد الدهر إليك:
فإن أمير المؤمنين وفعله كالدهر لا عار بما فعل الدهر
ومن ذلك قوله⁽⁵⁾:

وليت شعري ما الذي منعه من صلة لا تضره وتنفعني وعن تواضع لا يضعه ويرفعني
ولربما بخل الجواد وما به بخل ولكن سوء حظ الطالب

(1) الرسائل / 20-21.

(2) انظر الرسائل / 28، 29، 70 على سبيل المثال.

(3) انظر الرسائل / 21، 43، 48.

(4) الرسائل / 8.

(5) الرسائل / 22.

وقد أفاد الخوارزمي أيما إفادة من محفوظه من الشعر فعمد إلى حله، والإفادة من معانيه في رسائله. وهو لا يجد حرجاً من الإتيان بالآيات التي أخذ منها معانيه وتلك ظاهرة لا تقتصر على الشعر وحده، ولكنها تمتد إلى كافة النصوص الثرية الأخرى، فلو قرأنا هذه المقطوعة من رسائله لوجدناها تتضمن معاني الآيات التي تلتها بعينها⁽¹⁾:

أنت - أيدك الله - أغنى أهل خوارزم، يوم تصير أفقرهم وأكبرهم ساعة تظن أحدهم، وهو الوزير يوم يعزل، والمصون ساعة يبتذل، والكبير بنفسه، وإن انفرد عن غيره، المستأنس بفضله، وإن استوحش من دهره.

إن الأمير هو الذي يُضحى أميراً يوم عزله
إن زال سلطان الولاية كان في سلطان فضله
ومثل ذلك قوله⁽²⁾:

وَحَقُّ الدَّهْرِ أَنْ يَكْفَ، فَقَدْ بَالِغٌ فِي الْعِقَابِ، وَتَنَاهَى فِي الْعِتَابِ، وَحَقُّ لَصْرُوفِهِ أَنْ تَتَصَرَّفَ، فَقَدْ أَشْفَتْ وَشَفَتْ وَاكْتَفَتْ وَكَفَتْ، وَزَادَتْ عَلَى مَا كَانَ فِي الْإِمْكَانِ وَأَوْفَتْ، وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَخَاطِبَهَا بِقَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ:

يَا مَحْنَةَ الدَّهْرِ كُفِّي إِنْ لَمْ تَكُفِّي فَخَفِّي
قَدْ آَنَّ أَنْ تَرْحِمِنَا مِنْ طَوْلِ هَذَا التُّشْفِي

وقد ينظم الخوارزمي على غرار بيت استشهاد به، فيأخذ نسق البيت، وتداخل معانيه، لكي يتمم الأفكار التي أتى بها:
فمن ذلك قوله⁽³⁾:

(1) الرسائل / 29.

(2) الرسائل / 28.

(3) الرسائل / 70.

وتأبى صروف الدهر أن تأتيني إلا مزدوجة في قران، وذلك أني صمت عن
النظر إلى طلعة سيدي، شهري رجب وشعبان، وصمت عن الطعام والشراب شهر
رمضان. قال الخليل الشامي:

سُكران: سكر هوى وسُكر مُدامة فمتى يفى فتى به سُكران
وأنا أقول:

صومانِ صوم نوى وصوم عبادة فمتى يعيش فتى له صومان
وقد يستشهد الخوارزمي بأبيات من الشعر لينقدها أو يعارضها، ويبين خطأ
الرأي فيها، كما فعل⁽¹⁾ حين تصدى لقول المتنبي من قصيدته في رثاء أخت سيف
الدولة:

يعلمن حين تُحيى حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشئب
وقد أشرنا إلى ذلك في السابق، أو كما جاء في رسالته إلى أبي القاسم الداودي
حيث يقول⁽²⁾:

ما زلت أيد الله الفقيه أورد على قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:
يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم إلا ثلاث خصال
ماء الفرات، وطيب ظل بارد وسماع محستين لابن هلال
فأقول: هلا حسد أهل العراق على المتصرفين أو الرافدين... وما الذي خالف
به إلى أن حسدهم على ظل هو مشترك بين سائر البلدان، وعلى قيتين كسائر القيان،
بكل زمان، وفي كل زمان. حتى حدثت نفسي بمناقضته، وحملت خاطري ولساني على
معارضته....

(1) الرسائل / 84.

(2) الرسائل / 48 - 49.

وخلاصة القول أن الخوارزمي وجد في الشعر مادة ثرة تعينه على رفد معانيه وأغراضه، كما وجد فيها حلية يرصع بها رسائله، ويدل بها على قوة حافظته، وأصالة معرفته.

تضمين الرسائل بالأمثال والحكم

عني الخوارزمي بالأمثال عناية شديدة، فكثر ورودها في رسائله حتى لا تكاد تخلو منها رسالة من رسائله، ولا ريب أن عنايته بتزيين النص، وتزويقه هي التي دفعته إلى هذا الأسلوب. فمن المعروف أن الأمثال والحكم تمتاز بجودة سبكها، وأحكام صنعتها، ومتانة تركيبها وتركيز معانيها، فإذا ما أدخلت في نص أدبي زادت رواء وجالاً، وأضفت على معانيه قوة المثل والحكمة وأضافت إليه خلاصة تجارب الماضين.

وقد انتشرت هذه الظاهرة بين كتاب الرسائل في القرن الرابع، وحفلت بها رسائل كبار الكتاب، كالصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني. وغيرهما⁽¹⁾، وقد فاق الخوارزمي هؤلاء في استخدام الأمثال إذ أنه لا يكتفي بمثل واحد في الموضع الواحد، ولكنه يحشد طائفة من الأمثال والحكم والأشعار، وكأنه يريد أن يبين مقدرته على حفظها، واهتمامه بها فمن ذلك قوله⁽²⁾:

... والحمد لله الذي جعل الحاجب يضرب في المحاسن بالقدرح العلوي، ويسمو فيها إلى الشرف الأعلى، ولم يجعل فيه موضعاً للولا، ولا مجالاً للإلأ، فإن الاستثناء إذا عرض في الكلام نضب ماؤه، وكدر نقاءه وصفاءه، ولذلك قالوا ما أملح الظبي لولا خنس أنفه، وما أحسن البدر لولا كلف لونه، وما أطيب الخمر لولا الخمار، وما أشرف الجود لولا الاقتدار، وما أحد مغبة الصبر لولا فناء العمر، وما أطيب الدنيا لو دامت واستقامت.

(1) انظر: الشر الفني في القرن الرابع 1/ 128.

(2) الرسائل / 40.

ما أعلم الناس أن الجود مكسبة للمجد لكنه يأتي على النشب

ولعل أبلغ دليل على مغالاته في استخدام الأمثال ومباهاته بكثرة الحفظ ما جاء في رسالته إلى أبي الحسن البديهي، فقد نعتة بما زاد على مائة نعت هي في أصلها أمثال عربية معروفة، تنفر منها النفس وتجفوها الألسن، ولكنه أراد أن يمرغ وجه البديهي في الوحل فأتى بها إمعاناً في التنكيل، واستدللاً على خبث منبته، وسوء طالعها. فهذا هو يخاطبه بقوله⁽¹⁾:

يا بغلة أبي دلامة، وحمار طياب، وطيلسان حرب، وضرطة وهب يا قدح اللبلاب في كف المريض، يا نظرة الذل إلى البغيض يا كنيف السجن في الصيف، يا شرب الخمر على الحشف، يا وجه المستخرج يوم السبت، يا إفطار الصائم على الخبز البحت، يا جشاء مع أكل فجيلة، وفساء من أكل قثيطة، يا وكف البيت الشتوي في كانون، وعلى الكانون يا فراش الجرب المبطون، يا ليل الغربة ووقت الإفلاس والغربة، يا خجل الضرطة، وجواب الغلطة، ودهشة المصبور يا أقدر من ذباب على جعر رطب، يا أذل من قراد في است كلب.

ومن الواضح أن الخوارزمي قد تأثر بأسلوب الأمثال، وما فيها من قوة إيحائية وما فيها من تجربة ثرة تنقل إلى الأجيال فعمد إلى تقليدها من حيث صياغتها وعمق تجربتها، فكان له من ذلك حصيلة وافرة من الأقوال التي تجري مجرى المثل والحكمة، تمتد جذورها إلى الأقوال العربية الماثورة ويستند في جانب منها إلى تجربته الذاتية، وظروف عصره ومجتمعه.

ويبدو أن هذه الظاهرة قد لفتت نظر معاصريه كالثعالبي الذي خص الخوارزمي بفقره في ترجمته استخرج فيها ما يجري مجرى المثل من رسائله فقال⁽²⁾ 'وهذه كلمات

(1) انظر الرسائل/ 199 - 201.

(2) انظر البيضة 4/ 194 - 198.

تجري مجرى الأمثال أخرجتها من رسائله وقد فعل مثل ذلك في كتابه 'سحر البلاغة
وسر البراعة'⁽¹⁾.

ويبدو أن الثعالي لم يميز كثيراً بين ما هو للخوارزمي وبين ما هو لغيره فقد
نسب إليه القول التالي:

إنما النساء لحم على وضم، وصيد على غير حرم، إلا أن يلاحظن بعين غيور،
ونفس يقظ حذور. وهو حديث لعمر بن الخطاب⁽²⁾ وهناك أقوال كثيرة أخرى ليست
للخوارزمي.

ومع ذلك فإن في أقواله تلك ما يدل على عمق تجربته ودقة استيعابه للمعاني،
والقدرة على تركيزها. وإليك بطائفة من هذه الكلمات⁽³⁾:

الشكر على قدر الإحسان، والسلع بإزاء الأثمان، الأذكار حيث التناسي
والتقاضي حيث التغاضي، النفس مائلة إلى أشكالها، والطير واقعة على أمثالها الأيام
مرآة الرجال، والأطوار معيار النقص فيهم والكمال، العشرة مجاملة لا معاملة والمجاملة
لا تسع الاستقصاء والكشف، ولا تحمل الحساب والصرف، الكريم يعز من حيث
يهون، والرمح يشتد بأسه حين يلين، ... شتان بين من اقتنص وحشياً بمجالاته ومن
اقتنص إنسياً بمقاتلته، من أراد أن يصطاد قلوب الرجال نثر لها حب الإحسان والجمال،
ونصب لها شرك الفضل والأفضال، في كتمان الداء عدم الدواء، وفي عدم الدواء عدم
الشفاء.

وطبيعي أن تنعكس هذه الظاهرة في رسائله، حتى ليخيل إليك أنك لا تقرأ

(1) انظر صفحة 191 - 195.

(2) لسان العرب - مادة (وَضَم).

(3) اليتيمة 194، 198.

رسالة أدبية، وإنما حكمة بالغة، من رجل خبر الحياة وجربها، لكل عبارة فيها وقع خاص، تدفعك إلى التفكير فيها، وأخذ العبرة منها، ولنقرأ هذه القطعة⁽¹⁾:

. الرجال حصون يبينها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البر والبحر، ويحمدها الجفاء والكبر، وأنه لا مال إلا بالرجال، ولا صلح إلا بعد قتال، ولا حياة إلا في ناحية الخوف، ولا درهم إلا في غمد سيف، والجبان مقتول بالخوف قبل أن يقتل بالسيف، والشجاع حي، وإن خانته العصر، وحاضر وأن غيبه القبر، ومن حاكم خصمه إلى السيف فقد رفعه إلى حاكم لا يرتشي، ولا يفترى فيما يقتضي، ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته كل الطلب.

الاقتباس من القرآن الكريم

كانت ثقافة الخوارزمي ثقافة إسلامية عربية، وكان من الطبيعي أن تظهر آثارها في رسائله، وقد ظهرت بالفعل، ومن يقرأ رسائله يحس مقدار تأثيره بالقرآن الكريم في لغته ومعانيه، فقد دأب الخوارزمي على اقتباس آيات من القرآن الكريم لما فيها من قوة إيجابية تسمو بمعانيه، وتحفظ لها جمال الإيقاع، وعذوبة النغمة.

وكان الخوارزمي موفقاً في اختيار الآيات التي تناسب غرضه حتى لتحس أن النص لا يستقيم إلا بها، فمن جميل تضميناته ما جاء في إحدى رسائله حين أتى، بطائفة من الآيات المتفرقة ملتزمة في نص واحد جميل أخاذ. حيث يقول⁽²⁾:

'ودفعنا إلى قتل الإمام بعد الإمام، والرضا بعد الرضا، ولا مرية عندنا في صحة إمامته' وكان وعد الله مفعولاً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ولتعلمن نبأه بعد حين.

ألا ترى أن الخوارزمي كان شديد التوفيق في اختيار هذه الآيات، وهي من سور

(1) البيضة 4 / 199.

(2) الرسائل / 131.

متعددة، فالثانية من سورة الأحزاب⁽¹⁾، والثالثة من التكاثر⁽²⁾، والرابعة من الشعراء⁽³⁾، والخامسة من سورة (ص)⁽⁴⁾، أما الآية الأولى، فلعله لم ينتبه إلى ما فيها من تصحيف، أو أنه غيّر فيها عن عمد، وهو أمر مألوف في رسائله ذلك أنه كثيراً ما يأخذ معنى الآية من غير أن يؤثر في حسن الأداء، وجمال التعبير مثال ذلك قوله في وصف الشعراء وما ظنك بقوم يتبعهم الغاؤون، وفي كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون..

فقد استبدل لفظة قوم بلفظة الشعراء، وحذف كلمات أخرى من قوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٣٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ولعل من غير المناسب أن نرمي الخوارزمي بالتهاون وقلة الاحتراس لإيراده آية غيرت بعض ألفاظها، خاصة أنه من المعروفين بالحفظ، وربما كان التبديل والتغيير عن قصد، فقد جاء في إحدى رسائله:

أم عمل عمل لوط، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود مسومة عند ربك، وما هو من الظالمين ببعيد.

فقد أبدل كلمة (سجيل) بكلمة (طين)، وهما بنفس المعنى⁽⁵⁾. وقد تكررت في رسائله ظاهرة الاستشهاد بآيات متعددة من سور مختلفة. من ذلك قوله⁽⁶⁾:

(1) آية/ 33.

(2) آية/ 4.

(3) آية/ 227.

(4) آية/ 88.

(5) انظر آية 82، 83 من سورة (هود).

(6) الرسائل / 3.

"وأراد الله أن يرفع حكمتك، ويقوم من قبور حديثك فينظر كيف تعملون" والله يعلم ما تبدون وما تكتمون⁽¹⁾.

وقد يعتمد الخوارزمي إلى التقديم والتأخير في ترتيب الآيات من السورة الواحدة كما جاء في قوله⁽²⁾:

"هذا كلام لو أنه جرى به بنانه، ونطق به لسانه لقلت: تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنبثق الأرض، وتخر الجبال هدأً، ولقد جئتم شيئاً أدأً.

فآخر قول الله "ولقد جئتم شيئاً أدأً"⁽³⁾ وموضعها قبل الآية التي سبقتها ولعل مرد ذلك يعود إلى تحقيق الانسجام في المعنى العام، ومع ذلك، فقد بدت الآية الأخيرة محشورة لغير ما داع.

وللخوارزمي ميل خاص لاستخدام معاني الآيات، والإيماء إليها بالإتيان ببعض ألفاظها فمن ذلك قوله في التعريض بالبديهي⁽⁴⁾:

"وأن الشمس إنما جعلت مبصرة، والقمر إنما جعل آية ممحوة، لأن الشمس تواضعت لك بالتأنيث والقمر قد نازعك الذكر."

ولا يخفى على القارئ ما لهذا الأسلوب من جمال وما فيه من براعة وحسن تعليل. ومن الرمز والإيماء إلى مضمون الآية القرآنية ما جاء في الرسالة ذاتها حيث يقول⁽⁵⁾:

"يا من هو دليل على أن الله جواد حيث أطعم مثله ورزقه" وقد قال الله تعالى في كتابه:

(1) الأعراف/ 129.

(2) النور/ 29.

(3) الرسائل/ 195.

(4) انظر الآيتين 89، 90 من سورة مريم.

(5) الرسائل/ 201.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾⁽¹⁾.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾⁽²⁾

وواضح أن ما رمى إليه الخوارزمي بمعنى الدابة هو غير المعنى الذي جاء به في القرآن، وأنه إنما قصد المعنى الضيق لكلمة دابة سخرية وازدراء.

وهكذا يتضح لنا أن الخوارزمي قد أفاد من القرآن الكريم إفادة كبيرة، في أسلوبه ومعانيه، وأنه كان ذا قدرة على التصرف فيما يقتبسه لخدمة فنه.

المبالغة:

المبالغة سمة بارزة في أسلوب الخوارزمي، تطفح بها رسائله. ولعل الطابع الشخصي الذي تميزت به أغراض الخوارزمي في هذه الرسائل من الأمور التي ساعدت على ظهور هذه النزعة، فالمديح والهجاء والتهنئة والتعزية من الموضوعات المشبعة بالعاطفة. والعاطفة تدفع الإنسان حين يريد أن يعبر عنها إلى شيء من الغلو والمبالغة، لأنها لا تكون محكومة بقوة العقل وسلطانه، ولأن ما تتميز به من شدة الاندفاع وقوة التأثير يجد من جموع السيطرة العقلية التي تميل إلى الاتزان.

هذا بالإضافة إلى ما كان عليه ذوق عصره الذي بدا يميل إلى المبالغة والاغراب، فصار ذلك سمة من سمات نثر كتاب العصر وأدبائه.

وكان على الخوارزمي أن يجاري هؤلاء في ذوقهم الذي ساد في دواوين الملوك والأمراء والولاة، ذلك أن ارتباطه بهذه الدواوين قد أملى عليه أن يشارك أصحابها في شؤون حياتهم، مدفوعاً إلى ذلك بعامل المصلحة والطماح، وعامل الخوف والرغبة من العقاب، إذ أنه لا يستطيع التنصل من الكتابة إليهم في سرائهم وضررائهم، ولو أجاز

(1) هود/6.

(2) العنكبوت/60.

لنفسه مثل ذلك، فإنه لن يكون في أمانة من العقاب، لما يمكن أن يحسبوه نكران جميل وقلة وفاء، أو انحرافاً إلى صف الخصوم والأعداء.

وكان من الطبيعي أن يخاطب هؤلاء القوم بما يليق بمقامهم، وما هم عليه من رفعة مكانة وسمو منزلة، وما كان بوسعهم أن يتجاهل شغفهم بمظاهر الكبر وتعلقهم بكلمات المديح والإطراء ونعتهم بالقيم الاجتماعية السامية، لما يضيفه عليهم من مهابة، ولما يدخله في نفوس العامة والأعداء من رهبة وخوف.

إنهم يريدون من كل شاعر قمته، ومن كل فضيلة غايتها إذا أعطوا أفاضوا، وإن حرموا أهانوا، أفراحهم أفراح كل الشعب وإن ظلموا، وأتراحهم أتراح كل الشعب وإن طغوا ونجبروا، ولنقرأ ما كتبه الخوارزمي عن صاحب ابن عباد، إذ وصفه بالكرم والجود، والبلاغة والفصاحة وهي خصال له معروفة، إلا أنه بالغ في تقدير تلك الخصال مبالغة مفرطة كادت تؤدي بالمعنى إلى شيء من الخيال.

يقول⁽¹⁾ "وقد رحل السيد إلى حضرة رجل هو للكرام أنشأ نفساً وللفضل أمثل شخصاً، إذا ناظره العربي صار أعجمياً وإذا ناظره الأعجمي صار عربياً، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره، وفارق فخره، فهو رفيق الجود وخليله، وزميل الكرم ونزيلة".

ثم يصف كلام صاحب فيقول⁽²⁾:

"وهذا ما يسمعون من كلام الوزير الذي لو سمعته الوحش لأنست، ولو خوطبت به الخرس لتطقت أو استدعيت به الطير لتزلت".

وشبهه بذلك قوله⁽³⁾: "فاتصلت من ولي نعمتك برجل لو اتصل به الأدبار لتقدم

(1) الرسائل / 104.

(2) الرسائل / 105.

(3) الرسائل / 3.

الإقبال، ولو خدمه النقص لفضل الكمال، ولو تعرف إليه الجماد لنطق بجده ولو استجار به أمس الدابر لرجع بسعده.

وقد كانت مصالحه الشخصية تدفعه أحياناً إلى أن يبالغ في مدائحه للولاء والخلفاء، أو في اظهار التظلم والشكوى من عمال الخراج وغيرهم.

وقد دفعته عاطفته الدينية والمذهبية إلى المبالغة في وصف ما حل بطائفته من نكبات ومصائب خلال التاريخ الإسلامي، وقد قاده ذلك للرد على خصومهم رداً قاسياً مليئاً بالسخرية، مغالياً في ذلك مغالاة شديدة. وقد بينا ذلك في الحديث عن مذهبه الديني ومعتقداته السياسية.

أما أساليبه في المبالغة فكثيرة متنوعة: فقد يعمد إلى تكرار الصورة أو الإلحاح على الفكرة وعرضها بطرق متعددة لكي يرسخها في ذهن القارئ أو يأتي بطائفة من التشبيهات البعيدة أو المقلوبة أو غير المألوفة وستحدث عن ذلك في الكلام عن السخرية.

وثمة أسلوب آخر من أساليب المبالغة استخدمه الخوارزمي كثيراً في رسائله، وهذا الأسلوب يعتمد التثنية فمن ذلك قوله⁽¹⁾:

لو أني أنصفت لشكرت بلسانين، وأحببت بقلبين، وكتبت بيدي بقلمين، وواليت أيامه ودولته بنفسين، كما أنه يحسن إلي من جهتين، ويبشرني من جانبين ويهدي إلي الهدية ذات الطرفين.

وقوله في تعزية كثير بن أحمد عن ابنه له⁽²⁾:

ولا بد لمن يشارك رئيسه في أيام الرخاء والمواهب من أن يشاركه في أيام الخصوم والمصائب، ليكون قد خدمه من النوبتين، وتصرف معه في الحالتين، وأثبت اسمه في جريدة الشركاء المساهمين مرتين.

(1) الرسائل / 143.

(2) الرسائل / 60 للاستزادة انظر مثلاً 90، 92، 103، 105، 125.

السخرية

سبق أن تناولنا بالبحث علاقة الخوارزمي بعصره، وبيننا مقدار برمه بكثير من العادات والتقاليد، وأنه قد ضاق ذرعاً بعمال الخراج الذين كانوا يستخدمون كل الوسائل في تحصيل الأموال واستخراجها من أصحابها بحق وغير حق. وقد بينا أنه كان داعية تغيير اجتماعي لما لهذا الجانب من صلة بمعتقداته المذهبية والسياسية.

ولما لم يكن بإمكانه أن يغير من الواقع شيئاً، إذ لم يكن صاحب سلطة أو نفوذ. فقد أخذ على نفسه توجيه النقد إلى كل ما لا يتفق مع تطلعاته ومصالحه، ووجد في السخرية أسلوباً مؤثراً يعبر به عما في نفسه، ويدفع السامع أو القارئ إلى مشاركته في الرأي وتبني فكرته، فهو يلجأ إلى تضخيم الصورة وتكبيرها، ويقرنها بطائفة من الصور الأخرى المنفرة، وقد يعمد إلى قلب الصور زيادة في السخرية، وهو في كل ذلك حريص على إثارة الضحك من هذه الصورة المنفرة الشوهاء، غايته من ذلك التأثير في مشاعر الآخرين والسيطرة على عواطفهم وأحاسيسهم، وتوجيه انفعالاتهم باتجاه الحدث أو الشخص الذي يريد أن يسخر منه.

وقد وفق الخوارزمي في كل ذلك بالرغم من مبالغاته المفرطة في بعض الأحيان. والخوارزمي يبالغ في تجسيم الحدث وتشنيعه، ويقرنه بطائفة من الصور المقلوبة أو البعيدة المؤثرة لإثارة مشاعر السخط والتقزز والنفور.

فقد جعل للمظالم أبواباً، وللدنانير والدراهم ضرعاً وجسم الحقد والعداوة وشدة السطوة حين قرنها بعداوة القط والفأر وعداوة المسلمين للكفار الذين لا تأخذهم بهم رافة ولا رحمة في دين الله.

ولم يكتف الخوارزمي بتجسيم الحديث بل أنه ربط النتائج بأخلاق ذلك الرجل، فكأنما النقص في الأموال والأمن والعدالة مقترن بنقص في أخلاقه فالدراهم في أيامه أقل من الهدف في كلامه، والأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله.

لقد أراد الخوارزمي أن يزري بهذا الرجل فعلته لأنه كان يرى فيه وجهاً من

وجوه الاستعباد والذل التي قاسى منها المجتمع في عصره، ولم يجد غير السخرية وسيلة لذلك. على أن خير ما يمثل أسلوب الخوارزمي الساخر رسالته التي كتب بها إلى أبي الحسن البديهي⁽¹⁾، وهو أسلوب يقترب كثيراً من أسلوب الجاحظ في رسالة الترييع والتدوير التي سخر فيها من كاتب بغدادى اسمه أحمد بن عبد الوهاب فقد سخر كل منهما معرفته وثقافته في إظهار جهل صاحبه وقلة حوله وطوله.

فزعم الخوارزمي للبديهي عيوباً وبالغ في وضعها بأسلوب مليء بالسخرية والتبكي، وكأنه يريد أن يظهر مقدرته، ويباهي بعلمه في الوقت الذي يرميه بالغفلة والجهل، فتارة ينعتة بخصال عظيمة مستمدة من التاريخ، فيقذف بها في وجهه لكي تستحيل لفرط ما فيها من مبالغة سخرية لاذعة، فهو ينسب له العلم بكل شيء والإحاطة بعلوم الأولين والآخرين، والقدرة على الإتيان بالمعجزات والخوارق، ويعيد إليه الفضل في كل أمر عظيم، وهي أمور لا تجتمع لأمرئ أئى كان شأنه.

وتارة يظهره مخالفاً ومنكراً لكل ما آمنت به البشرية من عقائد، وما توصلت إليه من علوم ومعارف، بما في ذلك الأمور البديهيّة، حتى ليكاد يقترب في هذا الجانب من أسلوب الهجاء.

فمن الأولى قوله⁽²⁾: "قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فأمله علينا، وأجمعوا على ذهاب قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود فأخرجهما إلينا، وتخالف الناس في المهدي، وشكوا في السفيناني، وفي الأصفر القحطاني فعرفنا متى يخرجون، فإني أعلم أنهم إليك يختلفون. وفي أمرك ونهيك مترددون وبمشورتك يغيبون ويحضرون. والكيمياء عرفت أنه أنفقت فيه الأموال، وتعب له الرجال، ثم لم يحصل لهم منه إلا أمانى مسووفة، ومواعيد مزخرفة، فما عليك لو علمتناه، وأغنيت

(1) الرسائل / 191 - 209.

(2) الرسائل / 202.

الفقراء، وزدت الأغنياء، وأرحت الناس من الضرب في البلاد ومن الكد والاجتهاد، ومن أن يخدم الفقير غنياً، ويتخذ بعضهم بعضاً سخرية، والزيج الأكبر قد انقطع وانقرض أهله، وهو من مفاخر الروم علينا، ومن محاسنهم دوننا، فاعمل في إصلاحه، ولا تدع النصراني يفضلون المسلمين في إبداعه. ومسجد دمشق فهو حسنة يباهي بها أهل المغرب أهل المشرق، فابن لنا مثله، ولا تثبت علينا فضله، فإنما هي ساعة من هندستك، وجزء تستعمله من أجزاء حكمتك، وقد زدت عليه، وبنيت ضعفه. وآل أبي طالب قد علمت أنهم مسلوبون حقهم، ومغصوبون إرثهم فتقدم إلى غلامك الدهر بأن يرفع رايتهم ويرد إليهم ولايتهم، والفلك زعموا أنه خرف فاردد شبابه واعد عليه من الشيبية ثيابه.

وهكذا يستمر في طلب الإتيان بالخوارق ويدعي له العلم بالأمور، وكأنه يريد أن يقول: أيها الجاهل إن لك أمراً غير هذا، وإن مدحي لك ذم، وإن ما ادعيتك لك إنما هو عبث بك وانتقاص لشأنك.

وقد كشف الخوارزمي عن ذلك بقوله⁽¹⁾:

"والفصول التي قصرتها على مدايجتك، ولينت فيها من القول لك فإنما هي عوذة عوذت بها هذه الرسالة، وطلسم حسن صنت بفتح هذه المقالة فعوذت أحسن الأشياء بأقبح الأشياء، وسترت بنقصان المدح كمال الهجاء، على أنني قد غالطت أسماع الناس وأبصارهم وسحرت بهذا البيان خواطرهم وأفكارهم. فهم يحسبون أنني أجدت، وإنما الصدق أجاد.

أما الأسلوب الآخر الذي لجأ إليه الخوارزمي، والذي يظهر البديهي منكرًا لكل حقيقة فقد تجلّى في نحو قوله⁽²⁾:

(1) الرسائل/ 199.

(2) الرسائل/ 193.

ولو استبدعوا صنعة الخليل العروض أخذت تزعم أنه ما أحدث أمراً، ولا
افترع بكرة، ولو استحسنوا وضع كيلة ودمنة وصفت أن أمثالها غثة، وأن حكمها رثة
ولو فضل التوحيد أفردت به النصارى، ولو عيب الثنوية برأت من عيوبهم ماني، ولو
غنيت بالخان ابن شريح ومعبد قضيت عليهما بأنهما من بابة التوبة والعبادة. ومن
شريطة النسك والزهادة ولو مدحت العافية أسهبت في ذمها، كما لو فضلت السعادة
أكثر في شتمها... ولو عاينت العرب رميتهم بضيق البيان واللغة وقلة العارضة
والبدئية، ولو قرأت سيرة عمر رضي الله عنه زدت فيها سنّ المتعة ولو عثرت بمحدث
يزيد بن معاوية عدت من فضائله يوم كربلاء والحرة، ولو قرئ بين يديك القرآن
عارضته بنوادر أبي العبر وبكلام يجب الغلط، ولو لحظت السماء قلت ما أسوأ ما
دحيت، ولو درست أيام الفرس هجوتهم بقلة السياسة، وضعف التهدي للعمارة ولو
خوفت بيوم القيامة ذكرت أنه يوم قصير صغير وأن الخطب فيه يسير حقير، ولو
فوتحت في حديث العنقاء حلفت أنها باضت وفرخت في بيتك ودرجت في وكرك
وأنتك طالما سقيتها وأطعمتها، وطالما أسرجتها وألمتها.

وقد يخرج الخوارزمي من طوره، فتعالى في نفسه سورة الغضب، ويخلط
السخرية بالهجاء فإذا به ينسب إليه كل الأفعال القبيحة المستهجنة، ويعمه بكل معاييب
البشرية، ولكنه لا يسف ولا تنبو كلماته وألفاظه يقول في مخاطبة البديهي⁽¹⁾:

وليس محنتي فيك بأعظم من محنة الحق الذي لم تزل تعبت به حتى لو تجسم نفساً
لسعيت في ذمها، أو تمثل داراً لجهدت في هدمها، فكأنك لم تخلق إلا لتطمس عين
النور، وتقلب أعيان الأمور، فتجعل الضوء ظلمة، وتعكس البدعة سنة... حتى كأن
سوفطاً استخلفك على جحد ما يدرك عياناً، ويعرف إيقاناً، فأنت وارثه في الباطل،
وناصر جهله على كل عاقل، وحتى كأن الله أنزل عليك قرآن ضلالة وبعث إليك

(1) الرسائل / 192.

رسول جهالة، وقال لك خالف الإجماع وأنت على السنة، وعاد الصواب وأنت في الجنة، وأوحش الأحرار وأنت أصل الحرية، وباين الناس، ومنك منبع الإنسانية، وناقض الحكماء وأنت الحكيم.

إن المبالغة عنصر من عناصر أسلوب السخرية، وقد تجلّى واضحاً من خلال ما أوردناه من نصوص، وهو إلى ذلك يميل إلى قلب الصور وتنويعها، وتسليط الضوء على بعض جوانبها وهو لا يدع للقارئ فرصة التأمل فهو ينقله من معنى إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى، لأنه لا يريد أن يشعر القارئ بالملل والفتور، ولا أن يترك له فرصة التأمل. ولا شك أن تجسيد المعاني العقلية وتحريكها وتحويلها إلى معان حسية أبرز سمات أسلوب السخرية فالقبح والحال والسداد والعكس، والجهل والعبي أمور عقلية ولكنه استطاع أن يبعث فيها حركة لكي يبعث بخصمه، ويضحك القارئ منه.

وينتقل الخوارزمي إلى أسلوب آخر في السخرية، هو أسلوب الهجاء المباشر، فيخاطبه بنعوت منكرة وصور مقززة، بحيث لا يكاد يترك فرصة لتأمل هذه الصور والنعوت، فكأنما هي سيل متدفق يدفع بعضه بعضاً وكأنما الخوارزمي في ذلك واحد من العامة تحركت فيه نوازع الشر والانتقام، فيكيل من السباب والشتائم ما طاب له ولا يدع مجالاً لسماع رد الخصم، ومن هنا فإننا نلمح اقتراباً من أسلوب التعبير الشعبي، غير أن الخوارزمي سرعان ما يحس بضرورة الارتفاع إلى مستوى آخر فيأخذ بتركيب الصورة الساخرة، ويستمد من ثقافته الواسعة أسباب السمو والارتفاع فتلمس حينها أثر الجانب العقلي، والربط الموضوعي والتجانس الذهني بحيث يصل إلى صيغة متطورة من المبالغة التي كان يجنح إليها.

فمن ذلك قوله⁽¹⁾: يا غداة الفراق، وكتاب الطلاق يا موت الحبيب وطلعة الرقيب... يا كنيف السجن في الصيف يا شرب الخمر على الحشف... يا جشاء من أكل فجليه، وفساء من أكل قنيطية.

(1) الرسائل/ 199.

ومن الصور المركبة في هذا الباب قوله⁽¹⁾:

يا أثقل من منادمة طفيلي على الندماء، مقترح في الغداء والعشاء مجمش
للساقي، قاطع على المغني، يواثب ويزني.. يا ليلة المسافر في كانون الآخر على أكناف
بائس، تحت مطر وبرد قارس.

يتضح من كل ما سبق أن الخوارزمي قد استطاع أن يرقى بالسخرية إلى مكانة
عالية وأنه استوعب كثيراً من خصائصها الفنية، وأنه قد وعى ما للمبالغة وقلب
الصور، والروح الشعبية من تأثير في عواطف الناس ومشاعرهم وإثارة السخر من
الخصوم.

كما أدرك الخوارزمي أن السخرية تقوم على ضرب من مغالطة الأسماع
والأبصار⁽²⁾ ويعني ذلك أن للتصوير أهمية بالغة لأن الأسماع والأبصار تعتمد الحس،
وفي الصورة تجسيم للأحاسيس والمشاعر.

ومن هنا فقد كان الخوارزمي موفقاً في اختيار مقام السخرية حيث يرتبط عنده
هذا المقام بالمغالطة أو ما اصطلاح عليه بالتناقض⁽³⁾ من نحو ادعاء الجاهل بالعلم كما
بيئاً في النصوص السابقة، أو كما جاء في رسالته إلى ابن مسكويه وقد تزوجت أمه
وهي من الأمور التي ينظر إليها بشيء من السخرية.
فقد كتب إليه⁽⁴⁾:

العاقل أعزك الله تعالى لا يرى المحنة إذا تخطت دينه محنة، ولا يرى النعمة إذا
تعلقت بذنب خطيئة نعمة، ولا يريد الشرف إلا بالتقوى، ولا يرى الضعة إلا ما وضع

(1) الرسائل/ 200.

(2) الرسائل/ 199.

(3) انظر الفكاهة في الأدب/ لأحمد الحوفي/ 51.

(4) الرسائل/ 173.

من رتبته في الدار الأخرى. وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى، فحمدت الله تعالى الذي رزقك والدأ لا يلزمك حق أبوته، ووعدك أخاً لا يحملك حمل أخوته.

لغة الرسائل:

يستخدم الخوارزمي في رسائله لغة سهلة ميسورة يحس القارئ فيها بجمال الأداء وعذوبة الكلمة، ولم نجد في رسائله ما يشير إلى اهتمامه بغريب الألفاظ والتعبيرات فجاءت لغته صافية معبرة عن معانيه، مفصحة عن مرامييه لا تجد فيها ثقلأ، أو خروجأ على قواعد اللغة وأساليبها الفصيحة.

ويبدو أن معرفته باللغة، واهتمامه بها ما استطاعا أن يبعدها عن الأسلوب الأدبي في التعبير، وأن تأثره بمصادر ثقافته الأدبية ممثلة بالقرآن الكريم والشعر والأمثال كان قوياً بحيث جنبه حذقة اللغويين، وشغفهم بالغريب والشارد.

ورغم أن لغة الخوارزمي كانت على جانب كبير من البساطة واليسر، هذه البساطة التي تقربها من أذهان العامة والخاصة، فقد اتسمت بالفصاحة، ووضوح الدلالة رغم اختلاف طبقات المخاطبين، واختلاف أغراض الرسائل.

على أن الخوارزمي لم يستطع تجنب استخدام الألفاظ الأعجمية التي دخلت ميدان الحياة السياسية والاجتماعية مثل 'رستاق، مهرجان، أسفيد باجي، درياق، سده، دست، تخت، صنجة وسنجة'.

ولم تخل رسائله من ألفاظ غريبة، وإن كانت قليلة جداً نحو 'وقيذ، الطرفة السمامة، تمندلت، مطروف، قطوف، طبق، مكبه'.

وقد تكرر استخدامه لطائفة من الألفاظ التي لو أمعنا النظر فيها لوجدناها ذات دلالة تعبيرية على ظروف حياته السياسية والاجتماعية فالنعمة والنقمة، والخاصة والعامة، والإقبال والأدبار، والرغبة والرغبة، والتبذل والامتهان والكرم والسعد، والعقوبة والمثوبة هي حصيلة اتصاله بحياة الملوك والأمراء ورجال الدولة.

وعلاقته بأرباب الخراج أدخلت ألفاظ: الكفيل، والضمين، والمستخرج والخراج، والمصادر، المغبون، في رسائله.

وكان لعلاقاته الاجتماعية بأبناء عصره أثر في تردد العديد من الألفاظ كالعتب والعتي، والمكاشفة والمجاملة والفراق والخلاف.

أما ثقافته الدينية، والتزامه المذهبي، فما كانت أقل تأثيراً من غيرها فما أن تقرأ رسائله حتى يطالعك العديد من الألفاظ الإسلامية كالنافلة والفريضة والسنة والبدعة، والنفاق، والإجماع، ومصطلحات مذهبي الشيعة والاعتزال وغيرهما كالعترة، والشيعة، والوصي، وسيد الأوصياء، وأمير المؤمنين، والنواصب، الضالين والعدل والتوحيد، وقد أسلمه دفاعه عن مذهبه إلى التطرق للمذاهب الأخرى تناول فيها هذا الجانب من الحياة الاجتماعية والفكرية، فمن هذه المصطلحات⁽¹⁾ الروافض والجبرية والقدرية والواقفية والمالكية والبكرية، ودخلت في رسائله العديد من النعوت التي كانت تلك الفرق تصم بها غيرها، كالرعونة والشك، واللجاج، والوقف والتخالف والمكابرة والنصب والكسب والجحد، والتشبيه.

وقد مكنته ثقافته الواسعة من استيعاب ألفاظ ومصطلحات تستخدم في الطب والكيمياء، كالسوداء والصفراء، الممرض، المعالج، والبلغم، والأكحل، وطبقات الرطوبة، وموازن البرودة.

أما تركيب الجملة، فإن الخوارزمي لم يكن ميالاً إلى التعقيد والأغراب في حبكها وصياغتها، ولكنه عمد إلى تبسيطها وتزيينها وكان ذلك سبباً في الميل إلى الجمل القصيرة المسجوعة ولم نجده يخرج على المألوف من قواعد العربية في نحوها وصرفها.

(1) انظر رسالته إلى شيعة نيسابور/ 139.

الخاتمة

شهد الأدب في القرن الرابع الهجري تطوراً كبيراً فقد تشعبت فنونه، ونشطت حركة التأليف، وسمت الكتابة.

وبرز في النثر طائفة من الكتاب والأدباء كابن العميد والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وحمل هؤلاء مشعل تطوير أساليب وإغراض الفنون النثرية.

ولعل أبرز ما يميز هذا الاتجاه النثري الجديد هو الاهتمام بالصناعة اللفظية، والعناية بالسجع والمحسنات البديعية، والتي أخذها المتأخرون وبالعوا في استخدامها، حتى أصبحت عبئاً ثقيلاً على النثر، وصارت سمة من سمات عصور الظلمة والانحطاط.

وليس لنا أن ننحى باللائمة على كتاب القرن الرابع، ذلك أنهم كتبوا وأجادوا، واجتهدوا وطوروا، وكانوا في ذلك قادة لحركة تطوير أساء المتأخرون توجيهاً.

وقد تناولت هذه الدراسة بالبحث شخصية أبي بكر الخوارزمي (323-383هـ) وهو واحد من كبار النثرين في القرن الرابع وقد وصفه تلميذه الثعالبي بأنه كان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها كما كان عالماً باللغة والأنساب.

وقد اشتهر الخوارزمي بكتابة الرسائل الأخوانية، وهو نمط من الكتابة الفنية، احتل مكانة مرموقة في أدب ذلك العصر.

ورسائل أبي بكر تمثل خير تمثيل فن الرسائل الأخوانية في القرن الرابع الهجري، وتعبّر عن أهم سماته وخصائصه الفنية، فقد عني بالسجع والمحسنات البديعية، وأكثر من الاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال، والاقتباس من القرآن الكريم، كما اتسم أسلوبه بميل إلى المبالغة يصل أحياناً حد الإفراط.

وبالرغم من عنايته بالاستعارات والكنيات، والتشبيهات الطريفة، فقد تميزت لغته بالبساطة والسهولة، والابتعاد عن التعقيد اللفظي أو المعنوي، ولعل هذا هو السر في شيوع رسائله وتداولها.

ومن هنا يتبين أن نثر الخوارزمي يمثل مرحلة وسطى في النثر العربي بين نثر الترسيل الذي يميل إلى الاستطراد ممثلاً بنثر الجاحظ، وبين نثر التصنع والزخارف اللفظية، وهو النثر الذي شاع في عصور الأدب المتأخرة، والذي ظهرت بوادره في نثر بديع الزمان الهمداني.

ولعلنا نستطيع أن نعد- في هذا المجال- المناظرة التي دارت بين البديع والخوارزمي مظهراً من مظاهر الصراع بين المدرستين (الوسطية والمتأخرة) وبداية لرجحان كفة الأخيرة.

لكن الخوارزمي المجدد في حركة النثر العربي لم يكن كذلك في الشعر، فقد أعجب بمدرسة أبي تمام والمتنبي، وحاول الاقتداء بهما، بيد أن موهبته لم تسعفه في الارتقاء في مدرجتهما.

وقد عزّ عليه انحراف شعراء عصره عن القديم، وميلهم إلى كل ما هو جديد، ونعى عليهم ذلك في مقدمة كتابه الأمثال المولدة غير أننا نلمح تأثر الخوارزمي بشعر المولدين في أغراضهم وأساليبهم فقد أوردنا له بعض المقطعات في الهزل والدعابة، كما حوت بعض مقطعاته شيئاً من السخف في غرض الهجاء، إلا أن ذلك كان قليلاً جداً بالإضافة إلى ما وصل إلينا من شعره.

ولعل السبب في اتجاهه إلى القديم يعود إلى ثقافته الأدبية التي استوعبت الشعر القديم حفظاً ورواية.

والخوارزمي شاعر متكسب في شعره، وهو لا يختلف في هذا الجانب عن غيره من شعراء الدواوين الذين سخروا الشعر لخدمة أغراضهم ومآربهم. ولا ريب أن فقدان ديوانه جعل من الحكم على شعره أمراً غير مقطوع فيه.

ذلك أن أغلب ما وصل إلينا من شعره مقطعات من قصائد لا نعرف مقدار الضائع منها، ولا نعرف مقدار المفقود من شعره.

وقد قمت بجمع ما تبقى من شعره متناثراً في المظان المختلفة وحققته وألحقته بالرسالة تيسيراً للباحثين.

وما يجدر ذكره أن بروكلمان قد وهم حين ذكر في كتابه تاريخ الأدب العربي أن للخوارزمي ديواناً مخطوطاً في مكتبة جامعة كامبرج البريطانية، كما وهم أن للخوارزمي ديواناً مطبوعاً في القاهرة وقد بينت ذلك في مكانه من البحث.

ويعد الخوارزمي من أوائل شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، وقد هداه إلى ذلك إعجابه بشعر المتنبي. وقد ترك شرحه أثراً في طائفة ممن جاء بعده، فعد بذلك رأس مدرسة في شروح ديوان أبي الطيب.

وقد استطعت - في هذا المجال - أن أعثر على جزء كبير من مخطوط شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي بكر الخوارزمي وأفردت فقرة لدراسته في الكلام على مؤلفاته. وتجدر الإشارة هنا أن مؤلفات الخوارزمي لم تحظ بعناية كافية ذلك أن عدداً من مؤلفاته ما زال مخطوطاً، ومنها كتابة الأمثال المولدة الذي جمع فيه الأمثال التي استحدثها مولدو عصره، وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي الذي اشرنا إليه، وأن قسماً منها قد فقد أثره. ومن ذلك كتابه المناقب.

وقد أثبت أن طائفة مما نسب إليه من مؤلفات ليست من تأليفه. وهي كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم، وكتاب المكارم والمفاخر، وكتاب رسم المعمور من البلاد وقد بينت ذلك في الكلام على مؤلفاته.

ومن هنا تتضح أهمية دراسة آثار الرجل وأدبه ولعلي قد وفقت في ذلك.

ملحق
شعر الخوارزمي
جمعٌ وتحقيقٌ

قال الخوارزمي

(1)

- 1- ألا من بلغ الأستاذ ألي
 - 2- أنجذب والسباح لديك مرعى
 - 3- يطرقنا الزمان وكل يوم
 - 4- وكنت وعدتنا نظراً فأبطا
 - 5- فإن عز القضاء لديك يوماً
 - 6- ويرضى بالرجاء سوى قوم
 - 7- فإن أخوا الرجاء على يقين
 - 8- وشر المرتجين أخو مطال
 - 9- إذا أضحى فموعدته مساء
 - 10- وهذا العتب واسطة ولكن
 - 11- وبين النجح والتعويق حد
 - 12- فلا تشكو الزمان فليس يشكو
 - 13- ترفق بالأمير فكل شيء
 - 14- أطال الله أعمار المعالي
- أنا الصمصام أغمدته الحياء
ونظماً والسراب لديك ماء
لنا خطب حواشيها البكاء
وقد تبلى الخيل البطاء
فموجود لدينا الإقتضاء
وما عندي لحكمكم ارتضاء
من البلوى وفي القرح امتراء
يعمّر في جوانبه الرجاء
وإن أمسى فموعدته ضحاء
لها طوقان مدح أو هجاء
وقنطرة يقال لها السخاء
مسيء نفسه أنت القضاء
نأل به المنافع كيمياء
وذلك أن يطول لك البقاء⁽¹⁾

(1) محاضرات الأدباء: (وذلك بأن).

- 15- ولا زالت تمذُّ إليك كفُّ بضاعتها ثناءً أو دُعَاءُ
 16- وإن رضي الزمان بمثل روعي فداء عنك فهي لك الفداء
 (1 - 16) نثر النظم / 40 - (9) محاضرات الأدباء
 2 / 559 - (4، 5، 6) محاضرات الأدباء 2 / 407

(2)

- وله (من الوافر)
 1- وكم نكني وكم نهجو الليالي وليس بخصمنا إلا القضاء
 محاضرات الأدباء 4 / 393

(3)

- وله (من الوافر)
 1- ولي والله إخوان كثير نصيبي من فعاليهم سواء
 2- ولكنني رأيتك من أناس إذا لم يُحسبوا فلقد أساءوا
 يتيمة الدهر 4 / 234

(4)

- 1- وله من رسالة إلى أبي نصر الميكالي
 2- ما لقينا من أحمد بن علي ترك الناس كلهم فقهاء
 رسائل الخوارزمي / 121

(5)

وله من قصيدة في هجاء طاهر بن شار (من الوافر)

- 1- وقال أنا المليكُ فقلت حقاً بقلب السلام نوناً في الهجاء
- 2- ولم أرَ من أداة الملك شيئاً لديك سوى احتمالك للواء

ومنها:

- 3- أحياناً قلعتُ نابي كل أفعى وحادت أسد بيشة عن فنائي⁽¹⁾
 - 4- وقال الناس إذ سمعوا كلامي ألم تكن الكواكبُ في السماء
 - 5- يُخوفني الكسادُ على متاعي وهل يُخشى فسادُ الكيمياء
- (1- 5) بئمة الدهر 4/ 207 - (1، 2) الكناية والتعريض / 35

(6)

وله في نديم حمامي (من مجزؤ الرمل)

- 1- قل لمن يـنـكحُ بالعين جـواري الأصدقاء
- 2- والذي يعتقد الملك له قبل الثراء
- 3- أنت والله نشيط الأيـر كـسلان الوفاء
- 4- ليت قلبي قُـدْ من أيرك في باب الذكاء
- 5- أمهل الساقى ولا تحجله بين الندماء

(1) بيشة: اسم قرية في واد كثير الأهل من بلاد اليمن - (معجم البلدان).

- 6- أَنَا بِالسَّاقِي كَفِيْلٌ لَّكَ مِنْ بَعْدِ الْعَشَاءِ
7- فَإِذَا مَا انْصَرَفَ النَّاسُ فَجِدُّ لِي بِالْأَدَاءِ
8- لَكَ أَيُّرُ جَاهِلِي مِنْ أَيُّورِ السُّفْهَاءِ
9- يَا كَثِيرَ الْمَاءِ أَقْرَضْنَا وَلَوْ حَمَّةَ مَاءٍ
10- أَنْتَ مِنْ أَيُّرِكَ هَذَا فِي عِنَاءٍ وَبِإِلَاءٍ
11- أَعْظَمَ اللَّهُ لَكَ الْأَجْرَ عَلَى هَذَا الْعِنَاءِ

(1 - 11) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ 4 / 232

قافية الألف

(7)

وله من قصيدة يرثي بها مؤيد الدولة. ويعزى ويهني فخر الدولة (الطويل)
ألم تر أن الموت قد فضح الدنيا وقال لمن يسعى لها أنتم الحمقى
يقولون عالجنا فصحّ علينا وما أعتلّ من يبقى وما صحّ من يفنى
إذا الناس ظنّوا أنهم في سلامة فأبدأنهم صحّت، وأنفسهم مرضى
ومنها:

وقولا لفخر الدولة الملك الذي تسير العلى في طرق همته حسى
رُزئت أخاً لو خير المجد في أخ من الناس طراً ما عداه ولا استثنى⁽¹⁾
وقد جاءت الدنيا إليك كما ترى طفليّة قد جاوبت قبل أن تدعى
صبت بك عشقاً وهي معشوقة الورى فقد أصبحت قيساً، وعهدي بها ليلي⁽²⁾
ولما رأت خطابها تركتهم ولم ترض إلا زوجها الأول الأولى⁽³⁾
ولم تتساهل في الكفيّ ولم تقل رضيت إذا لم تكن إبل معزى
على أنها كانت جفتك تدلاً فخليتها حتى أتت تطلب الرجعى⁽⁴⁾

(5 - 11) البيمة 4/ 227 - 228 (1 - 10) تاريخ العتي 1/ 131 - 132

(1) طرا: البيمة: طهراً.

(2) ليلي: تاريخ العتي: لبنى.

(3) تركتهم: تاريخ العتي: فركتهم.

(4) تدلاً: تاريخ العتي: تدلاً.

(8)

وقال يمدح صاحب بن عباد من قصيدة (من الكامل)

ولقد عهدت العلم أكسد من بهتانِ فرعونٍ لـدى موسى
فأقام قاعدَ سُوقه رَجِلٌ مَيّتُ الرجاءِ بِبابه يحيا
فالعلم أصبح في الوري عَلماً والشعر أمسى يسكن الشُعري

البيتة 4/ 225

(9)

وله (من الطويل)

1- سريعة موتِ العاشقين كأنما يغار عليها من هواهم أبو يحيى⁽¹⁾

ثمار القلوب/ 246

(10)

وله من قصيدة مرثية (من الطويل):

1- أَعُوْذُه من نفحة الريح خيفةً عليه ورجلُ الموتِ تطلبُهُ عَجَلِي
2- وأدعو له بِالْعُمُرِ في كل مشهدٍ ويضحكُ مِنِّي في الكمينِ أبو يحيى

ثمار القلوب/ 246

(1) أبو يحيى: كناية عن قابض الأرواح.

قافية الباء

(11)

ومن أخرى في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- أخو كلمات ما جلاها لسائه على أحدٍ إلا غدا وهو خاطبُ

2- متى يروها أهل الصناعة يُشيدوا (عجائب حتى ليس فيها عجائب⁽¹⁾)

البيتة 214/4

(12)

ومن أخرى في مدحه (من الطويل)

1- ويشربُ لكن في إناء من الثرى رحيقاً خوابيها الطُّلا والمناكبُ

2- ويسمع لكن الغناء مدائحُ ويكنزُ لكن الكنوز مناقبُ

3- لو أن حبيباً كان لاقاه لم يقلُ (وأكثر آمال النفوس الكواذب⁽²⁾)

البيتة 218/4

(1) المصراع لأبي تمام وصدره (على أنها الأيام قد صرن كلها).

(2) حبيب هنا هو أبو تمام.

(13)

وله (من الطويل)

- 1- وقالوا أفق من سكرة اللّهُو فقد لاح صبح في دجاءك عجب
2- فقلت لهم: كُفّوا الملام وأقصروا فإن الكرى عند الصبح يطيب

ديوان المعاني 156 / 2

(14)

وله من قصيدة في مدح شمس المعالي قابوس بن وشمكير (من الطويل)

- 1- شمسٌ لمن الخدر والبدر مغرب فطالعهما بالبين والهجر ضارب
2- ولكنما شمسُ المعالي خلاهما مشارقة ليست لهن مغارب
3- فما لقبوهُ الشمسَ الا وقد رَوّوا (بأنك شمسٌ والملوك كواكب)⁽¹⁾
4- أقولُ لزوار الأميرِ رَجُلُوا فمن زاره من راجلٍ فهو راکب
5- وإن زاره الفُرسانُ كنتُ كَفِيلُهُمْ بأن يرجعوا والخيلُ فيهم جنائب
6- إذا رَجَعُوا عن بابِهِ فنشيدُهُم (وإن سكتوا أثنت عليه الحقائق)⁽²⁾
7- إلا أبلغا عني الأمير رسالةً نذلُّ على أيّ الدهر عائب
8- إلى كم يحلُّ المرءُ مثلكَ بلدةً بها منبرٌ فيها لغيرك خاطب

(1) المصراع للنابغة الزبياني:

فأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يسد منهن كوكب
روا: تاريخ العتي: رأوا

(2) المصراع من بيت لثبيب بن رباح

فعاجوا واثنوا بالذي أنت ولو سكتوا أثنت عليه الحقائق

- 9- لقد هان من أمسى ببلدة غيره
 10- عليك بهذا السيف فاقض ديونه
 11- ولا تقعدن ثغصي الجفون عن القذى
 12- غريمك هذا الدهر فالزمه يغترم
 13- وأنت ابن عم السيف بل أنت عمه
 14- أليس أبوكم وشمكير وجده
 15- تحرك بنا إما لواء ومنبر
 (وقد ذل من بالت عليه الثعالب)
 فللسيف دين عندك واجب
 وفي الأرض مركوب ورمح وصاحب
 فلن يوقظ الغرام إلا المطالب
 وكيف تخاف الأقربين الاقارب
 زيار ومردا ويح عم مناسب
 وإما حسام كالعقيقة قاضب
 (1 - 9) اليتيمة 221 / 4 (1-5، 7، 8، 10-15) تاريخ العتي 1 / 407

(I-15)

ومن صاحبة لما ورد مكتوب من جهة تاش⁽¹⁾ (من الطويل)
 فلان ردني دهري عليك طريدة
 هو الوكر طرنا منه والریش وافد
 جزى الله عني أهل سامان ما أتوا
 هم زوجوني هم بعد طلاقه
 هم أعطشوا زرعي فشمت سحائباً
 فأنحوا لزرعي بالحصاد وأنضبوا
 اتحصد أيديكم ويزرع غيركم
 فلا غرو أن يسترجع القوس حاجب
 وعدنا إليه الآن والریش ذاهب
 وفي الله للثأر المضيع طالب
 وذلك عرس للمآتم جالب
 غرائب لما أخلفتني القرائب
 مياها لها أيدي سواهم مذائب
 فأنتم جراد والملوك سحائب⁽²⁾

(1) تاش: هو حسام الدين أبو العباس أحد قادة جيوش السامانيين المعروفين في عصره.
 (2) أخذه من قول ابن عبيد (أبوك لنا غيث نعش بظله وأنت جراد لست تبقى ولا تذر).

إذا طمع السلطان فيما كسبته بشعري فالسلطان بالشعر كاسبُ
فأنتم مدحتهم آل بوية لا أنا وأمدح من لفظ اللسان حقائبُ
1 - 9 البيتة 4 / 234 - 235

(15- ب)

وله أيضاً
ما كنتُ أحسبُ أنَّ عمرأً يضربُ فيخصُّ زيدً باللام ويضربُ
التمثيل والمحاضرة / 162

(16)

وله (من الكامل)
1- ومُحَجَّبٍ بِحِجَابٍ عَزُّ شَامِخٍ وشُعَاعُ نَوْرِ جَبِينِهِ لَا يُحْجَبُ
2- حاولتُهُ فَرَأَيْتُ بَدْرًا طَالِعًا والبدرُ يَعْدُ بالشُعَاعِ وَيَقْرُبُ
3- إِنَّ يَنَاءَ شَخْصِي عَنْ مَجَالِسِ عَزِّهِ فَالتَّفَسُّ فِي الطَّافِيفِ تَتَقَلَّبُ
4- وَإِذَا تَقَارَبَتِ النُّفُوسُ وَإِنْ نَأَتْ أَشْخَاصُهَا فَهُوَ الْجَوَادُ الْأَقْرَبُ
(1-4) أعيان الشيعة 45 / 261

(17)

وله في هجاء الخلفاء العباسيين في عصره (من البسيط)
1- مَالِي رَأَيْتُ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ فَتَحُوا مِنَ الْكُنَى وَمِنَ الْأَبْوَابِ الْقَابَا
2- وَلَقَبُوا رَجُلًا لَوْ عَاشَ أَوَّلُهُمْ مَا كَانَ يَرْضَى بِهِ لِلْحُشِّ بَوَابَا⁽¹⁾

(1) الحش: جماعة النخل. والحش: البستان، والحش: المتوضأ سمي به لأنهم يذهبون لقضاء الحاجة إلى البساتين.

3- قُلْ لِلدَّرَاهِمِ فِي كَفِّيْ خَلِيْفَتِنَا هَذَا فَانْفِقْ فِي الْأَقْسَامِ الْقَابِلَا

الْيَتِيْمَةِ 4/ 230، سيرة جلال الدين منكبرتي/ 182

(18)

وله (من الرجز)

- | | |
|---|---|
| 1- الْمُلْكُ عِنْدِي مُتَعَةِ الشُّبَابِ | وَالْعَزْلُ عِنْدِي فُرْقَةُ الْأَحْبَابِ |
| 2- وَالْفَقْرُ عِنْدِي عَدَمُ الشُّرَابِ | وَالشَّيْبُ عِنْدِي كَذِبُ الْخُضَابِ |
| 3- وَالْقُبْحُ عِنْدِي عَدَمُ الْأَدَابِ | وَالْعَرَسُ عِنْدِي لَيْلَةُ الْكِتَابِ |
| 4- وَالرَّوْضُ عِنْدِي مُلْحُ الْأَعْرَابِ | وَالْبَغْضُ عِنْدِي كَثْرَةُ الْإِعْرَابِ |
| 5- وَالسِّيفُ عِنْدِي قَلَمُ الْكُتَّابِ | وَالنَّجْحُ عِنْدِي سُرْعَةُ الْإِيَابِ |
| 6- وَالطَّرْدُ عِنْدِي كُلْحَةُ الْبَوَابِ | وَالذُّلُّ عِنْدِي وَقْفَةُ الْحُجَّابِ |
| 7- وَالْقَحْطُ عِنْدِي قَلَّةُ الْأَصْحَابِ | وَالشُّؤْمُ عِنْدِي كَثْرَةُ الْعَثَابِ |
| 8- وَالْعِيْ عِنْدِي هَذَرُ الْخُطَابِ | وَالْعِزُّ عِنْدِي طَاعَةُ الصَّوَابِ |
| 9- وَالْإِلُّ عِنْدِي خَلَّةُ الْقِحَابِ | وَالْغَوْلُ عِنْدِي طَلْعَةُ الْكَذَّابِ |
| 10- وَالصَّفْحُ عِنْدِي أَبْلَغُ الْعِقَابِ | وَاللُّؤْمُ عِنْدِي سَفَةُ الشُّرَابِ |
| 11- وَالْأَمْسُ عِنْدِي أَسْرَعُ الْهَرَابِ | وَالْمَالُ عِنْدِي أَسْرَعُ الْهَرَابِ |
| 12- وَالْغَدُّ عِنْدِي الْحَقُّ لِلطَّلَابِ | وَالْفَخْرُ عِنْدِي أَفْخَرُ الثِّيَابِ |
| 13- وَالسَّجْنُ عِنْدِي مَنْزِلُ التَّرَابِ | وَالْهَوْلُ عِنْدِي مَوْقِفُ الْحِسَابِ |

الْيَتِيْمَةِ 4/ 241، (4- الشطر الثاني)/ أسرار البلاغة/ 66

(19)

وله في الند (من الوافر)

- 1- وطيب لا يخل بكل طيب⁽¹⁾ يُحيينا بأنفاس الحبيب⁽¹⁾
 - 2- يظل الذيل يستره ولكن تنم عليه أزارار الجيوب⁽²⁾
 - 3- إذا ما شم أنف حن قلب⁽³⁾ كأن الأنف جاسوس القلوب⁽³⁾
- (1-3) البيتة 4/ 239 ثر النظم / 141 (1، 2)
ثمار القلوب/ 664، (1- 3) محاضرات الأدباء 4/ 375

(20)

وله من قصيدة في مدح أبي نصر الميكالي (من الكامل)

- 1- تلك السديار فريسة الأحقاب صنعت بعيني صنع ساكنها بي⁽⁴⁾
- 2- وإلى الأمير ابن الأمير تواهقت رزحى الركاب برازحي الركاب
- 3- لبسوا الدجى لبس الغراب لريشه وغدوا لحاجتهم غدو غراب
- 4- والفجر يطرف والظلام كانه فضلات عتب في خلال عتاب

(1) في محاضرات الأدباء.

(بمخور مثل أنفاس الحبيب وطيب قد أخل بكل طيب)
لا يخل: ثمار القلوب (لا يخل).

(2) أزارار الجيوب: محاضرات الأدباء أنفاس الجنوب.

(3) الصدر في البيتة (متى يشمه أنف حن قلب)، حن: ثمار القلوب: جن.

(4) يذكر شارح العتي: أنه تخلص إلى البيت الذي بعده بعد سبع وعشرين قافية.

- 5- طلبوا امرءاً أفعاله محسوبة
6- غدت المدائح وهي أسماء له
7- والمكرّمات كثرة الخطّاب إلا
8- متبسّم الحجاب مكتتب العدى
9- شيم أرق من الهوى والدُّ من
10- وعزائم لو كنَّ يوماً أسهماً
11- مائبة الحركات إلا أنّها
12- يخطرُن بين سياسة ورئاسة
13- قد أصبحت ألفاظه صور النّهى
14- وإذا حلّلت له جناباً واحداً
- ونواله فوضى بغير حساب
ولغيره، أصبحن كاللقاب
أنها تأبى على الخطّاب
مُثري النّديم، مجازف الحُساب
خطأ العدو، ردّذته بصواب
لنفذن في الأيام غير نواب
نارئة الأقدام والألباب
ويتهن بين مثوبة وعقاب
وقوالب الأسماع والألباب
حلّ المؤمل منك ألف جناب
- تاريخ العتي 3 / 39-41

(21)

وله (من السريع)

- 1- يا أيها الخاطب مدحي وهل
2- شيثان لم يجتمعا لامرئ
- يُورد من غير رشاء قليب
حبّ الدّنانير وحبّ الحبيب
- اليتيمة 4 / 234

(22)

وله (من الطويل)

- 1- سأقضي قضاءً في المروءة عادلاً
يسير به في حكمة الشعر والأدب

2- ألا خيرٌ سُمَارِ الملوكِ ذُوو النهي وخيرٌ نُدَامَى الكأسِ أربعة تُحِبُّ
برد الأكباد في الإعداد / 134

(23)

وله (من المتقارب)

1- فنذل الرِّجال كندل الثِّبات لا للثِّمار ولا للحطْبِ
المتحل / 136

(24)

وله في فقيه (من الخفيف)

مُجَبَّرٌ صَيَّرَ ابنه ناصبياً مجبراً مثله وتلك عجيبة
ليس يرضى أن يدخل النار فرداً ساعة الحشر أو يقود حبيبة
اليتيمة 4 / 231

(25)

وله في رجلٍ جليت ابنته على الختن، وهي منه حبلى لأشهر (المنسرح)
1- يا جالي البنت بعدما ثقت تبرز القدر بعدما قُلبت
2- هذا كما قد يُقال في مثلٍ (جُصِّصَتِ الدَّارُ بعدما خربت)
اليتيمة 4 / 233

(26)

وله في الشمس (من مجزؤ الرجز)

1- أما ترى الشمسَ بدت كأنها تُرسُ ذهبٍ

- 2- كأنها قد رُكِّبت للناظرين من هـب
 3- النور بادٍ عندنا كما الظلام مُتهب
 4- أشكرُ عنها ملكاً أحسنَ فيما قد وهب
 من غاب عنه الطرب / 262

(27)

ومن أرجوزة

- 1- ما أثقلَ الدهرَ على من ركبَه حدثني عنه لسانُ التجربة⁽¹⁾
 2- لا تشكر الدهرَ لخيرٍ سيَّئه فإنه لم يتعمد بالهبة⁽²⁾
 3- وإنما أخطأ فيك مذهبُه كالسيل إذ يسقي مكاناً خربَه⁽³⁾
 4- والسَّم يستشفى به من شربه ما أهون الشوكة قبل الرُّطبة
 5- وأسهل الكدَّ على من أكسبه

(5-1) يتيمة الدهر / 4 / 240 - (1 - 3) المتحل / 148 (1-4)

(4-1) التمثيل والمحاضرة / 124، تحفة الوزراء / 107، (1-3) شرح نهج البلاغة

(1) في يتيمة الدهر: جاء صدر البيت عجزاً لبيت آخر (والسَّم يشفي به من شربه) والعجز صدرأ لقوله (ما أهون الشوكة قبل الرُّطبة) ركبَه: المتحل: (نكبة).
 (2) تشكر: المتحل (يشكر) تحفة الوزراء (يحمد). سببه: تحفة الوزراء (وهبة).
 (3) خربَه: شرح نهج البلاغة: أخربه.

قافية الجيم

(28)

وله من قصيدة (من الكامل)

- 1- ولقد ذكرتكَ والنجوم كأنها درّ على أرضٍ من الفيروزج⁽¹⁾
- 2- يلمعن من خلل السحاب كأنها شرّ تطاير من دُخان العرفج
- 3- والأفق أحدث من خواطرٍ كاسبٍ بالشعر يستجدي اللثامَ ويرتجي
- 4- فمزجت دمعي بالدماء ولم أكن صرف الهوى والعهد إن لم أمزج

(4-1) البيتة 211 / 4، (3-1) الوافي بالوفيات 194 / 3

(3-1) عيون التواريخ 244 / 12 ب

(29)

وله من قصيدة (من الكامل)

- 1- حسدَ السماءَ سميّه لما بدا في سرجه شخصُ الهمام الأبلج⁽²⁾
- 2- وغدا فأضحى لاحقاً ضدّ اسمه وأراك أعوج وهو عين الأعوج
- 3- فلو أن شاعرٍ بُحترٍ في عصره ما قال في فرسٍ ولا في أعوج⁽³⁾
- 4- (خفت مواقعُ وطئه فلو أنه يجري برملة عالجٍ لم يرهج⁽⁴⁾

البيتة 2013 / 4

(1) درّ: عيون التواريخ (در).

(2) السماء: فرس منسوب لعضد الدولة ويقصد بالهمام الأبلج عضد الدولة

(3) شاعرٍ مُحترٍ: أي البحتري.

(4) رملة عالج: رمال بين فيد والقربان يتزها بنو محتر من طيء، وهي متصلة بالثعلبية من طريق مكة لا ماء بها، الرهج: الغبار، وأرهج الغبار: أثاره.

(30)

وله (من الرجز)

1- يرفع نقعاً كدخان العرفج مثل ندف الكرسف المنفج⁽¹⁾

محاضرات الأدباء 4/ 641

(31)

وقال من قصيدة في مدح عضد الدولة (من الكامل)

1- ختمت بك العجم الملوك وراجعت بك تاج ملكتهم القديم المنهج

2- لم يفقدوا بك أردشير وإنما فقدوا نقيصة دينه المستسج

البيمة 4/ 224

(1) العرفج: نبت طيب الرائحة، سريع الاشتعال، الكرسف: القطن، المنفج: المنار.

قافية الحاء

(32)

وله في أبي الطيب البيهقي (من المتقارب)

1- فسا الشيخ سهواً وفي كفه شراباً فلمناه لوماً قبيحاً

2- فقال (لي) الدخلُ والخرجُ لي فأدخلتُ راحاً، وأخرجتُ ريحاً

اليتيمة 232 / 4، نهاية الأرب 75 / 4

قافية الدال

(33)

ومن قصيدة في هجاء بني شار (من الوافر)

- 1- الا أبلغ بني شار كلامي ومن لم يلقهم فهو السعيد
- 2- علام ابتعثم فرساً عتيقاً وليس لـديكم علفاً عتيقاً
- 3- وفيم حبستهم في البيت بازاً يحبس الطير عنه أو يحيد
- 4- فلا قرّتموه فعلمتموه ولا خلّيتهم عنه يصيد⁽¹⁾

اليتيمة 4/ 206

(34)

- 1- بأبي من عيئه أبداً في عداتٍ وهي لا تُعد

محاضرات الأدباء 3/ 298

(35)

- 1- ليس على القلب للعدول يد ولا ليومي من الفراق غد
- 2- كل فؤادٍ من الهوى عرضٌ وكل يوم مع النوى أمد
- 3- يا أيها الطالبون بي رشداً متى التقى الحب قبل والرشد
- 4- ولي فواد مذ صرت أفقده لم أنتفع بعده بما أجد
- 5- ولي حبيب لو كنت أنصفه وجدت فيه أضعاف ما أجد

(1) فعلمتموه: في الأصل (فعلمتموه) وبه لا يستقيم الوزن والمعنى.

6- شهدت للقلب حين علقه بأنه للوجه منتقد

البيتة 4 / 211-212

(36)

وله من قصيدة في مدح عضد الدولة (من الوافر)

- 1- ولما أكثر الحساد فيه وقالوا قد تغضنت الخدود
- 2- أجاب الفضل عنه حاسديه (لأمر ما يسود من يسود)⁽¹⁾
- 3- بودي لو رأيت كنفه يوماً ومن قد عاش تحتها ليد⁽²⁾
- 4- ولو أن الوليد رآه يوماً غدا ورجاؤه غض ليد
- 5- وحل عرى الزماع ولم يردد (أشرق أم أغرب يا سعيد)⁽³⁾

البيتة 4 / 212-213.

(37)

وله من قصيدة رثى بها أبا سعيد الشيبلي، وكان واداً له عاتباً عليه:

(من الوافر)

- 1- أيدري السيف أي فتى ييد وأية غاية أضحى يريد
- 2- لقد صادت يد الأيام طيراً تضيق به حباله من يصيد
- 3- وأصبح في الصعيد أبو سعيد ألا إن الصعيد به سعيد
- 4- وقد كانت تضيق الأرض عنه فلم وسعت لجنته اللحوذ؟

(1) (لا مرما): البيت لبليغ بن قيس الكناني.

(2) لأن ليداً يقول: ذهب الذين يعاش في أكنافهم

(3) الزماع: المضاء في الأمر، والعزم عليه.

وبقيت في خلف كجلد الأجر.

- 5- بلى مسّ الثرى قلباً رحيماً
- 6- فلا أدري أضحك أم أبكى
- 7- صديقٌ قد فقدناه قديمٌ
- 8- مُصابٌ وهو عند الناس نغمى
- 9- تهنّيني الأنامُ به ولكن
- 10- وسيفٌ قد ضربتُ به مراراً
- 11- فلما أن ثقلَ ظِلْتُ أبكى
- 12- ومن عجبِ الليالي أن خصمي
- 13- وأن النصف من عيني جمودٌ
- 14- إذا سفحت عليه دموعُ عيني
- 15- وأثارَ له عندي قباحٌ
- 16- فنصفٌ من مدامعها سخينٌ
- 17- فمن هذا رأى في الناس مثلي
- 18- ومن نكدِ المنية فقد حرّ
- 19- فذا هنا وقال مضى عدوٌ
- 20- رأيت العقل ينفع وهو قصْدٌ
- 21- كمثل الدرع إن خفت أجئت
- 22- ومثل الماء يروي منه قصْدٌ
- 23- شهدت بأن دهرأ عشت فيه
- 24- وقالوا البحر جزرٌ ثم مدّ
- 25- بكيت عليك بالعين التي لم
- فأعدى الثرب فأتسع الصُّعيدُ
- وتهدمني المنية أو تشيدُ
- وتكُلّ قد وجدناه جديداً
- ونحسّ وهو عند الناس عيدُ
- تعزيزي الموائيق والعُهودُ
- فمن ضرباتِه لي بي شهودُ
- وعندي منه بعدُ دمٌ جسيْدُ
- يبيد وأن حزني لا يبيدُ
- وإن النصف من قلبي جليدُ
- نهاها الهجر منه والصدودُ
- يجمّش بينها الرأس الحديدُ
- ونصفٌ من مدامعها برودُ
- أريد من المنى ما لا أريدُ
- تخالف فيه إخواني الشهودُ
- وذا عزّي وقال مضى وديدُ
- ويلقي في المهالك إذ يزيدُ
- وإن ثقلت فحاملها جهيدُ
- ويقتل منه بالغرق المزيْدُ
- ومتّ مقيّداً فرداً مبيدُ
- فمالك قد جزرت ولا تجودُ
- تزل من سوء فعلك بي تجودُ

- 26- فقد أبكىني حياً وميتاً
 27- فها أنا ذا المهناً والمعزى
 28- وها أنا ذا المصاب بك المعافى
 29- لقد غادرتني في كلِّ حالٍ
 30- فلا يومٌ تموت به مجيدٌ
 31- وما أصبحت إلا مثل ضرسٍ
 32- ففي تركي له داءٌ دويٌ
 33- فلا تبعد إقامة رسمٍ حقٍ
 34- وإنك أنت للسيف الحديدُ
 35- وإنك أنت للدنيا جميعاً
- فقل لي أيُّ فعليك الرشيدُ
 وها أنا ذا المباغض والودودُ
 وها أنا ذا الشقي بك السعيدُ
 أذمُّ الدهر فيك وأستزيدُ
 ولا يومٌ تعيش به حميدُ
 تأكل فهو موجودٌ فقيدُ
 وفي قلعي له ألمٌ شديدُ
 وأنت أنت للشيء البعيدُ
 وإنك أنت للعلم السديدُ
 ولكن ليس للدنيا خلودُ

البيتية 4/ 228-229

(38)

وله (من الكامل)

- 1- لا تصحب الكسلان في حاجاته
 2- عدوى البليد إلى الجليد سريعة
- كم صالح بفساد آخر يفسدُ
 والجمرُ يوضع في الرماد فيخمدُ

البيتية 4/ 240، التمثيل والمحاضرة 124

بهجة المجالس 1/ 703-704، التذكرة السعدية / 410.

(39)

وله من أخرى من (المنسرح)

- 1- لا تغترر بالحلیم تغضبهُ
 فربما أحرق الثرى البردُ

البيتية 4/ 241

(40)

وله في عائد بن علي لما ضربته السموم فهلك (من الخفيف)

- 1- عائد قد دعا به المعبود وجميع السورى إليه يعود
- 2- أهلكته السموم في أرض مكران والله في الرياح جنود

اليتيمة 4/ 230

(41)

وله في أبي سعيد بن مله (من السريع)

- 1- أرى لك أفعالاً تناقض أمرها على أنها في القبح والعار واحد
- 2- نبذك ذا حلوى، ووجهك حامض وماؤك ذا سخن ووجهك بارد

اليتيمة 4/ 231

(42)

وله في طاهر السجزي (من الوافر)

- 1- ألا يا سائلي بأبي حسين وفي التجريب علم مستفاد
- 2- هو ابن سميه والطاء عين وشبه كنيه والسين صا⁽¹⁾

اليتيمة 4/ 232

(43)

وله في الاعتذار عن الزيارة (من الكامل)

- 1- إن كنت في ترك الزيارة تاركاً حظي، فإنني في الدعاء لجاهد

(1) والطاء عين: أراد هو ابن عامر، والسين صا أراد هو أبو حصين، وهي كنية الثعلب.

2- ولربما ترك الزيارة مُشفِقٌ وأتى على غلي الضمير الحاسدُ

محاضرات الأدباء 34/3، بهجة المجالس 1: 262
وورد البيتان في عيون الأخبار 46/3 من غير نسبة

(44)

وله (من الوافر)

- 1- وكنت إذا نهدت لغزو قوم وأوجبت السَّياسةُ أن يبيدوا
 - 2- تبرأت الحياة إليك منهم وجاء إليك يعتذر الحديـدُ
 - 3- وطلقت الجماجم كل قحفٍ وأنكر صُحبة العنق الوريـدُ
- شرح الواحدي 545/2، شرح العكبري 78/1.

(45)

وله (من الوافر)

- 1- وماء مثل هجركَ مستعارٌ له من حر أحشائي وقودُ
 - 2- وردناه، وقد سبقت إليه وفودُ الركب للشعري وفود
- شرح سقط الزند / 1326

(46)

وله (من الوافر)

- 1- تغايرت البلاد على يديه وزاحمت الجرومُ به الصرود⁽¹⁾
- شرح سقط الزند 158/1، شرح الواحدي / 231

(1) الجروم: جمع جرم (بالفتح) هي الأرض الشديدة الحر، الصرد: مكان من الجبال وهو أبردها، تغايرت: غارت كل واحدة منها على صاحبها، الصرود: الواحدي (الصدور) وهو تصحيف.

(47)

وله (من الوافر)

لغير محبِّكُ الرأيُ السَّديدُ وغير فؤاده القلبُ الجليدُ
وفي الثَّوَّين منه مستهَامُ هَوَاك على لواظته قيودُ
رمى بعزائله عن قوس وجِدٍ وباع فؤاده فيمن يَزِيدُ
رسائل ومقامات بديع الزمان الهمداني / مخطوط في مكتبة بايزيد

(48)

وله (من الوافر)

تعاورت الشفاه اللُّم عنها ونافست الشفاه بها الخدودا⁽¹⁾
محاضرات الأدباء 1/ 303

(49)

وله في ذم أحدهم: (من الطويل)

1- وصلتك بالسلطان حتى إذا اعتلى مكانك واستمكنت لم تملك الحقدا
2- كمقتدح ناراً بزنادٍ لحاجة فلما تلظت ناره أحرق الزندا⁽²⁾
محاضرات الأدباء 3/ 16، شرح المصنون به على غير أهله / 122.

(1) اللُّم: جمع لمياء.

(2) أحرق الزندا: شرح المصنون به (أحرقت زنداً).

(50)

وقال في القثناء (من الرجز)

- 1- يارب قثناء برود المورد
 - 2- شخت الرؤوس أصور المقلد
 - 3- قد تلوى فوق الثرى الرطب الندى
 - 4- ذي زغب وفيه لين الأجرد
 - 5- كأنه في اللون والتأود
 - 6- يكاد للين وللتعقد
 - 7- لما حصدها قريب المحصد
 - 8- ماء قطع السكر الطبرزد
- در الحشا زمرد المجرد⁽¹⁾
مثل ذنابي ريش ديك أعقد⁽²⁾
كما تلوى أسود بأسود⁽³⁾
كالحد بين الملتحي والأمرد
صوالج ركب من زبرجد
تجنیه الحاظ الفتى قبل اليد⁽⁴⁾
هشاً وجدنا منه ما لم يوجد
وذوب شهد سائلاً في جمرد

(1-6، وصدر الثامن) محاضرات الأدباء 4/ 585

(1-8) نهاية الأرب: 11/ 39-40

(51)

وله في الملح: (من العديد)

- 1- فهو بقل وروضة وجوارشن وأدم وزاد حامد ل زاد

محاضرات الأدباء 2/ 618

(1) برود المورد: نهاية الأرب (قريب المورد).

(2) المصدر في نهاية الأرب (شخت الرؤوس أصور المقلد)، أصور: محاضرات: الصور.

(3) كما تلوى: نهاية الأرب (كما يلود).

(4) التعقد: نهاية الأرب: التقصد.

(52)

وله (من الوافر)

- 1- فلم تضحى على الإسلام سيفاً
 - 2- وتزهد في الصلاة وفي ذوبها
 - وأنت كما علمت من العمود
 - ولكن لست تزهد في السجود
- الكناية والتعريض / 35

(53)

ومن أخرى (من الوافر)

- 1- متى ما زرتهم أوصيت أهلي
 - 2- بتجديد الصنادق للهدايا
 - 3- وإن ودعتهم أنشدت فيهم
 - وصية عائد بالجرم بادي
 - وتوسيع المراتب للعبياد
 - (سقى عهد الحمى سبيل العهد)⁽¹⁾
- اليتيمة 4 / 221

(54)

وله في علوي ناصبي (من الوافر)

- 1- شريف فعله فعل وضيع
 - 2- عوار في شريعتنا وفتح
 - 3- كأن الله لم يخلقه إلا
 - دنيء النفس عند ذوي الجود
 - علينا للنصارى واليهود
 - لتعطف القلوب على يزيد
- (1-3) اليتيمة 4 / 230-231، عيون التواريخ 12 / 1225

(1) المصراع لأبي تمام.

(55)

وله (من الطويل)

- 1- أعد الوري للبرد جنداً من الصلا ولاقيته من بينهم بجنود⁽¹⁾
- 2- ثلاث من النيران: نار مدامة ونار صبابات، ونار وقود

برد الأكباد في الأعداد / 23، 21 و 124 ثمار القلوب / 585

(56)

وله (من الوافر)

- 1- فديتك ما بعثت الكوب الا لقال فيه متبداً معاذ
- 2- إذا صحت كوباً فهو كون فكنا يندوم بلا فساد

نثر النظم / 101

(57)

وله (من الطويل)

- 1- وكنتُ امرءاً من جند إبليس فارتقى بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
- 2- فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

التفسير الكبير 117/18

(1) الصلا: اسم للوقود، وهي النار، برد الأكباد: الطلا.

(58)

وله في رثاء الخليل بن أحمد⁽¹⁾ القاضي السجزي (من الطويل)

- (1) ولما رأينا الناس حيرى لهدّة بدت بأساس الدين بعد تأطد
(2) أفضنا دموعاً بالدماء مشوبةً وقلنا لقد مات الخليل بن أحمد

(59)

وله (من الوافر)

- 1- غَدَوْنَا شَطْ نَهْرَ الْهِنْدِ مِنْدٍ سُكَارَى آخِذِي بِالْدُسْتَبِنْدِ⁽²⁾
2- وِرَاحٌ قَهْوَةٌ صَفْرَاءٌ صَرْفٌ شَمُولٌ قَرْقَفٌ مِنْ جَهَنبِنْدٍ
3- وَسَاقٌ شَبَّهَ دِينَارَ أَتَانَا يَدِيرُ الْكَأْسَ فِينَا كَالدَّرْنَدِ
4- فَلَمَّا دَبَّ سَكْرُ اللَّيْلِ فِينَا وَأَصْبَحْنَا بِحَالِ خَرْدَمَنْدٍ⁽³⁾
5- مَتَى تَدْنُو لِقُبْلَتِهِ تَلَكَّا وَيُلْقِي نَفْسَهُ كَالدَّرْدِ مِنْدٍ⁽⁴⁾
6- وَهَذَا شِعْرٌ مَزَاحٌ ظَرِيفٌ يُحَاكِي أَنَّهُ جُنْدٌ بِنِ جُنْدٍ

مادة هند مند: معجم البلدان 1/ 393 تاج العروس 9/ 351

(1) هو الخليل بن أحمد بن محمد الخليل بن موسى السجزي، توفي بسمرقند، وهو قاض بها سنة 378هـ.

(2) الدستبند: نوع من الرقص الجماعي، شبيه بالدبكة.

(3) خردمند: عاقل، فهيم، مدرك.

(4) الدردمند: المريض، المتألم.

وله (من الطويل)

- 1- خليلي عهدى بالليالي صوافيا فما بألها أبدلن جيماً بصادها
- 2- ولا تحسباً عيشي عليّ فإنني أؤرخُ يومَ الموت يومَ افتقادها
- 3- ولستُ أحبُّ الضوءَ إلا لوجهها ولا البدرَ إلا طالعها في بلادها
- 4- ولو أنني أنصفتها ورعيتها لسارَ فؤادي في طريق فؤادها
- 5- خليلي هل أبصرثما مثل أدمعي نفدتُ وحقَّ الله قبل نفادها⁽¹⁾

(1، 5) البيمة 4 / 210، (1-5) خاص الخاص / 192

(5) الإعجاز والإيجاز / 198

(1) نقدن: خاص الخاص (نقدت).

قافية الراء

(61)

ومن قصيدة (من الطويل)

- 1- وكم ليلة لا أعلم الدهر طيبها
 - 2- سهاذ ولكن دونه كل رقدة
 - 3- وسكر الهوى لو كان يحكيه لذة
 - 4- ولما أدارت مقلّة جاهلية
 - 5- ومالت كأن قد سقيت خمر خدّها
 - 6- حسدت عليها ناظري إذ تحلّه
- مخافة أن يقتصّ مني لها الدهر
وليل ولكن دون إشراقه الفجر
من الخمر سكر لم يكن حرم السكر
هلاك امرئ في ضمن ثوبي لها نذر
وكيف يميل الخمر من ريقه الخمر
كما تحسّد الأفلاك نعل فناخسرو

(6-1) البيتة 4/21

(62)

ومن عضديه (من الطويل)

- 1- وكم عصبية قرحي عصوك فأصبحوا
 - 2- وصارخة للزوج كان غناؤها
 - 3- فصيرتها تكلّى وأصبح قولها
- بهم يومهم خمر وفي غلهم أمر
(لها كنية عمر وليس لها عمرو)⁽¹⁾
(كذا فليجل الخطب، وليفدح

البيتة 4/219-220

(1) العجز لأبي صخر الهذلي، أبي القلب إلا حبّها عامرية لها كنية عمر، وليس لها عمر

(2) مطلع قصيدة لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، وعجزه: فما لعين لم يفيض ماؤها عذر

(63)

ومن عضديه أخرى (من الطويل)

- 1- غريبٌ على الأيام وُجدانٌ مثله وأغربُ منه بعدَ رؤيته الفقرُ
- 2- فلا حُرّاً إلا وهو عبْدٌ لجوده ولا عبْدٌ إلا وهو في عدله حُرٌّ
- 3- عجبتُ له لم يلبسَ الكبرَ حُلّةً وفينا لأنّ جزنا على بابهِ كِبَرٌ⁽¹⁾

(1-3) البيّمة 22/4، (1) محاضرات الأدباء 259/1

(64)

وله من قصيدة في رثاء أبي الفتح بن العميد (من الكامل)

- 1- يا دهرُ إنَّك بالرُّجالِ بصيرُ فلطالما تجتاحهم وتُسيرُ
- 2- يا دهرُ غيري قد خدعت بباطلِ وابنُ العميدِ مُغيَّبٌ مقبورُ
- 3- الآن نادتنا التجاربُ طلقوا دُنياكم إنَّ السُّرورَ غُرورُ
- 4- يا دهرُ ظلُّ لمخليك فريسةً رجلٌ لعمري لو علمتَ كبيرُ
- 5- رجلٌ لو أنَّ الكُفرَ يحسنُ بعده هُجَيّ القضاء، وأُتِبَ المقدورُ
- 6- أشكو إليك النفسَ وهي كئيبةٌ وأذمُّ فيك الدَّهرَ وهو غزيرُ
- 7- وأقولُ للعين الغزيرَ بكاؤها خطبٌ لعمري لو عميتِ يسيرُ
- 8- قدِمْتُ بعدك ميتةً مستورةٌ قد ساقها لي موثك المستورُ
- 9- ودُفنتُ في قبرِ الهمومِ وضمَّني كفنان: ضيقُ الصدرِ والتفكيرِ

(1) لأن: محاضرات الأدباء (إذا).

- 10- ضحكت إليك الحور ضحكك كلما وافاك ضيفاً أو أتاك فقير
 11- وضفت عليك ذبول رحمة ربنا والله برّ بالجواد غفور
 12- وسقى ضريحك مُستهلّ عمره شهر، وعمرُ الثبت منه شهر
 13- جودك ككفك أو كعيني أو دم أجراه سيفك في العدى مشهور
 14- أهوى القيامة لا لشيء غير أن القاك فيها والأنام حضور
 15- وأحبُّ فيك الموت علماً أنني بعد الممات إلى اللقاء نصير
- 1-15 البيتة 4/227، (1، 2) 3/192

(65)

وله من أخرى (من الكامل)

- 1- وأراك تشكو الشيبَ تظلمه والشيبُ زرعُ بزره العُمرُ
 2- كالخمر يجلبها الخمارُ وقد يهجي الخمارُ، ويُمدح الخمرُ
- البيتة 4/235

(66)

وله من أخرى (من الطويل)

- 1- وإني لأرجو الشيبَ ثم أخافه كما يُرتجى شربُ الدّواءِ ويُحذرُ
 2- هو الضيفُ أن يسبقَ فعيشٌ مكدّرٌ عليّ وإن يسبقَ فموتٌ مقدرُ
- البيتة 4/241

(67)

وله في كيزان الفقاع: (من المتقارب)

- 1- وضيفة الفم دُخاحه عليها قميصٌ ندى أخضرُ

2- ثُورُ إِذَا كَشَفُوا رَأْسَهَا وَإِنْ قَبَّلُوا فَمَهَا تَهْدُرُ⁽¹⁾

(1) محاضرات الأدباء 714/2، (1، 2) المصدر السابق، 379/4.

(68)

وله (من البسيط)

1- لَهُ مَنَاقِبُ لَا تُحْصَى مَحَاسِنُهَا وَيَحْسَبُ الْأَكْثَرَانُ: الرَّمْلُ وَالشَّجَرُ

2- مَا سَارَ مَوْكِبُهُ إِلَّا وَيَخْدِمُهُ فِي ظِلِّهِ الْأَسْنِيَانُ: الْفَتْحُ وَالظَّفَرُ

3- دَامَتْ يَقْبَلُهَا يَدُ الْمَلُوكِ كَمَا يَقْبَلُ الْأَكْرَمَانُ: الرُّكْنُ وَالْحَجَرُ

تحفة الناصرية/ ورقة 76

(69)

وقال في وصف الرياس⁽²⁾ (من الطويل)

1- وَلَعِبَةٍ عَاجٍ فِي قَمِيصٍ مُورِدٍ أَسَافِلُهُ خَضِرٌ وَأَزْرَارُهُ حُمْرٌ

2- كَأَنَّ يَدَيْهَا وَالْأَنَامِلُ خُضِبَتْ وَشُدَّتْ عَلَى أَطْرَافِهَا خِرْقٌ خُضِرُ

نهاية الارب 64/11

(70)

ومن صاحبية (من الطويل)

1- تَأَخَّرَ عَنْ كُتَيِّ الْجَوَابِ وَإِنَّمَا تَأَخَّرَ بَرْدُ الْمَاءِ عَنْ كَبْدِ حَرَى

2- فَلَا تَفْسُدَنَّ عَشْرِينَ أَلْفًا وَهَبْتَهَا بِعَشْرِينَ حَرْفًا مِنْ كَلَامِكَ تُسْتَمَرَى

البيمة 225/4

(1) هذا البيت منسوب خطأ لأبي طالب المأموني في محاضرات الأدباء 714/2.

(2) الرياس (هو نبات ينبت في الثلج، له قوة حماض الأترج والحصرم).

(71)

وله (من الطويل)

- 1- عليك بإظهار التجلّد للعدي ولا تُظهرن منك الذبول فتحقرا⁽¹⁾
 - 2- ألسن ترى الرّيحان يشتّم ناضراً ويُطرح في الميضأ إذا ما تُغيّرا⁽²⁾
- (1-2) البيتية 240/4، خاص الخاص 192/، الإعجاز والإيجاز 200، التمثيل والمحاضرة/ 124، عيون التواريخ 1225/12، نهاية الأرب 114/3، تمام المتون/65.

(72)

ومن قصيدة في الشكوى (من الكامل)

- 1- ولقد بلوت الأصدقاء فلم أرَ فيهم أوفى من الوفر
- 2- وكذلك لم أرَ في العدا أحداً أنكى لمن عادى من الفقر
- 3- ذهب الغنى وورثت عادثه فأنا الغني وغيري المثري
- 4- وتجمعت في اثنتان ولم يتجمعا في سالف الدهر
- 5- لا يبرح المقصوص موضعه ولقد قصصت فطرت عن وكري

البيتية 236/4

(73)

وله من قصيدة (من مجزؤ الكامل)

- 1- لا يصغر الرجل الكبير بعشرة الرجل الصغير

(1) فتحقرا: الإعجاز والإيجاز (فتمشياً)، الذبول: نهاية الأرب (الدنو).

(2) في عيون التواريخ (ويطرح في الميضأة أنى تغيرا)، يشتّم: تمام المنون (بشمم وقد نسب البيتان إلى أبي الفتح البستي في التذكرة السعدية (411) وذكر الحق أنه لم يعثر عليهما في ديوانه أو في البيتية.

- 2- بل يكبرُ الرَّجُلُ الصَّغِيرُ بخدمة الرَّجُلِ الكَبِيرِ
- 3- ويُركَّبُ الثَّيْبُ النَّفِيسُ على الدُّنْيَا مِنَ السُّيُورِ
- 4- ماذا يضرُّ البدرَ قُربُ النُّجْمِ منه المُستَثيرِ
- 5- بل ما يضرُّ السَّيْلَ مجرأه على الأرضِ الحُدُورِ
- 6- بل ما عسى صغرُ السَّفينِ يَغْضُ من عظمِ البُحُورِ
- 7- قد زادني شرفاً ولم يُنْقِصْهُ من شرفِ حضوري
- 8- كالنَّارِ ليس بناقصٍ منها اقتباسُ المُستَعرِ
- 9- تلقى الفتى سَهْلَ الشَّريعةِ للجلِّيسِ وللعَشِيرِ
- 10- أو ما رأيتَ البحرَ يَغْرُقُ منه⁽¹⁾ بالخطِّيبِ اليسيرِ
- 11- والنَّاسُ مثلُ الجسمِ يعتمدُ القَبِيلَ على الدَّبيرِ
- 12- يتحامَلُ العضوُ الخطيرُ بقوة العضوِ الحَقِيرِ
- 13- كتحامَلِ الرَّمحِ الطَّويلِ يزجُّه ذاك القَصِيرِ

(74)

وله في أمير الأمراء / أبي الحسين بن سيجور

- 1- إنَّ الألى خَلَفَ الخُدُورِ هُم في الضُّمائرِ والصَّدُورِ
- 2- وقَعَ الغِبَارُ عليهم فغدا يتيه على العَبِيرِ
- 3- لَمَّا مشينَ على الثَّرى تاهَ الثَّرَابُ على الأثيرِ⁽²⁾
- 4- فغدوتُ من حالِ الأميرِ ورحلتُ في حالِ الحَسِيرِ

(1) يغرق: لعلها يغرف

(2) تاريخ العتي (تاه المصار على المصير).

- 5- يا سائلي من في الهواد ج والبراقع والسّـتور
6- فيها الرّضاعُ من المنيّة والفِطام من السّرور
7- وكذلك من عشيق النّجوم ورام صـيـداً للّبـدور
8- وأعرّثن القلب لـورد المعاز على المعير
9- وسالت من زوج المنابر حين تُخطبُ والسّرير
10- فهو الأمير ابن الأمير ابن الأمير
11- المشتري المـدح القليل بماله الجـم الغفير
12- من سيفه كسر الجبير وسيفه جبر الكسير
13- والناظم المعنى الطويل بلفظه النـزر اليسير⁽¹⁾
14- يرمي أعاديـه بسهم من سعاديـه طـير
15- حتّى لو افترشوا الحرير لشاكهم مس الحرير
16- وسهامه ثوب الخطوب وقوسه عضب الدهور
17- ورمحه حشو العدى وعدائـه حشـو القبور
18- استغفر الرحمن بل حشـو الخوامع والنسور⁽²⁾
19- ويصوم صارمه فيفطر ويصوم صارمه فيفطر
20- وإذا أتاه سائلاً رب الشـويهه والسـبعير
21- أبصره بفنائـه رب الخورنق والسـدير

(1) اليسير: العتي/ القصير.

(2) الخوامع: الضباع، والخامعة الضبع لأنها تجمع إذا مشت.

- 22- أحمّد بن محمّد هذا الثّماد من البحور⁽¹⁾
 23- لو كانت الدنيا تدور على الحقائق في الأمور
 24- ما صرح مدح محمّد إلا من القمر المنير
 1-24 تاريخ العتي، 1/155-157، (1-24) نسمة السحر 2: 319، (1) ربحانة الألباء / 38

(75)

وله (من الطويل)

- 1- تميت خلات على الدهر أربعا ولم أر مسؤولاً أشح من الدهر
 2- جماعاً بلا ضعف، وشراباً بلا سُكر وعمرأ بلا شيب، وبذلاً بلا فقر
 اليتيمة 4/ 240

(76)

ومن قصيدة في أبي القاسم المزني لما قبض عليه (من الكامل)

- 1- وثب الصّغير على الكبير وقد يُطفي التراب حرارة الجمر
 2- لا تعجبين فرب ساقية قد كدّرت طرفاً من البحر
 3- هذا الحسام يفلّهُ هجر وبه قوامُ النهي والأمر
 4- غصبت جذيمة نفسة امرأة فاصطيد ذاك الحرُّ بالحر
 5- هيهات هذا الدهر الأم من أن لا يسر العبد بالحر

اليتيمة 4/ 236-237

(1) الثّماد: جمع ثمد، وثمد: الماء القليل.

(77)

وله (من الهزج)

- 1- فتى مختصر المأكول والمشروب والعطر
- 2- نقي الخبز والقصة والمنديل والقدر
- 3- قليل الثمل والدبان والجردان والهبر

الكناية والتعريض / 36

(78)

وله (من السريع)

- 1- قد لقي الأحاب منه الذي لم يلق زيد النحر من عمرو

التمثيل والمحاضرة / 162

(79)

وله وقد طلبت جارية له بعشرة آلاف درهم: (من السريع)

- 1- يا طالباً روعي لبيتاعها أنت رسول الغم والخسره
- 2- غدوت بالبدره فارجع بها لست أبيع البدر بالبدره

اليثيمة 4 / 237

(80)

وله من قصيدة (من الهزج)

- 1- أيا من قرئته خيرة ويا من بعده عيرة

- 2- وَيَا مَنْ وَصَلُهُ يَوْمٌ وَيَا مَنْ هَجَرَهُ فَتَرَهُ
- 3- وَيَا مَنْ وَصَلُهُ أَعْلَى مِنْ الشَّمَالِ فِي الْبَصَرِهِ
- 4- وَيَا مَنْ نَظَرُهُ مِنْهُ تَسَاوَى مَا تَنِي بِدَرُهُ
- 5- وَيَا مَنْ قَدْ حَكَى خَدَاهُ قَلْبِي فِيهِمَا جَمْرَةٌ
- 6- وَيَا مَنْ طَرَفُ مَنْ أَبْصَرَ بَدْرًا بَعْدَهُ يَكْـُـرُهُ
- 7- وَيَا مَنْ عَيْنُهُ جَيْشٌ كَثِيفٌ لِأَبِي مُرَّةً⁽¹⁾
- 8- وَيَا مَنْ نَحَرَ الشَّيْطَانُ نٌ فِي مَوْلَاهُ لِنَحْرَةٍ
- 9- وَقَالَ الْيَوْمَ الْقِيَمَةُ بَنِي آدَمَ فِي الْخَفَرِهِ
- 10- وَيَا مَنْ أَنْذَرْتُ عَيْنَاهُ عَيْنِي مَا تَنِي مُرَّةً
- 11- أَيَا عَيْنَ أَرْجَعِي مَا كُلُّ وَقْتٍ تَسْلُمُ الْجَرَهُ
- 12- وَيَا أَحْسَنَ مَنْ يَسِرُّ يَلْقَى صَاحِبَ الْعَسَرِهِ
- 13- وَيَا أَعْذَبَ فِي الْأَنْفَسِ مَنْ صَفَحَ عَلَى قَدَرِهِ
- 14- وَيَا مَنْ لَسْتُ أَرْضَى قَطُّ بِالْبَحْرِ لَهُ قَطَرُهُ
- 15- وَلَا أَرْضَى لَهُ الْبَدْرُ عَلَى إِشْرَاقِهِ غُرَّةً
- 16- وَلَا أَرْضَى لَهُ الْأَرْضُ عَلَى فَسَحَتِهَا حَجَرُهُ
- 17- وَلَا أَرْضَى لَهُ بَلْقَيسُ يَجْلُوهُمَا عَلَى الْعَذَرِهِ
- 18- وَلَا أَرْضَى بِرِزْقِ الْإِنْسِ وَالْجَنِّ لَهُ سَفَرُهُ
- 19- وَلَا أَرْضَى مِنَ الْقَلْبِ لَهُ عَشَقٌ بِبَنِي عَذَرِهِ
- 20- وَلَا أَرْضَى لَهُ السَّعْدُ غَلَامًا وَالْمَنْسَى سَخَرُهُ

(1) أبو مرة: كنية إبليس.

- 21- ولا أرضى له الرمل نضارا والخصى نقره
 22- ولا أرضى له إلا بنفسى أمّسة حُـرـه
 23- قد استخرجت من عيني عينا في الهوى ثـرـه
 24- فلو فجرتها فجرت منها اثنتي عشره
 25- وقد أصـجعتني فوق فراش الهم والحسره
 26- وقد علمتني كيف يموت المرؤ من نظره
- اليثيمة 4/ 237-238

(81)

وقال في وصف لجأة (من المديد)

- 1- بنت قفر بدت لنا من بعيد
 2- رأسها رأس حية وقراها
 3- مثل فهر العطار دق به العطر
 4- أو كما قد قلبت جفنة شرب
 5- يقطع الخوف رأسها فإذا ما
- مثل ما قد طوى البخاري سِفـرـه⁽¹⁾
 ظهر ثرس، وجلدُها جلد صخرة
 فحلت طرائق الطيب ظهره
 نقشوها بجمرة وبصفرة
 أمثله فرأسها مُستقرّة

(5-1)

(1، 2، 3، 5) نهاية الإرب 317/10 الوافي بالوفيات 194/3

(1، 2، 4، 5) عيون التواريخ 1225/12 (5-1) مباهج الفكر ومناهج العبر ج2 قسم الحيوان ورقة 352.

(1) بنت قفر: الوافي بالوفيات (بنت قفر). سفره: الوافي بالوفيات. سفره.

(82)

وله في هجاء أبي بكر النحوي البستي (من مجزؤ الرجز)
نَحْوُكُمْ فِي حُمَقِهِ مَعْرِفَةٌ لَا نَكْرَهُ
ذُو الْحَيَاةِ مَبْسُوطَةٌ وَفُطْنَةٌ مُخْتَصِرَةٌ

اليتيمية 4/338

قافية السين

(83)

وله في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

- 1- وفي الدُّسْتِ شَخْصٌ وَدَّتْ الْأَلْجَمُ الَّتِي تُقَابِلُهُ لَوْ أَنَّ هُنَّ مَجَالِسُ
- 2- فلا تعجبوا أنْ يَحْمَلَ الدُّسْتُ عُسْكَراً فَمَا كُلُّ أَمْرٍ يُقْتَضِيهِ الْمَقَاسُ
- 3- وإنْ يَسْعَ الدُّسْتُ اللَّطِيفَ لِعَالَمٍ فَقَدْ وَسَّعَتْ اسْمُ الْإِلَهِ قَرَاطِسُ
- 4- أَمِينَ إِذَا مَا النَّاسُ مَالُوا لغيرِهِ (وَمَحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ)⁽¹⁾

ومنها

- 5- وَكُنْتُ أَمْرًا لَا أَنْشُدُ الدَّهْرَ خَالِيًا سِوَى بَيْتِ ضَرْبِ نَجْمَةِ الدَّهْرِ نَاحِسُ
- 6- (أَقْلِي عَلَى اللَّوْمِ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَذَمِّي زَمَانًا سَادَ فِيهِ الْفَلَاقِسُ)⁽²⁾
- 7- فَأَصْبَحَ إِنْشَادِي لِبَيْتٍ إِذَا جَرَى فَفِيهِ نَسِيدٌ مُمْتِعٌ وَمُؤَانِسُ
- 8- (وَدَارِ نَسَامِي عَطَّلُوها وَأَدْجُوا بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ)⁽³⁾

البيتة 4/ 218-219

(84)

وله في الصاحب بن عباد وقد اعتل (من الطويل)

- 1- نَعَوَا لِي نَفْسَ، الْمَجْدِ سَاعَةً أَخْبَرُوا بِمَا يَشْتَكِي مِنْ سَقَمِهِ وَيُمَارِسُ
- 2- فَهَلَّا فِدَاؤُهُ مِنْهُ مَنْ لَيْسَ مِثْلُهُ وَمَنْ رَبْعُهُ فِي سَاحَةِ الْجُودِ دَارِسُ

(1) المصراع لعبد الله بن همام.

(2) البيت لعبد الله بن همام.

(3) البيت لأبي نواس.

3- جزى الله عني الدهر شراً، فإنه يضايقني في واحدٍ ويُنافسُ
اليتيمة 222 / 4.

(85)

وله (من البسيط)

- 1- يا مَنْ يُحاولُ صرفَ الراحِ يشربُها فلا يُلْفُ لما يَهواهُ قِرطاساً⁽¹⁾
 - 2- الكأسُ والكيسُ لم يُقضَ امتلاؤُهما ففرغَ الكيسُ حتَّى ثُملاً الكاسا
- (1-2) اليتيمة 239 / 4، الإعجاز والإيجاز 200، الوافي بالوفيات 194 / 3، عيون التواريخ
234 / 12 ب، نسمة السحر 318 / 2.

(86)

وله في اللحم⁽²⁾، وقد تحكك به حدثا (من السريع)

- 1- رأيتُ للحمٍ في حلقه للشعرِ تطيقاً وتجنيساً
 - 2- نخوةُ فرعونَ ولكئلهُ جانسٌ في حَمَلِ العصا موسى
 - 3- قرئنه إبليسُ لكئله خالفَ في السجدةِ إبليساً
- اليتيمة 102 / 4، ثمار القلوب 81 / 81، الكناية والتعريض 34 / 34.

(87)

وله في مزين (من المنسرح)

- 1- إنَّ أبا القاسمِ المزيّن قد أصبحَ رأساً في حلقه الروسا

(1) لا يلف: الوافي بالوفيات، ونسمة السحر: (لا يفك).

(2) اللحم: أبو الحسن علي بن الحسن اللحم الخرائي ترجمته في اليتيمة 102 / 4، وقد ورد (اللجام)
في الكناية والتعريض وهو تصحيف.

- 2- لو لم تَقَعْ شَعْرَتِي عَلَى فَخْذِي مَا كَانَ وَقَعُ الْحَدِيدَ مَحْسُوساً⁽¹⁾
- 3- مَشَارِطُ أَصْبَحَتْ شَرَائِطُهُ لِلْبَرِّ مُوسَى أَخَذَنَ مِنْ مُوسَى
- (1-2) أَحْسَنَ مَا سَمِعْتُ / 126، (1-3) الْمُتَشَابَهُ لِلخَفَاجِي / 31.

(88)

- وله من قصيدة (من المتقارب)
- 1- عَلَيْكَ رَقِيبٌ شَدِيدُ اللَّحَاطِ مَتَى لَمْ يَحِطْ عِلْمُهُ يَخْدُسُ⁽²⁾
- 2- أَنَّهُ مِنَ الْمُسْكَ بِالْعَاشِقِينَ وَالْحَظُّ عَيْنًا مِنَ الثَّرَجِسِ
- الْبَيْتَةُ 4 / 212، خَاصُ الْخَاصِ / 42

(89)

- وله (من الوافر)
- 1- وَلَمَّا أَنْ غَرَسْتُ إِلَيْكَ وَدِّيَ فَلَمْ يَثْمُرْ لَدَيْكَ زَكِيٌّ غَرَسِي⁽³⁾
- 2- أَرَدْتُ مَلَالَةً، وَأَرَدْتُ هَجْرًا فَصَتَكَ عَنْهُمَا فَهَجَرْتُ نَفْسِي⁽⁴⁾
- 3- لِأَنَّ الدُّنْبَ دَنِي حِينَ أَهْدِي إِلَى مَنْ لَا يُرِيدُ الْأَنْسَ أَنْسِي
- بَغِيَّةُ الْوَعَاةِ / 51 الْحَصُونُ الْمُنِيعةُ 7 / 186

(1) حَذَفَ عَحَقُّ أَحْسَنَ مَا سَمِعْتُ كَلِمَةَ (شَعْرَتِي) لِأَنَّهُ عَدَّ ذِكْرَهَا خُرُوجًا عَلَى الذَّوْقِ.

(2) شَدِيدُ اللَّحَاطِ: الْيَتِيمَةُ (ثَقِيلُ اللَّحَاطِ) لِيَتَنَاسَبَ مَعَ مَا وَرَدَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي.

(3) زَكِيٌّ: الْحَصُونُ (ذَكِيٌّ).

(4) الْحَصُونُ (أَزْدَتْ مَلَامَةً، وَأَزْدَتْ هَجْرًا... فَهَجَوْتُ نَفْسِي).

قافية الضاد

(90)

ومن قصيدة (من الخفيف)

- 1- قُلْتُ لِلْعَيْنِ حِينَ شَامَتْ جَمَالاً فِي وَجْهِهِ كَوَاذِبُ الْإِيمَانِ⁽¹⁾
- 2- لَا تَغْرُوكِ هَذِهِ الْأَوْجُهُ الْغُرُ يَا رَبُّ حَيَّةٌ فِي رِيَاضِ⁽²⁾

(1-2) البيتية 4/ 200، خاص الخاص / 191، الإعجاز والإيجاز / 199

التمثيل والمحاضرة / 378 (1) زهر الآداب / 271.

(91)

ومن أخرى (من الخفيف)

- 1- خَضَبَتْنِي الْأَيَّامُ لَوْنُ يِيَاضٍ وَخَضَابُ الْأَيَّامِ لَيْسَ بِنَاضٍ
- 2- وَتَخَطَّتْنِي الْمَنُونُ إِلَى شَعْرِي فَأَضْحَى مُكَفَّنًا بِيِيَاضٍ
- 3- (وَلَعْمَرِي إِنِّي لَغَيْرُ لَيْبٍ فِي قَتَالِ الْأَيَّامِ بِالْمِقْرَاضِ)

البيتية 4/ 235

(1) وجوه: خاص الخاص، الإعجاز والإيجاز (بروق).

(2) الغر: الإعجاز والإيجاز (الغر).

(92)

وله أيضاً (من الخفيف)

- 1- وإذا مُدَّةُ الشُّقْيِ تَنَاهَتْ جَاءَهُ مِنْ شَقَائِهِ مَتَقَاضِي⁽¹⁾
التمثيل والمحاضرة / 124، نهاية الأرب 3/ 114

(93)

ومما أورده بديع الزمان الهمداني على لسان الخوارزمي في المناظرة (من الكامل)

- 1- يا قاضياً ما مثله من قاض أنا بالذي تقضي علينا راض
2- فلقد لبست ضفية ملموحة من نسج ذاك البارق الفضفاض
3- لا تغضبني إذا نظمت تنفساً إن الغضا في مثل ذاك تغاضي
4- فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض⁽²⁾
5- ولقد قرضت الشعر فاسمع واستمع لنشيد شعر طائعاً وقراض
6- فلاغلبن بديهة بديهتي ولأرمين سواده بيضاء

(1-6) رسائل بديع الزمان الهمداني / 57، (1، 4) معجم الأدباء 1/ 104

(1) متقاضى: التمثيل والمحاضرة (متقاض).

(2) متقادر: معجم الأدباء (متهتك)، ولقد بليت: معجم الأدباء (لا بل بليت).

قافية العين

(94)

ومن قصيدة في رثاء أبي الفتح بن العميد (من الطويل)

- 1- أسرك أن الدهر يجني لما جنى ولم يك في الأحبار والنصب يدعي
- 2- فيا عجي من ناصبي وفرحه وأعجب منه الحزن في التشيع
- 3- وأعجب من هذين إظهارك الأسى لمن غاب عن دار الأسى والتوجع
- 4- ألم تر أن الله قال: تمتعوا قليلاً ولم يبق قليل التمتع

البيتة 4 / 227

(95)

ومن أخرى (من مجزؤ الكامل)

- 1- لاحت لوجهي ألجم للشيب عذن به طوالع
- 2- أودعت منهن الصبا من لا يرى رد الودائع
- 3- فقصصنهن وإنما دهرى بمقراضى أخادع
- 4- وإذا عدوك كان بعضك في الخطوب فمن ثمارع

البيتة 4 / 235

(96)

وله من أخرى في هجاء ابن شار (من مخرج البسيط)

- 1- لله في كل ما قضاه لطائف تحتها بدائع
- 2- سبحان من يطعم ابن شار ويشرك الكلب وهو جائع

اليتيمة 4/ 207

(97)

وله مخاطباً بديع الزمان الهمداني: (من مجزؤ الرمل)

- 1- يا بديع القول حاشا لك من هجو بديع
- 2- ومحسن القول عوذك من سوء الصنيع
- 3- لا يعيب بعضك بعضاً كمن مليحاً في الجميع

معجم الأدباء 1/ 113

(98)

وله في أبي سهل البستي الكاتب (من السريع)

- 1- مات أبو سهل فواحسرتا إن لم يكن قد مات مذ جُمعة
- 2- ما حزني إلا لأن لم يمست بموته من أهله تسعة
- 3- مصيبة لا غفر الله لي إن أنا أذريت له دُمعة

اليتيمة 4/ 230

قافية الغاء

(99)

وله (من البسيط)

- 1- هل تَنْشَطُونَ لَتَنُورِيَةٍ خُنِقَتْ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ حَتَّى قَلْبُهَا يَجِفُ
 - 2- كأنها وهيَ فوقَ الجِامِ قدَ فَرَقَتْ في دَفْنِهَا، قَمَرٌ بِالشَّمْسِ مُلْتَجِفٌ
 - 3- أو درهمٌ فوقَ الدُّينَارِ منطبقٌ أو لوحٌ عاجٍ على الزُّريابِ مُكْتَتَفٌ⁽¹⁾
- محاضرات الأدباء 2/ 614

(100)

وقال (من الطويل)

- 1- وهذا الهوى عيشُ المُحِبِّ إذا صفا ولكنْ إذا لم يصفْ كانْ له حَتفا
- محاضرات الأدباء 3/ 47

(101)

وله في دار الصاحب بن عباد: (من مجزوء الوافر)

- 1- بَنِيَتْ السِّدَّارَ عَالِيَةً كَمِثْلِ بَنَائِكَ الشُّرْفَا
 - 2- فَلَا زَالَتَ رُؤُوسُ عِدَاكَ فِي حَيْطَانِهَا شُرْفَا
- البيتة 3/ 218، خاص الخاص / 191، الإعجاز والإيجاز / 200، المتحلل / 40، تحفة الناصرية / ورقة 194.

(1) الزرياب: الذهب: وقد وردت (الزرياب) وهو تصحيف.

وله في باقة ريجان (من الرجز)

- 1- وضعت ريجان إذا ما وصفه واصفه قيل له: زد في الصفه⁽¹⁾
- 2- دققه صانعه ولطفه كائنه وشم يد مطرفه⁽²⁾
- 3- أو خط وراق أدق أحرفه أو زغبات طائر مصفه⁽³⁾
- 4- أو حلة بخضرة مفوفة⁽⁴⁾

التيمة 4/ 239-240، نهاية الأرب 11/ 255، مباحج العبر 447 (ب).

(1) وضعت ريجان: في نهاية الأرب، ومباحج العبر: وصفت ريجانا.

(2) مطرفه: مباحج العبر (مظرفه).

(3) مصفه: مباحج العبر: (محففه).

(4) بخضرة: نهاية الأرب ومباحج العبر (محضرة).

قافية القاف

(103)

- ومن قصيدة نسبها بديع الزمان إليه في المناظرة التي جرت بينهما (من الكامل)
- 1- وإذا ابتدعتُ بديهةً يا سيدي فأراكَ عندَ بديهتي تتفلقُ⁽¹⁾
 - 2- وإذا قرضتُ الشُّعرَ في ميدانه لا شكَّ أنَّكَ يا أخي تشققُ
 - 3- إني إذا قُلْتُ البديهةَ قُلْتُها عَجلاً وطبعكَ عندَ طبعي يفرقُ⁽²⁾
 - 4- مالي أراكَ، ولستَ مثلي عندها مُتموهاً بالثرهاتِ ثمخرقُ
 - 5- إني أجيزُ على البديهةِ مثلَ ما ثريانه، وإذا نطقتُ أصدُقُ
 - 6- لو كنتَ من صخرٍ أصمٍّ لهاله مُني البديهةَ، واغتدى يتفلقُ
 - 7- أو كنتَ ليثاً في البديهةِ خادراً لرئيتَ يا مسكينُ مني تُفرقُ
 - 8- وبديهةٍ قد قُلْتُها مُتفلساً فَعَلَ الذي قد قُلْتَ يا ذا الآخرقُ

1-8 رسائل بديع الزمان الهمداني / 27، (1، 4) معجم الأدباء 102/1

(104)

وله (من الطويل)

- 1- يَفْلُ غدا جيشُ الثوى عسكرَ اللقا فرأيتُ في سحِ الدُموعِ موقفاً
- 2- وخذ حجتي في تركِ جنبي سالماً وقلبي ومن حقيهما أن يُشققا⁽³⁾

(1) وإذا: معجم الأدباء (فاذا).

(2) عندها: معجم الأدباء (في الوري).

(3) جنبي: مصارع العشاق (جسمي) مشققا: مصارع العشاق ونشوار المحاضرة (يجرقا).

- 3- يدي ضعفت عن أن تمزق جيئها وما كان قلبي ناظراً فيمزقاً⁽¹⁾
 4- ولما رأيت الإلف يعزم للنوى عزمت على الأجفان أن تترقراً⁽²⁾
 (3-1) البتمة 4 / 210، (4-1) نشوار المحاضر / 158.
 (4-1) مصارع العشاق / 90 (4-1) الأنساب المنقحة / 96.

(105)

وله (من الطويل)

- 1- رميت بك الأعداء عن قوس غنية وأصبح حب الناس مني مطلقاً
 2- وصغرت عندي الخلق حتى حسبتني على كل من خاطبته متصدقاً
 3- وكنت متى أنقل إلى أهل مجلس ثنا مجلس من فيك قمت مصدقاً
 4- وكنت متى ما أروعك قصيدة غدوت بها أصفى نشيدا وأحذا
 5- وكنت إذا استفتحت باسمك سفرة تطاير عني نخسها وتفرقا
 6- وكنت متى أذكرك والكأس في يدي صفت وغدا الداذي فيها معقاً⁽³⁾
 7- وكنت متى أحسد غنياً على الغنى ذكرتك سراً واستطلت لك البقا

تمام المنون في شرح رسالة ابن زيدون / 253

(106)

وله في الضفدع (من الرجز)

- 1- أرقي والدك لما ينطق صوت غريق نصفه لم يغرق⁽⁴⁾

(1) تمزق / مصارع العشاق (تمزق) ناظراً / مصارع العشاق (حاضراً).

(2) ورد هذا البيت بعد البيت الأول في مصارع العشاق.

(3) الداذي: نبت له حب مثل الشعير يتخذ منه شراب مسكر.

(4) في مباحج العبر: (والليل في سريال وجن مطبق).

- 2- وجاحظ العين، ولما يُخَنَّقْ بلحظ مَخْنُوقٍ، ولفظ أَشْرَقِ
محاضرات الأدباء 4/ 689

(107)

- وله مخاطباً بديع الزمان الهمداني: (من الرجز)
1- إِيَّاكَ إِن كَلَّفْتَنِي مَا لَمْ أَطِيقْ سَاءَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقِ
معجم الأدباء 1/ 109

(108)

- (وقال في ذم أحدهم) (من المنسرح)
1- كَأَنَّ رُغْفَانَهُ إِذَا وُضِعَتْ عَشُورُ نَقْطِ كَتِينٍ مِنْ وَرَقِ
محاضرات الأدباء 2/ 262

(109)

- وله (من المتقارب)
1- تَغَرَّبْتُ أَسْأَلُ مَنْ عَنْ لِي مِنْ النَّاسِ، هَلْ مِنْ صَدِيقٍ صَدُوقِ
2- فَقَالُوا عَزِيزَانِ لَا يُوجَدَانِ صَدِيقٌ صَدُوقٌ، وَبَيْضُ الْأَنُوقِ
ثمار القلوب 495

(110)

- وله وقد دخل إلى صديق فبخره وسقاه (من الكامل)
1- بُخِرْتُ ثُمَّ سُقِيتُ فِي دَارِ امْرِئٍ تَضْحِي الْقُلُوبُ طَوَالِبَا لُوفَاةِ
2- فَكَاثِمَا سُقِيتُ مِنَ الْفَاظَةِ وَكَأَنَّمَا بُخِرْتُ مِنْ أَخْلَاقِهِ
البيتمة 4/ 238

(111)

وله (من المجتث)

1- لا تياسن من حبيب إذا تـوعـر خـلقـه

2- فكلما صلب الخبز كان سهلا مذاقه

اليتيمة 240 /4

قافية الكاف

(112)

ومن أخرى (من الطويل)

- 1- عَذِيرِي مِنْ تِلْكَ الْوَجْوهِ الَّتِي غَدَتْ مَنَظَرَهَا لِلنَّاطِرِينَ مَعَارِكَا
 - 2- عَذِيرِي مِنْ تِلْكَ الْجُسُومِ الَّتِي غَدَتْ سَبَائِكَ تُغْنِي النَّاسَ فِيهَا السُّبَائِكَا
- البيتة 4 / 210

(113)

وقال: (ومن مجزؤ الكامل)

- 1- زُفْتُ إِلَيْكَ صَدِيقَةً لَفَتَى فُصِرَتْ لَهُ شَرِيكَا
 - 2- فَعَلَيْكَ كُلُّ مَوْوِنَةٍ وَعَلَى شَرِيكَكَ أَنْ يَنْيَكَا
- محاضرات الأدباء 3 / 237

(114)

وله (من السريع)

- 1- أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا لَنَا عِبرَهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكََا
 - 2- قَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى ذَمِّهَا وَمَا أَرَى فِيهِمْ لَهَا تَارِكَا
- التمثيل والمحاضرة / 251

قافية اللام

(115)

وقال من قصيدة (من الوافر)

- 1- وشمسٍ ما بدت إلا أرتنا بأن الشمس مطلقها فصول
 - 2- تزيد على السنين سناً وحسناً كما رقت على العشق الشمول⁽¹⁾
- اليتيمة 4/ 209، خاص الخاص / 190، الإعجاز والإيجاز / 198

(116)

وله من قصيدة في مدح عميد الدولة (من الوافر)

- 1- بحمدك لا بحمد الناس أضحى وكيلي ليس يكفيه وكيل
 - 2- وكانوا كلما كالوا وزئنا فصرنا كلما وزنوا نكيل
 - 3- وزدت من العيال وذاك آني كتبت على لقائك من أعول
 - 4- وعشت وناقص رزقي فأضحى (مفاعلتن مفاعلتن فعول⁽²⁾)
 - 5- وكنت أبيع من سقط القوافي وأحجر ما تضمنت الحمول
 - 6- وأكتم من أبايع دق يزى ففاض عليه نائلك الجزيل
- (1-6) اليتيمة 4/ 223 (1-4) خاص الخاص / 190 (1-4) الإعجاز والإيجاز / 199

(1) سنا: اليتيمة (ضيا)، الإعجاز والإيجاز (ضنا).

(2) خاص الخاص (مفاعيلن، مفاعيلن فعول).

(117)

وله (من الوافر)

- 1- وما التَّقْفِي إن جَادَتْ كِسَاهُ وراَعَكَ شَخْصُهُ إلا خِيَالُ

(118)

وله (من الوافر)

- 1- خُذِي ثَأَرَ الكَسَادِ مِنَ اللَّيَالِي لِكُلِّ صِنَاعَةٍ يَوْمًا بِدِيلُ

محاضرات الأدباء 2/ 384

(119)

وله (من الوافر)

- 1- كَمَسْتَرَقُ اللَّحَاطِ إِلَى عَرُوسٍ وَعِنْدَ سَوَاهِ تَضَطَّرِبُ الحُجُولُ

محاضرات الأدباء 4/ 370

(120)

وله

- 1- السَّيْفُ يَمْضِي وَبِهِ انْفِلَالُ وَالْحُرُّ يُعْطِي وَبِهِ إِقْلَالُ

التمثيل والمحاضرة / 292، الكناية التعريض / 11

(121)

ومن أخرى (من الخفيف)

- 1- قَدْ عَصَانِي دَمْعِي وَخَلَّي فَخِلْتُ الخُلَّ دَمْعًا، وَخَلْتُ دَمْعِي خَلًّا

- 2- وَأَحَاطَتْ بِي الخُصُومُ فَجَفْنَا مُسْتَهْلًا، وَصَاحِبًا مُسْتَقِيلًا

3- وفؤاداً لو ظنَّ إبليس أنَّ النارَ في حرِّه لصامَ وصلى

البيتة 4/ 211

(122)

ومن قصيدة في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- وجدنا ابنَ عبادٍ يُؤدي فرائضاً من المجدِ ظنَّتها اللئامُ التوافلاً

2- جديرٌ بأن يغشى الكريهةَ مُشداً (أقاتِلُ حتَّى لا أرى لي مُقاتِلاً) ⁽¹⁾

البيتة 4/ 219

(123)

وأنشد أبو بكر قصيدة لنفسه في دار الصاحب بن عباد عارض بها قصيدة

الرستمى في الوزن والقافية (من الطويل)

1- أَكُلُ بِناءٍ أنتَ بانيه مُعجِبٌ بَنيتَ المعالي أم بنيتَ المنازِلا

2- فلا الإئسُّ تبني مثلَهُنَّ معالِماً ولا الجنُّ تبني مثلَهُنَّ معاقِلا

3- كنائسُ أضحتَ للغمامِ عمائِماً علَّوا وأمسَت في الظلامِ قنادلا

4- رحابٌ كأنَّ قد شاكلت صدورُ ربِّها ويبضُّ كأنَّ قد نازعته الشَّمائِلا ⁽²⁾

5- وبهو تباهي الأرضُ منه سماءها بأوسَع منها آخرأ وأوائِلا

6- وصحنٌ يسير الطُرفُ فيه ولم يكنْ ليقطَعهُ بالسُّيرِ إلا مراحِلا ⁽³⁾

7- تلوحُ نقوشُ الجِصِّ في جدرانِه كما زَيْن الوشْمُ الدَّقِيقُ الأنامِلا

(1) المصراع لزيد الخيل

(2) جاء ترتيبه في تحفة الناصرية بعد البيت الخامس.

(3) مراحل: تحفة الناصرية (مراجلا).

- 8- وماءٌ إذا أبصرت منه صفاءه حسبتَ نجومَ الليلِ ذابتِ سوائِلًا⁽¹⁾
- 9- رأيتَ سُيوفاً قد سُلِّفَ على الثرى وصارت لها أيدي الرِّيحِ صياقِلًا⁽²⁾
- 10- وروضٌ كعيشِ السَّائِلِكِ نضارةٌ ووجهُك بشراً حينَ تلحظُ آملاً
- 11- أصائلُهُ للثور أضحت هواجِراً هواجره للطَّيِّبِ أضحت فصائلًا
- 12- هي الدَّارُ أُمستَ مطرَحَ العِلمِ فاغتدى لها ناهِلُ الآمالِ رِيانَ ناهِلًا
- 13- إذا ما انتحاهَا الرُّكْبُ لم يتطلَّبوا إليها دليلاً غيرَ ما كان قافِلاً
- 14- وأنتَ أمرؤُ أعطيتَ ما لو سألتَهُ إلهكَ قالَ الناسُ أسرفتَ سائِلًا⁽³⁾
- 15- وإنِّي وإلزاميكَ بالشُّعرِ بعدما تعلَّمْتُهُ منكُ النُّدى والفواضِلًا⁽⁴⁾
- 16- كملِزِمِ ربُّ الدَّارِ أجرةَ دارِهِ ومثلكَ أعطى من طريقين نائلًا

(16-1) البيتة 3/ 217-218، (14-16) البيتة 4/ 224، (1، 3-12) تحفة الناصرية ورقة

193.

(124)

- ومن سقطاته المنكرة قوله للصاحب من قصيدة (من الخفيف)
- 1- ومهيبٌ كأنما أذنبَ الناسُ إليه فهُم مَغشُّونَ دُلا
- 2- وظريفٌ كأنَّ في كلِّ فِعْلٍ من أفاعيلِهِ عرائِسُ تُجلى
- البيتة 4/ 224

(1) ذابت: تحفة الناصرية (فيه).

(2) صياقلا: تحفة الناصرية (صواقلا).

(3) أعطيت: في ج 4 (أعطيت).

(4) الندى البيتة ج 4 (الذرى).

(125)

وله (من الكامل)

- 1- لا تُفِرْطُنْ فِي حَدَّةٍ أَعْمَلْتَهَا فَيَكِلُ ذَاكَ الْحَدُّ مِنْكَ وَتَفْشِلَا
 - 2- أَوْ مَا تَرَى الصُّمَامَ وَالسُّكَيْنَ إِنْ زَادَا عَلَى حَدِّ الصُّقَالِ تَفْلُلَا
- البيتة 241/4

(126)

وله (من الطويل)

- 1- إِذَا أَعْوَزَ الْفَقُّاعُ لَمَّا طَلَبْتَهُ هَجَوْتُ عَتِيقاً وَالِدَ لَامٍ وَنَعَثَلَا
- تحفة الوزراء / 107/108، عيون التواريخ 12/225 أ

(127)

ومن قصيدة في الهجاء (الكامل)

- 1- زَمَنْ أَلْرَوَّةَ عَهْدُهُ بَفْتَوَةٍ عَهْدِي بِتَرْكِ الشُّرْبِ فِي شَوَالِ
 - 2- غَضِبَانُ يُنْشِدُ حِينَ يُبْصِرُ سَائِلَا (كُفِّي دُعَاءَكَ إِنِّي لَكَ قَالِ)
 - 3- وَلَهُ مَوَاعِدُ قَدْ حَكَّتْ فِي طَوْلِهَا (أَلْتَ أُمُورُ الشُّرْكَ شَرُّ مَالِ) ⁽¹⁾
- البيتة 221/4

(128)

ومن أخرى (من الكامل)

- 1- بَسَمْتُ فَأَبَدْتُ جِيدَهَا فَتَكَشَّفَتْ عَنْ نَظْمِ دُرٍّ تَحْتَ نَظْمِ لَالِي

(1) البيت ابتداء قصيدة لأبي تمام في المزينين.

- 2- وأرتك خديها ولاحَ عليهما صدغان ذو خال وآخر خالي⁽¹⁾
 3- فكانَ ذا ذالَ خلتَ من نقطةٍ وكانَ ذا دالٌ ونقطة ذال
 البيتة 4/ 210، (2، 3) أنوار الربيع 5/ 108-109.

(129)

- ومن أخرى في أبي الحسين المزني (من الكامل)
 1- كَلِمٌ هِيَ الْأَمْثَالُ إِلَّا أَنهَا فِي النَّاسِ قَدْ أَضَحَتْ بِلَا أَمْثَالِ
 2- فَإِذَا لَقِينِ فَإِنَّهُنَّ عَوَالِي وَإِذَا شُمِمْنَ فَإِنَّهُنَّ غَوَالِي

(130)

- ومن ميكالية (من الوافر)
 1- فَدَيْتُ مَا بَدَالِي قَصْدُ حُرٍّ سَوَاكَ مِنَ الْوَرَى إِلَّا بَدَالِي
 2- وَإِنَّكَ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ أَيْضاً مِنَ الْمَاءِ الْفَرَايِدُ اللَّالِي
 3- وَتَسْكُنُ دَارَهُمْ، وَكَذَلِكَ سَكْنِي الزُّمَرُ وَالْحَجَارَةُ فِي الْجِبَالِ
 البيتة 1/ 146، 4/ 225، الصبح المنبي / 279.

(131)

- وله في أبي سعيد رجاء، أبي القاسم العباس ابني الوليد (من الوافر)
 1- وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ ابْنِي وَلِيدٍ وَبَيْنَهُمَا اخْتِلَافٌ فِي الْفِعَالِ
 2- وَهَبْتُ قَبِيحَ ذَا لَجْمِيلِ هَذَا وَأَسْلَفْتُ الْعَوَاقِبَ وَاللَّيَالِي⁽²⁾

(1) وأرتك خديها: أنوار الربيع (وأراك خديه).

(2) والليالي شرح مقامات الحريري (لليالي).

- 3- إذا اليدُ أحسنتُ منها يمينُ فسوَّغنا لها ذنْبَ الشَّمالِ
اليتيمة 4/ 233، نثر النظم/ 116، شرح مقامات الحريري/ 72.

(132)

وله في الاعتذار (من الوافر)

- 1- وما بي فيكَ من زهدٍ ولكنْ أخفَّفُ عنكَ أعباءَ المللِ
محاضرات الأدباء 34/3

(133)

وله في هجاء أحدهم: (من الوافر)

- 1- أبا نصرٍ زويدك من حجابٍ فليستَ بذلك الرَّجلُ الجليل⁽¹⁾
2- ولا تبخل بهذا الوجهِ عُنَّا فليسَ بذلكَ الوجهِ الجميل⁽²⁾
3- وللأشعارِ قومٌ لستَ منهم ولكنِّي هجوئُكَ في السَّيلِ
(1-3) اليتيمة 4/ 236، (1، 2) نثر النظم / 122، (1-2) محاضرات الأدباء 207/1

(134)

وله (من الوافر)

- 1- خَبَّتْ نارُ العُلَى بعدَ اشتعالِ وصاحَ الخيرُ حيَّ على الزُّوالِ
2- عدمتنا الجُودَ إلا في الأمانِي وإلا في الصُّحائفِ والأُماليِ
3- فياليتَ الدُّفَاترَ كنَّ قوساً فأثرى القَومُ من كرمِ الفِعالِ

(1) نصر: محاضرات الأدباء (عمرو).

(2) بهذا: نثر النظم (بذاك).

- 4- ولو آتني جعلتُ أميرَ جيشٍ لما حاربتُ إلا بالسُّؤالِ
5- لأن الناس ينهزمون منه وقد ثبتوا لأطراف العوالي
نثر النظم / 73

(135)

- وقال في وصف قنفذ (من الكامل)
1- ومدجج وسلاحه من نفسه
2- يمسي ويصبح لم يفارق بيته
3- عيناه مثل الثقطتين وخطمه
4- وكان أقلاماً غرزن بظفهره
5- تتهارب الحيات حين يرىته
6- وكأله الخنزير إلا جلده
شاكى الدوائر أعزل الإقبال
فتطيش عنه أسهم الأهوال
يحكي ثدي رضاعة الأطفال
مس المداد رؤوسها ببلال
هرب اللصوص رأته سواد الوالي
وصياحه، وتقارب الأوصال
نهاية الأرب 10/ 165-166

(136)

- وله: (من الوافر)
1- وبعض الناس يعلو وهو سفل
2- وبعض الناس يملك وهو عبد
وبعض الناس يسفل وهو عالي
وبعض الناس يعزل وهو والي
أعيان الشيعة 45/ 261

(137)

- ومن قصيدة في الصاحب (من الطويل)
1- ومن نصر التوحيد والعدل فعله
وأيقظ نواام المعالي شمائله

2- ومن ترك الأخيار يُنشدُ أهله (أجل أيها الربيع الذي خفَّ أهله) ⁽¹⁾

اليتيمة 214/4

(138)

ومن أخرى في مدح الصاحب (من الطويل)

- 1- كتبتُ ابنَ عبادٍ إليك وحالتي كحالِ صدرٍ طمئتُ عليه مناهله
- 2- وما تركتُ كفُّاك في خصاصةٍ ولكنَّ شوقاً قد غلتُ بي مراجيله
- 3- أبيتُ إذا أجريتُ ذكركَ مُنشداً (كأنك تُعطيه الذي أنت سائله)

اليتيمة 116/4

(139)

ومن أخرى في مدحه: (من الطويل)

- 1- وأبيضَ وضَّاحِ الجَينِ كأنما مُحَيَّاه قد درَّتْ عليه شمائله ⁽²⁾
 - 2- يُقبِّلُ رجله رجلاً أقلَّهم تُقبِّلُ في الدست الرفيع أنامله ⁽³⁾
- ومنها
- 3- اقبل أشعاري إذا اسمُك حشوها وأشتم ملبوسِي لأنك باذله ⁽⁴⁾

(1) المصراع لأبي تمام، وهو صدر بيت عجزه (لقد أدركت فيك الثرى ما تحاوله).

(2) درت: تحفة النارية (ذرت).

(3) أقلهم، محاضرات الأدباء (أقلهم) تقبل، يقبل.

(4) باذله (الإعجاز والإيجاز) (باده).

- 4- وأخطرُ في حافاتِ دارٍ ملائِها طرائفُ باقي العَيشِ منها وحاصِلُه⁽¹⁾
 (4-1) اليتيمة 4/ 224، (2، 3) خاص الخاص / 191، الإعجاز والإيجاز / 200، (1) محاضرات
 الأدباء 1/ 302، (1، 2) تحفة الناصرية / 74

(140)

- وله من قصيدة (من الطويل)
 1- عذيري من عينِ الزُمانِ فإئِها إذا استخسنتُ مُستخسناً قلُّ طائِلُه
 2- وما أنتِ إلا البيتُ غُثمٌ دخولُه كثيرٌ عواديهِ، بعيدٌ مراجِلُه
 اليتيمة 4/ 239

(141)

- ومن قصيدة يمدح فيها أبا نصر أحمد بن علي الميكالي (من الكامل)
 1- زفْ المنامُ إليّ طيفَ خيالِه لو أنْ طيفاً كانَ من إبدالِه⁽²⁾
 2- لو أنْ هذا الدهرَ يشكُرُ لم يدعْ شكرَ الأميرِ وقد غدا من آلِه
 3- لا ينزفُ إلحاحُ نائلِه ولا سُؤلُ امرئٍ ينهاه عن أسألِه
 4- والخُلُقُ عندَ سُؤالِه والجودُ من عُدالِه والموتُ من صيالِه
 5- وفعالُه كمقالِه، وشمالُه كيميْنِه، ويميْنُه كشمالِه
 6- تتجمُّعُ الأموالُ في آمالِه فيفِرُّ الأموالُ في أمالِه
 7- لا علمَ إلا عزُّه في عزُّه لا حُرَّ إلا حالُه من حالِه

(1) حاصله: الإعجاز والإيجاز (حامله).

(2) يذكر شارح العتيبي أن الشاعر تخلص إلى البيت الذي يليه بعد خمسة عشر قافية.

- 8- وله علومٌ لو قُسمنَ على الورى ما زادَ عاقلُهُ على جهالِهِ
 9- وخلائقٌ لو أنهنَّ كواكبٌ أضحى السُّها في الضُّوء مثلَ هلالِهِ
 10- وفُصولٌ قولٍ هنَّ أعدبُ مسمَعاً من راحةِ المشغولِ من أشغاله
 11- سَمَحُ البديهةِ ليسَ يُمسكُ لفظُهُ فكأنَّما ألفاظُهُ من ماله
 12- وكأنَّما عزمائُهُ وسُيوفُهُ من حدُّهنَّ خُلِقنَ من إقبالهِ
 13- متبسِّمٌ في الخطبِ تُحسبُ أنه من حُسْنِهِ متلثِّمٌ بفعالِهِ
 14- هبَّني وفيتُ بحمديهِ عن فضلِهِ من ذا يفني بالشُّكرِ عن أفضالِهِ

تاريخ العتي 2/ 27-39

(142)

وله: (من المجتث)

- 1- يا شادناً مِتْ قبلَهُ قد صار في الحُسْنِ قبلَهُ
 2- أَمِننَ عليَّ بقبلِهِ.

أنوار الربيع 1: 189

(143)

وله (من الوافر)

- 1- بآمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ويحكى المرء خاله
 2- فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلاله

معجم البلدان: 1/ 57 مادة (آمل) الكنى والألقاب 1/ 22

روضات الجنات 7/ 293، عيون التواريخ 12/ 225 أ

قافية الميم

(144)

وله من قصيدة (من مجزؤ الرمل)

1- قلت لما رمدت عيناك

2- إنما عوقبت عن عيني

3- لا أصيبت هذه العين

والدمع سـجـام

فاعلم يا غلام

بـعـيـني والسـلام

اليتيمة 4 / 212

(145)

وله من أخرى (من الكامل)

1- ومتى شمت الدهر تشتم صابراً

تبكي ويضحك ذلك المشتوم

اليتيمة 4 / 234

(146)

ومن أخرى (من المجتث)

1- ولـي قـمـيص رقيق

2- وجبـة لا تساوي

تقـدُّه الأوهـام

تصـحـيفها والسـلام

نثر النظم / 69، الوافي بالوفيات / 3 / 194

ومن قصيدة كتب بها من أرجان إلى الصاحب، وصف فيها الحمى (من الوافر)

ولو أبصرت في أرجان نفسي عليها من أبي يحيى ذمام
ولي من أم ملذم كل يوم ضجيج لا يلد له منام
مقبلة وليس لها ثنائياً معانقة وليس لها التزام
كان لها ضرائر من غذائي فيغضبها شرابي والطعام
إذا ما صافحت صفحات وجهي غدا ألفا وأمسى وهو لام
إذا لرأيت عبدك والمنايا تصيح به تنبّه كم تمام
وما أستبكاك من بعدي أسيرٌ يرض عظامه الحق العظام⁽¹⁾
ولا ترجيع ثكلى خلف نعشٍ (أحمول على النعش الهمام)⁽²⁾
ولا ترديد صبٍّ، وهو باك (سقيت الغيث أيتها الخيام)
ولولا فقد وجهك لم أعبس على ضيف يقال له الحُمام
فما في العيش، لولا أنت طيبٌ ولا في الموت، لولا أنت، ذام
وكنت ذخرتُ أفكاري لوقتٍ فكان الوقت وقتك والسلام⁽³⁾
وكنتُ أطالب الدنيا بحرٍّ فأنت الحر وانقطع الكلام⁽⁴⁾
ولما سرت عنك رأيت نفسي وبين القلب والرّجل اختصام

(1) الحق: الموت، العظام: الكبير.

(2) الشطر للنايعة الديباني.

(3) أفكاري: شرح المضمون (آمالي).

(4) فأنت: شرح المضمون، فكنت.

فذاك يقول منك السير عنه وتلك تقول منك الاغترام⁽¹⁾
وساءلني بعلمك من أراه وقالوا (ما وراءك يا عصام)
فقلت: زكاة ما يحويه علمٌ لمن لغلأمه مثلي غُلام
(7-1) يتيمة الدهر 4 / 217 - 218 (2، 3، 4، 5) نهاية الأرب 2 / 262 (12، 13) شرح
المضنون به على غير أهله / 222 (6، 7) محاضرات الأدباء 3 / 68

(148)

وله (من الوافر)

1- تولى العيش، وانقطع النظام وعاش اللؤم إذ عاش اللئامُ
2- وخلّفتني الزمانُ على أناسٍ إذا حكّوا الكلاب، فهم كرامُ
3- يكاد الدهر يشتمني صراحاً لو أن الدهر كان له كلامُ
4- فلولا أن أنازع حكم ربي لقلت فديت موتي والسلامُ
نثر النظم / 72 - 73

(149)

وله من قصيدة في مدح صاحب بن عباد (من الطويل)

1- ثعاصيهم أسيافنا وفكائننا يرين بريئاً من سفكن له دما
2- كأن ضباها ساعة الروح عُلّمت (ولن تستطيع الجلم حتى تحلّما)⁽²⁾
اليتيمة 4 / 219

(1) الاغترام: محاضرات (الاعتزام).

(2) المصراع: لحاتم الطائي.

(150)

ومن قصيدة في أبي نصر بن العميد (من الطويل)

1. لئن كنت أضحي من عطايك شاعراً لقد صرت أمسي من جنابك مُفحماً
2. أبيت إذا أجريت ذكرك منشداً (وأن أعتب الأيام فيه فرئبما)
3. وما لي من الأصوات مقترح سوى (أعالج وجداً في الضمير مكثماً)⁽¹⁾

البيتة 4/ 220

(151)

ومن قصيدة في مؤيد الدولة، ذكر فيها افتتاحه قلعة من أبنكار القلاع واستنزاله

صاحبها المسمى (كوشيار) منها (من الطويل)

- 1- ويكر تحامتها البعول مخافة فقد تركت من كثرة المهر أيما
- 2- ممنعة لم يغلط الدهر باسمها ولم يرها في النوم إلا توهمها
- 3- نزل عقاب الجوع عن شرفاتها وتبغي إليها الريح مرقى وسلما!
- 4- ويسمع في الأفلاك صيحة ديكها فتحسب ديك العرش صاح ترنما
- 5- عجوز، ترى في صحة الجسم كاعباً ولو أرخت، كانت من الدهر أقدماً!
- 6- توارى أساسا بالتخوم مؤزرا وتبرز رأسا بالنجوم معمماً
- 7- تنازعها الأرض السماء وتدعي لديها بها حقاً لها متعضماً
- 8- وتحسبها زهر الكواكب كوكباً هوى خلف شيطان رجيم، فخيماً

ومنها:

- 9- وكنت سماءً والعجاج سحاباً وخيلك أبراجاً وجيشك أنجماً

(1) المصراع للبحثري.

- 10- وأنزلت منها كوشيار وإنما تقنّصت من فوق المجرة ضيغما
 11- عرفتكَ صَيَادِ الْأَسْوَدِ ولم أكن عرفتكَ صياد الأسود من السّما
 12- خدمتكم يا آل بويّة مدّة غدا بينها فرخ الوسائل قشعما
 (9-12) اليتيمة 225 / 4، (1-8) نهاية الأرب 405 / 1

(152)

- وله من أخرى (من الطويل)
 1. هلّم الخطا بذر الدُّجّة وارفقا بعينيكما، فالضوء قد يُورث العمى
 2. ولا تعجبا أن يملك العبدُ ربّه فإن الدّمي استعبدن من تحت الدمي
 (1-2) اليتيمة 211 / 4 (1) التمثيل والمحاضرة / 124

(153)

- وله في تلميذ عاق (من الكامل)
 1- هذا أبو بكرٍ صقلتُ حسامه فغدا به صلتاً عليّ وأقدما
 2- أمسى يجهّئني بما علّمته ويريش من ريشي لرميي أسهما
 3- يا منبضاً قوساً بكفي أحكمت ومسدداً رمحاً بكفي قوما
 4- أرقبتَ بي في سلّم حتى إذا نلتَ الذي تهوى كسرتَ السلّما
 اليتيمة 235 / 4 – 236

(154)

- ومن أخرى في نكبة المزني (من الكامل)
 1- ولقد بكيت عليك حتى قد بدا دمعي يحاكي لفظك المنظوما

2- ولقد حزنتُ عليكَ حتى قد حَكَى قلمي فؤاد حسودك المحموم
اليثيمة 4/ 236

(155)

وله (من الطويل)

- 1- رأيتكُ إن أسرتُ خيِّمتَ عندنا مقيماً وإن أعسرتُ زرتُ لماماً⁽¹⁾
- 2- فما أنتَ إلا البدرُ إن قلَّ ضوؤه أغبَّ وإن زاد الضياء أقاماً⁽²⁾

اليثيمة 4/ 239، التمثيل والمحاضرة/ 232، أسرار البلاغة/ 124
فصل المقال في شرح كتاب الأمثال/ 221، الوافي بالوفيات 3/ 193، عيون التواريخ 12/ 224
ب، روضات الجنات 7/ 298.

(156)

وله من قصيدة (من الطويل)

- 1- هو ابن الرئيس والعميد كليهما وفوقهما قدراً وإن كان منهما
- 2- وقد يوقد الزندان ناراً لقياسٍ فيضحي من الزنديين أعلى وأعظماً

محاضرات الأدباء 1/ 334

(1) إن أسرت اليثيمة (أن الشرب). رأيتك: فصل المقال: (أراك).

(2) زاد (التمثيل والمحاضرة (دام).

(157)

وله في هجاء الصاحب بن عباد (من البسيط)

1- لا تمدحن ابن عباد، وإن هطلت كفاء بالجدود سحاً يُججل الدُّيماً⁽¹⁾

2- فإنهما خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

غرر الخصائص 36/1، نزهة الألباء (/ 239، الوافي بالوفيات 192/3 وفيات الأعيان 402/4، عيون التواريخ 224/12 أنوار الربيع 160/2

(158)

وقال في وصف الزعفران (من البسيط)

1- أما ترى الزعفران الغض تحسبه جمرأ بدا في رماد الفحم مضطراً

2- كأنه بين أطراف تحف به طرائق الدّم في خدين قد لُطّما

3- دم عياناً، ومسك نشر رائحة في طيبه، وكذاك المسك صار دماً

نهاية الأرب 11/246، مباحج العبر: 501/1

(159)

وله (من الكامل)

1- ومن عجب تهديدهم بجموعهم وودّ لو أزدادوا ليزداد مغنماً

2- إذا حدث الجاسوس عنهم بكثرة تحكّم في حق البشير فحكماً

التذكرة السعدية / 245

(1) تمدحن: غرر الخصائص، الوافي بالوفيات، وفيات الأعيان، عيون التواريخ (تحمدن). وإن هطلت

(غرر الخصائص: (ولو مطرت)

سحاً يُججل: غرر الخصائص، وعيون التواريخ (حتى أخجل).

ومن قصيدة كتب بها إلى الأمير أبي نصر الميكالي بعد أن طال سجنه، لدى
الحسين بن طاهر (وهي من الطويل)

- 1- كتابي أبا نصر إليك وحالي كحال فريس في مخالب ضئغم
- 2- أرق من الشكوى وأدجى من النوى وأضعف من قلب الحب المتيم
- 3- غدوت أخا جوع ولست بصائم ورحت أخا غري ولست بمحرم
- 4- وقعت بفخ الخوف في يد طاهر وقوع سليك في حبائل خثعم⁽¹⁾
- 5- وما كنت في تركيك إلا كتارك يقيناً وراضٍ بعده بالتوهم⁽²⁾
- 6- وقاطن أرض الشرك يطلب توبة ويخرج من أرض الخطيم وزمزم
- 7- وذئبة يأتني عليلاً ليشتفي بها وهو جاز للمسيح ابن مريم⁽³⁾
- 8- وراوي كلام مقتفٍ إثر باقلٍ ويترك قساً خائباً وابن أهتم⁽⁴⁾
- 9- جنابٌ تجنباه ليس بمجدبٍ ومجرٌ تخطيناه ليس بمزرم
- 10- وماء زلالٍ قد تركنا وروده زلاً وبعنناه بشربة علقم
- 11- لبست ثياب الصبر حتى تمزقت جوانبها بين الجوى والتندم
- 12- أظلم إذا عاتبته نفسي مُشداً (فهلا تلا حاميم قبل التقدم)
- 13- وأنشد في ذكرى لدارك باكياً (ألا أنعم صباحاً أيها الربع وأسلم)

(1) يقصد سليك بن السلعة السعدي حين أسره أنس بن مالك الخثعمي.

(2) يقيناً: ثمار القلوب، وأحسن ما سمعت (طهوراً).

(3) يأتي طبيباً ليشتفي به: اليتيمة (يأتي عليلاً ليشتفي بها) ولا يصح به المعنى.

(4) مقتفٍ: ثمار القلوب (يقتفي)، قساً خائباً. قساً جانبا (ثمار القلوب).

- 14- ولم أر قبلي من يحارب بجته ويشكو إلى البؤسى افتقاد التنعم
- 15- ولا أحد يحوي مفاتيح جنة ويقرع بالتطفيل باب جهنم
- 16- وقد كان رأساً للتدابير بلعم وقد صرت في الدنيا خليفة بلعم⁽¹⁾
- 17- وقد عاش بعد الخلد في الأرض آدم فإن شئت فأعذرني فإنني ابن آدم
- 18- فيا ليتني أمسيت دهري راقداً فإنني متى أرقد بذكرك أحلم
- 19- مكانك من قلبي عليك موفراً متى ما يرمنه ذكر غيرك يحتمي
- 20- لغيرك دردي الوصال وثيب المقال وممزوج المودة فاعلم
- 21- وأنت الذي صوّرت لي صورة المنى وأركبني ظهر الزمان المدمم
- 22- وصيرت عندي أسعد الدهر أبوساً وكثبت عندي قول كل منجم
- 23- وصغرت قدر الناس عندي وطالما لحظت صغيراً عن هماليق معظم

(1-23) يتيمة الدهر / 4 205 (5، 7، 8) ثمار القلوب / 60

(7) التمثيل والمحاضرة / 21 (5، 7) أحسن ما سمعت / 26

(161)

وله ومن (الكامل)

- 1- يقارب ما بين الجفون كأنما يلاحظ من شق على حرف درهم
- محاضرات الأدباء / 3 298

(1) يعني بلعم بن باعوراء الذي نزلت فيه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها)، لأنه كفر بالله بعد تعليمه الاسم الأعظم، وجحد نعمة الله سبحانه وتعالى.

(162)

وله من قصيدة (من الطويل)

لعمرك لولا آل بوية في الورى
وصمت من الدنيا وأفطرت بالمنى
وأنشدت في داري وفيما أرى بها
لكان نهاري مثل ليل المتيم
ولم يك إلا بالحديث تادمي
(أمن أم في دمنة لم تكلم)

البيمة / 4 / 214

(163)

وله من (الطويل)

1- إذا فاته تحصيل ظي مقنع
2- يصيد كلا الطبيين هذا وهذه
فهتته تحصيل ظي معم
حنيف ولكن فعله فعل مجرم

عاضرات الأدباء / 3 / 244

(164)

ومن أخرى في عضد الدولة (من البسيط)

1- أضحت ثياب فناخسرو مزورة
2- القائل القول عي السامعون به
3- والفاعل الفعلة الغراء لامعة
4- والتارك الترك والخذلان ينشدهم
على هزبر وإنسان وصمصام
فمئلوا بين أوهم وأفهام
أوضحها بين أقلام وأعلام
(يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام)

ومنها:

5- أغنيتني عن أناس كان بغضهم
عذري ومكثي فيه بعض إجرامي

- 6- المبغضين ليوم الفطر جُهدَهُم
7- قوم إذا مر ضيف دحرجوا حجراً
8- قد قدموا نَفراً قبلي فأنشدهم
9- (قدّمت قبلي رجالاً لم يكن لهم
- لأنهم قطعوه غير صُومام
وسمّوا اليوم يوم العيد أورام
فضلي ونقص الألى لاقوا بإكرام
في الحق أن يلجوا الأبواب قدّامي)

البيتة 4/ 216

(165)

- وله من أخرى في هجاء قادة جيوش السامانيين (من الطويل)
- 1- لو أنك قد أبصرت تاشاً وفائقاً
2- وقد كتب الإدبار في جبهتيهما
3- (فلا تأمنن الدهر حُراً ظلمته
- على ظهر يخت أدبر الظهر رازم
بإنشاء مقمور وتحرير نادم
فإن نمت فاعلم أنه غير نائم)

البيتة 4/ 216

(166)

- ومن أخرى (من الطويل)
- 1- وقائع لو مرّت بسمع ابن غالب
2- أتتني ورحلي بالمدينة وقعة
3- سل الله واسأل آل بوية إنهم
- لما قال ما بين المصلّى وراقم⁽¹⁾
لآل تميم أقعدت كل قائم
بجار المعالي لا بجار الدراهم

(1) ابن غالب: هو الفرزدق. والبيت الثاني قاله حين سمع - وهو بالمدينة قتل وكيع بن أبي الأسود لقتيبة بن مسلم.

- 4- تحبهم البلدان فهي نواشز على كل زوج بعدهم أو محارم
5- إذا رامها أعداؤهم تركتهم فلم يلقهم إلا برمح وصارم
6- ممالك قد نادت عليهم حروبهم بطول القنا يحفظن لا بالتمائم

اليتيمة 4/ 217

(167)

ومن أخرى في مدح الصاحب بن عباد (من الكامل)

- 1- يا من يدرس خالياً حجابَه سهل الحجاب مؤدب الخدام
2- كم تطرد الدنيا وترجع بعد ما قد طلقت تليقة الإسلام⁽¹⁾
3- فكأنها شيعية قمية وكان سيدنا الوزير إمامي
4- ويقول للخطاب غيرك (ليس ذا) وقت الزيارة فارجعي بسلام⁽²⁾

اليتيمة 4/ 219

(168)

ومن قصيدة في الأمير أبي نصر الميكالي (من الطويل)

- 1- نجر ذبول الفخر حتى كأننا لعزتنا في آل ميكال ننتمي
2- هم شحمة الدنيا فإن نتعدهم إلى غيرهم نحصل على القرث والدم
3- سقى الله ذاك الروض جوداً كجودهم وصير آجال العداة إليهم

(1) المصراع لابن هرمة.

(2) من بيت جرير

(طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام).

- 4- وأبقى أبا نصر ليربي عليهم
 5- وعاش إلى أن يترك الناس مدحه
 6- هو الحر لا يحبو بثوب مطرز
 7- ولا يعدم الراؤون منه ثلاثة
 8- ويعذب إن يُنصف كما عذبت نعم
 9- صفوح عن الجهال ينشد فعله
 سنين كما أربى بنين عليهم
 ومن ذا الذي يرجو إياب المثلّم
 غسيل ولا يدعو بكيس مختم
 عطاءً وعذراً وانبساطاً لسيهم
 ويثقل إن يظلم كما ثقلت لم
 (ويشتم بالأفعال لا بالتكلم)

البيمة 4 / 220

(169)

وله في أبي الطيب البيهقي: (من السريع)

- 1- يبكي من الموت أبو طيب
 2- ويشتكى ما يشتهي غيره
 3- ساكتنا الشيخ أبو طيب
 دمع لعمرى غير مرحوم⁽¹⁾
 شكاية الخير من الشوم
 والصمت أحياناً من اللوم

(1-3) البيمة 4 / 231 (1، 2) خاص الخاص / 192

(170)

وله في وصف الخمرة من قصيدة (من الطويل)

- 1- وصفراء كالدينار بنت ثلاثة
 2- مسرة محزون وعذر معربد
 شمال وأنهار ودهر مجرم⁽²⁾
 وكبر مجوسي وفتنة مسلم⁽³⁾

(1) الموت: خاص الخاص: الملك

(2) مجرم: شرح مقامات الحريري (محرم).

(3) كبر: شرح المقامات: (كنز).

- 3- ممات لأحياء حياةً لميت
4- يدور بها ظي تدور عيوننا
5- ينزّهنا من ثغره ومُدَامِه
6- نهضت إليها والظلام كأنه
- وعُذْم لمن أثرى ثراءً لمعدم
على عينه من شرط يجيى بن أكثم⁽¹⁾
وخديّه في شمس ويدر وأنجم
معاش فقير أو فؤاد معلّم
- (1-6) اليتيمة 4/ 238 (4) الكناية والتعريض / 19
(4، 5) محاضرات الأدباء 2/ 704 (1، 2، 4، 5) شرح مقامات الحريري 2/ 29

(171)

ومن قصيدة عارض بها قصيدة لأبي الفرج الواواء: (من مجزؤ الكامل)
قم يا غلام إلى المدام قم داوئي منها بجم
يقول:

- 1- لما بدت روح الضياء تدب في جسد الظلام
2- وغدت نجوم الليل وهي تفر من حديق الأنعام
3- والديك يتلو دائماً هجو النيام على القيام
4- ناقضت ما قال المؤد ن بالفعل والقيام
5- هو قال حي على الصلاة ة وقلت حي على المدام
ومنها:

- 6- لما رأيت الهم يطرق من أتاه بلا سلام
7- ضيف يزور فليس يا كل غير لحمي أو عظامي

(1) ظي: الكناية والتعريض (ساق) تدور: شرح المقامات (يريد).

8- والدهر قد حمل السلا ح على الكرام عن اللثام

9- داويته بالراح إن الرا ح ترياق الكرام

(1-9) البنية 1 / 296 - 297

(172)

وله في النيروز من (السيط)

يا أيها الملك الموفي بهمته
إسعد بطلعة ذا النيروز واحظ به
يوم من الدهر شيخ في شبيبته
قد كان كسرى إذا وافاه حكمه
شيخ ألم به شيخ فصافحه
يوم جديد وملك بعد مقتبل
على هموم ملوك الأرض والهمم
فلن يقسم على خلق ولم يقم
ومستجد وما يأتي من القدم
في عقله، وهو فيه شر ما حكم
بالكاس والطاس والأوتار والنغم
والصحو بينهما ضرب من اللمم

نثر النظم / 142

(173)

وله من قصيدة في مدح عضد الدولة (من السيط)

1- متى أشق رواق الملك تلحظني
2- متى أرى قمر الديوان مطلقاً
3- متى أقبل فرشاً لا يقبله
4- مالي أبيت بشيراز وأصبح في
5- ما يطلب الحلم من قلبي يقبله
6- أصبحت أشكر ليلاً أشتكى غده
عين امرئ بغيوب المجد علام
في سطو بهرام، بل في ملك بهرام
عاف فيفرق بين الثرب والسام؟
داري فدت يقظتي نومي وأحلامي
عندي من السقم ما يكفيه أسقامي
الله عونني والأبام غراممي

7- والأرضُ تعلمُ أنني سوف أمسحها حتى أرى من يرى بالليل أوهامي

البيتمة 4 / 223

(174)

وله في مدح آل بويه (من الطويل)

- 1- ألا حركا لي أبرويزَ بن هرمزِ
 - 2- تطلّع إلى الدنيا لتعلم أن ما
 - 3- لعمرُك لولا آل بوية لم يكن
 - 4- وصُمت عن الدنيا وأفطرتُ بالمني
 - 5- وأنشدت في داري، وفيما أرى بها
 - 6- وهم جعلوني بين عبدٍ وقينة
 - 7- وهم تركوا الأيام تعجب أن رأَت
 - 8- وهم خالفوني أبطأوا في صلاتهم
- وقولا له: قُمْ، تلقِ أعجوبة قُمْ
ملكْتَ من الدنيا بمقدار درهم
نهارِي إلا مثل ليل المتيم⁽¹⁾
ولم يكُ إلا بالحديث تأدُمي
(أمن أم أوفى دمنة لم تكلم)
ودار ودينار وثوبٍ ودرهم⁽²⁾
سلوِي ولا أرقى السماء بسُلم
فصنت عن الإبطاء شعري فيهم⁽³⁾

(3، 4، 5) البيتمة 4 / 214

(1 - 3)، (6 - 8) البيتمة 4 / 223 - 224، (3، 6، 8) خاص الخاص / 191، الإيجاز والإعجاز /

199، (1، 2) محاضرات الأدباء 1 / 159

(1) في خاص الخاص (لكان نهارِي مثل ليل العتيم) وكذلك في الإعجاز والإيجاز.

(2) في خاص الخاص (هم جعلوني رب عبد).

(3) في خاص الخاص (وهم خالفوني وأوطأوا) وفي الإعجاز والإيجاز (وهم غمروني دائماً بصلاتهم).

(175)

وله من قصيدة (من الوافر)

- 1- فلإن أسكن ببلدة إبن شهر
- 2- أصغرّها وإن عظمّت ولكن
- 3- وفرسانٌ ولكن في الحشايا
- 4- صغارٌ بالمطالب والسجايا
- فلإن البدر ينزل في الظلام
- لها أهلوّن ليسوا بالعظام
- وأجواد ولكن بالكلام
- وإن كانوا كباراً بالعظام

البيتة 4/ 232 - 233

(176)

وله في الغزل والتشبيب (من الطويل)

- 1- أغرك يومَ البين مني تبسمي
- 2- رويدك عهد القلب بالصبر بعدكم
- 3- عديري من ضحك غدا سبب البكا
- 4- زعمت باني قد سلوت وهذه
- 5- على ذا فدومي أجرمي وتجرمي
- 6- كأنك لا تروين بيتاً لشاعر
- 7- تعلمت فعل الدهر ثم سبقتة
- 8- أديري لحاظ القلب فيّ لتنظري
- فشيعت سهماً من فؤادي بأسهم
- وحقك عهد النار بالبرد فافهمي
- ومن جنة قد أوقعت في جهنم
- أراجيف من في عزمه قتل مسلم
- وبكى وأبكي، واظلمي وتظلمي
- سوى بيت (من لا يظلم الناس يظلم)⁽¹⁾
- فأنساني التلميذ فعل المعلم
- إلى مفلس من صبره عنك معدم

(1) كأنك: اليتيمة (لأنك)، ويشير في البيت إلى قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن لا يند عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يُظلم

ولا ترسلي هذي اللواحظ كلها فواحدة تكفيك قتل المتسيم

(1-9) شرح المضمون به على غير أهله / 265 - 269

(3، 6) البتمة 4 / 210 (3) شرح الواحدي 2 / 760

(177)

ومن قصيدة يمدح بها شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير طبرستان
فجرجان (من البسيط)

- | | |
|-----------------------------------|---|
| 1- قامت تُودعني بالأدمع السجم | والصمتُ بين يدٍ منها وبين فم |
| 2- البينُ أخرسها، والبينُ أنطقها | وهذه حالة في الناس كلهم |
| 3- قد طالما انهزمت عنا الجيوش | فلا تحاربينا بجيش الورد والعنم |
| 4- وقد خلعت لجام الاتباع فلا | تلقى سؤالفنا في ذمة اللجم |
| 5- لم يبق في الأرض لي شيء أهاب له | فهل أهابُ انكسار الجفن ذي السقم |
| 6- أستغفر الله من قولي: غلطتُ بلى | أهاب شمس المعالي أمة الأمم |
| 7- كأن لحظك من سيف الأمير ومن | حكم القضاء ومن عزمي ومن كلمي |
| 8- غضي جفونك رحمة لدمي | فإن سفرت، فقد حاولتِ سفك دمي |
| 9- وإن دعاك أبو يحيى لنصرته | عليّ يوماً فأبدي الثغر وابتسمي |
| 10- قال الأمير لأخلاق الكرام قفي | بجيث أنت فما زادت على نعم |
| 11- وقال للعلم والآداب لا تردا | إلا عليّ فما فاهما بلا ولم ⁽¹⁾ |
| 12- القائل القول لوفاء الزمان به | صارت لياليه أياماً على ظلم |

(1) لا تردا: نسمة السحر (لا تردى)، بلا ولم، نسمة السحر (بلم ولم).

- 13- والفاعل الفعلة الغراء لو مزجت
 14- لا تحفلن بنضوب المال في يده
 15- قد يجزر البحر بعد المد نعرفه
 16- ولا يغرنك أن الدهر حاربه
 17- الآن إذ غدت الدنيا تجشئمه
 18- ترنو إليه فتخفي شخص منقبض
 19- إذا دعت نحوه ساقاً نهت قدماً
 20- حيرى تقربها حالاً وتبعدها
- بالنار لم تكن النيران من فحم⁽¹⁾
 فقد تجفّ ضروع الواابل السجم
 وينزل الجذب وكر الأجدل القطم
 قد يولع السيف يوم الروع بالبهم
 وقابلته صباحاً أوجه النعم
 لراحتيه وتغضي طرف محتشم
 والعمر يذهب بين الساق والقدم
 كذا يكون رجوع الأبق السدم

(1 - 20) تاريخ العتي 1/ 404 - 407

(1 - 8، 11 - 17) نسمة السحر 2/ 320

(178)

وله من قصيدة في مدح عضد الدولة (من البسيط):

- 1- وغاز مدحك أقواماً وفي يدهم
 2- وما ضمنت على نهر فأغضبه
 3- أكل فاضل أقوام شهدت له
- لو طاعوا الجود تقديمي وإحجامي
 لكن ذكرت عباب الزاخر الطامي
 يغتاز من ذكره مفضول أقوام

البيمة 4/ 224

(179)

وقال من قصيدة رثى بها ركن الدولة أبا علي (من المتقارب)

- 1- ألت ترى السيف كيف انثلم
 وركن الخلافة كيف انهدم

(1) فحم: تاريخ العتي (حم).

- 2- طوى الحسن بن بويه الردى
- 3- طويل القنابة، قصير العدات
- 4- فصيحُ اللسان بديع البنان
- 5- يكيل الرجال بأقدارها
- 6- جوادٌ عليهم بخيلٌ بهم
- 7- فيا دهر سحقا ولا تحتشم
- 8- وخطُ الفناء على قبره
- 9- إذا تم أمبر دنا نقصه
- 10- إذا كان يبكي الورى بالدموع
- 11- وقد ساءني عطلُ الدهر منك
- 12- فما يستحق الزمان اللثيم
- أيدري الردى أي جيش هزم
- ذميم العُداة، حميد الشيم
- رفيع السُّنان سريع القلم⁽¹⁾
- ويرعى البيوتات رعي الحرم
- إذا ساء خصن وإن سر عَم
- فقد ذهب الرجل المحتشم
- بخط السبلا وبنان السقم
- توقع زوالاً إذا قيل تم
- وتبكي بهن فأين القيم
- وقد كنت حلياً عليه انتظم
- مقامك فيه وأنت الكرم

(1 - 12) البيتة 4: 226 (4) محاضرات الأدباء 1/ 305

(180)

وله (ولعله من القصيدة السابقة) (من المتقارب له)

- 1- أعزيكم أم أعزي الندى فما هو دونكم في الألم

محاضرات الأدباء 4: 526

(1) في محاضرات الأدباء (سريع اللسان سريع البنان، سريع القلم).

(181)

وله في أبي سعيد بن ملة (من السريع)

- 1- أبو سعيد زحل للكرام ومنسف ينسف عمر الأنام⁽¹⁾
- 2- لم أره إلا خشيت الردى وقلت يا روح عليك السلام⁽²⁾
- 3- يبقى ويفنى الناس في شؤمه قوموا انظروا كيف بجوت اللثام⁽³⁾
- 4- ثم تراه سالماً آمناً يا ملك الموت إلى كم تنام

(1-4) البيتة 4 / 231

(1-4) شرح مقامات الحريري 4 / 223

(2-4) طراز المجالس / 134 *

(182)

وله في النيروز أيضاً (من الرجز)

- 1- قد جاءك النيروز ضعيفاً فهجم يوم فتي وهو شيخ في القدم
- 2- هزمه الدهر ولم يقبل هرم إذا رآه عسكر البرد انهزم
- 3- هزيمة البخل إذا فوك إيتسم مقلته الكأس وأذناه النغم
- 4- فهو لا هذين أعمى أو أصم فأنزل على أحكامه فقد حكم
- 5- أن يأتي الليل وفي العقل ثلم واعلم بأن الرّاح يوماً لم يُسم

(1) زحل: شرح مقامات الحريري (راحل).

(2) روعي: البيتة (روح)

(3) بجوت: شرح مقامات الحريري (لجاة) وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت مع الشطر الأول من

البيت الرابع بيتاً واحداً في التمثيل والمحاضرة / 124 هكذا

(ثم تراه آمناً سالماً قوموا انظروا كيف بجوت اللثام)

* منسوبة فيه (للحارزمي) وأظنه تصحيحاً

6- ترياقه إلا وهذا العقل سم

نثر النظم / 143-144

(183)

وقال من قصيدة يمدح بها الصاحب بن عباد (ويقال أنه خلع عليه كل ملابسه
وكذلك فعل الحاضرون من (مجزؤ الرجز)

يَدُّ تَراها أَبداً فوقَ يَدٍ وُثِحتَ فَمُ
ما خُلِقتَ بَنانها إلا لَسيفٍ أو قَلَمِ

غرر الخصائص 1/ 36

(184)

وله في مدح أحمد بن شبيب (أبو سعيد) قائد جيش السامانيين (من مجزوء
الرمل)

- 1- مرحباً بالقمر الطا لَع في جَنح الظلام
- 2- مرحباً بالأسد الور د وبِالجيش اللُّهَام
- 3- مرحباً بابن شبيب وأَياديهِ الجِسام
- 4- مرحباً بالرجل الأو حد من بين الأنام
- 5- مرحباً بالكاتب الجز ل وبِالحبر الهمام
- 6- قد نجونا منك يا بَيْنُ فودَّع بسلام

الرسائل / 187

قافية النون

(185)

وورد بخارى. وصحب أبا علي البلعمي. فلم يحمد صحبته. وفارقه وهجاء
بقوله: (من الخفيف)

1- إن ذا البلعمي والعين غينٌ وهو عارٌ على الزمان وشينٌ

2- إن يكن جاهلاً يخفي حنينٌ فهو الخُفُّ والزمان حنينٌ

البيتة 4 / 204

(186)

ومن شعره في النسيب والغزل (من الكامل)

1- مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى دمعان في الأجفان يزدحمان

2- ما أنصفتي الحادثات رميتني بمودعين وليس لي قلبان

البيتة 4 / 210، خاص الخاص / 191، الإعجاز والإيجاز / 198

(187)

وقال في مدح صاحب بن عباد (من الطويل)

1- وما خلقت كفاك إلا لأربع عوائد لم يخلق لها يدان

2- لتقيل أفواه وتنويع نائل وتغليب هندي، وأخذ عنان⁽¹⁾

غرز الخصائص 1 / 36، عيون التواريخ 12 / 1225

(1) البيت في عيون التواريخ (لتقيل أفواه، وتبذير نائل، وتغليب هندي وجر عنان) لتقيل: في غرر الخصائص (لشكره).

(188)

وقال في غلام (من البسيط)

- 1- مؤنث الدلّ إلا أنه ذكرٌ لمسلم وابن هاني فيه شرطان
محاضرات الأدباء 3/ 244

(189)

وقال (من الوافر)

- 1- له ثوب، وما في الثوب شيءٌ وجسم لا يساعده لسان
2- أقول له إذا ما جاء أهلاً تقدّم أي هذا الطيلسان
طراز المجالس/ 113

(190)

وله من قصيدة يرثي فيها أبا الحسن المحتسي (من البسيط)

- 1- وصاحب لي لو حلّت رزيتي بالطير ما هتفت يوماً على فنن
2- عاشرته عشرة لو أنّها وقعت بين الضحى والدجى سارا على سنن
3- حتى إذا نلت سؤلي من مواهبه وصادني بشباك الوصل والمنن
4- ثكلته بعد ما سارت محاسنه في العظم واللحم سير الماء في الغصن
5- يا دهر أكلتني حتى أبا الحسن لقد أمنت عليه غير مؤتمن
6- وصنت سهمك مني يوم قتلكه في مقتل القلب لا في مقتل البدن
7- جمعت ضدين من خرق ومن أدبٍ بطش الجهول ومكر العاقل الفطن

- 8- قد كنت أعجب لم أخرت من أجلي فالآن أدري لماذا كنت تذخري
9- ولم يكن في الوري ذا منظر حسن في نجر حسن إلا أبو حسن
البيتة 4 / 229 - 230

(191)

- ومن أخرى في أبي الحسين المزني حين نكب (من الكامل)
1- قتل المواجه والعجائب جمة شيخ المشايخ بل فتى الفتيان
2- لا تعجبوا من صيد صغو بازياً إن الأسود تصاد بالخرفان
3- قد غرقت أملاك حمير فارة وبعوضة قتلت بني كنعان
(3) البيتة 4 / 236 (1، 2) ثمار القلوب / 412 (1، 2) نسمة السحر / 2 319

(192)

- وله (من الخفيف)
1- عزّل الورد عن أثوف الندامى وأتتنا ولاية الریحان
2- فاقض حق الریحان بالراح فالريحان والراح في الوري أخوان
3- وأندب الورد وابكه بدموع من دموع الأقداح لا الأجفان
البيتة 4 / 239

(193)

وله (من البسيط)

- 1- لم لا أجائس دهري في قلبه لم لا أبادل إنساناً بإنسان
 - 2- لم لا أحاكي حبيباً في مقالته ما اليوم أول توديعي ولا الثاني
 - 3- لم لا أقارض ما قد قاله حسنٌ وصلاً بوصلي، وهجراناً بهجران
- تمام المتن/ 311

(194)

وله: (من الكامل)

- 1- صومان صوم نوى وصوم عبادةٍ فمتى يعيش فتى له صومان
- الرسائل/ 70

(195)

وله (من الكامل)

- 1- وعلى الخيول فوارس إحجامهم إقدامٌ غيرهم من الفرسانِ
 - 2- قومٌ إذا خرج المبارزُ نحوهم من أهلِهِ تبعوه بالأكفانِ
- التذكرة السعدية/ 224

(196)

وله: (مجارياً بيتاً لعبد الله بن المعتز) (من البسيط)

- 1- قولاً لمولاي في الدنيا وفي الدين الحمد لله حتى أنت تجفوني
- الرسائل/ 56

ومن قصيدة له (من البسيط)

- 1- مقابل بين أقوام والوية
 - 2- إذا أتى داره الأضياف أنشداهم
 - 3- يا ترجان الليالي عن معاذرها
 - 4- يا أبحث الناس عن شعر وعن كرم
 - 5- يا تاركي منشداً من ظلّ يحسّدي
 - 6- طلقت بعدك مدح الناس كلهم
 - 7- وكيف أمدحهم والمدح يفضحهم
 - 8- قوم تراهم غضاباً حين تنشداهم
 - 9- ورأيتني غيظهم في هجو غيرهم
 - 10- ما كل غانية هنّة كما زعموا
 - 11- فسوف يأتيك مني كل شاردة
 - 12- يقول من قرعت يوماً مسامعه
 - 13- الوشي من أصبهان كان مجتلباً
 - 14- قد قلت إذ قيل إسماعيل ممدوح
 - 15- الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً
- مرّدّد بين إيوان وديوان
(وأخوتي أسوة عندي وإخواني)
وحجة الزمن الباقي على الفاني
يا مُورث الطبع إحساناً بإحسان
(ليس الوقوف على الأطلال من شاني)⁽¹⁾
فإن أراجع فإني محصن زاني
إن المسبّب للجاني هو الجاني
لكنه يشتهي مدحاً بمجان⁽²⁾
وإنما الشعر معصوب بعثمان
وربما سبّ كشحان بكشحان
لها من الحسن والإحسان نسجان
قد عنّ حسان في تقرّظ غسان
فالיום يُهدى إليها من خراسان
له من الناس بخت غير وسنان
حتى يروا عنده آثار إحسان

البيتة 4 / 215

(1) المصراع لعبد الله بن عمار الرقي.

(2) أوله: عثمان يعلم أن المدح ذو ثمن.

(198)

وله (من مجزؤ الرجز)

- 1- سقاني الوجه الحسن
- 2- وصار عندي حسناً
- كأساً فخلّيت الرّسن
- قتل الحسين والحسن

البيتة 4 / 239

(199)

وله (من مجزؤ الكامل)

- 1- علق غداً بياغته
- 2- كالفرخ لم يخطب فصار أبوه من أختانه
- مبتاعه هوانه

التمثيل والمحاضرة / 264

(200)

وله (من الوافر)

- 1- أبو زيد فتى حرّ ولكن
- 2- أراه يشتري الغلمان سوداً
- لنا في أمر ذاك الحر ظنه
- عفاريتاً فيوهمني بأنه

البيتة 4 / 233

(201)

وله في هجاء رجل زعم أن أباه نصر بن أحمد الخبز أرزي. ولم يكن كذلك (من

المنسرح)

- 1- يقول نصر أبي، فقلت لهم
- 2- نعم ولكن أمه حملت
- عندي بهذا شهادة حسنة
- من بعد ما مات شيخه بسنة

البيتة 2 / 367

قافية الهاء

(202)

وله من أرجوزة (من الرجز)

- 1- وقينة أحسن من لقيهاها ثملي كتاب الحُسن مُقلتهاها
- 2- ونقطه وشكلة خذاها إذا اجتلاها اللحظ أنشدناها
- (واهاً لريا ثم واهاً واهاً)⁽¹⁾
- 3- ومنها في وصف الناقة
- 4- بجسرة قائدها براهها في السير بل سائقها رجلاها
- 5- قد كتب العتق على ذراها أي قلو ص ركب تراها

اليتيمة 4 / 213

(203)

وله من أخرى في مدح عضد الدولة (من الرجز)

- 1- يا عضد الدولة من ينهاها يا مهجة قالت لها أعلاها
- 2- من أسخط الدرهم أرضى الله ومن أذل المال صان الجاهها⁽²⁾

1-2 اليتيمة 4 / 233

(2) التمثيل والمحاضرة / 124، (2) أعيان الشيعة 45 / 216

(1) المصراع لأبي النجم العجلي.

(2) أذل: اليتيمة، التمثيل والمحاضرة/ أزال.

(204)

وله (من البسيط)

- 1- والشأن في ظنك الجميل بها وطالما أوجعت كتفي رجلاها
- 2- وانظر إلى كعبها تبصر به ندباً من طول ما خدش الكعنين قرطاهما

الكناية والتعريض / 11

(205)

وله في أبي علي بن سيمجور، وقد استعمل بهراة (من الوافر)

- 1- تهنأ بالأمير هراة أن قد علا عن أن يهنأ عن هراها
- 2- وكيف تهنأ الدنيا جميعاً بناحية من الدنيا احتواها

تاريخ العتي 1 / 127

قافية الياء

(206)

وله (من الهزج)

- 1- فإن سرك حرمان به تصبح مقليلاً⁽¹⁾
- 2- فكن ذا أدب جزل وكن مع ذاك نحويلاً

غرر الخصائص 98 / 1

(207)

وله في فائق (أحد قادة جيوش السامانيين) وقد قصد الأمير أبا علي بن
سيمجور لمحاربته (من الرجز)

- 1- قد خطب الصفع قفا الخصي فمرحباً بالخاطب الكفي
- 2- ورحل البار إلى الكركي فأبشروا بلحمه الطري

اليتيمة 4 / 233

(208)

وله: (من الخفيف):

- 1- رب ليل كطلعة الناصي ذي نجوم كحجة الشيعي

ثمار القلوب / 174

(1) في الأصل (إن سرك).

(209)

وله:

- 1- قد يبصر الخفي في الجلي كالغيث يلقى وهو في الحي
التمثيل والمحاضرة / 273

(210)

وله في أبي سعد دوست بن ملة الهروي (من الوافر)

- 1- أبو سعد له ثوب مليح ولكن حشو ذات الثوب خرية⁽¹⁾
2- فإن جاوزت كسوته إليه فليس وراء عباده قريه
الكناية والتعريض / 41 محاضرات الأدباء / 4 / 369

(211)

وله في هجاء الصاحب بن عباد (من السريع)

- 1- صاحبنا أحواله عالية لكنمنا غرقتة خالية
2- وإن عرفت السر من دائه لم تسأل الله سوى العافية
البيتية / 3 / 282

(212)

وله في أبي طاهر الكرمانلي الكاتب (من البسيط)

- والله ما فارقت كفي قفاه ولم ينسج أبو قلمون في نواحيه
ثمار القلوب / 247

(1) مليح: محاضرات الأدباء: نفيس، والشرط الثاني فيه (ولكن تحت ذاك الثوب غريه).

(213)

ما نسب له ولغيره
ومما نسب إليه (من البسيط)⁽¹⁾
وليس حيٌّ من الأحياء يغرفه
الا وهم شركاء في دمائهم
من ذي يمانٍ ولا بكرٍ ولا مُضرٍ
كما شارك أسيرٌ على جُزرٍ

(214)

ومما نسب إليه قوله⁽²⁾ (من الوافر)
1- كتبتُ على وجوههم سطوراً
غرائب حُبرهن دَمَ هتول⁽³⁾
2- يترجمها الأعادي للأعادي
ويقرؤها على الحي القليل⁽⁴⁾
3- فمالك غير جمجمة رسول⁽⁵⁾
ومالك غير صاحبها رسيل⁽⁵⁾
4- فصادرهم على الأرواح خرقُ
إذا ابتاعوا الحياة فلا يقلوا
(1- 4) محاضرات الأدباء 3 / 159- 161 (1- 3) غرر الخصائص / 216 وانظر أعلام النساء
3 / 199.

(1)

(2) استشهد الخوارزمي بهذين البيتين في رسالته إلى شيعة نيسابور/ 131 ولم ينسبها لنفسه أو لغيره.

(3) كتبت على: غرر الخصائص (كتبنا في وجوههم)، هتول، المغرر (همول).

(4) يترجمها: الغرر فترجمها.

(5) رسول: الغرر (كتاب) وهو تصحيف (كتاب)، رسيل: الغرر (رسول).

(215)

ومما نسب إليه⁽¹⁾ (من الكامل)

وإذا طلبت إلى كريم حاجةً فلقاؤه يكفيك والتسليمُ

وإذا رآك مسلماً عرف الذي حملته، فكأنه ملزومُ

شرح الواحدي 2/ 689، الوساطة بين المتنبي وخصومه/ 376

شرح البرقوقي 1/ 325

(1) استشهد الخوارزمي بهذين البيتين في شرح قول أبي الطيب:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطابُ

ونسبهما إلى أبي تمام. انظر شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للخوارزمي 110- أ ويبدو أن

المتأخرين قد وهموا في نسبتها إلى الخوارزمي. ولم أجدهما في ديوان أبي تمام.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أ- المطبوعات:

- * القرآن الكريم.
- * أبو الطيب المتنبي - دراسة في التاريخ الأدبي - لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني - الطبعة الأولى مطبعة وزارة الثقافة دمشق 1975.
- * أحسن ما سمعت: لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت 429). شرح وتصحيح محمد صادق عنبر، الطبعة الثانية، المطبعة الحمودية التجارية، القاهرة.
- * أحكام صنعة الكلام: لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي الأندلسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت 1966م.
- * أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين للصاحب بن عباد، وابن العميد) لأبي حيان علي بن محمد التوحيدي (400 هـ)، تحقيق محمد تاويت الطبخي. مطبوعات الجمع العلمي بدمشق المطبعة الهاشمية/ 1965.
- * الأدب في ظل بني بويه الدكتور محمود غناوي الزهيري، مطبعة الأمانة/ القاهرة 1949.
- * إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء وطبقات الأدباء لياقوت الحموي (626 هـ). اعتنى بنسخة وتحقيقه د. س. مرجليوث. الطبعة الثانية، مطبعة هندية بالموسكي بمصر 1923.
- * أسرار البلاغة: لعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)، تحقيق هـ. ريتز - استانبول - مطبعة وزارة المعارف 1954.

* الإصابة في تمييز الصحابة لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 252 هـ)، اوفسيت مكتبة المثنى ببغداد (عن الطبعة الأولى مطبعة السعادة، القاهرة 1328 هـ).

* الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي شرحه وطبعه اسكندر آصاف، الطبعة الأولى، المطبعة العمومية 1897.

* الاغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684 هـ) نشر وتحقيق سامي الدهان دمشق 1375 هـ - 1956 م.

* أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحاله، دمشق المطبعة الهاشمية 1379 هـ - 1959 م.

* أعيان الشيعة: محسن الأمين، الطبعة الرابعة، مطبعة الانصاف بيروت 1960.

* الاغانى لأبي الفرج الاصفهاني (ت 356 هـ)، الطبعة الثانية، بيروت، دار الثقافة 1957

* اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، من أجل التأليف العربية في المطابع الشرقية والغربية أدور فنديك، تصحيح محمد علي البيلالوى القاهرة 1897 م.

* الأمثال العربية القديمة (مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد)، تأليف المستشرق الألماني رودلف زهايم، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة 1391 هـ - 1971 م.

* إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (646)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى - مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1369 هـ - 1950 م.

* الانساب: لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني

- (ت 562هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية 1385هـ - 1966م.
- * الانساب المتفقة لأبي الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني (ت 507هـ)، طبعة بريل 1865.
- * أنوار الربيع في أنواع البديع لعلي صدر الدين بن معصوم المدني (ت 1120هـ)، تحقيق شاعر هادي شكر مطبعة النعمان - النجف - 1388هـ - 1968.
- * البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام هارون - القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1367هـ - 1948.
- * بديع الزمان، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الدكتور مصطفى الشكعة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1959
- * بديعيات الزمان بحث تاريخي تحليلي في مقامات الهمذاني - فكتور إل.ك. المطبعة الكاثوليكية، بيروت/ 1960
- * برد الأكباد في الأعداد لأبي منصور الثعالبي ضمن مجموعة كتاب (خمس رسائل)، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، النجف.
- * بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي (ت 911هـ) الطبعة الأولى مطبعة دار السعادة بجوار مصر، 1326.
- * بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: لمحمد شكري الألوسي البغدادي عني بشرحه وتصحيحه محمد بهجة الأثري، الطبعة الثالثة مطابع دار الكتاب العربي بمصر 1342هـ.
- * بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي (ت 463هـ)، تحقيق محمد مرسى الخولي ومراجعة الدكتور عبد القادر القط الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار الجيل للطباعة - مصر.

- * تاج التراجم في طبقات الحنفية للشيخ أبي العدل زين الدين قاسم ابن قاطلوبغا (ت 879هـ)، مطبعة العاني بغداد 1962م.
- * تاج العروس من جواهر القاموس (شرح القاموس) لمحب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، (ت 1205هـ)، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، مصر 1306 منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.
- * تاريخ الأدب العربي: لكارل بروكلمان نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر 1968.
- * تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي لحسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة الاعتماد، مصر.
- * تاريخ بغداد أو مدينة السلام لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463) مكتبة الخالجي- القاهرة- 1931.
- * تاريخ العتي لأبي نصر محمد بن عبد الجبار العتي (ت 433هـ)، طبع على هامش شرح المنيني المسمى (الفتح الوهي على تاريخ أبي نصر العتي للشيخ المنيني)، مطبعة جمعية المعارف- مصر.
- * تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: لحسن الصدر (ت 1312)، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة.
- * تنمة اليتيمة لأبي منصور الثعالبي عني بنشره عباس إقبال طهران مطبعة فردين 1353هـ.
- * تحفة الناصرية في الفنون الأدبية، أبو القاسم الرشتي الأصفهاني، طهران 1278.
- * التذكرة السعدية في الأشعار العربية لمحمد عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي (من رجال القرن الثامن الهجري) تحقيق عبد الله الجبوري، مطابع النعمان- النجف 1972م- 1391هـ.

- * تراجم الأعيان من أبناء الزمان لأبي الضياء حسن بن محمد البوريني (ت1024هـ) تحقيق صلاح الدين المنجد- المجمع العلمي- دمشق 1959.
- * التفسير الكبير للإمام فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت606هـ) الطبعة الأولى- المطبعة البهية المصرية 1357هـ، 1938م.
- * تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب لكمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد المعروف بأبن الفوطي الشيباني (ت 723هـ)، تحقيق مصطفى جواد المطبعة الهاشمية، دمشق 1962.
- * تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لخليل بن أيك الصفدي (797-؟) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي مطبعة المدني، مصر 1389هـ- 1969م.
- * التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو القاهرة- دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي 1381هـ- 1961.
- * الثعالبي ناقدًا وأديبًا: محمود عبد الله الجادر الطبعة الأولى دار الرسالة للطباعة- بغداد 1976م.
- * ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار نهضة مصر للطبع والنشر مطبعة المدني- القاهرة 1384هـ- 1965.
- * جمع الجواهر في الملح والنوادر لأبي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيراوني وهو الذي طبع باسم (ذيل زهر الآداب) تحقيق علي محمد البجاوي الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي 1372هـ- 1959م.
- * الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر ابن أبي الوفاء القرشي (ت775هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد 1332هـ.

- * حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح لأحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري اليمني الشرواني (ت 1253هـ)، المطبعة اليمنية، مصر 1320.
- * خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي قدم له حسن الأمين منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1966.
- * خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد أمين بن فضل الله المحي الدمشقي (ت 1061هـ)، المطبعة الوهية - القاهرة.
- * دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة، مراجعة وزارة المعارف العمومية، مصر، 1933.
- * دائرة معارف البستاني، لبطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت 1882م.
- * ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى (بالتبيان في شرح الديوان) طبعه وصححه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلي الطبعة الثانية، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر 1956.
- * ديوان أبي الطيب المتنبي وفي أثناء منته شرح العلامة الواحدي تأليف فريدريخ ديتريشي، طبع في مدينة برلين 1891م.
- * ديوان البحري الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (ت 284هـ) تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة دار المعارف 1964م.
- * ديوان بديع الزمان الهمذاني - مطبعة الموسوعات بمصر 1903م.
- * ديوان الخنساء تماضر بنت عمرو. الطبعة الخامسة، بيروت دار الأندلس 1968.
- * ديوان الصاحب بن عباد: تحقيق محمد حسين آل ياسين. الطبعة الأولى. مطبعة المعارف ببغداد 1965.
- * ديوان علي بن الجهم تحقيق خليل مردم بيروت - لجنة التراث العربي.

- * ديوان عنتر بن شداد تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي - بيروت المكتب الإسلامي.
- * ديوان قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد، القاهرة - دار العروبة 1962.
- * ديوان كشاجم تحقيق خيرية محفوظ بغداد، مطبعة دار الجمهورية 1970.
- * ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، مكتبة القدس القاهرة 1352هـ.
- * رسائل أبي بكر الخوارزمي، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1297هـ.
- * رسائل بديع الزمان الهمذاني (طبع على هامش خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي)، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر.
- * رسائل الثعالي أو نثر النظم وحل العقد لأبي منصور الثعالي قدم له على الخاقاني - مكتبة دار البيان في بغداد ودار صعب في بيروت.
- * روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات محمد باقر الموسوي الميرزا الخوانساري الاصبهاني (ت 1313) مكتبة إسماعيليان 1390هـ.
- * ريجانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت 1069هـ). تحقيق عبد الفتاح محمد الخلو مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الأولى 1386هـ - 1967م.
- * زهر الآداب وثمر الألباب: لأبي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453هـ) تحقيق محمد علي البجاوي الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه 1372هـ - 1953م.
- * سحر البلاغة وسر البراعة لأبي منصور الثعالي وقف على طبعه أحمد عبيد، الطبعة الأولى، مطبعة الترقى بدمشق 1250هـ.
- * سمط اللآلي في شرح آمالي القالي لأبي عبد الله الاوني البكري الأندلسي

(ت 487 هـ) تحقيق عبد العزيز الميمني القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر
354هـ - 1936م.

* سيرة جلال الدين منكبرتي لمحمد بن أحمد النسوي (ت 628هـ) نشر وتحقيق حافظ
أحمد حمدي - دار الفكر العربي مطبعة الاعتماد، مصر 1953.

* شذرات الذهب في اخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي
(ت 1089هـ) مكتبة القدسي بجوار الأزهر/ مصر 1350هـ.

* شرح درة الغواص في أوهام الخواص لأحمد شهاب الدين الخفاجي، الطبعة الأولى،
مطبعة الجوائب، قسطنطينية 1299هـ.

* شرح ديوان المتنبي، لعبد الرحمن البرقوقي الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت
1938.

* شرح المصنوع به على غير أهله، لعبيد الله بن عبد الكافي، مكتبة دار البيان، بغداد،
دار صعب، بيروت.

* شرح مقامات الحريري البصري لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي
(ت 620 هـ)، اشرف على نشره وتصحيحه، محمد عبد المنعم الخفاجي، المطبعة
المنيرية بالأزهر، القاهرة 1953م.

* شرح نهج البلاغة لأبن أبي حديد (ت 655 هـ) تحقيق الشيخ حسن تميم بإشراف
لجنة إحياء الذخائر دار مكتبة الحياة بيروت 1963.

* شرح المنيني المسمى (الفتح الوهي على تاريخ أبي نصر العتي للشيخ المنيني أحمد بن
علي بن صالح الطرابلسي (ت 1172هـ) مطبعة جمعية المعارف، مصر.

* شروح سقط الزند (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1364هـ - 1945م، الناشر،
الدار القومية للطباعة والنشر بإشراف الدكتور طه حسين وتحقيق الأساتذة

مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد.

* صبح الأعشى في صناعة الانشاء، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ)، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركاه القاهرة .

* الصبح المنى عن حيثية المتنيء يوسف البديعي الدمشقي (ت 1073 هـ)، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبد زيادة عبده، مطبعة دار المعارف، 1963.

* طراز المجالس لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت 1069هـ) المطبعة الوهبية المصرية- مصر 1284هـ.

* عدد من بلغاء إيران في لغة العرب ونخب من آثارهم. دكتور أحمد قاسم تويركاني طهران 1336هـ.

* العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك نقله إلى العربية وحققه عبد الحليم النجار، القاهرة، مكتبة الخانجي 1370 هـ- 1951م.

* عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 271هـ) القاهرة- دار الكتب المصرية 1348هـ- 1930م.

* غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة لأبي اسحق برهان الدين بن يحيى بن علي الكنتي المعروف بالوطواط (ت 718هـ)، القاهرة المطبعة الأدبية 1318.

* فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري (ت 487هـ) حققه وقدم له د. عبد المجيد عابدين والدكتور إحسان عباس الطبعة الأولى 1958م.

* فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي مطبعة الاستقامة بالقاهرة، 1378هـ- 1959م.

* الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها للدكتور أحمد محمد الحوفي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة 1961م.

* الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (ت 360 هـ) دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1386 هـ - 1967م.

* كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ) الطبعة الثانية دار الكتاب، بيروت 1961.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد كاتب جلي (ت 1067 هـ)، طبعة وأونست، المكتبة الإسلامية، والمكتبة الجعفرية، المطبعة الإسلامية طهران، 1387 هـ - 1947م.

* كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان لإبراهيم الأحمد الطرابلسي (ت 1891م) المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

* الكناية والتعريض لأبي منصور الثعالبي، قدم له علي الخاقاني، مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت.

* لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، (ت هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر/ بيروت 1956م، 1375 هـ.

* اللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين ابن الأثير الجزري (ت 360 هـ) مكتبة المثني، بغداد.

* المتشابه لأبي منصور الثعالبي تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، نشر في مجلة كلية الآداب التي تصدرها كلية الآداب جامعة بغداد، العدد العاشر سنة 1967م.

* مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني

- (ت 518هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية، مطبعة السعادة بمصر 1379هـ - 1959م.
- * محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم حسين بن محمد بن الراغب الأصبهاني (ت 502هـ) منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت 1961م.
- * المخلاة لبهاء الدين محمد بن الحسين العاملي (ت 953هـ) القاهرة مكتبة مصطفى البابي الحلبي - 1975م.
- * مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لأبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي اليميني المكي (ت 768هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية 1290هـ - 1970م.
- * مصارع العشاق: لأبي محمد جعفر بن أحمد أحمد السراج (ت 500 هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، وأحمد مرسى شالي. القاهرة مكتبة الأنجلو 1956م.
- * مصفى المقال في مصنفى علم الرجال، أغا بزرك محمد محسن الطهراني، عني بتصحيحه ونشره ابن المؤلف أحمد نروى، الطبعة الأولى، إيران 1378هـ - 1959م.
- * مطالع البدور في منازل السرور. لعلاء الدين بن عبد الله الغزولي (ت 815 هـ)، القاهرة مطبعة إدارة الوطن، 1299هـ.
- * معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم قديماً وحديثاً (تتمة كتاب الفهرست للشيخ أبي جعفر الطوسي لرشيد الدين ابن جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب السروي (ت 588هـ) عني بنشره عباس إقبال طهران، مطبعة فردين 1353هـ.
- * معجم المؤلفين (تراجم مصنفى الكتب العربية) لعمر رضا كحاله، مطبعة الترقى، دمشق 1957 - 1961.
- * معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي دار صادر للطباعة والنشر دار بيروت للطباعة والنشر، 1374هـ، 1955م.

- * معجم الشعراء: لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت 384 هـ) مكتبة القدسي - القاهرة.
- * معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس، مطبعة سركيس - القاهرة 1928.
- * مفيد العلوم ومبيد الهموم المنسوب (لجمال الدين أبي بكر الخوارزمي)، طبعة دمشق، دار التقدم (1906)، وطبعة القاهرة، المطبعة الشرقية، 1909م.
- * المقابسات: لأبي حيان التوحيدي تحقيق وشرح حسن السندويي الطبعة الأولى، المطبعة الرحمانية بمصر/ 1929م.
- * مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (ت 356 هـ) شرح وتحقيق أحمد صقر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية 1949.
- * المكارم والمفاخر المنسوب لأبي بكر الخوارزمي نشر عزت العطار القاهرة، 1354هـ.
- * المناقب للحافظ أبي المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد البكري المكي الحنفي المعروف بأخطب خوارزم (ت 568هـ)، قدم له محمد رضا الموسى الخرساني، منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها في النجف 1965.
- * المتحل لأبي منصور الثعالبي تحقيق أحمد أبو علي المطبعة التجارية - الإسكندرية 1901م.
- * المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء لأبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني الثقفى (ت 482هـ) مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت.
- * من غاب عنه المطرب، لأبي منصور الثعالبي، ضمن مجموعة التحفة البهية الرسالة الثامنة عشرة، مطبعة الجوائب القسطنطينية 1302هـ.
- * النثر الفني في القرن الرابع: الدكتور زكي مبارك الطبعة الثانية المكتبة التجارية - القاهرة 1975م.
- * نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد

الأنباري (ت 577هـ)، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية - مكتبة الأندلس، بغداد، 1970م.

* نزهة المجلس ومنية الأديب الأنيس: لعباس بن علي بن نور الدين الحسيني الموسوي المكي (ت 1180هـ) قدم له محمد مهدي الخرسان، منشورات المطبعة الحيدرية النجف (1387).

* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة لأبي علي المحسن بن علي التنوخي (ت 384) تحقيق عبود الشالجي مطابع، دار صادر، بيروت 1973م.

* نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 73هـ) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركاه، القاهرة.

* هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي، مطبعة وكالة المعارف استانبول، أعادت طبعه بالافست مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي بطهران، الطبعة الثالثة 1378هـ - 1947م.

* الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي باعتناء هلموت ريتز، الطبعة الثانية فيسر بادن فرانز ستاينر 1962.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن أحمد بن أبي بكر ابن خلكان (ت 681) تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الثقافة، بيروت.

* الوساطة بين المتني وخصومه، لأبي الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني (ت 390هـ) تحقيق أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية 1951م.

* يتيمة الدهر في محاسن، أهل العصر لأبي منصور الثعالبي تحقيق محي الدين عبد الصمد، القاهرة مكتبة الحسين التجارية والمكتبة التجارية الكبرى 1956.

ب- المخطوطات والرسائل الجامعية

* الأدب في إقليم خوارزم- هند حسين موسى/ رسالة ماجستير/ جامعة بغداد 1973.

* الأمثال المولده، لأبي بكر الخوارزمي، مخطوطة في مكتبة فيض الله استانبول ضمن مجموع تحت رقم 2133.

* تحفة الوزراء/ المنسوب لأبي منصور الثعالبي، مصور عن نسخة بخط يوسف بن محمد الوكيل الميلوي كتبت عام 1112.

* الحصون المنيعه في طبقات الشيعة، للعالملي، مخطوط في مكتبة آل كاشف الغطاء في النجف.

* ديوان ابن نباته السعدي، عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس 1974م.

* رسائل الخوارزمي: نسخة مصورة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد، عن مخطوطة في مكتبة مدرسة الحاج حسين بك في الموصل.

* شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لأبي بكر الخوارزمي مخطوط في مكتبة Chester Beitty، تحت رقم 5179 - VLL.

* عيون التواريخ: لمحمد بن شاعر الكتي (ت 764 هـ)، مصورة موجودة في مكتبة الحكيم العامة في النجف (عن نسخة المكتبة الظاهرية).

* مباحج الفكر ومناهج العبر، لبرهان لابن إبراهيم بن شرف الدين يحيى الوراق، مصورة موجودة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد عن مخطوطة جامع فائق والجامع الجديد المرقمة (918، 1010، 4116).

* مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي، مخطوط في مكتبة عاطف أفندي باستانبول.

* نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر، ليوسف بن محمد الصنعاني مصورة في مكتبة الحكيم العامة في النجف

A B S T R A C T

Abu – Bakr AL- Khawarazmi – His Life and Works

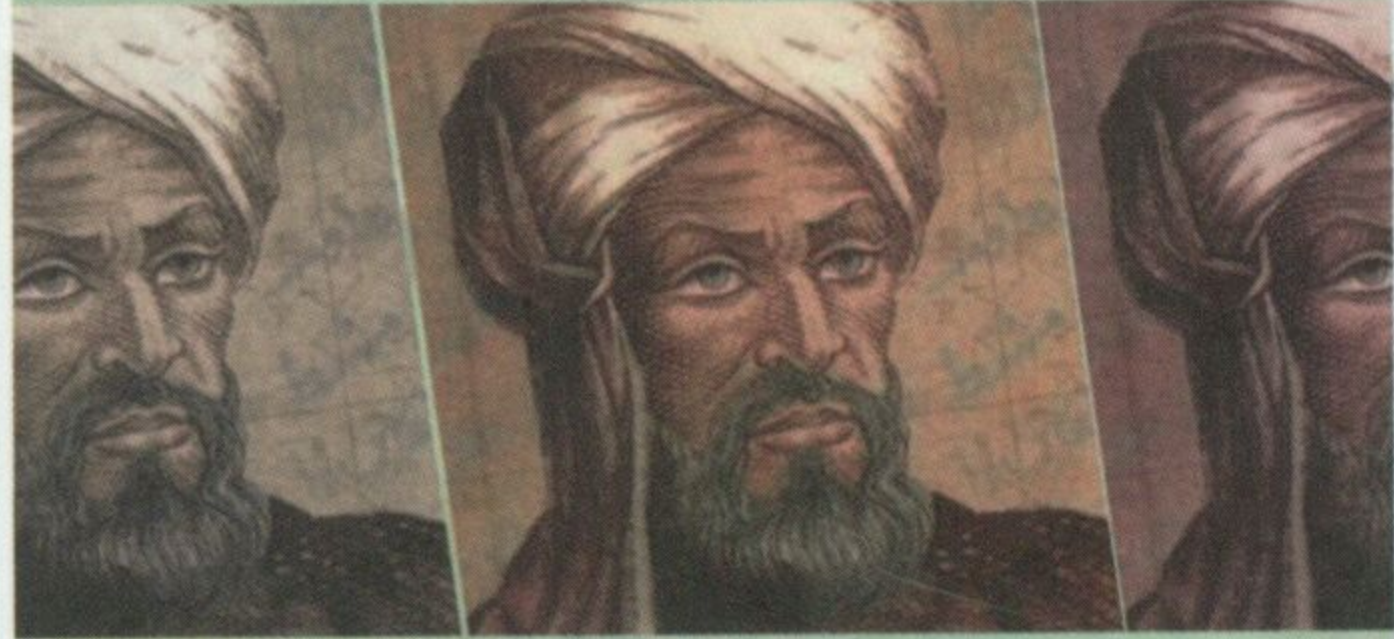
This is a dissertation on Abu-Bakr Al-Khawarazmi, one of the famous writers of the 4th Century A.H. 10th Century A.D. Who in addition to prose writings, was able to add a poetic talent worthy of consideration,

Al-Khawarazmi was known for his interest in language, proverbs genealogy and histories of ancients Battles. He compiled a book of proverbs containing those devised in his age. He should not be forgotten since he was among the early scholars who showed a special interest commentary that left its traces on later commentatos on Al-mutanabbi

The dissertation contains an introduction and four chapters. The first chapter is a biography with details on his social and literary connections. The second chapter deals with the character of Al-Khawarazmi especially his social, political and religious belifs. Here is also a discussion of his cultural sources and works, some of which were found to be not his own, while some others were found to be his. The third chapter is a study of Al- Khawarazmi poetry, showing its technical qualities and sources of influence. The forth chapter is a study of al – khawarazmi's unique position in prose, especially his epistles which show certain characteristics of style. The Appendix is an edited collection of Al- Khawarazmi poetry, thus providing the only reference to that poetry since the Diwan cannot be traced. The conclusion is a resume of the main findings in the study.

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه



محمود صالح الضمور

دار دجلة

ناشرون وموزعون



عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: +96264647550 خلوي: +962795265767

ص ب: 712773 عمان 11171 الأردن

E-mail: dardjlah@yahoo.com

www.dardjlah.com



9 789957 715014

Bibliotheca Alexandrina



1503944

nwf.com

designed by
M. Khudair